المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع البلاغة والنقد

أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم

و

أسرارها البلاغية

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١٧٨٠

بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير
في البلاغة والنقد

إعداد الطالب
يوسف عبد الله الأنصاري

١٧٨

إشراف الأستاذ الدكتور
صبّاح عبيد دراز

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الطالب : يوسف عبدالله الأنصاري
التخصـــص : البلاغة والنقد
الدرجـــــة : ماجستير

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : « أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية »

* اشتمل البحث على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع .

وفي المقدمة أشار الباحث إلى أن البلاغة القرآنية لاتزال بكراً في حاجة إلى جهود الباحثين للكشف عن خصائص نظم القرآن وأساليبه البليغة ، وعن قلة الدراسات التي تناولت البلاغة القرآنية ، ثم تطرق إلى أن أساليب الأمر والنهي لها علاقة مباشرة للنفس الانسانية وكيف أن القرآن قد اتخذهما لتثبيت منهجه في الدعوة إلى الله وإلى طريقه المستقيم .

وكان الباب الأول عن أساليب الأمر تحدث فيه عن دلالة الأمر في اللغة والاصطلاح ، وعن المعاني البلاغية التي يخرج إليها الأمر بمعونة السياق والمقام ، وكيف أفاد الأمر هذه المعاني البلاغية .

وفي الفصل الأول منه كان الحديث عن جهود العلماء وبخاصة اللغويين والنحاة والمفسرين والأصوليين والبلاغيين .

وكان الفصل الثاني دراسة تطبيقية لأساليب الأمر البلاغية في القرآن .

أما الباب الثاني فكان عن أساليب النهي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية وقد سار فيه الباحث على نفس المنهج الذي سلكه في الباب الأول . وفي الباب الثالث تحدث عن النسق في توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية كشف فيه عن أسرار بلاغية عالية لترتيب الأوامر والنواهي في البيان القرآني .

ثم الخاتمة : تناول فيها أبرز النتائج التي توصل إليها من أهمها :

١ - أن الأوامر والنواهي في القرآن الكريم نوعان :

أ - أوامر ونواه حقيقيه تكليفيه تشريعية والمطلوب بها طلب الفعل أو تركه على جهة الوجوب وتأتلف بها معان بلاغية تعين على تصوير المراد .

ب - أوامر ونواه ليس المقصود منها الأحكام الشرعية بل المراد منها المعاني البلاغية التي تستفاد من السياق منها النصح والارشاد والاباحة والتهديد والتعجيز والاهانة وغير ذلك .

٢ - تبين من الدراسة أن الأوامر والنواهي في القرآن تخضع في ترتيبها إلى توال متجانس « أمر وأمر » « نهي ونهي » وتوال غير متجانس « أمر ونهي » وهو كثير « نهي وأمر » وهو قليل في القرآن ، وكل ذلك لأسرار بلاغية كشفت الدراسة عن بعض اسرارها في مظانها من هذا البحث .

عميد الكلية	المشرف	اسم الطالب

المقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن نبراساً يهتدى بهديه ونوراً يستضاء به ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، خير من نطق بالضاد وأفصح من تكلم بلسان صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ومن أهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعـــــد ..

فبلاغة القرآن لا تزال بكرا في حاجة إلى جهود الباحثين للكشف عن خصائص نظم القرآن وأساليبه البليغة .

ومع أن علماءنا السابقين قد أفاضوا في الحديث عن القرآن الكريم تفسيرا وتأويـــلا وبلاغة ظل القرآن نبعا لا ينضب وكنزا لا يفنى .

ومع ذلك مازالت بلاغته في حاجة إلى جهود العلماء والباحثين جمعا بين النظائر والمتشابهات وغوصا في أسرار الإساليب للكشف ما وسع الجهد عن هذا الجمال القرآني المعجز .

وقد يسر الله لي أن أحظى بشرف خدمة كتاب الله ، وأن أرتبط به من خلال هذا الموضوع المبارك وهو « أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارهاالبلاغيه »

ولاشك أن الأمر والنهي في القرآن الكريم من أساليب الاداء في اللغة ، إتخذهما القرآن مع غيرهما من الأساليب لتثبيت منهجه في الدعوة إلى الله ، وإلى

طريقه المستقيم حثا على الخير وترغيبا فيه ، وزجرا عن الشر وتنفيرا منه ، واتجاها للخالق الواحد الأحد جل وعلا .

وهي دعوة جاءت على مدى الأحقاب والأزمان يحكيها القرآن على ألسنة الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وكيف تتلقاها القلوب المنكره .

وهذه الأساليب لها علاقتها المباشره بالنفس الإنسانيه اقتضتها مواقف الدعوه رغبا أورهبا ، إهانة أو تكريما إلى غير ذلك من الدواعي والأغراض .

ولذلك نجد هذه الحياة القوية تمثلها أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم في عمر الدعوه المديد كما جاءت على ألسنة الرسل عليهم السلام .

وقد اضطرتني طبيعة هذا البحث أن أطوف بجوانب خصبه من تراثنا الخالد عند علماء اللغة والنحو والمفسرين والأصوليين والبلاغيين وعلماء الإعجاز القرآني على مدى العصور المتطاوله .

وقد وجدت هذا الجهد العظيم الذي بذله علماؤنا رحمهم الله فكنت أقابل فكرة بفكرة ورأيا برأي مرجحا أو مضيفا إليه لأصل بالبحث إلى غايته المرجوه .

ويشتمل البحث بعد هذه المقدمه على ثلاثة أبواب :-

١- الباب الأول : أساليب الأمر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيه .

وقد اشتمل هذا الباب على فصلين :-

أ- الفصل الأول : مناهج العلماء فى معالجة أساليب الأمر .

ويحتوي هذا الفصل على المباحث التاليه :

(١) مبحث اللغويين والنحاة

(٢) مبحث المفسريـــــــن

(٣) مبحث الأصولييـــــــن

(٤) مبحث البلاغيين وعلماء الاعجاز القرآني .

ب - الفصل الثاني : أساليب الأمرفي القرآن الكريم وأسرارها البلاغيه .

٢- الباب الثاني : أساليب النهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيه .

وقد اشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول :-

أ - الفصل الأول : مناهج العلماء في معالجة أساليب النهي .

ويحتوي على المباحث التالية : -

(١) مبحث اللغويين

(٢) مبحث المفسرين

(٣) مبحث الأصوليين

(٤) مبحث البلاغيين وعلماء الإعجاز القرآني .

ب - الفصل الثاني : أساليب النهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيه .

ج -الفصل الثالث : بين النفي والنهي في القرآن الكريم .

٣- الباب الثالث : النسق في توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيه .

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول : -

أ - الفصل الأول : - توالي أساليب الأمر في القرآن الكريم وبلاغة ذلك .

ب - الفصل الثاني :- توالي أساليب النهي في القرآن الكريم وسره البلاغي

ج - الفصل الثالث :- توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغيه .

ثم الخاتمه .

وبعد :

فأرجو أن يكون عملي خالصا لوجه الله تعالى ، محققا للنية الصادقة في خدمة كتاب الله الكريم .

وأرجو من الله تعالى أن يوفق ويعين ويجنبنا الزلل بفضله ورحمته .

وفي هذا المقام أضرع الى الله تعالى أن يجزي عني والدّي الكريمين خير الجزاء وأن يجزل لهما المثوبه وأن يبارك لهما في عمريهما فقد ربياني على حب القرآن فأحسنا رعايتي ، ووجدت فيهما الأسوة المباركة .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى جامعتي الفتية جامعة أم القرى وكليتي الحبيبه كلية اللغة العربية وقسم الدراسات العليا بها .

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان الى أستاذي الدكتور صبّاح عبيد دراز الذي أشرف على هذه الرسالة ورعاها منذ أن كانت فكرة حتى خرجت على هذه الصورة ، ولم يبخل عليّ بتوجيهاته السديده وآرائه النيرة التي أضاءت لي الطريق فجزاه الله عني خير الجزاء وأسبغ عليه من نعمه ومّد له في عمره .

كما أخص بالشكر أستاذي الدكتور عبد العظيم المطعني وأستاذي الدكتور محمد حسنين أبو موسى حيث غمراني بكرمهما ولم يبخلا عليّ بنصح أو توجيه فجزاهما الله عني خيرالجزاء وبارك لهما في علمهما وأسبغ عليهما نعمه سبحانه .

كما أتقدم بوافر الشكر إلى أساتذتي في كلية اللغة العربية وزملا ئي وكل من مد لي يد العون والمساعدة ، وبالله التوفيق وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

البـــاب الأول

أساليب الأمر في القرآن الكريم
و
أسرارهـــا البلاغيـــــة

المدخـــــل

أسـلوب الأمـر

الأمر بين الدلالة القرآنية واللغوية :-

لمادة أمر في القرآن الكريم دلالات عديدة ، منها الأمر واحد الأوامر بمعنى طلب الفعل وهو ضد النهي ، ومنه قوله تعالى : { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ } (١) وقوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً } (٢)

والأمر بمعنى الشأن واحد الأمور ، ومنه قوله تعالى : {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ } (٣) .

وقوله تعالى { قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ } (٤) وفسر الزمخشري الشأن بالطلب والقصد يقال : شأنت شأنه أي قصدت قصده . (٥)

ويقال للإبداع أمر نحو { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } (٦) ويختص ذلك بالله دون الخلائق . (٧)

والإِمْرُ : العجب ، أو العظيم المنكر قال تعالى { أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً } (٨) .

ومن الأمر الائتمار بمعنى المشاورة ، إئتمر القوم إذا تشاوروا و منه قوله تعالى : { قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ...} (٩)

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٤٤ "

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٦٧ " .

(٣) سورة هود ، الآية " ١٢٣ " .

(٤) سورة آل عمران ، الآية " ١٥٤ " .

(٥) الكشاف ١ / ٢٦٩ .

(٦) سورة الأعراف ، الآية " ٥٤ " .

(٧) مفردات الراغب ص ٢٤ .

(٨) سورة الكهف ، الآية " ٧١ " .

(٩) سورة القصص ، الآية " ٢٠ " .

وقد غلبت الدلالتان الأمر بمعنى الشأن ، وبمعنى الطلب ، فهما أكثر الدلالات وروداً في القرآن الكريم . (١)

أما في اللغة : فقد زادت اللغة على ذلك دلالات يسيرة محدودة منها :-

الأمر النماء والبركة ، والأمر بمعنى المعلم والعلامة ، قال الأصمعي : الأمار والأمارة : الوقت والعلامة . (٢)

الأمر عند البلاغيين :-

طلب فعل طلباً جازماً على جهة الاستعلاء . (٣)

ومعنى الاستعلاء " عد الآمر نفسه عالياً سواء كان عالياً في نفسه أم لا " (٤)

وأشار كل من البهاء السبكي في عروس الأفراح (٥) والدسوقي (٦) في

---

(١) راجع مفردات الراغب ص ٢٤ - ٢٥ ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٤٩/١ - ٥٢ وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي ٣٩/٢ ومابعدها . وذكر الفيروز آبادي لمادة أمر في القرآن ثمانية عشر معنى يمكن تداخل بعضها في بعض انظر بصائر ذوي التمييز ٤٠/٢ ومابعدها .

(٢) انظر مقاييس اللغة ١٣٧/١ - ١٣٩ والصحاح ٥٨٠/٢ - ٥٨٢ واللسان ١٢٥/١ - ١٣٠ .

(٣) انظر شروح التلخيص ٣٠٨/٢ والأساليب الإنشائية للدكتور صباح دراز ص ١٥ وأساليب بلاغية للدكتور أحمد مطلوب ص ١١٠ .

(٤) مختصر السعد - ضمن شروح التلخيص ٣١٢/٢ .

(٥) سترد ترجمته في موضع لاحق .

(٦) هو محمد بن أحمد بن عرفه الدسوقي المالكي المتوفي سنة ١٢٣٠هـ وله مشاركات في الفقه والكلام والمنطق من أهل دسوق بمصر ، تعلم وأقام وتوفي بالقاهرة من مؤلفاته حاشية على مغني اللبيب ، وحاشية على شرح سعد الدين التفتازاني انظر ترجمته الأعلام ١٧/٦ ومعجم المؤلفين ٢٩٢/٨ .

حاشيته على مختصر السعد (١) إلى إختلاف العلماء في الاستعلاء (٢) فمنهم من يشترط الاستعلاء ومنهم لا يشترطه . (٣)

ويرى الرازي (٤) عدم التقيد بالاستعلاء والعلو واستدل بقول فرعون لقومه { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } (٥) ودفع السبكي هذا القول قائلاً " ولا حجة فيه إما لكونه مشتقاً من الأمر بمعنى المشورة ، وإما لأن فرعون إذ ذاك كان مستعلياً عليهم " (٦) ونرى الدسوقي لايشترط الاستعلاء في الأمر حيث يقول " والصحيح أن الاستعلاء ليس بشرط في الأمر " (٧)

أما دلالة الأمر على الوجوب أو الندب أو الفورأو التراخي أو الاستمرار فبمعونة القرائن ودلالة السياق والمقام ، وقد كان هذا موضع خلاف بين الأصوليين . (٨)

صيغ الأمر :-

للأمر أربع صيغ هي :-

١ - فعل الأمر نحو قوله تعالى {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ } (٩)

---

(١) هو سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني "٧١٢ - ٧٩٣هـ" عالم مشارك في النحو والصرف والمعاني والبيان والفقه ، من مؤلفاته شرح تلخيص المفتاح ، حاشية على الكشاف ، التهذيب في المنطق انظر ترجمته الأعلام ٢١٩/٧ ومعجم المؤلفين ٣٢٨/١٢ .

(٢) انظر عروس الأفراح ٣١٠/٢ وحاشية الدسوقي ٣٠٩/٢ .

(٣) راجع في الاستعلاء عرو س الأفراح ٣١٠/٢ والإبهاج في شرح المنهاج ٦/٢ والمحصول للرازي جـ١ ق٢ ص ٤٥ .

(٤) انظر المحصول جـ١ ق ٢ ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية " ١١٠ " .

(٦) عروس الأفراح ٣١٠/٢ .

(٧) حاشية الدسوقي ٣٠٩/٢ .

(٨) راجع كتب أصول الفقه كالمحصول والإبهاج والإحكام في أصول الأحكام والمعتمد في أصول الفقه والموافقات وغيرها .

(٩) سورة البقرة ، الآية "٢١" .

٢ - المضارع المقرون بلام الأمر نحو قوله تعالى { وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً } (١)

٣ - اسم فعل الأمر نحو قوله تعالى : { عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لايَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } (٢)

٤ - المصدر النائب عن فعل الأمر نحو قوله تعالى { وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } (٣) وقوله تعال { وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } (٤)

المعاني البلاغية لصيغة الأمر :-

تخرج صيغة الأمر عن معناها الأصلي فتفيد معاني أخرى تفهم من السياق بمعونة القرائن ومقتضيات الأحوال ، " وفي القرآن الكريم تجد النظم كله بجرسه وألفاظه وتراكيبه يشارك في تصعيد المعنى وتجليته وبث الحياة فيه .

وقد أوصل هذه المعاني بعض شراح التلخيص إلى خمسة وعشرين معنى(٥).

ويمكن تداخل هذه المعاني ، وننبه هنا إلى أن النص على معنى بلاغي واحد في الأسلوب - عند العلماء - لايعني أكثر من وضوح هذا المعنى وشهرته ، وإلا فإن أي أسلوب إنشائي سواء كان أمراً أم غيره يفيد مجموعة من المعاني المتقاربة المتداخلة يثيرها الأسلوب في النفس المتلقية ، وهي معان شعورية أو نفسية ،

---

(١) سورة النساء . الآية " ٩ " .
(٢) سورة المائدة ، الآية " ١٠٥ " .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٥ " .
(٤) سورة الإسراء ، الآية " ٢٣ " .
(٥) أنظر عروس الأفراح - ضمن شروح التلخيص ٢/٣١٢ - ٣٢٢ .

ولهذا فقد نجد إختلافاً في تسمية هذا المعنى أو تعيينه بين العلماء لأنها أمور ذوقية نفسية متقاربة . (١)

لكن السؤال هنا : كيف أفاد الأمر المعاني البلاغية ؟

ظاهرة خروج الأمر عن دلالته الأصلية إلى معان بلاغية ظاهرة إسلوبية عرفت منذ بداية التأليف في علوم اللغة العربية .

وأول من أهتم بهذه القضية في التراث البلاغي البلاغيون (٢) وخاصة أصحاب الشروح والحواشي والتقارير فانحصرت أراؤهم في ثلاثة أقوال هي : المجاز ، والكناية ، ومستتبعات التراكيب (٣) ، ولكل وجهة .

ورجح الدسوقي الكناية ومستتبعات التراكيب بقوله " لعل الأولى في التحقيق على طريق الكناية أو أنه من مستتبعات الكلام " (٤) .

وأويد هذا الرأي الذي أيده بعض أساتذتنا بأنه عن طريق مستتبعات التراكيب وهو قريب من الكنا ية (٥) .

---

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص ١٦ - ١٧ .

(٢) ناقش البلاغيون هذه القضية في مبحث الاستفهام .

(٣) انظر شروح التلخيص ٢/٢٩٠ ومابعدها والمطول ص٢٣٥ وحاشية السيد على المطول ص٢٣٥ وحاشية عبدالحكيم على المطول ص ٣٩٢ وتقرير الشمس الانبابي ٣/١٤٨ وتجريد البناني ٢/٢١ والمجاز في اللغة والقرآن الكريم للدكتور عبدالعظيم المطعني ١/٤٢٥ .

(٤) حاشية الدسوقي - شروح التلخيص ٢/٢٩٥ ، ورجح العصام الكناية بقوله " إذا لم يمتنع حملها على الحقيقة لكن دلتك القرينة على مايتوسل إليه بالحقيقة فتمسك بالكناية " الأطول ١/٢٤٦ .

(٥) انظر البلاغة في تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبو موسى ص٣٠٢ ودلالات التراكيب له أيضاً ص ٢١٦ والأساليب الإنشائية ص ٨ ١٢ .

الفصل الاول

مناهج العلماء
في
معالجة اساليب الأمر

مناهج العلماء في معالجة اساليب الأمر

نشأ البحثُ البلاغي مع بدايةِ التأليف في اللغةِ والنحو والأدبِ وا لنقدِ والتفسير على أيدي طوائفَ متعددة كان لها أكبرُ الأثرِ في نمو البلاغة وازدهارِها وإرساءِ قواعدها ، فالبلاغة لم يكن نضوجها وليدَ ساعة وإنما نضجت في أحضان طوائفَ متعددةٍ وتأثّرتْ بمناهجهم وطُبِعتْ بطابعهم ، فكانتْ دراساتُهم من أهَمِّ العوامل التي ساعدتْ على نشأة البلاغة وأَمدّتها بفيض زاخرٍ من الملاحظات البيانية والأسلوبية التي أثّرتْ البحوث البلاغية على مدى القرون حتى عصرنا الحاضر.

ولعل أهّم هذه الطوائف التي كان لها جهد واضح في نشأة علوم البلاغة طوائف اللغويين وا لنحويين ، والمفسرين والأصوليين والبلاغيين وظاهرة التّعرف على هذه الأساليب - أعني الأمر والنهي - ومراميها البلاغية ووظيفتها في السياق اهتداءً بالمقام ظاهرة أسلوبية عرفت منذ القدم مع بداية التأليف في التراث الاسلامي على أيدي هؤلاء العلماء .

المبحث الأول

منهج اللغويين والنحاة

في القرون الأولى لم يكن هناك فصل بين اللغة والنحو بل إن الصلة بين العلمين وثيقة محكمة والفصل بينهما لم يكن يدور بخلد واحد من العلماء ، فهذا كتاب سيبويه يجمع بين دفتيه مسائل اللغة والنحو والصرف . (١)

وكتب التراجم والطبقات تجمع بين اللغويين والنحويين في صعيد واحد دون فصل بينهما كطبقات النحويين واللغويين للزبيدي وانباه الرواة للقفطي وغير ذلك.

ولم يكن للغويين والنحويين منهج واضح في دراسة الأمر وخروجه إلى المعاني البلاغية وإنما نجد هذه المعاني في تضاعيف مؤلفاتهم .

١ - سيبويه : (٢)

أشار سيبويه في الكتاب إلى خروج الأمر عن دلالته الوضعية إلي بعض المعاني البلاغية وإن لم يضع لبعضها تسميات من ذلك قوله.((واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي وإنما قيل دعاء لأنه إستعظم أن يقال أمر أو نهي ، وذلك قولك : اللهم زيداً فاغفر ذنبه ، وزيداً فاصلح شأنه وعمراً ليجزه الله خيراً ،

---

(١) راجع الكتاب لسيبويه بتحقيق الاستاذ عبدالسلام هارون وأثر النحاة في البحث البلاغي للدكتور عبدالقادر حسين ص ٢٣ وبلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار للدكتور عبدالفتاح لاشين ص ٢٢ .

(٢) هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب سيبويه ولد سنة ١٤٨هـ وتوفي سنة ١٨٠هـ .

أنظر ترجمته : وفيات الأعيان ٤٦٣/٣ - ٣٦٥ والأعلام ٨١/٥ ومعجم المؤلفين ١٠/٨ وطبقات اللغويين والنحويين للزبيدي تحقيق أبي الفضل ابراهيم ص ٦٦-٧٢.

وتقول : زيداً قطع الله يده ، وزيداً أمرّ الله عليه العيش ، لأن معناه زيداً ليقطع الله يده)) (١)

ونجده يشير إلى خروج الأمر إلى معني التهديد في قول المهلهل بن ربيعة: (٢)

يا لبكر انشروا لي كليباً ... يالبكر أين أين الفـــرارُ

يقول ((فاستغاث بهم لينشروا له كليباً وهذا منه وعيد وتهدد)) (٣)

ويشير إلى الإباحة بقوله ((تقول جالس عمراً أو خالداً ، كأنك قلت : جالس أحد هؤلاء ولم ترد إنساناً بعينه ، ففي هذا دليل أن كلّهم أهلٌ أن يجالس ، كأنك قلت جالس هذا الضرب من الناس)) (٤)

كما أشار إلى خروج الأمر إلى معني التسوية ((تقول : خذه بما عز أو هان ، كأنه قال : خذه بهذا أو بهذا أي لايفوتنَّك على كل حال)) (٥)

ففي هذه الأمثلة نجد سيبويه يشير إلى خروج الأمر عن معناه الأصلي إلى بعض المعاني البلاغية كالدعاء والتهديد والإباحة والتسوية وإن لم يمثل دائماً من القرآن الكريم .

---

(١) الكتاب ٢ / ١٤١ .

(٢) هو عدي بن ربيعة بن مرة بن هبيرة من بني جشم من تغلب شاعر من أبطال العرب في الجاهلية لقب بالمهلهل لأنه أول من هلهل الشعر أي رققه ، ثار المهلهل لما قتل أخوه كليب فكانت وقائع بكر المسماة بالبسوس .

انظر ترجمته : الأعلام ٢٢٠/٤ وخزانة الأدب للبغدادي ٣٠٠/١ - ٣٠٤ .

(٣) الكتـاب ٢ / ٢١٥ .

(٤) الكتـاب ٣ / ١٨٤ .

(٥) المصورالسابق ٣ / ١٨٤ ومابعدها وانظر أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص ٢٠٧ .

٢ - أبو زكريا الفراء : (١)

أَحسَّ الفرّاء (٢) بفطنته وحسه البلاغي في الأوامر القرآنية أنها لم تأتِ دائماً للطلب الجازم على جهة الاستعلاء ، وذكر لها بعض المعاني البلاغية من ذلك قوله في تفسير قوله تعالى :{ أَنفِقُوا طَوْعاً أو كَرْهاً } (٣) " وهو أمر في اللفظ وليس بأمر في المعني ، لأنه أخبرهم أنه لن يتقبل منهم ، وهو في الكلام بمنزلة إنْ في الجزاء كأنك قلت : إنْ أنفقتَ طوعاً أو كرهاً فليس بمقبول منك ، ومثله :{ اسْتَغْفِرْ لهم أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ } (٤) " ليس بأمر إنما هو على تأويل الجزاء ومثله قول الشاعر : (٥)

أَسِيئِ بنا أو أَحْسِنِي لاملومةً ... لدينا ولا مقليةً إنْ تقلّتِ (٦)

---

(١) يحيى بن زياد بن عبدالله الديلمي المعروف بالفراء ولد سنة ١٤٤هـ وتوفي سنة ٢٠٧هـ إمام مدرسة الكوفة في وقته وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب من آثاره معاني القرآن والمقصور والممدود .

انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٦/١٧٦ - ١٨٢ ؛ والأعلام ٨/١٤٥ - ١٤٦ ؛ ومعجم المؤلفين ١٣/ ١٩٨

(٢) معاني القرآن للفراء هو كتاب في تفسير الآيات القرآنية وايضاح مافيها من غريب اللغة ووجوه نظم القرآن التي لها نظائر في كلام العرب فهو من كتب التفسير وكان حقه أن يكون في مبحث المفسرين لولا أن مؤلفه عرف باللغة والرواية فلهذا أدرجناه في اللغويين ومثله مجاز القرآن لأبي عبيدة .

(٣) سورة التوبة ، الآية" ٥٣ " .

(٤) سورة التوبة ، الآية" ٨٠ " .

(٥) البيت لكثير عزة ، وهو كثير بن عبدالرحمن الخزاعي ، عرف بصاحبته عزة التي شبب بها في شعره توفي سنة ١٠٥هـ .انظر ترجمته ذم الهوى لابن الجوزي ص٤٤٤-٤٤٧ ووفيات الأعيان ٤/١٠٦ - ١١٣ ؛ والأعلام ٥/٢١٩ .

(٦) معاني القرآن ١ / ٤٤١ .

فالأمر في هذه الأمثلة للتسوية كما نص على ذلك علماء البلاغة المتأخرون .

ومن الشواهد التي ذكرها قوله تعالى :{ واجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي }(١) يقول ((فقوله أشدد به : دعاء)) (٢) .

وأشار إلى خروج الأمر إلى معنى التوبيخ فى قوله تعالى :{ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ }(٣) يقول " فمعناه - فيما نرى والله أعلم - أنه توبيخ أي ذق فإنك كريم كما زعمت ، ولست كذلك " (٤) .

كما أشار إلى خروج الأمر الى معنى التهديد فى قوله تعالى :{ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً }(٥) ((فهذا تهدد وليس بأمر محض ، وكذلك قوله تعالى : {فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } وما أشبهه)) (٦)

وأشار إلى خروج الأمر إلى معنى الإباحة فى قوله تعالى : { فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ }(٧) ، يقول ((هذا إذن وإباحة ، من شاء باع ومن شاء لزم المسجد)) (٨) .

فهذه الشواهد التي ذكرها الفراء نجدها في كتب البلاغة ، وهذا يدل على أن للغويين والنحاة أثراً عظيماً في نمو البحث البلاغي وازدهاره .

---

(١) سورة طـه " ٣٠ - ٣١ " .

(٢) معاني القرآن ١٧٨/٢ .

(٣) سورة الدخان " ٤٩ " .

(٤) معاني القرآن ٤٤/٢ .

(٥) سورة الزمر " ٨ " .

(٦) معاني القرآن للفراء ٤١٦/٢ .

(٧) سورة الجمعة " ١٠" .

(٨) معاني القرآن ١٥٧/٢ .

٣ - أبو عبيدة معمر بن المثني : (١)

مجاز القرآن لابي عبيدة ليس كتاباً بلاغياً وإنما هو كتاب في تفسير ألفاظ القرآن وأساليبه وإيضاح مافيها من الغريب والاستشهاد بما أُوثِرَ عن العرب في كلامها ، ولم يرد المؤلف من كلمة المجاز المعنى الاصطلاحي المتعارف عليه عند البلاغيين بل المعني اللغوي للكلمة بمعني المعّبَرِ والطريق إلي فهم المعاني ، ومع ذلك نجد في الكتاب إشاراتٍ كثيرةً إلي بعض الفنون البلاغية كالتشبيه والاستعارة والتقديم والايجاز والالتفات والاستفهام وخروجه إلي بعض المعاني البلاغية ، وخروج الخبر مخرج الأستفهام (٢) ، وخروج الأمر والنهي إلي المعاني البلاغية ويهمنا - مانحن بسبيله - أنْ نُشيرَ إلي بعض الصور التي خرج فيها الأمر عن معناه الأصلي إلي المعاني البلاغية عند أبي عبيدة أثناء تعرضه لتفسير الآيات القرآنية في كتابه مجاز القرآن .

يقول في تفسير قوله تعالى :{ اعْمَلُواْ مَاشِئْتُمْ } (٣) ((لم يامرهم بعمل الكفر وإنما هو توعد)) (٤) فالأمر في هذه الآية خرج إلي معنى الوعيد والتهديد .

---

(١) أبو عبيدة معمر بن المثني التيمي بالولاء ولد سنة ١١٠هـ وتوفي سنة ٢٠٩هـ من أئمة العلم بالأدب واللغة وكان مولده ووفاته بالبصرة ، وقد أخذ عليه شعوبيته بالإضافة إلى كونه خارجياً من مؤلفاتة مجاز القرآن ، نقائض جرير والفرزدق .
انظر ترجمته وفيات الأعيان ٥/٢٣٥ - ٢٤٣ ؛ والأعلام ٧/٢٧٢ ؛ ومعجم المؤلفين ١٢ / ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) مناهج بلاغية للدكتور أحمد مطلوب ص ٨٥ .

(٣) سورةفصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٤) مجاز القرآن ٢ / ١٩٧ .

ويقول في قوله تعالى : { فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُوا } (١) " مجازه الوعيد " (٢) كما اشار إلى خروج الأمر إلى معنى الدعاء في قوله تعالى : { رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} (٣) يقول " مجازه مجاز الدعاء ، وقرأه قوم { رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا } (٤) .

وبهذا يتضح لنا أن أبا عبيدة قد أدرك أن الأمر يخرج عن معناه فيفيد معاني أخرى تفهم من السياق وقرائن الأحوال .

٤ - أبو العباس المبرد : (٥)

يُعدُّ كتابُ المقتضب للمبرِّد من أقدم ماوصل إلينا في النحو والصرف بعد كتاب سيبويه ، وقد كان تأثره بكتاب سيبويه كبيراً كما صرح بذلك المحقق الشيخ محمد عبدالخالق عضيمة رحمه الله . (٦)

---

(١) سورةالزخرف ، الآية" ٨٣ " .

(٢) مجاز القرآن ٢ / ٢٧٠ .

(٣) سورة سبأ ، الآية " ١٩ " .

(٤) مجاز القرآن ٢ / ١٤٧ .

(٥) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي المعروف بالمبرد ولد سنة ٢١٠هـ وتوفي سنة ٢٨٦هـ أحد أئمة الأدب والنحو واللغة والأخبار كانت ولادته ووفاته ببغداد ، من أشهر مؤلفاته الكامل ؛ المقتضب .

انظر ترجمته وفيات الأعيان ٣١٣/٤ - ٣٢٢ ؛ والأعلام ١٤٤/٧ ؛ ومعجم المؤلفين ١١٤/١٢ - ١١٥ والبلاغة لأبي العباس المبرد تحقيق الدكتور رمضان عبدالتواب ص ٥ ومابعدها .

(٦) المقتضب مقدمة المحقق ٨٨/١ .

((وفي هذا الكتاب تناول المبرد كثيرا من الفنون البلاغية كالتقديم والتأخير والحذف والايجاز والمجاز والقصر وخروج الاستفهام عن وضعه الأصلي إلي بعض المعاني البلاغية)) (١) .

وقد فطن المبرد إلى خروج الأمر عن دلالته الأصلية إلى بعض المعاني البلاغية كالتهديد والوعيد يقول : ((أما قوله تعالى : { ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا }(٢).فعلى الجواب . فان قال قائل : أفأمر الله بذلك ليخوضوا ويلعبوا ؟

قيل : مخرجه من الله – عز وجل – على الوعيد ، كما قال عز وجل :{ اعْمَلُوا مَاشِئْتُمْ } (٣) ؛ { وَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } (٤)

وأشار إلى خروج الأمر إلى الدعاء بقوله : ((واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي في الجزم والحذف عند المخاطبة ، وإنما قيل دعاء وطلب للمعنى لأنك تأمر من هو دونك وتطلب إلى من أنت دونه ، وذلك قولك : ليغفر الله لزيد وتقول : اغفر لي كما تقول اضرب عمراً)) (٥)

وأشار إلى خروج الخبر إلى معنى الأمر بقوله ((أما قولك : غفر الله لزيد ، ورحم الله زيداً ونحو ذلك – فإنَّ لفظَه لفظُ الخبرِ ومعناه الطلب ، وإنّما كان كذلك لعلم السامع أنك لاتُخْبِر عن الله – عزَّ وجل – وإنما تسأله)) (٦) .

---

(١) انظر أثر النحاة فى البحث البلاغي ص٢٠٥ والفهارس الفنيه لكتاب المقتضب ٢١٨/٤ .

(٢) سورة الحجر ، الآية " ٣ " .

(٣) سورة فصلت ، الآية" ٤٠ " .

(٤) سورة الكهف ، الآية"٢٩" وانظر المقتضب ٢ / ٨٦ .

(٥) المقتضب ٢ / ١٣٢ .

(٦) المصدر السابق ١٣٢/٢ وانظر ٢٧٣/٣ ، ٤/ ١٧٥ .

ويشير إلى خروج الأمر إلى معنى التخيير حيث يقول :((إيت زيداً أو عمراً ، أي قد جعلتك في ذلك مُخيَّراً)) (١) ويقول أيضاً : ((وكذلك وقوعها للتخيير تقول اضرب إما عبدالله وإما خالداً ، فالآمر لم يشك ولكنّه خَيَّر المأمور)) (٢)

ونصَّ على خروج الأمر إلى معنى الإباحة بقوله :((وقد يكون لها موضع آخر معناه الإباحة وذلك قولك : جالس الحسن أو ابن سيرين وائت المسجد أو السوق ، أي قد أذنت لك في مجالسة هذا الضرب من الناس ، وفي إتيان هذا الضرب من المواضع)) (٣) وقد ((ظل مثال جالس الحسن أو ابن سيرين يدور عند الكلام على خروج الأمر للإباحة)) (٤)

هذه بعض معاني الأمر البلاغية التى أشار اليها المبرد وهي بلا شك تبين أثره الكبير في تطور البحث البلاغي ، وإن أكثر من الأمثلة التأليفية المشهورة طلباً للإيضاح وإلا فالشواهد القرآنية غزيرة عديدة .

٥ - ابو جعفر النحاس : (٥)

أشار أبو جعفر النحاس في كتابه معاني القرآن إلى بعض المعاني البلاغية

---

(١) المقتضب ٣/٢٠١ وانظر أُساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص٢٠٧.
(٢) المقتضب ١ / ١١ .
(٣) السابق الموضع نفسه .
(٤) معجم المصطلحات البلاغية ص٣١٥ وانظر الإيضاح ٢٤١/١ وشروح التلخيص ٢/ ٢١٣ .
(٥) أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحاس المتوفي سنة ٣٣٨ مفسر وأديب ، كان مولده ووفاته بمصر ، أخذ عن المبرد والأخفش والزجاج، من مؤلفاته معاني القرآن ، الناسخ والمنسوخ وأخبار الشعراء .
انظر ترجمته : وفيات الأعيان ٩٩/١ - ١٠٠؛ والأعلام ٢٠٨/١ ؛ ومعجم المؤلفين ٨٢/٢ ؛ وطبقات النحويين واللغويين ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

التي يفيدها الأمر في معرض تفسيره لآيات القرآن الكريم منها التكذيب كما في قوله تعالى : { قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين } (١) يقول : ((قال الضحاك : قال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم حرم علينا هذا في التوراة فأكذبهم الله ، وأخبر أنّ إسرائيل حرّمه على نفسه من قبل أن تُنَزَّلَ التوراة ودعاهم إلى إحضارهم فقال :{ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين } (٢)

والعظة والاعتبار كما في قوله تعالى : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين }(٣)

يقول ، قال أبو عبيدة : ((السنن : الأعلام ، والمعنى على هذا : إنكم إذا سافرتم رأيتم أثار قوم هلكوا فلعلكم تتعظون)) (٤)

والإباحة كما في قوله تعالى :{ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٥) يقول : ((وهذا إباحة بعد حظر وليس بحتم)) (٦) ويقول في تفسير قوله تعالى { كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } (٧) وهذا أمر على الإباحة " (٨)

والتهديد والوعيد قال تعالى : { وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَاهُمْ مُقْتَرِفُون } (٩) يقول : " أي وليكتسبوا ، ويقال قرفت الجلد إذا قلعته ، ويقرأ " وَلْيَقْتَرِفُوا " وفيه معنى التهديد"(١٠) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .

(٢) معاني القرآن الكريم تحقيق الشيخ محمد على الصابوني ١٤٤/١ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٣٧ " .

(٤) المصدر السابق ٤٨٠/١ .

(٥) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .

(٦) المصدر السابق ٢٥٢/٢ .

(٧) سورة الأنعام ، الآية" ١٤٢ " .

(٨) المصدر السابق ٥٠٤/٢ وأنظر ٤٠١/٤ .

(٩) سورة الأنعام ، الآية " ١١٣ " .

(١٠) المصدر السابق ٤٧٨/٢ .

ويقول في قوله تعالى :{ قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ } (١) ((فيه قولان : أحدهما أن المعنى على تمكنكم ، والقول الآخر أنه كما تقول : اثبت مكانك أى اثبت على ما أنت عليه .

فإن قيل كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ماهم عليه وهم كفار ؟

فالجواب : أن هذا تهدد كما قال جل وعز : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً } (٢) ومنه قوله تعالى :{ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُون } (٣) .

يقول : وهذا على التهديد كما قال تعالى :{ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} (٤) .

والدوام والثبات نحو قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } (٥) يقول في معنى هذا قولان :

أحدهما : اثبتوا على الإيمان ، كما يقال للقائم : قف حتى أجيء (٦) كما أشار إلى خروج الخبر إلي معنى الأمر في قوله تعالى :{ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ } (٧)

يقول : ((لفظه لفظ الخبر ومعناه معنى الأمر ، لما فيه من الإلزام)) (٨) .

ففي هذه الأمثلة نجد النحاس قد فطن إلى خروج الأمر عن دلالته إلى معان بلاغية أخرى بمعونة السياق والمقام .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية" ١٣٥ "

(٢) سورة التوبة ، الآية"٨٢" والمصدر السابق ٢/ ٤٩٣ .

(٣) سورة النحل ، الآية "٥٥" .

(٤) سورةالكهف ، الآية " ٢٩ " والمصدر السابق ٧٤/٤ وانظر ١٧٣/٤ ، ٢٣٢/٤ .

(٥) سورة النساء ، الآية " ١٣٦ " .

(٦) المصدر السابق ٢/ ٢١٥ .

(٧) سورةالبقرة ، الآية " ٢٣٣ " .

(٨) المصدر السابق ١/ ٢١٤ .

٦- ابن جنـي : (١)

من بين النحويين الذين كان لهم جهد طيب في الإشارة إلى خروج الأمر إلى المعانى البلاغية ، فقد أشار فى مؤلفاته إلى بعض المعانى البلاغية التى خرج إليها الأمر من ذلك قوله " فقد تجد لفظ الأمر في معنى الخبر نحو قوله تعالى : { أسمع بهم وابصر } (٢) يقصد أن لفظه أمر وهو ماضٍ جاء على صورة الأمر ، والماضى خبر ، وإن كان الأسلوب إنشائياً لأنه تعجب .

((وقوله عز اسمه :{ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} (٣) أي فليمدن ، ووقع أيضا لفظ الخبر في معنى الأمر نحو قوله سبحانه : { لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا } (٤) وقولهم : هذا الهلال معناه : انظر الهلال ونظائره كثيرة " (٥)

ويقول في توجيه قراءة أبي مسلم صاحب الدولة { فلا يسرف في القتل } (٦) ورفع هذا على لفظ الخبر بمعنى الأمر ، ومثله قوله :{ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ } (٧) أي ليتربصن (٨) .

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي توفي سنة ٣٩٢ هـ ببغداد ، كان إماما فى النحو واللغة والتصريف من مصنفاته الخصائص وسر الصناعة .
انظر ترجمته وفيات الأعيان ٢٤٦/٣ - ٢٤٨ ؛ والأعلام ٤ / ٢٠٤ ؛ ومعجم المؤلفين ٢٥١/٦ - ٢٥٢ .

(٢) سورةمريم ، الآية" ٣٨ " والمنصف ١ / ٣١٧ .

(٣) سورةمريم ، الآية" ٧٥ " .

(٤) سورةالبقرة ، الآية" ٢٣٣ " .

(٥) الخصائص ٢ / ٣٠١ .

(٦) سورةالإسراء ، الآية" ٣٣ " .

(٧) سورة البقرة ، الآية" ٢٢٨ " .

(٨) المحتسب ٢ / ٢٠

ويقول أيضاً ((ومن ألفاظ الخبر المراد بها الأمر قوله تعالى : { تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ }(١) فهذا في معنى آمنوا ، ألا تراه أجابه بقوله عز وجل : { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ } (٢) فهذا معناه : آمنوا يغفر لكم ذنوبكم ، كما تقول إن تؤمنوا يغفر لكم ذنوبكم ، ولايكون قوله يغفر لكم جواب { هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } (٣) وإن كان أبو العباس المبرد رحمه الله قد ذهب إليه)) (٤)

وأشار إلى خروج الأمر إلى معنى الإباحة بقوله ((من ذلك قولهم)) جالس الحسن أو ابن سيرين ((ولو جالسهما جميعاً لكان مصيباً مطيعاً وإن كانت " أو " إنما هي في أصل وضعها لأحد الشيئين وإنما جاز ذلك في هذا الموضع لا لشيء رجع إلى نفس "أو" بل لقرينة انضمت من جهة المعنى إلى " أو " وذلك لأنه قد عرف أنه إنما رغب في مجالسة الحسن لما لمجالسه في ذلك من الحظ ، وهذه الحال موجودة في مجالسة ابن سيرين أيضاً ، وكأنه قال جالس هذا الضرب من الناس)) (٥)

وهذا المثال الذى ذكره ابن جني نجده يتردد في كتب البلاغه على خروج الأمر إلى معنى الإباحة (٦) .

كما ذكر خروج الأمر إلى معنى التبكيت في قوله تعالى : { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٧) يقول : ((وإنما هو في النار الذليل المهان ، لكنه خوطب بما كان يخاطب به في الدنيا ، وفيه مع هذا ضرب من التبكيت له والإذكار بسوء أفعاله)) (٨)

---

(١) سورة الصف ، الآية " ١١ " .
(٢) سورة الصف ، الآية" ١٢ " .
(٣) سورة الصف ، الآية" ١٠ " .
(٤) المنصف لابن جني ٣١٧/١ – ٣١٨ .
(٥) الخصائص ٣٤٧/١ وما بعدها .
(٦) انظر الايضاح ٢٤١/١ وشروح التلخيص .
(٧) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .
(٨) المحتسب ١ / ١٠١ .

٧- أحمد بن فارس : (١)

أولى ابن فارس البلاغة عناية فائقة ، وكتابه الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها يعد من أهم الكتب التي اعتمد عليها البلاغيون في مباحث علم المعاني لاسيما " باب معاني الكلام " حيث ذكر أنه عند أهل العلم عشرة : خبر واستخبار وأمر، ونهي، ودعاء ، وطلب ، وعرض ، وتحضيض ، وتمن ، وتعجب (٢)

أما الأمر فقد نحا به نحواً لم نعهده عند سابقيه من اللغويين والنحويين فامتاز عنهم بالدقة والتنسيق والتبويب ، وقد سار على نهجه عدد من العلماء مثل ابن الشجري في الأمالي ، وعلماء النحو المتأخرين كابن يعيش والاستراباذي وابن هشام وغيرهم يقول في تعريف الأمر " الأمر عند العرب : ما إذا لم يحتمله المأمور به سمي المأمور به عاصياً ، ويكون بلفظ " افعل ، وليفعل " نحو " أقيموا الصلاة " ونحو قوله سبحانه : { وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيل } (٣) .

وما ذكره في تعريف الأمر ليس حداً شائعاً جامعاً وهو قريب من فهم الأصوليين .

ثم نجده يذكر بعض المعاني البلاغية التي يحتملها الأمر ، فيقول:((أما المعاني التي يحتملها لفظ الأمر فأن يكون أمراً والمعنى مسألة نحو " اضرب زيداً ، ويكون اللفظ أمراً وهو دعاء نحو قولك " اللهم اغفر لي " ويكون أمراً والمعنى وعيد نحو قوله جل ثناؤه { فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُون } (٤) وقوله :{ اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ } (٥) ويكون اللفظ أمراً ، والمعنى تسليم نحو قوله جل ثناؤه

---

(١) أبو الحسن احمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي توفي بالري سنة ٣٩٥ هـ ، كان إماماً في علوم شتى وخاصة اللغة ، من تصانيفه المجمل ، والصاحبي ومقاييس اللغة انظر ترجمته وفيات الأعيان ١/١١٨ – ١٢٠ والأعلام ١/١٩٣ ومعجم المؤلفين ٢/٤٠ – ٤١ .

(٢) الصاحبي ص ٢٨٩ وانظر مناهج بلاغية ص ٩٣ .

(٣) سورة المائدة ، الآية" ٤٧ " .

(٤) سورة النحل ، الآية" ٥٥ " .

(٥) سورة فصلت ، الآية" ٤٠ " .

{ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ } (١) ويكون أمراً والمعنى تكوين نحو قوله :{ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين } (٢) وهذا لايجوز أن يكون إلا من الله جل ثناؤه ، ويكون أمراً وهو ندب نحو قوله :{ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ } (٣) ويكون أمراً وهو تعجيز نحو قوله تعالى : { فَانفُذُوا لاَتَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَان } (٤) ، ويكون أمراً وهو تعجب نحو قوله جل ثناؤه { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ } (٥) ويكون أمراً وهو تمن تقول لشخص تراه " كن فلاناً " ويكون أمراً وهو واجب في أمر الله جل ثناؤه : { أَقِيمُوا الصَّلاَةَ } (٦) ويكون اللفظ أمراً والمعنى تلهيف وتحسير كقول القائل " مت بغيظك " " ومت بدائك " وفي كتاب الله جل ثناؤه { قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ } (٧)

فالنّدبْ والوجوب معانٍ أصولية ذكرها الأصوليون في مؤلفاتهم ، أما استشهاده على خروج الأمر إلى التعجب بقوله تعالى : { أَسْمِعْ بِهِمْ وأَبْصِرْ } فالفعل ماض حقيقة جاء على صورة الأمر لإنشاء التعجب لأنه إحدى صيغتي التعجب .

ويضيف أيضاً ((ويكون أمراً والمعنى خبر كقوله جل ثناؤه :{ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً } (٨) أي أنهم سيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً)) (٩) .

وبهذا يتضح لنا أن البلاغيين قد أفادوا من الصاحبي ، وبنوا مباحث الخبر والإنشاء على مابدأ به ابن فارس وإن لم يصرحوا بذلك ، وبالموازنة السريعة بين ما ذكره وما دونوه يتضح لنا أنهم اطلعوا على كتاب الصاحبي وترسموا أصوله

---

(١) سورة طه ، الآية " ٧٢ " .
(٢) سورةالبقرة ، الآية" ٦٥ " .
(٣) سورة الجمعة ، الآية " ١٠ " .
(٤) سورة الرحمن ، الآية" ٣٣ " .
(٥) سورة مريم ، الآية" ٣٨ " .
(٦) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " .
(٧) سورة آل عمران ، الآية " ١١٩ " وانظر الصاحبي ص ٢٩٨ - ٣٠٢ .
(٨) سورة التوبة ، الآية " ٨٢ " .
(٩) الصاحبي ص ٣٠٢ .

وأفادوا منه، وبهذا نستطيع أن نرد في إطمئنان على ماصرح به بعض الباحثين بقوله ((إن البلاغيين نسوا هذا الكتاب وأهملوه إهمالاً شنيعاً حتى لقد يسبق إلى الظن أنهم لم يقفوا عليه ولم يقرأوه مع شهرة صاحبه بين العلماء والأدباء)) (١)

ولا يغمض من مكانة ابن فارس وأثره في تطور البحث البلاغي ماذكره الدكتور عبدالقادر في ابن فارس إذ يقول ((لا نكاد نجد له نظرات جديدة ولا أفكاراً عميقة ولا إثراء لغرض من الأغراض ولا تحليلاً ولا تعليلاً وإنما أكتفى بالسرد والنقل والجمع والحشد من السابقين وهذا قصارى جهده الذي بذله في الكتاب)) (٢)

وقد يشير إلى ذلك قول ابن فارس في مقدمة كتابه ((والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرق في أصناف العلماء المتقدمين رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء ، وإنما لنا فيه إختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرق)) (٣)

ورأي الدكتور عبدالقادر حسين فيه تحامل على ابن فارس ، لأن ما صرح به ابن فارس في مقدمة كتابة هو عادة متبعة في التأليف عند علمائنا الأوائل .

ولكن لابن فارس رحمه الله أثر واضح في بناء الصرح البلاغي ((فالفنون البلاغية بتعريفاتها وتقسيماتها لاتخرج عما اختطه المتأخرون من علماء البلاغة ، وبذلك يكون قد خطا بالبلاغة خطوة جريئه أوحت إلى السكاكي ما قام به من وضع أسسها وقواعدها)) (٤) .

٨ - ابن الشجري : (٥)

أشرت قبل قليل إلى أن البحث في أساليب الأمر وأغراضها البلاغية بدأ يأخذ

---

(١) البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص ١٧٠ وانظر مناهج بلاغية ص ٩٤ ومابعدها .

(٢) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٣٤٢ .

(٣) الصاحبي ص ٥ .

(٤) مناهج بلاغية ص ٩٦ .

(٥) الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد الحسني المعروف بابن الشجري ولد سنة ٤٥٠ وتوفي سنة ٥٤٢ هـ كان إماماً في النحو واللغة وأشعار العرب وأيامها ، كان نقيب الطالبين بالكرخ ، كان مولده ووفاته ببغداد من أثاره الأمالي والحماسة وغير ذلك انظر ترجمته وفيات الأعيان ٤٥/٦ - ٥٠ والأعلام ٧٤/٨ ؛ ومعجم المؤلفين ١٣/ ١٤١ - ١٤٢ وتاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ١٦٥/٥ .

وجهة لم نعهدهاعند السابقين من اللغويين والنحويين ، فبعد ان كان شذراتٍ مبثوثةً في ثنايا الكتب أصبحنا نرى البحث في الأمر ودلالته على المعاني البلاغية يتميز بالشمولية والمنهجية والإكثار من المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر في آثار بعض العلماء من بينهم ابن الشجري حيث عرَّف الأمر وحدد صيغه وذكر بعض المعاني البلاغية لأسلوب الأمر .

فالأمر عنده " استدعاء الفعل بصيغة مخصوصة مع علو الرتبة ، وقد استحق هذا الأسم باجتماع هذه الثلاثة ، فأما علو الرتبة فإن أصحاب المعاني قالوا الأمر لمن دونك طلب ، والمسألة لمن فوقك كقولك للخليفة أجرني ، وسموا هذه الصيغة إذا وجهت إلي الله تعالى دعاءً لأن الدعاء الذي هو النداء يصحبها كقولك : " اللهم أغفر لي ، ويارب ارحمني ، وإذا كانت لمن فوقك من الآدميين سموها سؤالاً وطلباً فهي بهذين الاسمين إذا وجهت إلى الله تعالى أولى .

ثم ذكر أن للأمر صيغتين " إحداهما " للمواجه وهي إفعل ، والأخرى للغائب وهي "ليفعل" فمثال الأمر الواجب { كُونُوا قَوَّامِين } (١) { قَاتِلُواْ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّه}(٢) {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } (٣) { لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيق } (٤) ثم ذكر بعض المعاني البلاغية التي يخرج اليها الأمر كالندب والاستحباب ، والندب كل ما في فعله ثواب وليس في تركه عقاب كقوله : {وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرَاً } (٥) والإباحة أي إباحة الشيء بعد حظره كقوله { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُواْ فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِنْ فَضْلِ اللَّه } (٦) بعد قوله :

---

(١) سورة النساء ، الآية (١٣٥) ؛ سورة المائدة ، الآية (٨) .
(٢) سورة التوبة الآية (٢٩) .
(٣) سورة البقرة ، الآية (١٨٥) .
(٤) سورة الحج ، الآية (٢٩) .
(٥) سورة الأنفال ، الآية (٤٥) ؛ سورة الجمعة ، الآية (١٠) .
(٦) سورة الجمعة ، الآية (١٠) .

{ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ } (١) وكقوله : { إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٢) بعد قوله { لَاتَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ } (٣) والوعيد كقوله : { اعْمَلُوا مَاشِئْتُمْ } (٤) { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } (٥) { واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ } (٦) { قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِك } (٧) ، { ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا } (٨) { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ } (٩) والتأديب والإرشاد كقوله : { اشهدوا إذا تبايعتم } (١٠) وخروج الخبر إلى الأمر نحو : { وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ } (١١) وخروج الأمر إلى الخبر نحو قوله تعالى : { قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً } (١٢) المعنى فيمد له الرحمن ، ويكون للخضوع كما كان دعاء في نحو ((اللهم اغفر لنا ولترحم زيداً)) وذلك نحو قول المذنب لسيده أو لذي السلطان { افعل بي ماشئت وابلغ مني رضاك } تذللاً منه وإقراراً بذنبه .

وللتعجيز والتحدي نحو { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ } (١٣) .

---

(١) سورة الجمعة ، الآية (٩) .
(٢) سورة المائدة ، الآية (٢) .
(٣) سورة المائدة ، الآية (٩٥) .
(٤) سورة فصلت ، الآية (٤٠) .
(٥) سورة الكهف ، الآية (٢٩) .
(٦) سور[الأسراء ، الآية (٦٤) .
(٧) سورة الزمر ، الآية (٨) .
(٨) سورة الحجر ، الآية (٣) .
(٩) سورة القلم ، الآية (٤٤) .
(١٠) سورة البقرة ، الآية (٢٨٢) .
(١١) سورة البقرة ، الآية (٢٢٨) .
(١٢) سورة مريم ، الآية (٧٥) .
(١٣) سورة هود ، الآية (١٣) .

فلما عجزوا عن ذلك قال { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ } (١) يدلك على أن المعنى تبيين عجزهم عن ذلك قوله { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا } (٢) وقوله { لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله } (٣)

ويكون للتنبيه على كمال القدرة والمخاطب غير مأمور بأن يحدث فعلاً فيكون بفعل ذلك الفعل مطيعاً ، وبتركه عاصياً كقوله تعالى : { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً } (٤) يعني لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم ، ألم تسمع إلى قوله حاكياً عنهم مجيباً لهم { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } (٥) فهذا يبين لك أن لفظ الأمر في هذا الموضع تنبيه على قدرته سبحانه .

ويكون لفظ الأمر أيضاً لما لا فعل فيه لمن وجه إليه أصلاً كقوله { فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (٦) المعنى كونهم قردة ، ألا ترى أن هذا ليس من الأمر الذي يمكن أن يفعله المأمور أو يتركه ولكنه فعل واقع به الله عز وجل (٧) .

٩ - يعيش بن علي بن يعيش : (٨)

أشار ابن يعيش في كتابه شرح المفصل للعلامة الزمخشري إلى بعض الصور البلاغية .

---

(١) سورة يونس ، الآية (٣٨) .
(٢) سورة البقرة ، الآية (٢٤) .
(٣) سورة الأسراء ، الآية (٨٨) .
(٤) سورة الأسراء ، الآية (٥٠) .
(٥) سورة الأسراء ، الآية (٥١) .
(٦) سورة البقرة ، الآية (٦٥) .
(٧) الأمالي الشجرية ١ / ٢٦٨ - ٢٧١ .
(٨) أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش موفق الدين الأسدي ولد سنة ٥٥٣ هـ وتوفي سنة ٦٤٣ من كبار علماء العربية كان مولده ووفاته في حلب من كتبه شرح المفصل للزمخشري - وشرح التصريف الملوكي .
انظر ترجمته تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥/٢٧٤ ، وفيات الأعيان ٧/٤٦ - ٥٣ والأعلام ٨/ ٢٠٦ ، ومعجم المؤلفين ١٣/ ٢٥٦ .

من ذلك خروج الخبر إلى الأمر بقوله ((والخبر قد يستعمل بمعنى الأمر نحو قوله تعالى { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ} (١) أي ليرضعن ، ومن ذلك قولهم في الدعاء "رحمه الله " لفظه لفظ الخبر معناه الدعاء)) (٢)

ففي هذه الأمثلة نجد ابن يعيش يردد ما ذكره العلماء من قبل دون أن يضيف جديداً يسجل له في هذا الموضوع .

١٠ - الإستراباذي : (٣)

قام رضي الدين الاستراباذي بشرح الكافية في النحو لابن الحاجب ، وفي هذا الكتاب تعرض لذكر بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر بعد أن عرفه بقوله " صيغة يطلب بها الفعل من الفاعل المخاطب بحذف حرف المضارعة ....، ولو قال صيغة يصح أن يطلب بها الفعل لكان أصرح في عمومه لكل مايسميه النحاة أمراً ، وذلك أنهم يسمون به كل مايصح أن يطلب به الفعل من الفاعل المخاطب بحذف حرف المضارعة سواءً طلب به الفعل على سبيل الاستعلاء وهو المسمى أمراً عند الأصوليين نحو قولك " اضرب " على وجه الاستعلاء ، أو طلب به الفعل على وجه الخضوع من الله تعالى نحو اللهم أرحم ، أو من غيره وهو الشفاعة ، أو لم يطلب به الفعل بل كان إما على الإباحة نحو { كُلُواْ و اشْرَبُواْ } (٤) ، أو التهديد نحو { اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ } (٥) أو غير ذلك من محامل هذه الصيغة)) (٦)

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٣ " .
(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٧ / ٤٩ .
(٣) محمد بن الحسن الاستراباذي السمناني رضي الدين المتوفى سنة ٦٨٦هـ نزيل النجف ، نحوى صرفي متكلم منطقي من مصنفاته شرح الشافية لابن الحاجب في التصريف ، وشرح الكافية لابن الحاجب في النحو .
انظر ترجمته الأعلام ٦/٨٦ ، ومعجم المؤلفين ٩/١٨٣ .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٦١ " .
(٥) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .
(٦) شرح الكافية في النحو ٢ / ٢٦٧ .

ففي هذه الأمثلة نجد الاستراباذي يشير إلى بعض المعاني البلاغية التي يخرج إليها الأمر كالدعاء والإباحة والتهديد ، ولاشك أنه أفاد من سابقيه وخاصة علماء النحو والأصول ، فقد أشار إلى أن الأصوليين يشترطون الاستعلاء في الأمر وهذه مسألة اختلف حولها الأصوليون .

١١ - جمال الدين بن هشام : (١)

ذكر ابن هشام في كتابه مغني اللبيب بعض معاني الأمر البلاغية كالدعاء نحو قوله تعالى : { لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ } (٢) والالتماس كقولك لمن يساويك " ليفعل فلان كذا " إذا لم ترد الاستعلاء عليه ، والخبر نحو { مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا } (٣) { اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ } (٤) والتهديد نحو { وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } (٥) { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٦) وقوله : { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا} (٧) فيحتمل اللامان منه التعليل فيكون مابعدهما منصوباً ، والتهديد فيكون مجزوماً ويتعين الثاني في اللام الثانية في قراءة من سكنها فيترجح بذلك أن تكون اللام الأولى كذلك ويؤيده أن بعدها { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } (٨) .

---

(١) أبو محمد جمال الدين عبدالله بن يوسف بن عبدالله المعروف بابن هشام الأنصاري ولد سنة ٧٠٨ هـ وتوفي سنة ٧٦١ هـ أحد أئمة العربية ولد ومات في مصر من مصنفاته مغني اللبيب وقطر الندى وأوضح المسالك .
انظر ترجمته الأعلام ١٤٧/٤ ، ومعجم المؤلفين ١٦٣/٦ - ١٦٤ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية " ٧٧ " .

(٣) سورة مريم ، الآية " ٧٥ " .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية " ١٢ " .

(٥) سورة الكهف ، الآية " ٢٩ " .

(٦) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٧) سورة العنكبوت ، الآية " ٦٦ " .

(٨) مغني اللبيب تحقيق الدكتور مازن المبارك و آخرين ، ص ٢٩٥ .

المبحث الثاني

منهج المفسرين :

أسهم المفسرون بنصيب وافر في نشأة البلاغة وإقامة دعائمها وإرساء قواعدها في معرض تفسيرهم لآيات كتاب الله تعالى وإبراز ماتحويه من صور بيانية وألوان بديعية وجمال فني وروعة أخاذة حتى نرى علماء البلاغة فيما بعد يستشهدون في قواعدهم البلاغية بأمثلة من القرآن الكريم سبقهم إليها المفسرون في الاستشهاد بها.

ولابد لمن يتصدى للتفسير من شروط يجب توافرها فيه أهمها سعة الأطلاع ، وأن يكون على قدم راسخة في علوم اللغة العربية بصفة عامة وعلوم البلاغة بصفة خاصة ، وقد أفرد الزركشي (١) فصلاً بعنوان " فيما يجب على المفسر البداءة فيه " وذكر منها علوم البلاغة (٢) .

وفي هذا الصدد يقول الزمخشري ((ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في إرتيادهما أونه وتعب في التنقير عنهما أزمنة وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله " (٣) " والوقوف على إعجاز القرآن وإدراك نظمه واجتلاء أسراره لايقوم إلا على تفهم البلاغة ومعرفة الفصاحة)) (٤) وقد صرح بذلك أبو هلال العسكري (٥) بقوله ((وقد

---

(١) محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي الشافعي بدر الدين توفي سنة ٧٩٤ هـ فقيه أصولي محدث تركي الأصل مصري المولد والوفاة له تصانيف كثيرة منها شرح جمع الجوامع للسبكي والمعتبر في تخريج أحاديث المنهاج .
انظر ترجمته الأعلام ٦٠/٦ - ٦١ ، ومعجم المؤلفين ٢٠٥/١٠ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ١٧٣/٢ وراجع أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٤٢

(٣) الكشاف ١٥/١ ومابعدها .

(٤) أثر النحاة في البحث الباغي ص ٤٣ .

(٥) أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيي بن مهران العسكري المتوفي سنة ٣٩٥ هـ أديب لغوي ومفسر من أشهر مصنفاته كتاب الصناعتين ، والأوائل ، والفروق اللغوية .
انظر ترجمته الأعلام ١٩٦/٢ ، ومعجم المؤلفين ٢٤٠/٣ .

علمنا أن الانسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه الله به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف وضمنه من الحلاوة وجلله من رونق الطلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها)) (١)

وقد أشار المفسرون إلى بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر ، وهذا ماسنوضحه في السطور القادمة :-

١ - ابن قتيبة : (٢)

ألف ابن قتيبة كتابه تأويل مشكل القرآن رد فيه على الطاعنين في القرآن الكريم ، مبيناً بعض الوجوه البلاغية في الذكر الحكيم .

وفي هذا الكتاب تحدث ابن قتيبة عن بعض الفنون البلاغية وعقد لها أبواباً كالمجاز والاستعارة والحذف والاختصار والكناية والتعريض وتكرار الكلام ومخالفة ظاهر اللفظ معناه .

وفي باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه أشار إلى بعض المعاني البلاغية التي يخرج إليها الأمر من ذلك قوله " ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد كقوله { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٣) وأن يأتي على لفظ الأمر وهو تأديب كقوله : { وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ } (٤) وعلى لفظ الأمر وهو إباحة كقوله : { فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً } (٥)

---

(١) الصناعتين تحقيق البجاوي وأبي الفضل ابراهيم ص ٧ .

(٢) ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ولد سنة ٢١٣ هـ وتوفي سنة ٢٧٦ هـ أحد أئمة العلم والأدب ، ولى قضاء دينور فترة من الزمن فنسب إليها من مؤلفاته " تأويل مختلف الحديث ، أدب الكاتب ، الشعر والشعراء ، وعيون الأخبار والمعارف . انظر ترجمته طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ص ١٨٣ والمنتظم لابن الجوزي ١٠٢/٥ ووفيات الأعيان ٤٢/٣ - ٤٤ ، والأعلام ٤ / ١٣٧ ، ومعجم المؤلفين ١٥٠/٦ - ١٥١ .

(٣) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ "

(٤) سورة الطلاق ، الآية " ٢ " .

(٥) سورة النور ، الآية " ٣٣ " .

" فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض " (١) .

٢ - الطبـــري : (٢)

يعد ابن جرير الطبري من أشهر المفسرين الذين تصدوا لتفسير القرآن الكريم ، وقد خلف لنا كتابه المشهور " جامع البيان في تفسير القرآن " وفيه تحدث عن بعض الألوان البلاغية وهو يتناول القرآن الكريم بالشرح والتحليل والتفسير " وهو في عرضه لصور البيان وألوان البلاغة في القرآن الكريم يلتزم عرض الأديب الذائق فلا يجردها من الجمال ولا يعريها من الرواء ويمتعنا بإسلوبه وآرائه " (٣)

من تلك المعاني التي أشار إليها في تفسيره – والتي هي موضع عناية هذه الدراسة – إشارته إلى خروج الأمر عن دلالته الأصلية إلى معان بلاغية كالتكذيب والتحدي كما في قوله تعالى { قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين } (٤) يقول : ((قل هاتوا برهانكم أي حجتكم وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى إلى إحضار حجة على دعواهم ما ادعوا من ذلك فإنه بمعنى تكذيب من الله لهم في دعواهم وقيلهم لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبداً وقد أبان قوله : {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ } (٥) على أن الذي ذكرنا من الكلام بمعنى التكذيب لليهود والنصارى في دعواهـم ما ذكـر الله عنهم)) (٦)

---

(١) سورة الجمعة ، الآية "١٠" وانظر تأويل مشكل القرآن تحقيق سيد صقر ص ٢٨٠ .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ولد سنة ٢٢٤ وتوفي سنة ٣١٠هـ كان إماماً في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ ولد في طبرستان واستوطن بغداد وتوفي فيها من مؤلفاته أخبار الرسل والملوك ، وجامع البيان في تفسير القرآن .

انظر ترجمته وفيات الأعيان ١٩١/٤ – ١٩٢ ، والأعلام ٦/ ٦٩ ، ومعجم المؤلفين ١٤٧/٩

(٣) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٤٤ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ١١١ " .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ١١٢ " .

(٦) تفسير الطبري ١ / ٣٩٣ .

وفي قوله تعالى : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (١) أشار إلى أن الأمر في هذه الآية الكريمة للتعجيز يقول ((إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه فأتوا بسورة مثله من جميع من يعينكم على الإتيان بها فإن لم تفعلوا فلاشك أنكم كذبة في زعمكم أن محمدا افتراه لإن محمداً لن يعدو أن يكون بشراً مثلكم فإذا عجز الجميع من الخلق أن يأتوا بسورة مثله فالواحد منهم عن أن يأتي بجميعه أعجز)) (٢) والتعجيز كما في قوله تعالى { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ } (٣) يقول : ((قال الله جل ثناؤه وإن كنتم أيها المشركون من العرب والكفار من أهل الكتابين في شك وهو الريب مما نزلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندي وأني الذي أنزلته إليه فلم تؤمنوا به ولم تصدقوه فيما يقول فأتوا بحجة تدفع حجته لأنكم تعلمون أن حجة كل ذي نبوة على صدقه في دعواه النبوة أن يأتي ببرهان يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق ومن حجة محمد صلى الله عليه وسلم على صدقه وبرهانه على نبوته وأن ما جاء به من عندي عجز جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم عن أن يأتوا بسورة من مثله وإذا عجزتم عن ذلك وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والدراية فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز)) (٤) ونلحظ التحليل المبسوط بعبارة سهلة بارعة .

وأشار إلى أن الأمر يفيد التهديد في قوله تعالى : { كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ } (٥) يقول تعالى ذكره تهدداً ووعيداً للمكذبين بالبعث كلوا في بقية آجالكم وتمتعوا ببقية أعماركم إنكم مجرمون } (٦)

---

(١) سورة يونس ، الآية " ٣٨ " .
(٢) تفسير الطبري ١١ / ٨٢ وما بعدها .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .
(٤) تفسير الطبري ١٢٨/١ .
(٥) سورة المرسلات ، الآية " ٤٦ " .
(٦) تفسير الطبري ١٤٩/٢٩ .

وأفاد الأمر الإباحة في قوله تعالى : { كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ } (١) يقول الطبري : ((عنى بقوله { كلوا من طيبات ما رزقناكم } من حلاله الذي أبحناه لكم فجعلناه لكم رزقاً)) (٢) وأشار إلى خروج الأمر إلى معنى السخرية والاستهزاء في قوله تعالى : { وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ } (٣) يقول الطبري ((وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال إن القوم سألوا ربهم تعجيل صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الأخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاء بوعيد الله)) (٤)

هذه بعض الصور البلاغية في تفسير الطبري وهي غيض من فيض كما يقولون ، ولاشك أن كثيراً من المفسرين الذين عنوا بالجوانب والملامح البلاغية قد أفادوا من الطبري إفادة طيبة وإن لم ينل حظه من الدرس البلاغي (٥)

وقراءة يسيرة في تفسير الطبري والكشاف - أو غيره من المفسرين - توضح لنا تأثر الزمخشري - ومن جاء بعده - بالطبري في كثير من تحليلاته البلاغية ، وهناك أمثلة كثيرة نكتفي بإزجاء بعضها وهي تدل دلالة قاطعة على تأثر الزمخشري بالطبري من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى : { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَيَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (٦) " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد

(١) سورة البقرة ، الآية " ٥٧ " .
(٢) تفسير الطبري ١ / ٢٣٧ .
(٣) سورة ص ، الآية " ١٦ " .
(٤) تفسير الطبري ٢٣ / ٨٦ .
(٥) ظهرت دراسات عديدة تناولت بلاغات المفسرين وبخاصة الزمخشري بينت مكانته وأثره في المفسرين والبلاغيين على حد سواء لكن الطبري لم يحظ إلى الآن فيما أعلم بعناية الدارسين لبلاغة القرآن ، ومن هذه الدراسات البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري والبلاغة في تفسير أبي السعود وغير ذلك كثير.
(٦) سورة التوبة ، الآية " ٨٠ " .

صلى الله عليه وسلم أدع لهؤلاء المنافقين الذين وصف صفاتهم في هذه الآيات بالمغفرة أو لاتدع لهم بها وهذا كلام خرج مخرج الأمر تأويله الخبر ومعناه إن استغفرت لهم يامحمد أو لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم)) (١) .

وينقل الزمخشري في تفسير هذه الآية ما ذكره الطبري إذ يقول : ((وقد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر كأنه قيل لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم)) (٢) وفي تفسير قوله تعالى : { قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ...} (٣) يقول الطبري : ((وخرج قوله انفقوا طوعاً أو كرهاً مخرج الأمر ومعناه الخبر والعرب تفعل ذلك في الأماكن التي يحسن فيها " إن " التي بمعنى الجزاء كما قال جل ثنــاؤه : {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ }فهو في لفظ الأمر ومعناه الخبر ومنه قول الشاعر :

أسيىء بنا أو أحسني لا ملومة .·. لدينا ولا مقلية إن تقلت

فكذلك قوله : { أَنْفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً } إنما معناه : إن تنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم)) (٤) .

ونجد الزمخشري يردد ماذكره الطبري إذ يقول : ((فإن قلت كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال : { لن يتقبل منكم } قلت هو أمر فــي معنى الخبر كقولــه تعالــى : { قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَه الرَّحْمَنُ مَدّاً } (٥) ومعناه لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً – ونحو قوله تعالى : { اسْتَغْفِر لَهُمْ أَوْ لاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ }– وقوله – أسيىء بنا أو أحسني لاملومة – أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم)) (٦)

ويقول الطبري مفسراً قوله تعالى :{ بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً

(١) تفسير الطبري ١٠ / ١٣٦ .
(٢) الكشاف ٢ / ٢٠٤ وما بعدها .
(٣) سورة التوبه ، الآية " ٥٣ " .
(٤) تفسير الطبري ١٠ / ١٠٧ .
(٥) سورة مريم ، الآية " ٧٥ " .
(٦) الكشـاف ٢ / ١٩٥ .

أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } (١) يقول الطبري ((بشر المنافقين أي أخبر المنافقين ...)) (٢)

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

وقد استفاد الزمخشري من هذا التفسير ، إذ نجده يقول ((وضع بشر مكان أخبر تهكما بهم)) (٣) وهناك أمثلة كثيرة (٤) نجد الزمخشري ينسج فيها على منوال الطبري ويسير على خطوه وايقاعاته لكنني اكتفي بهذا القدر مشيراً إلى أن ((عادة الأقدمين في التأليف كانت النقل عمن يعجبون به دون إسناده لصاحبه إما لشهرة القول عنه أو لأن العلم ملك الجميع يؤخذ منه ما يؤخذ ويترك مايترك مادامت شخصية الناقل تسيطر على ماتنقل بعلمها ومعرفتها ولاتكتفي بتقليد أو نقل فحسب)) (٥) وهذا حال الزمخشري فيما أفاده من تفسير الطبري .

٢ - الزمخشري : (٦)

تناول كثير من الباحثين المعاصرين بلاغة الزمخشري (٧) ، وما أضافه إلى البلاغة العربية ، وأثره في البلاغيين والمفسريين الذين جاءوا بعده .

فالزمخشري علم من أعلام التفسير والبلاغة وهو من أكثر المفسرين عناية

---

(١) سورة النساء ، الآية " ١٣٨ " .
(٢) تفسير الطبري ٥ / ٢١١ .
(٣) الكشاف ٢ / ٥٧٢ .
(٤) انظر تفسير الطبري ٤١/٦ ، ٢٩/٨ ومابعدها ، ٢٥ / ٨٠ ، ٢٧ / ١٤ والكشاف ٥٩٢/١ ، ٢ / ٥٢ ، ٣ / ٥٠٧ ، ٤ / ٢٣ .
(٥) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه ص ٨٧ .
(٦) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري ولد سنة ٤٦٧ وتوفي سنة ٥٣٨ هـ من مصنفاته الكشاف وأساس البلاغة والمستقصي في الأمثال انظر ترجمته وفيات الأعيان ١٦٨/٥ - ١٧٣ ، والأعلام ٧ / ١٧٨ ، ومعجم المؤلفين ١٢ / ١٨٦ ، وتاريخ الادب العربي كارل بروكلمان ٥ / ٢١٥ - ٢١٧ .
(٧) انظر مثلاً منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه للدكتور مصطفى الصاوي الجويني والبلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبو موسى .

بالبلاغةوقد نثر في الكشاف مسائلها واستعان بها في تفسير القرآن الكريم ، فعلما المعاني والبيان من الوسائل المهمة في التفسير حيث يقول : ((ولا يغوص علي شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما : علم المعاني وعلـــم البيان)) (١) .

((وإذا كان الزمخشري قد طبق في كشافه كثيراً مما قرره الشيخ عبدالقاهر – وتوصل إليه بثاقب نظره وطول تأمله في التراكيب – في الدلائل والأسرار – فقد أضاف أصولاً بلاغية هامة لم يعرض لها عبدالقاهر ونمى كثيراً من الأصول السابقة وحرر كثيراً من المسائل)) (٢)

ومن الفنون البلاغية التي ضمها الكشاف القصر والوصل والفصل والتقديم والتأخير والالتفات والتشبيه والتمثيل والاستعارة والجناس والطباق وغير ذلك من الفنون البلاغية ولعل من أهم الفنون البلاغية التي تناولها الزمخشري في كتابه والتي نسعى لإبرازها في هذه الدراسة خروج الأمر عن دلالته الأصلية إلى معان بلاغية تستفاد من السياق بمعونة القرائن ودلالة المقام .

ويشرح لنا الزمخشري معنى الأمر عند تفسير قوله تعالى : {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } (٣) فيقول :((فإن قلت ما الأمر ؟ قلت هو طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بآمر يأمره به فقيل له أمر تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به ، كما قيل له شأن ، والشأن : الطلب والقصد يقال شأنت شأنــه أي قصدت قصده)) (٤)

وهاتان الدلالتان اللتان ذكرهما الزمخشري للأمر نجدها تتردد في المعاجم اللغوية .

وقد لاحظ الزمخشري – أن الأمر قد يفيد معاني أخري تفهم من السياق وقرائن الأحوال ، منها التهكم كما في قوله تعالى:{ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٥)

---

(١) الكشاف ١ / ١٦ وراجع مناهج بلاغية ص ٥٨ .
(٢) البلاغية القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٧ " .
(٤) الكشاف ١ / ٢٦٩ وراجع البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٠٤ .
(٥) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .

يقول ((ذق إنك أنت العزيز الكريم على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه " (١)

ومنها الاستهزاء كما في قوله تعالى : { قُلْ فَادْرَأُواْ عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٢) يقول " استهزاء بهم أي إن كنتم رجالاً دفاعين لأسباب الموت فادرأوا جميع أسبابه حتي لا تموتوا)) (٣) .

ومنها الإباحة نحو قوله تعالى : {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٤) يقول : ((إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم كأنه قيل : وإذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطادوا)) (٥)

ومنها التخلية والوعيد كما في قوله عز وجل { لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } (٦) يقول :{ فتمتعوا فسوف تعلمون } تخلية ووعيد ... " (٧)

ومنها أن يأتي الأمر مراداً به الخبر كما في قوله تعالى : { قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا } (٨) يقول ((أي مد له الرحمن : يعني أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل لتقطع معاذير الضال)) (٩)

ولايستطيع باحث أن يغفل جهد الزمخشري في البحث البلاغي بصفة عامة ، وأثره القوي فيمن جاء بعده من المفسرين والبلاغيين وبخاصة ما أضافه إلى الأمر من معان بلاغية جديدة لم يسبق إليها .

---

(١) الكشاف ٣ / ٥٠٧ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية "١٦٨" .
(٣) الكشاف ١ / ٤٧٩ .
(٤) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .
(٥) الكشاف ١ / ٥٩٢ .
(٦) سورة النحل، الآية " ٥٥ " .
(٧) الكشاف ٢ / ٤١٤ .
(٨) سورة مريم ، الآية " ٧٥ " .
(٩) الكشاف ٢ / ٢١

ولهذا نستطيع أن نقول باطمئنان ونردد ما ذكره بعض المعاصرين من أن البلاغيين ((لم يستنفدوا كل ما ضمنه الزمخشري في تفسيره من دقائق المعاني الإضافية للصيغ المختلفة)) (١)

٤ - فخر الدين الرازي : (٢)

حوى التفسير الكبير للرازي ألواناً بلاغية كثيرة ليس هنا مجال ذكرها ويكفي أن نشير إلى بعض المعاني البلاغية التي ذكرها للأمر منها التهديد والوعيد كما في قوله تعالى : { قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ } (٣) وهذا وعيد وتهديد (٤)

وللتهديد قوله تعالى : {قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار } (٥) يقول ((لما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال { قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً } وليس المراد منه الأمر بل الزجر)) (٦)

والإباحة كما في قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } (٧) يقول { فامشوا في مناكبها } أمر إباحة وكذا القول في قوله { كلوا من رزقه } (٨)

والدوام والاستمرار كما في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٥٦ .

(٢) أبو عبدالله محمد بن الحسين بن الحسن التيمي البكري الملقب بفخر الدين ولد سنة ٥٤٤ هـ وتوفي سنة ٦٠٦ هـ الفقيه الشافعي فاق عصره في المعقول والمنقول وهو قرشي الأصل من آثاره مفاتيح الغيب في تفسير القرآن .
انظر ترجمته :وفيات الأعيان ٢٤٨/٤ - ٢٥٢ ، والأعلام ٦ / ٣١٣ ، ومعجم المؤلفين ٧٩/١١ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية " ١٥٨ " .

(٤) التفسير الكبير ١٤ / ٨ .

(٥) سورة الزمر ، الآية " ٨ " .

(٦) التفسير الكبير ٢٦ / ٢٤٩ .

(٧) سورة الملك ، الآية " ١٥ " .

(٨) التفسير الكبير ٣٠ / ٦٩ .

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً } (١) يقول : إنه أمر بالمداومة " (٢) .

ومنها أن يأتي الأمر بمعنى الخبر كما في قوله تعالى : { فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } (٣) يقول : ((هذا وإن ورد بصيغة الأمر إلا أن معناه الإخبار بأنه ستحصل هذه الحالة والدليل عليه قوله بعد ذلك : جزاءً بما كانوا يكسبون)) (٤) .

٥ - أبو حيان الأندلسي : (٥)

تناول أبو حيان في تفسيره البحر المحيط مايتناوله المفسرون من تأويل لآي الذكر الحكيم واتكأ على الزمخشري والرازي وغيرهما ، وإن كان له فضل عناية بالنحو والصرف والقراءات ومسائل اللغة ، وكثيراً ماكان يعترض على الزمخشري في مسائل النحو والإعراب والتصريف فكلاهما - كما نعلم - إمام في العربية .

وعلى الرغم من عنايته بالنحو والصرف فإن عنايته بالبلاغة أمر واضح فقد نثر في تفسيره كثيرا من الفنون البلاغية كالتشبيه والاستعارة والتمثيل والطباق والكناية وغير ذلك .

وقد نص في بعض أوامر القرآن الكريم الى أن الأمر فيها يخرج عن معناه الأصلي إلى معان بلاغية كالتهديد كما في قوله تعالى : { ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلا } (٦) يقول : ((ومهلهم قليلا وعيد لهم بسرعة الانتقام والقليل موافـــــاة آجالهم)) (٧)

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (١) .
(٢) التفسير الكبير ٢٥/ ١٩٠ .
(٣) سورة التوبة ، الآية (٨٢) .
(٤) التفسير الكبير ١٦/١٥٣
(٥) ابو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي ولد سنة ٦٤٥ هـ وتوفي سنة ٧٤٥ هـ من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات ، ولد في غرناطة وتوفي بالقاهرة ، من مصنفاته: البحر المحيط وتحفة الأريب بما في القرآن من الغريب .
انظر ترجمته : الأعلام ٧/١٥٢ ؛ ومعجم المؤلفين ١٢/١٣٠ - ١٣١.
(٦) سورة المزمل ، الآية (١١) .
(٧) البحر المحيط ٨/٣٦٤ .

ومن صور التهديد التي ذكرها قوله تعالى : { كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ } (١) يقول { كلوا وتمتعوا } خطاب للكفار في الدنيا أي زماناً قليلاً إذ قصـاري أكلكم وتمتعكم الموت ، وهو خطاب تهديد لمن أجرم مـن قريش وغيرهـم)) (٢) والإباحة كما في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَتَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِين } (٣) يقول ((كلوا أمر إباحة وتسويغ لأنه تعالى هو الموجد للأشياء فهو المتصرف فيها على مايريد)) (٤)

٦- أبو السعـود : (٥)

من بين المفسرين الذين كان لهم اهتمام بالبلاغة أبو السعود ، فقد نثر في كتابه ألواناً بلاغية عديدة منها خروج الأمر عن دلالته الأصلية إلى معان بلاغية كالتعجيز نحو قوله تعالى : { وَقَالُوا يَاصَالِحُ إئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَـا إِنْ كُنْتَ مِـنَ الْمُرْسَلِين } (٦)

يقول أبو السعود : ((وقالوا مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والإفحام على زعمهم {ياصالح إئتنا بما تعدنا } أي من العذاب)) (٧)

فالأمر للتعجيز بناء على زعمهم كما ذكر أبو السعود ، وجعل الزمخشري الأمر في هذه الآية لاستعجال العذاب (٨) ، ((ورأي أبي السعود كما ذكر بعض الباحثين أولى بالقبول لأن طلبهم كان مبنياً على أنه لن يستطيع الإتيان بشيء مما

(١) سورة المرسلات ، الآية " ٤٦ " .
(٢) البحر المحيط ٨ / ٤٠٨ .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ١٦٨ " .
(٤) البحر المحيط ١ / ٤٧٨ .
(٥) محمد بن محمد بن مصطفي العمادي الحنفي المعروف بأبي السعود ولد سنة ٨٩٨هـ وتوفي سنة ٩٨٢هـ ، فقيه وأصولي ومفسر من علماء الترك المستعربين كان عارفاً باللغات العربية والفارسية ولد بقرب القسطنطينية ثم تقلد فيما بعد القضاء فيها وبها مات .
انظر ترجمته : الأعلام ٧ / ٥٩ ؛ ومعجم المؤلفين ١١ / ٣٠١ – ٣٠٢ .
(٦) سورة الأعراف ، الآية " ٧٧ " .
(٧) إرشاد العقل السليم ، تحقيق عبدالقادر عطا ٢/٣٦٥ .
(٨) الكشاف ٢ / ٨٧ .

وعدهم به ، وعصيانهم لأمر الله ومخالفتهم لدعوته واستخفافهم بها دليل على ذلك)) (١)

وللتعجيز أيضا قوله تعالى : { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٢) يقول إنه ((من باب التعجيز وإلقام الحجر)) (٣)

والإباحة كما في قوله تعالى : { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (٤) . يقول : ((وهذا كما ترى إطلاق كلي حيث أبيح لهما الأكل منها على وجه التوسعة البالغة المزيحـــة للعلل)) (٥) .

والتهديد نحو قوله تعالى : { قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } (٦) .

يقول أبو السعود : ((أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين بأن يواجههم بتشديد التهديد وتكرير الوعيد)) (٧) ويضيف قائلاً : ((وإيراد التهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعاً عليه فيحمله بالأمر على مايؤديه إليه وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالذى أمر به بحيث لايجد إلى التفصى عنه سبيلاً)) (٨)

---

(١) انظر البلاغة في تفسير أبي السعود ص ٢٠١ – بحث مخطوط بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر –
(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .
(٣) إرشاد العقل السليم ١ / ١١١ .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٣٥ " .
(٥) إرشاد العقل السليم ١ / ١٥٨ .
(٦) سورة الأنعام ، الآية " ١٣٥ " .
(٧) إرشاد العقل السليم ٢ / ٢٨٨ .
(٨) المصدر السابق الموضع نفسه ؛ وانظر البلاغة في تفسير أبي السعود ص ٢٠٠-٢٠٥ .

٧ - الشهاب الخفاجي : (١)

ألف الشهاب الخفاجي حاشية الشهيرة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير الإمام البيضاوي (٢) وقد نثر فيها الفنون البلاغية والخصائص البيانية التى يمتاز بها الأسلوب القرآني في معرض تفسيره لآيات القرآن المجيد ، من ذلك خروج الأمر إلي بعض المعاني البلاغية كالتعجيز نحو قوله تعالى : [مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] (٣) يقول : ((قوله مالكم إلخ ...)) إلتفات لزيادة التوبيخ والأمر في قوله : [فأتوا] للتعجيز والإضافة للتهكم)) (٤)

والتهديد نحو قوله تعالى : [فَذُوقُوا بِمَانَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] (٥) يقول : [فذوقوا] أمر تهديـدي توبيـخي (٦) .

والإباحة كما في قوله تعالى : [يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَاتَعْمَلُون عَلِيمٌ] (٧) يقول :((قوله إباحة الطيبات إشارة إلى أن الأمر للأباحـة والترفيه)) (٨)

---

(١) أحمد بن محد بن عمر الخفاجي المصرى الحنفي المعروف بشهاب الدين ، ولـد بمصر سنة ٩٧٧ وتوفي بها سنة ١٠٦٩ هـ ، قاضي القضاة صاحب التصنايف في اللغة والأدب من مصنفاته : شرح درة الغواص في أوهام الخواص للحريـري وريحانة الالبا وزهرة الحياة الدنيا وشفاء الغليل بما في كلام العرب مـن الدخيل .
انظر ترجمته : الأعلام ١ / ٢٣٨ ؛ ومعجم المؤلفين ٢ / ١٣٨ .

(٢) أو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد بن على الشيرازي ناصر الدين البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ، قاض وعالم بالتفسير والفقه والعربية والحديث ، توفي في تبريز ، من مصنفاته : منهاج الوصول إلى علم الأصول ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير .
انظر ترجمته : الأعلام ٤ / ١١٠ ؛ ومعجم المؤلفين ٦ / ٩٧ - ٩٨ .

(٣) سورة الصافات : الآيات " ١٥٤ - ١٥٧ " .

(٤) حاشية الشهاب ٧ / ٢٨٩ .

(٥) سورة السجده : الآية " ١٤ " .

(٦) حاشية الشهاب ٧ / ١٥٢ .

(٧) سورة المؤمنون : الآية " ٥١ " .

(٨) حاشية الشهاب ٦ / ٣٣٥ .

والتحقير نحو قوله تعالى : {قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ }(١)

يقول الشهاب : ((فجوز لهم التقديم لا لإباحة فعلهم بل لتحقيرهم وقلة مبالاته بهم وللوثوق بالتأييد الآلهي وأنه لن يغلب سحر معجزة قط ، وهذا لا دلالة له على الرضا بتلك المعارضة ، وأيضاً اذن لهم ليبطل سحرهم)) (٢) .

ومنها الأمـر بمعنى الخبر كقوله تعالى : { فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً } (٣) يقول : ((فجاء بلفظ الأمر ومعناه الخبر)) (٤) .

ففى هذه الأمثلة السابقة أشار الشهاب إلى بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر بمعونة القرائن ودلالة السياق والمقام .

٨ - الآلوسـي : (٥)

تناول الألوسي في تفسيره روح المعاني الفنون البيانية والنكات البلاغية التي يتسم بها النظم الفني في القرآن الكريم .

ويهمنا هنا أنه تعرض لذكر بعض المعاني البلاغية التى يفيدها الأمر كالتعجيز نحو قوله تعالى :{ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ..} (٦)

يقول :((والأمر من باب التعجيز وإلقام الحجر ...، وفيه من التبكيت والتخجيل لهم في الارتياب مالا يخفى)) (٧) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان " ١١٥ - ١١٦ " .

(٢) حاشية الشهاب ٤ / ٢٠٤ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ٨٢ " .

(٤) حاشية الشهاب ٤ / ٣٣٥ .

(٥) أبو الثناء شهاب الدين محمود شكرى الألوسي الحسني مفسر محدث فقيه أديب لغوي نحوي مشارك في بعض العلوم ، كان مولده ببغداد في سنة ١٢١٧ هـ في ١٤ من شهر شعبان وبها توفي في سنة ١٢٧٠ هـ في ٢٥ من شهر ذي القعدة ، من تصانيفه : روح المعاني ، وكشف الطرة عن الغرة في شرح درة الغواص .
أنظر ترجمته : الأعلام ٧/١٧٦ - ١٧٧ ؛ ومعجم المؤلفين ١٢/١٧٥ .

(٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ "

(٧) روح المعاني : ١ / ١٩٣ .

والإباحة كما في قوله : { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُون عَلِيمٌ } (١) يقـول :((والأمر للإباحة والترفيه)) (٢)

وللإباحة أيضاً قوله تعالى : { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .. } (٣) يقول ((أباح لهما الأكل إزاحة للعذر في التناول مما حظر)) (٤)

والتسوية أو التخيير كما في قوله تعالى : { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ } (٥) يقول ((الظاهر أن المراد به وبمثله التخيير)) ، ... واختار غير واحد أن المراد التسوية بين الأمرين كما في قوله تعالى : { أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً } (٦) .

وجدير بالذكر إلى أن الألوسي لم يقدم جديداً في ميدان البحث البلاغي ، فقد كان يستمد توجيهاته البلاغية من المفسرين السابقين وخاصة البيضاوي وأبا السعود ولانبالغ إن قلنا إنه احياناً ينقل عباراتهم وألفاظهم .

٩ - محمد الطاهر بن عاشور : (٧)

طبق الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير القواعد البلاغية تطبيقاً رائعاً ، وكتابه مليء بالفنون البلاغية والنكات واللطائف البيانية ، فالطاهر استطاع أن يهضم علوم البلاغة - مفيداً مما سبقه من كتب الأئمة - هضماً جيداً وأن يطبقها على آيات القرآن الكريم محاولاً في ذلك إبراز خصائص التعبير الفني للقرآن الكريم .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية " ٥١ " .
(٢) روح المعاني ١٨ / ٣٩ ومابعدها .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٣٥ " .
(٤) روح المعاني ١ / ٢٣٤ .
(٥) سورة التوبة ، الآية " ٨٠ " .
(٦) سورة التوبة ، الآية "٥٣" وانظر روح المعاني ١٠/ ١٤٧ .
(٧) محمد الطاهر بن عاشور ولد سنة ١٢٩٦ هـ وتوفي سنة ١٣٩٣ هـ عالم أديب تولي القضاء والفتيا ونقابة الأشراف بتونس وكان من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة له مصنفات عديدة منها مقاصد الشريعة الأسلامية والتحرير والتنوير في تفسير القرآن الكريم وأصول الإنشاء والخطابة وموجز البلاغة .
انظر ترجمته : الأعلام ٦ / ١٧٤ ، ومعجم المؤلفين ١٠ / ١٠٠ .

وفي مواطن عديدة أشار الطاهر إلى خروج الأمر عن دلالته الأصلية إلى معان بلاغية كالتعجيز نحو قوله تعالى : { قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (١) يقول ((والأمر في قوله { أروني } مستعمل في التعجيز وهو تعجيز للمشركين عن إبداء حجة لإشراكهم ، وهو انتقال من الاحتجاج على بطلان إلهية الأصنام بدليل النظير في قوله { قُلْ مَن يَرْزُقُكُم } (٢) إلى إبطال ذلك بدليـــل البداهة)) (٣) .

والإباحة كما فـي قولـه تعالى : { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٤) يقــول : ((فالأمر فيـــه للإباحة)) (٥) .

والتكوين والتسخير نحـو قولـه تعالـى : { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. } (٦) يقـول : ((والأمر في قوله { أوبي } أمر تكوين وتسخير)) (٧) .

فالأمر في هذه الآية للتكوين ، ويبدو أن الذي دفع الطاهر بن عاشور إلى هذا القول إختلاط دلالتي التكوين والتسخير في ذهنه ، فالأمر للتكوين لأن التسخير التبديل مـن حالة إلـى حالـة أخرى فيها مهانة وذلة كما ذكـر البلاغيـون . (٨)

والدوام كما في قوله تعالى : {وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (٩) يقول ((الأمر في قوله { ادع إلى ربك } مستعمل في الأمر بالدوام على الدعوة إلى الله لا إلى إيجاد الدعوة لأن ذلك حاصل ، أي لايصدنك إعراض المشركين عن إعادة دعوتهم إنذاراً لهم)) (١٠) .

---

(١) سورة سبأ ، الآية " ٢٧ " .
(٢) سورة سبأ ، الآية " ٢٤ " .
(٣) التحرير والتنوير ٢٢ / ١٩٦ .
(٤) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .
(٥) التحرير والتنوير ٦ / ٨٥ .
(٦) سورة سبأ ، الآية " ١٠ " .
(٧) التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٦ .
(٨) انظر شروح التلخيص ٢ / ٣١٧ .
(٩) سورة القصص ، الآية " ٨٧ " .
(١٠) التحرير والتنوير ٢٠ / ١٩٦ .

والتحريض والحث كقوله تعالى : { وفي ذلك فليتنافس المتنافسون } (١) يقول : ((ولام الأمر في { فليتنافس } ((مستعملة في التحريض والحث)) (٢) والتسوية نحو قوله تعالى : { قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ } (٣) يقول الأمر في { أنفقوا } للتسوية)) (٤) .

والتخيير كما في قوله تعالى : { فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ...} (٥) يقول ((الأمر في { أمسكوهن } أو { فارقوهن } للإباحة وأو فيه للتخيير)) (٦) ويبدو أن الإباحة والتخيير عنده متداخلان .

وبعد هذه الجولة السريعة مع المفسرين أصبح واضحاً أن للمفسرين نصيباً كبيراً – وبخاصة الزمخشري ومن سار على دربه – في نشأة علوم البلاغة ونضجها وإقامة دعائمها ، وتأثيراً واضحاً في البحث البلاغي بصفة عامة ، والكشف عن خصائص النظم الفني في القرآن الكريم بصفة خاصة .

---

(١) سورة المطففين ، الآية " ٢٦ " .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠ / ١٩٦ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ٥٣ " .

(٤) التحرير والتنوير ١٠ / ٢٢٦ .

(٥) سورة الطلاق ، الآية " ٢ " .

(٦) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٠٨ .

المبحث الثالث

منهج الأصوليين :

ليس من شك في أن للأصوليين أثراً كبيراً في تطور البحث البلاغي ، فقد أسهموا في إثراء البحث البلاغي وبخاصة في الدلالة والخبر والإنشاء والحقيقة والمجاز وغيـــر ذلك .

وكثير من البلاغيين أشاروا إلى الصلة الوثيقة بين علمى المعاني وأصول الفقه، يقول بهاء الدين السبكي ((أعلم أن علمى أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل فإن الخبر والإنشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الأصول ، وإن كل مايتكلم عليه الأصولي من كون الأمر للوجوب والنهي للتحريم ومسائل الأخبار والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد والإجمال والتفصيل والتراجيح كلها ترجع إلى موضوع علم المعاني وليس في أصول الفقه ما ينفرد به كلام الشارع من غيره إلا الحكم الشرعي والقياس وأشياء يسيرة)) (١)

وعلى الرغم من إشارة السبكي السابقة التى كان من الممكن أن تفتح مجالاً رحباً من الدراسة البلاغية عند المهتمين بالتأريخ لعلوم البلاغة نجد كثيراً من المعاصرين قد غفلوا عما كتبه الأصوليون من بحوث بلاغية خصبة ، وهم بصنيعهم هذا يطوون صفحات مشرقة من البحث البلاغي ويهملون حلقه من حلقات التطور التاريخي لعلوم البلاغة . (٢)

وقد وقفت من خلال قراءتي المتأنية في كتب أصول الفقه على كنز بلاغي يضيف إلى البحث البلاغي مدداً لا ينضب .

وإذا كان البلاغيون ذوي عناية بالمعاني التي تدل عليها الصيغ في سياقها بمعونة القرائن والمقام فإنه - والحق أبلج - لم يستطيعوا أن يقدموا في دراستهم لأسلوب الأمر والنهي ماقدمه الأصوليون من المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر والنهي ، فقد تجاوزت دلالة الأمر ثلاثين وجهاً من وجوه المعاني الثوان ، وبلغت دلالة النهي خمسة عشر وجهاً وذلك يفوق ما قدمه البلاغيون - وبخاصة مدرسة

---

(١) عروس الأفراح ١/ ٥٣ وراجع مناهج بلاغية ص ٦٤ .

(٢) لا ترى ذكراً للأصوليين في كتب كثيرة اهتمت بالتطور التاريخي لعلوم البلاغة ، انظر على سبيل المثال البلاغة تطور وتاريخ ، ومناهج البحث البلاغي للدكتور عبدالسلام عبدالحفيظ وتاريخ علوم البلاغة للشيخ المراغي وتاريخ نشأة علوم البلاغة وأطوارها للدكتور عبدالعزيز عرفه .

السكاكي – في هذا ، إلى غير ذلك من الدقائق ذات العلاقة الوثقى بخصائص التراكيب ودلالتها (١) مثل التفريق بين الإباحة والامتنان ، وبين التسخير والتكوين ، وبين التهديد والإنذار ، وغير ذلك من المعاني البلاغية المتقاربة التي سنكشف عنها في هذا المبحث إن شاء الله .

١ – أبو الحسين البصري المعتزلي : (٢)

ضم كتاب المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري كثيراً من البحوث البلاغية كالحقيقة والمجاز والأمر والنهي والعموم والخصوص والمجمل والمبين ، ونجده يقول في باب ترتيب أبواب أصول الفقه ((أعلم أنه لما كانت أصول الفقه هي طرق الفقه وكيفية الاستدلال بها وما يتبع كيفية الاستدلال بها ، وكان الأمر والنهي من طرق الفقه ، وكان الفصل بين الحقيقة والمجاز تفتقر إليه معرفتنا بأن الأمر والنهي والعموم ما الذي يفيد على الحقيقة والمجاز ، وجب تقديم أقسام الكلام وذكر الحقيقة منه والمجاز وأحكامهما وما يفصل به بينهما على الأوامر والنواهي ليصح أن نتكلم في أن الأمر إذا استعمل في الوجوب كان حقيقة ، ثم الحروف لأنه قد يجري ذكر بعضها في أبواب الأمر ، فلذلك قدمت عليها ، ثم نقدم الأوامر والنواهي على باقي الخطاب لأنه ينبغي أن يعرف فائدة الخطاب في نفسه ، ثم نتكلم في شمول تلك الفائدة وخصوصها وفي إجمالها وتفصيلها ، ونقدم الأمر على النهي لتقديم الإثبات على النفي ...))(٣)

وقد أشار البصري في أكثر من موضع في كتابه إلى بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر من ذلك قوله ((إن صيغة الأمر يجوز إستعمالها في التهديد والإباحة))(٤)

---

(١) راجع دلالة الألفاظ عند الأصوليين للدكتور محمود توفيق محمد سعد ص ١٠٠ ومابعدها .

(٢) محمد بن على بن الطيب البصري المتكلم على مذهب المعتزلة وهو أحد أئمتهم الأعلام المشار إليه في هذا الفن ، كان إمام وقته ، سكن بغداد وبها توفي يوم الثلاثاء خامس شهر ربيع الآخر سنة ٤٣٦ هـ من مصنفاته المعتمد في أصول الفقه وشرح الأصول الخمسه وكتاب في الإمامه .
انظر ترجمته المنتظم لابن الجوزي ٨ / ١٢٦ ، وفيات الأعيان ٤ / ٢٧١ ، ومعجم المؤلفين ١١ / ٢٠ .

(٣) المعتمد في أصول الفقه تحقيق محمد حميد الله وآخرين ١ / ١٣ .

(٤) المعتمد في أصول الفقه تحقيق محمد حميد الله وآخرين ١ / ٧٧ .

ويقول في موضع آخر ((وقد قال قاضي القضاة : إن الأمة إنما حملت قول الله سبحانه وتعالى : { فَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (١) وقوله سبحانه { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ } (٢) على الإباحة ، لأنها علمت من قصد النبي صلى الله عليه وسلم ، ضرورة أن هذه الأشياء مباحة لولا ماعرض فيها من إحرام ، أو تشاغل بالصلاة وما أشبه ذلك)) (٣) .

مما سبق يتضح لنا أن أبا الحسين البصري قد فطن إلى خروج الأمر عن دلالة وضعه الأصلي إلى معان بلاغية كالتهديد والإباحة .

٢ - محفوظ بن أحمد الكلوذاني الحنبلي : (٤)

تناول الكلوذاني في كتابه التمهيد في أصول الفقه الأمر ووضع له تعريفاً ، وذكر بعض المعاني البلاغية التى تفيدها صيغة الأمر ، حيث يقول ((إن صيغة الأمر ترد والمراد بها الأمر كقوله تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } (٥) وترد والمراد بها التهديد كقوله { اعْمَلُوا مَاشِئْتُمْ } (٦) وترد والمراد بها التعجيز كقوله تعالى : { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ } (٧) وترد والمراد بها التكوين كقوله تعالى : { كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} (٨) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .
(٢) سورة الجمعة ، الآية " ١٠ " .
(٣) المعتمد في أصول الفقه ٨٤/١ .
(٤) ابو الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني البغدادي الأزجي الحنبلي ولد سنة ٤٣٢ وتوفي سنة ٥١٠ هـ ، إمام الحنبيلة في عصره أصله من كلواذي من ضواحي بغداد ، كان مشاركاً في أنواع عديدة من العلوم من مؤلفاته التمهيد في أصول الفقه والهداية في فروع الفقه الحنبلي .
انظر ترجمته الأعلام ٤ / ٣٠٢ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ١٢٧ .
(٥) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " وتكررت في مواضع عديدة .
(٦) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .
(٧) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .
(٨) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " والأمر في هذه الآية للتسخير كما ذكر علماء البلاغة أنظر الإيضاح ١ / ٢٤٢ وشروح التلخيص ٢ / ٣١٧ .

وترد والمراد بها الهوان كقوله تعالى : { اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } (١)
وترد والمراد بها الإباحة كقوله تعالى (٢) { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٣)
٣ - فخر الدين الرازي : (٤)

لاشك أن فخر الدين الرازي قد تأثر بثقافته الموسوعية في كل ماكتبه وبخاصة في علم أصول الفقه والتفسير ، فقد جمع الله له خمسة أشياء ماجمعها لغيره في عصره: سعة العبارة في القدرة على الكلام وصحة الذهن والأطلاع الذي لا مزيد عليه والحافظة المستوعبة التى تعينه على مايريد من تقدير الأدلة والبراهين (٥)

ولعل أهم مؤلفاته الأصولية كتابه المحصول في علم الفقه ، بل هو أهم كتاب في أصول الفقه كما قيل ، لأن فيه حصيلة أهم كتب الأصول التي كتبت قبل الفخر بأفصح أساليب التعبير وأجود طرائق الترتيب والتهذيب مضافا إليها من آرائه وفوائد فكره وحسن ايراداته الكثير(٦) .

وقد تأثر بالرازي في منهجه عدد كبير من الأصوليين ، ((فما إن ظهر المحصول حتى أقبل طلاب الأصول عليه واستغنوا عن كتب المتقدمين ورأوا فيه كل مايبتغيه طلاب الأصول منه ، فاقبل عليه الأصوليون ما بين دارس وشارح ومعلق ومختصر)) (٧) .

والرازي تناول كغيره من الأصوليين الأمر والنهي في (المحصول) وذكر للأمر خمسة عشر وجهاً ، وإن كنا نرى سابقيه من الأصوليين يشيرون إلى قدر يسير من المعاني التي تفيدها صيغة الأمر ، أما الرازي فقد أفاض في الحديث عن

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .
(٢) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .
(٣) التمهيد في أصول الفقه تحقيق الدكتور مفيد أبو عمشة ١ / ١٢٩ ومابعدها .
(٤) سبق أن تناولنا الرازي في طائفة المفسرين وسنعرض له هنا في طائفة الأصوليين .
(٥) الوافي بالوفيات للصفدي ٤ / ٢٤٨ وراجع المحصول مقدمة المحقق الجزء الأول القسم الأول ص ٣٩ .
(٦) المحصول مقدمة المحقق ص ٥٣ ومابعدها .
(٧) راجع المحصول مقدمة المحقق ص ٥٩ - ٦٤ .

هذه المعاني بشكل منقطع النظير لم نظفر على مثله عند سابقيه ، والسبب في ذلك تأثره بهذه الثقافة الموسوعية .

يقول الرازي ((قال الأصوليون صيغة (افعل) مستعملة في خمسة عشر وجهاً : الأول الايجاب كقوله تعالى : { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } (١) الثاني الندب كقوله : { فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً } (٢) و{احسنوا } (٣) ويقرب منه التأديب كقوله عليه السلام ((كل مما يليك)) (٤) فإن الإذن مندوب إليه وإن كان قد جعله بعضهم قسماً مغايراً للمندوب. الثالث : الإرشاد كقوله تعالى :{ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ } (٥) { فَاكْتُبُوهُ } (٦) .

والفرق بين الندب والإرشاد : أن الندب الثواب الآخرة ، والإرشاد لمنافع الدنيا فإنه لاينقص الثواب بترك الاستشهاد في المداينات ولا يزيد بفعله)) .

الرابع : الإباحة كقوله تعالى : { كُلُوا وَاشْرَبُوا } (٧) ، الخامس : التهديد كقوله تعالى : { اعْمَلُوا مَاشِئْتُمْ } (٨) { وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ } (٩) ويقرب منه الإنذار كقوله تعالى : { قُلْ تَمَتَّعُوا } (١٠) وإن كانوا جعلوه قسماً آخر . السادس : الامتنان { فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } (١١) السابع : الإكرام { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ } (١٢) الثامن : التسخير كقوله : { كُونُوا قِرَدَةً } (١٣) التاسع : التعجيز { فَأْتُوا بِسُورَةٍ } (١٤) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " .
(٢) سورة النور ، الآية " ٣٣ " .
(٣) جزء من الآية " ١٩٥ " من سورة البقرة .
(٤) الحديث في صحيح مسلم كتاب الأشربة ١٥٩٩/٣ وفتح الباري ٥٢١/٩ .
(٥) (٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .
(٧) سورة البقرة ، الآية " ٦٠ " .
(٨) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .
(٩) سورة الإسراء ، الآية " ٦٤ " .
(١٠) سورة إبراهيم ، الآية " ٣٠ " .
(١١) سورة النحل ، الآية " ١١٤ " .
(١٢) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .
(١٣) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " .
(١٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

العاشر : الإهانة { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (١) (الحادي عشر : التسوية {فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا } (٢) . الثاني عشر : الدعاء { رَبِّ اغْفِرْ لِي } (٣) . الثالث عشر : التمني كقول الشاعر : ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي . الرابع عشر : الاحتقار كقوله : { أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُون } (٤) . الخامس عشر : التكوين كقولــه (٥) { كُــــنْ فَيَكُون } (٦) .

٤ - الآمـــدي : (٧)

من بين الأصوليين الذين أشاروا إلى معاني الأمر البلاغية الآمدي في كتابه الإحكام في أصول الأحكام فقد ذكر أن الأصوليين اتفقوا على إطلاق صيغة الأمر في خمسة عشر وجهاً : ((الوجوب كقوله تعالى : { أَقِمِ الصَّلَاةَ } (٨) والندب {فَكَاتِبُوهُمْ } (٩) والإرشاد كقوله تعالى : { فَاسْتَشْهِدُوا } (١٠) وهو قريب من الندب لاشتراكهما في طلب تحصيل المصلحة غير أن الندب لمصلحة أخرويه والإرشاد لمصلحة دنيوية ، والإباحة كقولـــه : { فَاصْطَادُوا } (١١) والتاديب وهو داخل في الندب كقوله : (كل مما يليك) والامتنان كقولـه :{ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } (١٢) والإكرام كقوله { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ } (١٣) .

---

(١) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .
(٢) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .
(٣) سورة الأعراف ، الآية " ١٥١ " .
(٤) سورة الشعراء ، الآية " ٤٣ " .
(٥) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ " .
(٦) المحصول تحقيق الدكتور طه العلواني حـ ١ ق ٢ ص ٥٧ - ٦١ .
(٧) علي بن محمد بن سالم التغلبي أبو الحسن سيف الدين الآمدي " ٥٥١ - ٦٣١ " هـ فقيه متكلم أصولي منطقي حكيم ولد بآمد من ديار بكر وأقام ببغداد والقاهرة وتوفي بدمشق بسفح جبل قاسيون من مصنفاته الإحكام في أصول الأحكام وأبكار الأفكار ولباب الألباب ومختصر السول في علم الأصول انظر ترجمته وفيات الأعي ان ٣/٢٩٣- ٢٩٤ ، والأعلام ٤/٣٣٢ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ١٥٥ .
(٨) سورة هود ، الآية " ١١٤ " .
(٩) (١٠) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .
(١١) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .
(١٢) سورة النحل ، الآية " ١١٤ " .
(١٣) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .

والتهديدكقوله : { اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ } (١) والإنذار كقوله : { تَمَتَّعُوا } (٢) وهو في معني التهديد ، والتسخير كقوله : { كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِين } (٣) والتعجيز كقوله { كُونُوا حِجَارَةً } (٤) والإهانة كقوله تعالى : { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ } (٥) والتسوية كقوله{اصْبِرُوا أَوْ لاَتَصْبِرُوا} (٦)والدعاء كقوله : { اغفر لي } والتمني كقول الشاعر : ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ، وكمال القدرة كقوله (٧) : { كُنْ فَيَكُون } (٨) .

٥ - **علي بن عبدالكافي السبكي (٩) وولده تاج الدين عبدالوهاب : (١٠)**

حظي كتاب الإمام البيضاوي (١١) " منهاج الوصول في علم الأصول"بمنزلة

---

(١) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .
(٢) سورة ابراهيم ، الآية " ٣٠ " .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " .
(٤) سور{ الإسراء ، الآية " ٥٠ " والأمر للإهانة كما ذكر البلاغيون ، انظر الإيضاح ٢٤٢/١ وشروح التلخيص ٣١٧/٢ .
(٥) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .
(٦) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .
(٧) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ " .
(٨) الإحكام في أصول الأحكام ٢ / ١٣ .
(٩) أبو حسن بن عبدالكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرجي تقي الديـن "٦٨٣ - ٧٥٦ ه " شيخ الاسلام في عصره وأحد الحفاظ المفسرين شارك في علوم شتى كالفقه والحديث والقراءات والنحو والأدب من مصنفاته الدر النظيم في التفسير والإبهاج في شرح المنهاج .
انظر ترجمته الأعلام ٣٠٢/٤ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ١٢٧ .
(١٠) أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي " ٧٢٧ - ٧٧١ هـ " تاج الدين فقيه أصولي مؤرخ أديب ، ولد بالقاهرة وانتقل مع والده إلى دمشق وبها مات ، من مصنفاته طبقات الشافعية وشرح منتهى السول وشرح منهاج الوصول في علم الأصول للبيضاوي .
انظر ترجمته الأعلام ١٨٤/٤-١٨٥ ، ومعجم المؤلفين ٢٢٥/٦ - ٢٢٦ .
(١١) أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد بن على الشيرازي ناصر الدين البيضاوي المتوفي سنة ٦٨٥ هـ قاض وعالم بالتفسير والفقه والعربية والحديث توفي في تبريز من مصنفاته منهاج الوصول ، وأنوار التنزيل في أسرار التأويل في التفسير .
انظر ترجمته الأعلام ٤ / ١١٠ ، ومعجم المؤلفين ٦ / ٩٧ - ٩٨ .

رفيعة بين العلماء وتعددت شروحهم (١) عليه منها " الإبهاج في شرح المنهاج " للسبكي وولده وقد أشار السبكي وولده إلي بعض المعاني البلاغية التي يفيدها الأمر ، واستطاعا أن يفرقا بين بعض المعاني البلاغية المتقاربة كالإباحة والامتنان وبين التسخير والتكوين " يقول السبكي وولده : " قال المصنف ((صيغة افعل ترد لستة عشر معنى الأول : الإيجاب كقوله : { أَقِيمُواْ الصَّلَاةَ } (٢) . الثاني : الندب كقوله تعالى : { فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فيهم خيراً } (٣) . الثالث : الإرشاد كقوله : {وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِجَالِكُمْ } (٤) . الرابع : الإباحة { كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ } (٥) . الخامس : التهديد {اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ } (٦) ومن التهديد الإنذار كقوله تعالى : {قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } (٧) وقد جعله جماعة قسماً آخر ولاشك في ثبوت الفرق بينهما إذ التهديد هو التخويف ، والإنذار هو الإبلاغ لكن لايكون إلا في التخويف فقوله { قل تمتعوا } أمر بإبلاغ هذا الكلام المخوف الذي عبر عنه بالأمر ، وقال صفي الدين الهندي (٨) وغيره الفرق بينهما أن الانذار يجب أن يكون مقروناً بالوعيد كما في الآية المذكورة ، والتهديد لايجب فيه ذلك بل قد يكون مقروناً وقد لايكون ، وقيل في الفرق بينهما إن التهديد في العرف أبلغ من الوعيد والغضب من الإنذار وكلها فروق صحيحة ..." ، السادس : الامتنان { وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } (٩) والفرق بينه وبين الإباحة أن الإباحة مجرد إذن ، وأنه لابد من إقتران الامتنان بذكر احتياج الخلق إليه وعدم قدرتهم عليه، ونحو ذلك كالتعرض في هذه الآية إلى أن الله تعالى هو الذي رزقه ،

---

(١) من أهم هذه الشروح أيضاً نهاية السول للأسنوي .
(٢) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " .
(٣) سورة النور ، الآية " ٣٣ " .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .
(٥) سورة المؤمنون ، الآية " ٥١ " .
(٦) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .
(٧) سورة إبراهيم ، الآية " ٣٠" .
(٨) حمد بن عبدالرحيم بن محمد الشيخ صفي الدين الهندي الأرموي كان أعلم الناس بمذهب الأشعري من مؤلفاته الزبدة " في علم الكلام ، و " النهاية " في أصول الفقه توفي بدمشق سنة ٧١٥ هـ .
انظر ترجمته طبقات الشافعية لإبن السبكي ٩ / ١٦٢ - ١٦٣ .
(٩) سورة المائدة ، الآية " ٨٨ " .

والعلاقة بيــن الامتنان والوجوب المشابهة في الإذن أن الممنون لايكون إلا مأذونا فيه ، السابع : الإكرام { ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ } (١) فإن قرينة قوله بسلام آمنين يدل عليه ، والعلاقة أيضاً الإذن . الثامن : التسخير مثل { كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (٢) والفرق بينه وبين التكوين أن التكوين سرعة الوجود عن العدم وليس انتقال إلى حالة ممتهنة بخلاف التسخير ، فإنه لغة الذلة والامتهان في العمل والعلاقة فيه وفي التكوين المشابهة المعنوية ، وهي تحتم الوقوع ، وقد سمى الشيخ أبو اسحاق الشيرازي (٣) وإمام الحرمين (٤) هذا القسم بالتكوين . التاسع : التعجيز { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِــنْ مِثْلِهِ } (٥) والعلاقة المضادة ، إذ لايكون التعجيز إلا في الممتنع . العاشر : الإهانة { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٦) . الحادي عشـــر : التسوية { فَاصْبِرُوا أَوْ لَاتَصْبِرُوا } (٧) . الثاني عشر : الدعاء مثل القائل ((اللهم اغفر لي)) وقوله تعالى : { رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا } (٨) . الثالث عشر : التمني : مثل قول إمريء القيس :((ألا ايها الليل الطويل ألا انجلي)) . الرابع عشر : الاحتقار : كقوله { أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُــــونَ } (٩)

يعني أن السحر وإن عظم ففي مقابلة ما أتي به موسى عليه السلام حقير ،

---

(١) سورة الحجر ، الآية "٤٦" .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " .

(٣) ابواسحاق ابراهيم بن على بن يوسف الشيرازي الفيروزابادي ولد بفيروزاباد سنة ٣٩٣ وتوفي ببغداد سنة ٤٧٦ كان إمام وقته ببغداد من مؤلفاته المهذب في المذهب والتنبيه في الفقه واللمع في أصول الفقه .
انظــر ترجمته وفيات الأعيان ٢٩/١ - ٣١ ، ومعجم المؤلفين ٦٨/١، والأعلام ٤٤/١ -٤٥.

(٤) ابو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن حيوية الجويني الفقيه الشافعي المعروف بإمام الحرمين شيخ الإمام الغزالي ولد سنة ٤١٩ هـ وتوفي ودفن بنيسابور سنة ٤٧٨ .
انظر ترجمته وفيات الأعيان ١٦٧/٣ - ١٧٠ ، والأعلام ٥٩٨/٢ ، ومعجم المؤلفين١٨٤/٦

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٦) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .

(٧) سورة الطور ، الآية "١٦" .

(٨) سورة الأعراف ، الآية " ٨٩ " .

(٩) سورة يونس ، الآية " ٨٠ " .

والفرق بينه وبين الإهانة أن الإهانة إنما تكون بالقول أو الفعل أوبتركهما دون مجرد الاعتقاد، والاحتقار إما مختص بمجرد الاعتقاد أو لابد من الاعتقاد بدليل أن من اعتقد في شيء أنه لايعبأ به ولايلتفت إليه يقال إنه احتقره ولا يقال أهانه مالم يصدر منه قول أو فعل ينبيء عن ذلك . الخامس عشر : التكوين { كُنْ فَيَكُون } (١) وقد سما الغزالي (٢) إلي هذا القسم بكمال القدرة وتبعه الأمدي ، السادس عشر : الخبر كقوله صلى الله عليه وسلم ((إذا لم تستح فاصنع ماشئت)) (٣) أي صنعت ماشئت ، ... وعكسه أي قد يستعمل الخبر ويراد به الأمر مثل قوله :{ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ } (٤) المعنى والله أعلم ليرضعن الوالدات أولادهن ، وهذا أبلغ من عكسه لأن الناطق بالخبر مريداً به الأمر كأنه نزل المأمور به منزلة الواقع ...

فهذا شرح الأقسام الستة عشر التى في الكتاب ، وهي في الحقيقة أكثر لاشتمال بعض أقسامها على نوعين كما عرفت ، وقد زاد إمام الحرمين في البرهان الأمر بمعنى الإنعام كقوله تعالى : { كُلُواْ مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ } (٥) قال هذا وإن كان فيه معنى الإباحة فإن الظاهر منه تذكير النعمة ، وزاد أيضا الأمر بمعنى التفويض كقوله { فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ } (٦) وزاد صفي الدين الهندي تاسع عشر وهو التعجب ومثل له بقوله تعالى : {قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدَاً } (٧) وهذا المثال جعله الأمدي وابن برهان (٨) من قسم التعجيز ، ورأيت في طبقات الفقهاء

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ " .
(٢) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الملقب حجة الاسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي ولد سنة ٤٥٠ وقيل سنة ٤٥١ بالطابران احدى بلدتي طوس وتوفي بها سنة ٥٠٥هـ من مصنفاته احياء علوم الدين والمستصفي في أصول الفقه والخلاصة في الفقه والوسيط والبسيط والوجيز والمضنون به على غير أهله انظر ترجمته وفيات الأعيان ٢١٦/٤-٢١٩ ، ومعجم المؤلفين ٢٦٦/١١ ومابعدها .
(٣) الحديث في فتح الباري ٥١٥/٦ كتاب أحاديث الأنبياء .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٣ " .
(٥) سورة البقرة ، الآية " ١٧٢ " .
(٦) سورة طه ، الآية " ٧٢ " .
(٧) سورة آل عمران ، الآية " ٧٣ " .
(٨) أحمد بن على بن محمد الوكيل المعروف بابن برهان الفقيه الشافعي ولد ببغداد في جمادى الأولى سنة٤٧٩ وولي التدريس بالمدرسة النظامية وتوفي ببغداد سنة ٥٢٠ هـ من مؤلفاته البسيط والوسيط والوجيز في أصول الفقه انظر ترجمته وفيات الأعيان ٩٩/١ ، ومعجم المؤلفين ٢٢/٢ .

في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي زيادات أخر منها التعجب كما قال الشيخ الهندي لكن مثله له بقوله تعالى :[انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الْأَمْثَالَ] (١) ومنها الأمـــر بمعني التكذيب مثل قوله تعالى : { قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِين } (٢) وقولـه : { قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَــذَا }(٣) ومنها الأمر بمعنى المشورة مثل { فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى } (٤) وزاد أبو عاصم أيضاً في غير هذه الترجمة الأمر بمعنى الاعتبار مثل قوله تعالى :{ انظروا إلى ثمره إذا أثمر } (٥) والأمر بمعنى التسليم مثل { فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ } (٦) وهذا ماتقدم عن إمام الحرمين ، وقد وصلت الأقسام بزيادات أبي عاصم وإمام الحرمين والقسم الذى ذكره الهندي إلى اثنين وعشرين)) (٧)

وصنيع الشيخين في الإبهاج يثير الإعجاب والتقدير جمعاً ودقة وترتيباً وذكاءً وأسلوباً مبيناً .

٦ - الشاطبــي : (٨)

من بين كتب الأصول التى يعتد بها كتاب الموافقات في أصول الفقه للإمام الشاطبي وقد أشار فيه المؤلف إلى بعض معاني الأمر البلاغية كالتعجيز والتهديد ، ومثل للتعجيز بقوله تعالى :{ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} (٩) وللتهديد بقوله تعالـــى : {اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ } (١٠)

(١) سورة الاسراء ، الآية " ٤٨ " .
(٢) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .
(٣) سورة الانعام ، الآية " ١٥٠ " .
(٤) سورة الصافات ، الآية " ١٠٢ " .
(٥) سورة الأنعام ، الآية " ٩٩ " .
(٦) سور{ طـــه ، الآية " ٧٢ " .
(٧) الإبهاج في شرح المنهاج ٢/١٧ - ٢٢ .
(٨) أبوإسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي الشهير بالشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠هـ محدث وفقيه وأصولي ولغوي ومفسر من أهل غرناطة من مؤلفاته الموافقات ، والمجالس ، والاتفاق في علم الاشتقاق .
انظر ترجمته الأعلام ١/٢٧٥ ، ومعجم المؤلفين ١/١١٨ .
(٩) سورة الحج ، الآية " ١٥ " .
(١٠) سورة فصلت ، الآية "٤٠"، والموافقات للشاطبي ٣ / ٧٤ .

٧ - ابن اللحــام : (١)

ألف ابن اللحام كتابه المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد ، وقد تعرض فيه لذكر المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر وحصرها في ستة عشر معنى ، إذ يقول ((ترد صيغة أفعل لستة عشر معنـى : الوجوب { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } (٢) الثاني : الندب { فَكَاتِبُوهُمْ } (٣) . الثالث : الإرشاد { وَأَشْهِدُوا } (٤) . الرابع : الإباحة {فَاصْطَادُوا } (٥) . الخامس : التهديد { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ } (٦) ومنه { قُلْ تَمَتَّعُوا } (٧) . السادس : الامتنان { كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } (٨) . السابع : الإكرام { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ } (٩) الثامن : التسخير { كُونُوا قِرَدَةً } (١٠) . التاسع : التعجيز { فَأْتُوا بِسُورَةٍ } (١١) . العاشر : الإهانة { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (١٢) . الحادي عشر : التسوية {فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا } (١٣) . الثاني عشر : الدعاء ((اللهم اغفر لي . الثالث عشر : التمنـي (ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي) . الرابع عشر : الاحتقار { أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ}(١٤) الخامس عشر : التكوين { كُنْ فَيَكُونُ } (١٥) . السادس عشر : الخبـر " فاصنـع مـاشئت ،

---

(١) أبو الحسن علاء الدين علي بن محمد بن عباس بن شيبان المعروف بابن اللحام المتوفي سنة ٨٠٣هـ فقيه أصولي أصله من بعلبك سكن دمشق ، من مصنفاته القواعد الأصولية ، والأخبار العلمية في اختيارات الشيخ ابن تيمية والمختصر في أصول الفقه . انظر ترجمته الأعلام ٥ / ٧ ، ومعجم المؤلفين ٧ / ٢٠٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " .

(٣) سورة النور ، الآية " ٣٣ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .

(٥) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .

(٦) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٧) سورة ابراهيم ، الآية " ٣٠ " .

(٨) سورة المائدة ، الآية " ٨٨ " .

(٩) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .

(١٠) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " .

(١١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(١٢) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .

(١٣) سورة الطور ، الآية " ١٤ " .

(١٤) سورة يونس ، الآية " ٨٠ " .

(١٥) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ " .

وعكسه (١) { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ } (٢)

٨ - ابن بدران الدمشقي : (٣)

تناول ابن بدران في كتابه المدخل إلى مذهب الإمام أحمد الأوامر والنواهي ، وذكر أن صيغة الأمر تطلق في الاستعمال اللغوي لمعان أحدها الطلب الجازم نحو : { أَقِيمُوا الصَّلَاةَ } (٤) وثانيها الندب كقوله تعالى في حق الأرقاء الطالبين للكتابة {فَكَاتِبُوهُمْ }(٥) والكتابة مندوبة عند الأكثرين ، وثالثها الإباحة نحو قوله تعالى : { فَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٦) { فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ } (٧) . ورابعها : التعجيز نحو قوله تعالى : { كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا } (٨) . أي فلن تعجزني إعادتكم . وخامسها التسخير نحو قوله تعالى : { فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}(٩) أي مسخت أجسامهم لانقلابها عن الانسانية إلى القردية بالأمر الإلهي . وسادسها التسوية نحو قوله تعالى:{ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا } (١٠) أي الصبر وعدمه متساويان ، وسابعها :الإهانة نحو قوله عز وجل { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (١١) على جهة الإهانة له ، وقوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٣ "
(٢) المختصر في أصول الفقه تحقيق الدكتور محمد مظهر بقا ص ٩٨ ومابعدها .
(٣) عبدالقادر بن أحمد بن مصطفى بن عبدالرحيم بن محمد بن عبدالرحيم الدوسي ثم الدمشقي المعروف بابن بدران المتوفي سنة ١٣٤٦هـ فقيه أصولي حنبلي ، ولد بروما وعاش بدمشق وتوفي بها من مؤلفاته المدخل إلى مذهب الإمام أحمد وجواهر الأفكار ومعادن الأسرار في التفسير .
انظر ترجمته الأعلام ٤ / ٣٧ ، ومعجم المؤلفين ٥ / ٢٨٣ - ٢٨٤ .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " .
(٥) سورة النور ، الآية " ٣٣ " .
(٦) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .
(٧) سورة الملك ، الآية " ١٥ " .
(٨) سورة الاسراء ، الآية " ٥٠ " .
(٩) سورة البقرة ، الآية " ١٢ " .
(١٠) سورة الطور ، الآية " ١٤ " .
(١١) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .

{ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ } (١) . { ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ } (٢) . { ذُوقُواْ مَاكُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } (٣) وثامنها الإكرام نحو قوله تعالــى : { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِين } (٤) وتاسعها التهديد نحو قوله تعالى : { اعْمَلُواْ مَاشِئْتُمْ } (٥) { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا } (٦) فهذا أمر بلازم الأمر ، وعاشرها الدعاء نحو اللهم اغفر لي ..{ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرَاً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِين}(٧) وحادي عاشرها الخبر كحديث إذا لم تستح فاصنع ماشئت " وثاني عاشرها التمني كقول إمرىء القيس ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ، وثالث عاشرها الإرشاد إلى مصلحة دنيوية أو غيرها نحو { وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ } (٨) { قُواْ أنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً } (٩) يعني بالتأديب والتعليم ، ورابع عاشرها نحو { كُلُواْ مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ } (١٠) وخامس عاشرها الإنذار نحو { خُذُواْ حِذْرَكُمْ } (١١) وسادس عاشرها الاحتقار { أَلْقُواْ مَا أَنْتُمْ مُلْقُون } (١٢) وسابع عاشرها التفويض نحو { فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ } (١٣) وثامن عاشرها المشورة نحو { فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى } (١٤) وتاسع عاشرها الاعتبار نحو{ انْظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ } (١٥) والعشرون التكذيب نحو { قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } (١٦) والحادي والعشرون الالتماس كقولك لنظيرك " افعل "

---

(١) سورة القمر ، الآية " ٤٨ " .
(٢) سورة آل عمران ، الآية " ١٨١ " .
(٣) سورة الزمر ، الآية " ٢٤ " .
(٤) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .
(٥) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .
(٦) سورة العنكبوت ، الآية " ٦٦ " .
(٧) سورة الأعراف ، الآية " ١٢٦ " .
(٨) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .
(٩) سورة التحريم ، الآية " ٦ " .
(١٠) سورة البقرة ، الآية " ٥٧ " .
(١١) سورة النساء ، الآية " ١٠٢ " .
(١٢) سورة يونس ، الآية " ٨٠ " .
(١٣) سورة طـه ، الآية " ٧٢ " .
(١٤) سورة الصافات ، الآية " ١٠٢ " .
(١٥) سورة الأنعام ، الآية " ٩٩ " .
(١٦) سورة البقرة ، الآية " ١١١ " .

والثاني والعشرون التلهيف نحو (١) { مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ هَذَا } (٢) .

وهكذا نرى الأصوليين يشاركون البلاغيين في تطور البحث البلاغي ويدلون بدلوهم كغيرهم من الطوائف الأخرى التي كان لها نصيب في نمو البلاغة وتطورها .

وفي مجال الأمر استطاع الأصوليون بثاقب نظرهم ونصاعة بيانهم أن يضعوا أيدينا على تلك الفروق الدقيقة بين المعاني البلاغية المتقاربة ، والتي ليس من شك في أن البلاغيين أفادوا منها .

" هذا ما كان من أمر القديم ، ولو نظرنا في كتب الأصول الحديثة لرأينا أنها لاتخرج غالباً عما اختطه الأصوليون ، ووجدنا العناية كبيرة بموضوعات البلاغة وفنونها كالخاص والعام والأمر والنهي والحقيقة والمجاز والكناية والتصريح ..

إن إهتمام علماء أصول الفقه بالمباحث البلاغية التي وشحوا بها كتبهم واعتبروها من طرق الفقه دفع البلاغة إلى وضع القواعد الواضحة والتقسيمات الدقيقة لحاجتهم إليها في استنباط الأصول والأحكام . (٣)

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ١١٩ " .
(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ١٠١ ، ومابعدها .
(٣) مناهج بلاغية ص ٧٨ وراجع الأمر والنهي ومايتوقف عليه المطلوب للدكتور علي مصطفى رمضان ص ١٢ ومابعدها والأمر ودلالته على الأحكام الشرعية للدكتور محمود أحمد عبدالله ص ٤٣ – ٤٧ .

المبحث الرابع

منهج علماء البلاغة والإعجاز:

ارتبط البحث البلاغي من حيث نضجه واكتماله بظهور طائفتين هما طائفة البلاغيين وطائفة علماء الاعجاز القرآني ، اللتان أرست قواعد البلاغة حتى أصبح هذا النوع من الدراسة علماً مستقلاً بذاته كغيره من علوم اللغة العربية يهتم به المشتغلون بهذا الفن .

ولاريب في أن المنهج الذي اختطه البلاغيون في دراسة الأمر يعد من أمثل المناهج في التراث الإسلامي ، فهو يبدأ بتعريف الأمر تعريفاً جامعاً مانعاً ، ثم تحديد صيغ الأمر ثم يعقبه الإشارة إلى بعض معاني الأمر البلاغية المتولدة عن صيغة الأمر بمعونة القرائن ودلالة السياق والمقام .

١ - السكاكي : (١)

أشار السكاكي في كتابه مفتاح العلوم في القسم الثالث منه إلى بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر إن استعملت في غير الطلب حيث يقول " ثم أنها حينئذ تولد بحسب قرائن الأحوال ما ناسب المقام إن استعملت على سبيل التضرع كقولنا : " اللهم اغفر " ولدت الدعاء ، وإن استعملت على سبيل التلطف كقول كل أحد لمن يساويه في المرتبة " افعل " بدون الاستعلاء ولدت السؤال والالتماس كيف عبرت عنه ، وإن استعملت في مقام الإذن كقولك جالس الحسن أو ابن سيرين لمن يستأذن في ذلك بلسانه أو لسان حاله ولدت الإباحة ، وإن استعملت في مقام تسخط المأمور به ولدت التهديد " (٢) .

ففي هذا النص نجد السكاكي يشير إلى بعض المعاني البلاغية التى تفيدها صيغة الأمر كالدعاء والسؤال والالتماس والإباحة والتهديد .

---

(١) ابو يعقوب سراج الملة والدين يوسف بن أبي بكر السكاكي الخوارزمي الحنفي ولد سنة ٥٥٥ بخوارزم وتوفي سنة ٦٢٦ هـ عالم في النحو والتصريف والمعاني والبيان والعروض والشعر من كتبه مفتاح العلوم ورسالة في علم المناظرة .
انظر ترجمته الأعلام ٨ / ٢٢ ، ومعجم المؤلفين ٢٨٢/١٣ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢٤٨/٥ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٢٨٦ ومابعدها .

(٢) مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور ص ٣١٩ .

٢ - الخطيب القزويني : (١)

أشار الخطيب القزويني في الإيضاح إلى بعض معاني الأمر البلاغية ، يقول " ثم أنها " - أعني صيغة الأمر - قد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام كالإباحة كقولك في مقام الإذن : جالس الحسن أو ابن سيرين ، ومن أحسن ما جاء فيه قول كثير : أسيىء بنا أو أحسني لاملومة .·. لدينا ولا مقلية إن تقلـــت

أي لا أنت ملومة ولا مقلية ...

والتهديد كقولك لعبد شتم مولاه وقد أدبه : اشتم مولاك ، وعليه { اعْمَلُوا مَاشِئْتُمْ }(٢) والتعجيز كقولك لمن يدعي أمراً تعتقد أنه ليس في وسعه : افعله ، وعليه { فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ } (٣) .

والإهانة نحو " كونوا حجارة أو حديداً (٤) وقوله : { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٥) والتسوية كقوله : { أَنْفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ } (٦) وقوله : {اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا } (٧) والتمني كقول إمرىء القيس : ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي"(٨) .

والدعاء إذا استعملت في طلب الفعل علي سبيل التضرع نحو {رَبِّ اغْفِرْ لِـــي وَلِوَالِدَيَّ } (٩)

---

(١) أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن أحمد محمد القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق ، ولد بالموصل سنة ٦٦٦ هـ وولي القضاء في ناحية بالروم ثم قضاء دمشق فقضاء القضاة بمصر من مصنفاته ، تلخيص المفتاح والايضاح والسور المرجاني من شعر الأرجاني .
انظر ترجمته الأعلام ١٩٢/٦ ، معجم المؤلفين ١٤٥/١٠ - ١٤٦ ، والبلاغة تطور وتاريخ ص ٣٣٥ .

(٢) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٤) سورة الإسراء ، الآية " ٥٠ " .

(٥) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .

(٦) سورة التوبة ، الآية " ٥٣ " .

(٧) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٨) هذا صدر بيت وعجزه : بصبح وما الإصباح منك بأمثل. وهذا البيت من معلقة إمرىء القيس " قفانبك " والبيت في ديوانه ص ١٨ تحقيق أبي الفضل ابراهيم.

(٩) سورة نوح ، الآية " ٢٨ " .

والالتماس إذا استعملت في طلب الفعل على سبيل التلطف كقولك لمن يساويك في الرتبة " افعل " بدون الاستعلاء .

والاحتقار نحو (١) { أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُون .. } (٢)

ليس من شك في أن البحث البلاغي قد توقف عند القزويني ، أما من جاءوا بعده فقد داروا في فلكه ونهجوا نهجه ، فاتخذوا من مباحثه نقطة بدء انطلقوا منها إلى غايات بعيدة وآفاق رحيبة ، مهتدين أينما ساروا بما كتبه ملخصاً أو موضحاً بحيث لانكاد نعثر على جديد فيما كتبه أصحاب الشروح والحواشي والتقارير ، وإنما كلام معاد مكرر لا ينمي ذوقاً ولا يربي ملكة ففقدت بذلك البلاغة هدفها الرئيس .

وفي مباحث الإنشاء الطلبي تناول الشراح الأمر ودلالته على المعاني البلاغية (٣) واستطاع البهاء السبكي (٤) أن يوصل هذه المعاني إلى خمسة وعشرين معنى ، أما علماء الإعجاز فالمتقدمون منهم مثل الخطابي (٥) والرماني (٦) والباقـــلاني (٧)

---

(١) سورة يونس ، الآية " ٨٠ " .
(٢) الإيضاح تحقيق الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي ٢٤١/١ - ٢٤٣ .
(٣) أنظر شروح التلخيص ٣١٢/٢ ومابعدها والمطول ص ٢٤٠ - ٢٤١ وتجريد البناني على مختصر السعد ٢٨/٢ - ٣١ وتقرير الشمس الإنبابي ١٦٦/٣ - ١٧٣ .
(٤) عروس الأفراح ١٣٢/٢ - ٣٢٢ .
(٥) أبوسليمان حمد بن إبراهيم بن خطاب الخطابي البستي " ٣١٩ - ٣٨٨ " هـ فقيه ومحدث وأديب ولغوي ولد بمدينة بست من بلاد كابل من نسل زيد بن الخطاب رضي الله عنه من مصنفاته غريب الحديث وأعلام السنن في شرح صحيح البخاري .
انظر ترجمته الأعلام ٨٦/٦ ، ومعجم المؤلفين ١٨٣/٩ .
(٦) أبو الحسن علي بن عيسى الرماني " ٢٩٦ - ٣٨٤ " هـ أحد الأئمة المشاهير ، جمع بين علم الكلام والعربية من مؤلفاته الجامع الكبير في التفسير ومعاني الحروف والاشتقاق والنكت في إعجاز القرآن .
انظر ترجمته وفيات الأعيان ٢٩٩/٣ ، والأعلام ٣١٧/٤ ، ومعجم المؤلفين ٢٨٢/١٣
(٧) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني البصري متكلم على مذهب الأشعري ولد بالبصرة وسكن بغداد وتوفي سنة ٤٠٣ من مؤلفاته إعجاز القرآن .
انظر ترجمته وفيات الأعيان ٢٦٩/٤-٢٧٠ ومعجم المؤلفين ١٠٩/١٠ - ١١٠ .

وعبدالقاهر الجرجاني لانكاد نجد في مصنفاتهم مايفيد أنهم أشاروا إلى بعض المعاني البلاغية لأسلوب الأمر ، أما المتأخرون منهم مثل الزملكاني والزركشي والسيوطي فقد أشاروا إلى بعض معاني الأمر البلاغية في مؤلفاتهم سنقف معهم في هذه الدراسة حسب مايقتضيه المقام .

١ - الزملكاني : (١)

أشار الزملكاني في كتابه البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن إلى بعض معاني الأمر البلاغية من ذلك قوله " ومما جاء في صورة الخبر وهو أمر في المعني قوله تعالى : {قال تزرعون سبع سنين دأبا } (٢) المعنى ازرعوا سبع سنين متواليات بدليل " فذروه في سنبله " ومن ذلك { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ } (٣) وقوله تعالى : {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} (٤) فإنه حكم مندوب إليه " (٥)

وأشار إلى أن الأمر في قوله تعالى :{ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً } (٦) في معنى الخبر " (٧)

٢ - الزركشي : (٨)

ألف الزركشي كتابه البرهان في علوم القرآن تناول فيه بلاغة القرآن الكريم

---

(١) كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني السماكي الشافعي المتوفي سنة ٦٥١هـ ويقال له ابن خطيب زملكا ولي القضاء بصرخد ودرس ببعلبك وتوفي بدمشق من مؤلفاته التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن والبرهان ، الكاشف عن إعجاز القرآن .
انظر ترجمته ، الأعلام ١٧٦/٤ ومعجم المؤلفين ٢٠٩/٦ .
(٢) سورة يوسف ، الآية " ٤٧ " .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٣ " .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٨ " .
(٥) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .
(٦) سورة التوبة ، الآية " ٨٢ " .
(٧) المصدر السابق ص ٣٠٤ .
(٨) محمد بن بهادر الزركشي الشافعي بدر الدين أبوعبدالله " ٧٤٥-٧٩٤" هـ فقيه أصولي محدث تركي الأصل مصري المولد والوفاة من مؤلفاته الديباج في توضيح المنهاج للنووي وشرح جمع الجوامع للسبكي والبرهان في علوم القرآن .
انظر ترجمته ، الأعلام ٦ /٦٠ - ٦١ ، ومعجم المؤلفين ٢٠٥/١٠ .

وإعجازه ، ونثر فيه كثيراً من الفنون البلاغية .

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب معدود في كتب علوم القرآن يعد بحق مصدراً من مصادر البلاغة القرآنية لاحتوائه على جوانب مشرقة من بلاغة القرآن وإعجازه ، ويهمنا هنا أن الزركشي أشار إلى بعض معاني الأمر البلاغية في الفصل الذي عقده لوجوه الخطاب والمخاطبات في القرآن الكريم كخطاب الكرامة نحو { يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ } (١) وقوله : { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ } (٢) .

وخطاب الإهانة نحو قوله تعالى : { قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَاتُكَلِّمُونِ } (٣) وقوله : { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ } (٤)

وخطاب التهكم : وهو الاستهزاء بالمخاطب مأخوذ من " تهكم البئر " إذا تهدمت كقوله تعالى : { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٥) وهو خطاب لأبي جهل لأنه قال " ما بين جبليها - يعني مكة - أعز ولا أكرم مني " .

وقال {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } (٦) جعل العذاب مبشراً به ...

وخطاب الاعتبار كقوله { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا } (٧) وقوله { انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ } (٨)

وخطاب الجمادات خطاب من يعقل كقوله تعالى : { فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (٩) تقديره طائعة .

ومنه قوله تعالى : { يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ } فأمرها كما تؤمر الواحدة المخاطبة المؤنثة لأن جميع ما لا يعقل كذلك يؤمر . (١٠)

وهذه الأمثلةالتي يذكرهاالزركشي هي خطابات التكوين ، وهي قضية اختلفت

---

(١) سورة الأعراف ، الآية " ١٩ " .
(٢) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .
(٤) سورة الإسراء ، الآية " ٦٤ " .
(٥) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .
(٦) سورة التوبة ، الآية " ٣٤ " .
(٧) سورة العنكبوت ، الآية " ٢٠ " .
(٨) سورة الأنعام ، الآية " ٩٩ " .
(٩) سورة فصلت ، الآية " ١١ " .
(١٠) البرهان ٢/٢٤٦ - ٢٤٧ .

آراء العلماء حولها سنناقشها بالتفصيل في موضعها إن شاء الله تعالى .

وخطاب التهييج كقوله { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (١) ولا يدل على أن من لم يتوكل ينتفي عنهم الإيمان بل حث لهم على التوكل .

وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (٢) فإنه سبحانه وصفهم بالإيمان عند الخطاب ثم قال { إن كنتم مؤمنين } فقصد حثهم على ترك الربا وأن المؤمنين حقهم أن يفعلوا ذلك .

وقوله { أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (٣) وقوله { إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } (٤)

وخطاب التشجيع والتحريض كقوله تعالى : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } (٥) وخطاب التعجيز نحو { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ } (٦) { فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ } (٧) {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ } (٨) { فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ } (٩)

وجعل بعضهم منه { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً } (١٠) ورد ابن عطية(١١) بأن التعجيز يكون حيث يقتضي بالأمر فعل ما لايقدر عليه المخاطب ، وإنما معنى الآية ((كونوا بالتوهم كذا)) (١٢) .

وخطاب التحسير والتلهف كقوله تعالى : { قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ } (١٣) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية " ٢٣ " .
(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٨ " .
(٣) سورة الأنفال ، الآية " ١ " .
(٤) سورة يونس ، الآية " ٨٤ " .
(٥) سورة الأنفال ، الآية " ٦٠ " .
(٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .
(٧) سورة الطور ، الآية " ٣٤ " .
(٨) سورة هود ، الآية " ١٣ " .
(٩) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٨ " .
(١٠) سورة السراء ، الآية " ٥٠ " .
(١١) هو أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن ب عطية المحاربي الغرناطي "٤٨١ -٥٤٢هـ" عالم له مشاركات في التفسير والحديث والفقه والآداب ، من مؤلفاته: الجامع المحررالوجيز في تفسيرالكتاب العزيز، وبرنامج ضمنه مروياته وأسماء شيوخه .انظر ترجمته الأعلام ٢٨٢/٣ ومعجم المؤلفين ٩٣/٥ .
(١٢) البرهان ٢ / ٢٥٠ - ٢٥١ .
(١٣) سورة آل عمران ، الآية " ١١٩ "

وخطاب التكذيب نحو قوله تعالى : { قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }(١) {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ } (٢)

وخطاب التشريف : وهو كل مافي القرآن العزيز من مخاطبة بقل ، كالقلاقل وكقوله " قُل آمَنَّا " (٣) وهو تشريف منه سبحانه لهذه الأمة بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة ، إذ ليس من الفصيح أن يقول الرسول للمرسل إليه قال لي المرسل "قل كذا وكذا " ولأنه لايمكن إسقاطها ، فدل على أن المراد بقاؤها ، ولابد لها من فائدة فتكون أمراً من المتكلم للمتكلم بما يتكلم به أمره شفاها بلا واسطة كقولك لمن تخاطبه " افعل كذا " (٤) .

وفي أقسام معنى الكلام أشار الزركشي إلى خروج الخبر والاستفهام إلى معنى الأمر . (٥)

٣ - جلال الدين السيوطي : (٦)

للسيوطي مؤلفات كثيرة تناول فيها مختلف العلوم الإسلامية كالتفسير والنحو واللغة والحديث والفقه والبلاغة وإعجاز القرآن الكريم وغير ذلك .

ويهمنا أن نشير هنا إلى بعض مؤلفاته البلاغية منها عقود الجمان في علم المعاني والبيان ، وشرح أبيات تلخيص المفتاح ، ونكت على حاشية المطول للفنري ومعترك الأقران في إعجاز القرآن .

وهو في هذه الكتب ينحو منحى القزويني من غير أن يضيف شيئاً إلى البلاغة وقد بحث في كتابه " المزهر " الفصاحة والحذف والاختصار والحقيقة والمجاز والاستعارة والعام والخاص ، وتكلم بإيجاز في كتاب " النقاية " وشرحها "إتمام الدراية

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .
(٢) سورة الأنعام ، الآية " ١٥٠ " .
(٣) سورة آل عمران ، الآية " ٧٤ " .
(٤) البرهان ٢ / ٢٥١ - ٢٥٢ .
(٥) انظر المصدر السابق ٣٢٠/٢ ، ٣٣٩/٢ .
(٦) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي " ٨٤٩ -٩١١"هـ إمام حافظ مؤرخ أديب شارك في التصنيف في معظم العلوم ، ولد ومات في القاهرة له مصنفات كثيرة جداً منها الإتقان في علوم القرآن والأشباه والنظائر والمزهر في اللغة .انظر ترجمته ، الأعلام ٣٠١/٣ - ٣٠٢ ، ومعجم المؤلفين ١٢٨/٥ - ١٣١ .

لقراء النقاية " وهو في هذين الكتابين يتجه اتجاه القزويني في العرض والتقسيم والأمثلة ولعل بحثه لبعض موضوعات البلاغة في كتابه الإتقان في علوم القرآن كان أحسن منه في كتبه الأخرى لأنه تحرر قليلاً من سيطرة منهج القزويني حينما تكلم على الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والتعريض والخبر والإنشاء ، وعلة ذلك أنه لم يكن يبحث في البلاغة حينما ألف الاتقان وإنما كان يؤلف كتاباً في علوم القرآن وبذلك ابتعد عن منهج السكاكي والقزويني وانصرف إلى مافي الكتاب العزيز من علوم وفنون " (١)

وليس هنا مجال الحديث عن جهود السيوطي البلاغية وإنما الذي يهمنا أن السيوطي أشار إلى بعض معاني الأمر البلاغية في كثير من مؤلفاته .

فذكر وجوه المخاطبات في القرآن الكريم في كل من الاتقان ومعترك الأقران سنتناول ماجاء منها على صيغة الأمر كخطاب الإهانة نحو قوله تعالى : { اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } (٢)

وخطاب التهكم نحو { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٣)

وخطاب الجمادات خطاب من يعقل نحو { فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً } (٤) وهذا النوع من الخطابات اصطلح المتأخرون على تسميته بخطاب التكوين

وخطاب التهييج نحو { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (٥)

وخطاب التعجيز نحو { فَأْتُوا بِسُورَةٍ } (٦)

وخطاب التشريف : وهو كل مافي القرآن مخاطبةً بقل ، فإنه تشريف منه تعالى لهذه الأمة بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة . (٧)

ونلحظ أن السيوطي في وجوه المخاطبات قد اقتبس كلام الزركشي الذي سبق ذكره فيما مضى ، بل إن السيوطي نفسه قد صرح في الإتقان بأنه اطلع على كتـــاب

---

(١) مناهج بلاغية ، ص ٣١٢ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .
(٣) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .
(٤) سورة فصلت ، الآية " ١١ " .
(٥) سورة المائدة ، الآية " ٢٣ " .
(٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .
(٧) انظر الاتقان ٣/١٠٠ – ١٠٤ ومعترك الأقران ١/٢٣٣ – ٢٣٧ .

البرهان للزركشي (١) ، وعده أصلاً من الأصول التى بنى عليها كتابه وتأسى طريقته وسار على نهجه ، فأدمج بعض فصوله في بعض ، ونقل كثيراً من فصوله مرة معزوة إليه ومرة بدون عزو ، وإن كان فيما نقل عنه قد اقتضب الكلام اقتضاباً واختصره اختصاراً (٢) كما هو واضح في وجوه المخاطبات .

وفي معترك الأقران تناول الخبر والإنشاء وعدهما وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وتحدث بالتفصيل عن الأمر باعتباره قسماً من أقسام الإنشاء الطلبي وعرفه بقوله " هو طلب فعل غير كف وصيغته أفعل وليفعل وهي حقيقة في الإيجاب نحــو { أَقِيمُواْ الصَّلَاةَ } (٣) { فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ } (٤) .

وأشار إلى أن هذه الصيغة ترد مجازاً لمعان كثيرة منها الندب نحو { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُوا } (٥) والإباحة نحو { فَكَاتِبُوهُمْ } (٦) نص الشافعي على أن الأمر فيه للإباحة ومنه { إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} (٧) والدعاء من السافل للعالي نحــو {رَبِّ اغْفِرْ لِي } (٨) .

والتهديد نحو { اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ } (٩) إذ ليس المراد الأمر بكل عمل شاءوا والإهانة نحو { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (١٠)

والتعجيز نحو { فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ } (١١) إذ ليس المراد طلب ذلك منهم بل إظهار عجزهم والامتنان نحو { كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ } (١٢) .

---

(١) انظر الاتقان ١/١١ ومابعدها .
(٢) انظر البرهان مقدمة المحقق ص ١٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٤٣ " .
(٤) سورة النساء ، الآية " ١٠٢ " .
(٥) سورة الأعراف ، الآية " ٢٠٤ " .
(٦) سورة النور ،الآية " ٣٣ " .
(٧) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .
(٨) سورة نوح ، الآية " ٢٨ " .
(٩) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .
(١٠) سورة الدخان ، الآية " ٤٩ " .
(١١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .
(١٢) سورة الأنعام ، الآية " ١٤١ " .

والعجب نحو { انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الْأَمْثَالَ } (١)
والتسوية نحو { اصْبِرُواْ أَوْ لَاتَصْبِرُوا } (٢)
والإرشاد { وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ } (٣)
والاحتقار نحو { أَلْقُواْ مَا أَنْتُمْ مُلْقُون } (٤)
والإنذار نحو { قُلْ تَمَتَّعُوا } (٥)
والإكرام نحو { ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ } (٦)
والتكوين – وهو أعم من التسخير نحو { كُنْ فَيَكُون } (٧)
والإنعام أي تذكير النعمة نحو { كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } (٨)
والتكذيب نحو { قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا } (٩) {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا } (١٠)
والمشورة نحو { فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى } (١١)
والاعتبار نحو { انْظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ } (١٢)
والتعجب نحو { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ } (١٣) ذكره السكاكي في استعمال الإنشاء بمعنى الخبر " (١٤) .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية " ٤٨ " .
(٢) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .
(٤) سورة يونس ، الآية " ٨٠ " .
(٥) سورة إبراهيم ، الآية " ٣٠ " .
(٦) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .
(٧) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ " .
(٨) سورة الانعام ، الآية " ١٤٢ " .
(٩) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .
(١٠) سورة الأنعام ، الآية " ١٥٠ " .
(١١) سورة الصافات ، الآية " ١٠٢ " .
(١٢) سورة الأنعام ، الآية " ٩١ " .
(١٣) سورة مريم ، الآية " ٣٨ " .
(١٤) انظر معترك الأقران ٤٤١/١ – ٤٤٣ وراجع الاتقان ٢٤٣/٢ – ٢٤٤ .

وفي كتابه شرح عقود الجمان الذي شرح فيه أرجوزته التي نظم فيها التلخيص أشار إلى بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر كالدعاء من السافل للعالي نحــو { رب اغفر لي } (١) والإباحة نحو جالس الحسن أو ابن سيرين ... إلى أن قـــــال : ((وغالب هذه الأمور من زيادتي على التخليص والذي فيه الإباحة والتهديد والإهانة والتسخير والتعجيز والتسوية والتمني)) (٢) .

وهذا إعتذار من السيوطي إذ لم يلتزم بما ذكر في التلخيص ، وهو يبين أمانة العلماء ودقتهم رحمهم الله .

وليس في هذا الكتاب أراء جديدة أو إلتفاتات نقدية ذات قيمة وإنما هو تكرار لآراء السابقين وإيضاح لأقوال القزويني .

ولانحسب أنا نتجنى على السيوطي حين نقول إن جهده لم يسفر عن إضافة حقيقية إلى ماقدمه البلاغيون قبله ، وإنما هو إمتداد لمدرسة الشراح التي نسجت على منوال السكاكي والقزويني ، ويكفيه أنه من حفاظ العلم وخزنته رحمه الله .

منهجي :

ومنهجي في هذا البحث يقوم على استقصاء أساليب الأمر والنهي في القرآن ماوسع الجهد ، ثم مراجعة ماذكره العلماء السابقون والمعاصرون ، ومحاولة الاقتراب من الأسلوب القرآني تفهماً لأسراره ودقائقه البلاغية ، وقد تنعقد موازنات بين الآيات المتشابهات التي اكتفى بها علماء المتشابه القرآني ، وهذا المنهج على صعوبته ليس بدعاً فقد طبقه حشد من علمائنا قديماً وحديثاً ، ونسأل الله التوفيق والتيسير والسداد .

---

(١) سورة نوح ، الآية " ٢٨ " .

(٢) شرح عقود الجمان للسيوطي ص ٥٥ – ٥٦ .

الفصل الثاني

أساليب الأمر في القرآن الكريم
و
أسرارها البلاغية

النصح والإرشاد

دلالة النصح والإرشاد في اللغة والقرآن الكريم :

قدمنا الحديث عن الإرشاد لأنه شاع عند المتقدمين كمصطلح بلاغي ، ومعناه في اللغة والقرآن :

أرشده الله وأرشده إلى الأمر ورشّده : هداه ، وأرشده غيره : هداه وسدده إلـى الرشاد " (١)

وقد عدّ الأصوليون الإرشاد من بين المعاني البلاغية التي يخرج إليها الأمر ، وأشاروا إلى الفرق بين الندب والإرشاد : بأن : الندب مطلوب لثواب الآخرة والإرشاد لمنافع الدنيا " (٢)

وأضاف السبكي رأياً آخر نقله عن الغزالي والإمام حيث يقول " قال الغزالي والإمام الإرشاد الندب لمصالح الدنيا والآخرة فيحتمل أن يكون قسماً من المندوب تحصل به مصلحتان دنيوية وأخروية فيكون حكماً شرعياً ، ويحتمل أن يكون من نوع الإشارة والاخبار أن ذلك مصلحة في الدنيا فيكون قسماً آخر ليس من الحكم الشرعي " (٣)

أما النصح فمعناه في اللغة مطلق الخير ، يقال " نصح له ونصحه نصحاً ونصيحة : تحرى ماينبغي له ومايصلح وأراد له الخير وأخلص في تدبير أمره ، وهو من قولهم : نصحت له الودَّ : أخلصته ، أو من قولهم : نصحت الجِلْدَ : خِطْتُهُ " (٤) .

ودلالة النصح في القرآن قريبة من الدلالة اللغوية ، وهي خاصة بالتكاليف الشرعية. وقد ذكر المفسرون عند تفسير قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالَاتَعْلَمُونَ } (٥) تفسيراً

---

(١) انظر المفردات ص ١٩٦ ، ومعجم الفاظ القرآن الكريم ٥٠١/١ واللسان ١٦٤٩/٣ .

(٢) انظر المحصول جـ ١ ق ٢ ص ٥٨ والإبهاج فى شرح المنهاج ١٧/٢ والإحكام في أصول الأحكام ٢ / ١٣ .

(٣) عروس الأفراح ٢ / ٣٢١ .

(٤) انظر المفردات ص ٤٩٤ ومعجم ألفاظ القرآن ٧١٨/٢ ومقاييس اللغة ٤٣٥/٥ وأساس البلاغة ص ٤٥٨ والصحاح ٤١٠/١ ومابعدها واللسان ٤٤٣٨/٦ ومابعدها.

(٥) سورة الأعراف ، الآية " ٦٢ " .

لدلالة النصح اللغوية حيث قال أحدهم ((وحقيقة النصح الإرسال إلى المصلحة مع خلوص النية من شوائب المكروه)) (١) ، ويضيف الطاهر بن عاشور قائلاً " والنصح والنصيحة كلمة جامعة يُعبرّ بها عن حسن النية وإرادة الخير من قول أو عمل " (٢) وهذا القول لايبعد كثيراً عما ذكره الراغب في المفردات . (٣)

مما سبق يتضح لنا أن الإرشاد يراد به الهداية إِنْ أُريد به المندوب فهو قريب من النصح عند الغزالي والرازي ، وعلى الرأي الأول اختصاص بمنافع الدنيا ، أما النصح فيراد به مطلق الخير .

الدلالة الإصطلاحية :

ذكر الأصوليون والبلاغيون الإرشاد ضمن معاني الأمر البلاغية (٤) ، ولم أعثر على النصح في كتب المتقدمين من علماء البلاغة والمتأخرين ، (٥) ، لكنه شاع عند المعاصرين واقترن بالإرشاد ، وقد عرفت مابينهما من إختلاف في الدلالة . (٦)

وقد عرفه بعضهم بقوله " النصح والإرشاد هو الطلب الذي لا إلزام فيه وإنما النصيحة الخالصة " (٧) وليس هذا تعريفاً جامعاً مانعاً .

وحديثنا في هذا المبحث عن النصح والإرشاد من باب التساهل والتجاوز وذلك لما بينهما من قرب في الدلالة .

---

(١) التفسير الكبير ١٤ / ١٥٧ .
(٢) التحرير والتنوير القسم الثاني من الجزء الثامن ص ١٩٤ .
(٣) راجع المفردات ص ٤٩٤ .
(٤) انظر عروس الأفراح ٣٢١/٢ ، والإتقان ٢٤٣/٣ ومعترك الأقران ٤٤٢/١ والمحصول جـ ١ ق ٢ ص ٥٨ ، والإحكام في أصول الأحكام ١٣/٢ والإبهاج فى شرح المنهاج ١٧/٢ .
(٥) راجع تأويل مشكل القرآن ص ٢٨٠ والصاحبي ص ٢٩٨ - ٣٠١ ، ومفتاح العلوم تحقيق نعيم زروز ص ٣١٨ ، والإيضاح ص ٢٤١ ومابعدها ، وشروح التلخيص ٢١١/٢ والمطول ص ٢٤٠ ومابعدها وبغية الإيضاح ٢ / ٥٣ - ٥٥ .
(٦) انظر علم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٣٨ ومن بلاغة النظم العربي ٢ / ٨٤ وأساليب بلاغية ص ١١٢ .
(٧) اساليب بلاغية ص ١١٢.

وقد ورد الإرشاد في القرآن الكريم وخاصة فيما يتعلق بالآداب والأخلاق الإسلامية التي دعا القرآن المسلمين إلى التمسك والتحلي بها .

ونلحظ في كثير من الأوامر التشريعية معنى النصح والتوجية والترغيب بدليل قول نوح عليه السلام وهو يدعو قومه إلى عبادة الله وحده قال تعالى : { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (١) وقوله تعالى على لسان هود عليه السلام { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ } (٢) .

فأوامر التشريع أوامر حقيقية تكليفية مبنية على النصح والإرشاد والتوجيه والترغيب لأن الله سبحانه وتعالى لايأمر إلا بالخير .

وقد أفاد الأمر في القرآن الكريم النصح والإرشاد في كثير من الأساليب ، نعرج الآن على بعض هذه الأساليب :-

الرسول صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثه :

ورد النصح والإرشاد على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في محكم التنزيل ينصح مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه في قوله تعالى : { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ... } (٣)

" فقول النبي صلى الله عليه وسلم " أمسك عليك زوجك " توفية بحق النصيحة وهو أمر نصح وإشارة بخير لا أمر تشريع لأن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المقام متصرف بحق الولاء والصحبة لا بصفة الرسالة والتشريع " (٤) .

وفي التعبير بقوله : " وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه ... " ثناءٌ على زيد رضي الله عنه وتنويه بعلو منزلته وقربه من الله ورسوله فهو ممن أنعم الله عليه ورسوله وهذا نهاية الرضا .

ابراهيم عليه السلام مع أبيه :

ورد النصح والإرشاد في القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام يعظ

---

(١) سورة الأعراف ، الآية " ٦٢ " .
(٢) سورة الأعراف ، الآية " ٦٨ " .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية " ٣٧ " .
(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٢ / ٣١ .

أباه قال تعالى : { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَايَسْمَعُ وَلَايُبْصِرُ وَلَايُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً }(١)

هذا السياق يفصح عن أدب إبراهيم عليه السلام وتواضعه وإخلاص النصيحة له ، ففي إعادة نداءه بوصف الأبوه تأكيد لإحضار الزهن ولإ محاض النصيحة . (٢)

وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن الأمر في قوله " اتبعني " للنصح والإرشاد ، (٣) يقول الرازي فقوله " اتبعنى " ليس أمر إيجاب بل أمر إرشاد ، (٤) أي فاتبعني واقبل نصيحتي وإن كنت أصغر منك لأني ولدك فأعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على مالم تعلمه أنت ، ولم يصرح له بالتجهيل تأدباً وتلطفاً ، ولم يدع العلم الفائق تواضعاً ولأنه أقرب إلى الإجابة حيث قال " جاءني من العلم " أي بعضه ، (٥) أي إن معي طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك ، وذلك علم الدلالة على الطريق السوي فلاتستنكف ، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه " (٦)

لقمان وابنه :-

ورد النصح والإرشاد في محكم التنزيل على لسان الحكيم لقمان ينصح ابنه قال تعالى { يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .إلى قوله { وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}(٧) تفصح هذه الآيات الكريمات عن حرص الحكيم لقمان على هداية ابنه وإصلاح أمره حيث جمع له في هذه النصيحة الجامعة الإرشاد إلى فعل الخير وبثه في الناس والنهي عن المنكر بجميع أشكاله وصوره ، ثم أعقب ذلك بأن

---

(١) سورة مريم ، الآيتان " ٤١ – ٤٤ " .
(٢) التحرير والتنوير ١٦ / ١١٥ .
(٣) انظر تفسير الطبري ٦٨/٢٦ والكشاف ٥١١/٢ والتفسير الكبير ٢٢٦/٢١ .
(٤) التفسير الكبير ٢١ / ٢٢٦ .
(٥) انظر الطبري ٢٦ / ٦٨ وحاشية الشهاب ٦ / ١٦١ ووجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ١٩٣ .
(٦) الكشاف ٢ / ٥١٠ ومابعدها .
(٧) سورة لقمان ، الآيتان " ١٧ – ١٩ " .

أمره بالصبر على مايصيبه ، ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يجران للقائم بهما معاداة من بعض الناس فإذا لم يصبر على مايصيبه من الأذى والصد والإعراض أوشك أن يتركهما"(١)

ثم تأمل هذه الجمل كيف عطف بعضها على بعض وبنيت بناءً محكماً حيث بدأ بالصلاة وعطف عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والمقيم لها جدير أن يأخذ على عاتقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن من يعرض نفسه لذلك جدير أن يلم به بعض الأذى ، فوصى من ينهض بهذا العبء أن يحتمل ويصبر ، وإذا كان قد أمره بالصلاة وهى خضوع للرب فجدير به ألا يمتلئ بالتيه والخيلاء وأن يسير على الأرض في تؤدة ويتحدث إن تحدث في وداعة وهدوء لأنه أوقر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وأرجى لفهمه حيث علله بقوله " إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " ذماً وتنفيراً وتهجيناً لرفع الصوت " (٢)

يعقوب عليه السلام وأبناؤه :

ورد النصح والإرشاد على لسان يعقوب عليه السلام في قوله تعالى :{ وَقَالَ يَابَنِيَّ لَاتَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } (٣)

فالأمر في قوله : " ادخلوا " للنصح والإرشاد والإشفاق ، والسياق يوضح إشفاق يعقوب عليه السلام على أبنائه وخوفه الشديد عليهم مما قد يسوءهم من أثر العين فقال ناصحاً لهم لما أزمع على إرسالهم جميعاً (٤) ، بأن لايدخلوا من باب واحد بل من أبواب متفرقة كما هو مذكور في الآية الكريمة .

كما أن المراد بالجملة المنفية " وما أغني عنكم من الله من شيء ..." تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدباً مع واضع الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين لأنا لانستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها ولايكون ذلك إلا بالسعي لها " (٥)

---

(١) راجع التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٥ .
(٢) راجع من بلاغة القرآن ص ١٧٦ .
(٣) سورة يوسف ، الآية " ٦٧ " .
(٤) انظر تفسير أبي السعود ١١٦١٣ وروح المعاني ١٣ / ١٥ .
(٥) التحرير والتنوير ١٣ / ٢١ .

ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام يرشد أبناءه وينصحهم {يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } (١) .

يكشف السياق عن رغبة يعقوب عليه السلام في الاهتداء إلى إبنيه يوسف وأخيه وشدة تعلقه بهما حيث طلب من أبنائه مواصلة البحث عنهما ، فالأمران في قوله " اذهبوا " ، فتحسسوا " للنصح والإرشاد والرغبة ، وفي هذا يقول بعض المفسرين " وهذا إرشاد لهم إلى بعض ما أبهم في قوله { وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ } (٢) ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه " إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون " لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فإن العارف لايقنط في حال من الأحوال أو تأكيداً لما يعلمونه من ذلك " (٣) وهذه الجملة واقعة موقع التعليل للنهي المتقدم في قوله " لاتيئسوا من روح الله " .

مؤمن آل فرعون :-

جاء النصح والإرشاد على لسان مؤمن آل فرعون في قوله تعالى : { وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ } (٤)

ففي قوله " اتبعون " يظهر جلياً معنى النصح والإرشاد والموعظة على لسان هذا المؤمن فقد أخلص وأجمل النصيحة لقوله حين أمرهم بإتباعه لأنه وحده الذي يهديهم سبيل الرشاد وطريق الهداية وفي هذا التعبير " اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد " كما يقول الزمخشري " تعريض شبيه بالتصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي والضلال " (٥)

ومنه قوله تعالى : { وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} (٦) .

---

(١) سورة يوسف ، الآية " ٨٧ " .
(٢) سورة يوسف ، الآية " ٨٦ " .
(٣) انظر تفسير أبي السعود ٣ / ١٨٢ ومابعدها ، وروح المعاني ١٣ / ٤٤ .
(٤) سورة غافر ، الآية " ٣٨ " .
(٥) انظر الكشاف ٣/٤٢٨ والبحر المحيط ٧/٤٦٦ وغرائب القرآن بهامش تفسير الطبري ٢٤ / ٤٦ ، وتفسير أبي السعود ٥ / ١٨ .
(٦) سورة القصص ، الآية " ٢٠ " .

فالأمر في قوله " اخرج " للنصح والإرشاد بدليل قوله " إني لك من الناصحين " والفعل " اخرج " بجرسه وصوته السريع مناسب لمقام النصح والإرشاد ، لذا فقد أثر هذا الناصح التعبير بالفعل " أخرج " الدال بجرسه وإيقاعه السريع لأنه يكشف عن رغبته في خروج موسى بسرعة خوفاً عليه من بطش القوم .

للمسلمين :

ورد النصح والإرشاد للمسلمين في كثير من الأوامر القرآنية المتعلقة بالآداب الإسلامية والأخلاق العالية من ذلك قوله تعالى : { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } (١)

فالأمر في قوله " استمعوا له وانصتوا " للإرشاد ، وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور ((وهذا الخطاب للكفار على وجه التبليغ ، وللمسلمين على وجه الإرشاد لأنهم أرجى للانتفاع بهديه)) (٢)

ومنه قوله تعالى : { ... فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (٣)

فالأمر في قوله " فسلموا " للندب والإرشاد لأنه أدب من آداب الاسلام التي حض الله عباده على التمسك بها وليس أمر تكليف .

ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } (٤)

فالأمر في قوله " فتبينوا " للنصح والإرشاد والتوجيه كما هو واضح من نظم الآية الكريمة .

وقد قررنا من قبل أن الأوامر التشريعية أوامر حقيقية تأتلف بها بعض المعاني البلاغية كالنصح والإرشاد والتوجيه والترغيب ، لذلك فقد وهم بعض الأصوليين والبلاغيين وتابعهم بعض المعاصرين (٥) ، حين استشهدوا على إفادة الأمر

---

(١) سورة الأعراف ، الآية " ١٠٤ " .
(٢) التحرير والتنوير ٩ / ٢٣٩ .
(٣) سورة النور ، الآية " ٦١ " .
(٤) سورة الحجرات ، الآية " ٦ " .
(٥) انظر المحصول جـ١ ق٢ ص ٥٨ والإبهاج في شرح المنهاج ١٧/٢ ، والأحكام في أصول الأحكام ١٣/٢ ، وعروس الأفراح ٣٢١/٢ ، والاتقان ٢٤٣/٣ ومعترك الأقران ٤٤٢/١ ، وأساليب بلاغية ص ١١٢ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٣٨ .

لمعنى الارشاد بأوامر حقيقية تشريعية هي من صميم الأحكام الشرعية التي كلف الله بها عباده المسلمين منها قوله تعالى : { وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ } (١) وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ } (٢) .

والواقع أن الأوامر في الآيات التي استشهدوا بها هي أوامر حقيقية تشريعية للتكليف وليست للإرشاد إلا تبعاً كما هو واضح من السياق القرآني . والله أعلم .

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .

الرجــــاء

دلالة الرجاء لغة واصطلاحاً :

ذكر الراغب في المفردات بأن الرجاء : " ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة " (١)

أما المفسرون فقد تعرضوا عند تفسير قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (٢) إلى تحديد دلالة الرجاء ، حيث عرفه الرازي بقوله " هو عبارة عن ظن المنافع التي يتوقعها ، وأراد تعالى في هذا الموضع أنهم يطمعون في ثواب الله ، وذلك لأن عبدالله بن جحش ماكان قاطعاً بالفوز والثواب في عمله ، بل كان يتوقعه ويرجوه " (٣)

أما الطاهر بن عاشور فقد نص على أن الرجاء " ترقب الخير مع تغليب ظـــن حصوله " (٤) .

اما البلاغيون فقد عدوا الرجاء من أساليب الإنشاء غير الطلبي ، ثم تعرضوا عند حديثهم عن التمني إلى الفرق الدقيق بين التمني والترجي حيث يقول صاحب المطول " الترجي إرتقاب شيء لا وثوق بحصوله ، فمن ثم لايقال لعل الشمس تغرب ، ويدخل في الارتقاب الطمع والإشفاق ، فالطمع إرتقاب المحبوب نحو لعلك تعطينا ، والاشفاق إرتقاب المكروه نحو لعلي أموت الساعة ، وبهذا ظهر أن الترجي ليس بطلب " (٥) ويقول العصام " وفيه بحث لأنه لا طلب في الترجي وإنما هو طمع وترقب فإذا كان طلب المرجو على سبيل المحبة كان هناك تمن وترجي فإذا أتى بليت فقد أفيد التمني دون الترجي ، وإذا أتى بلعل أفيد الترجي " (٦) .

---

(١) المفردات ص ١٩٠. انظر معجم مقاييس اللغة ٤٩٤/٢ ، واللسان ١٤٠٦/٣ ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ١ / ٤٧٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية "٢١٨" وراجع في الآية الكشاف ٣٥٧/١ ، والبحر المحيط ١٥٢/٢ وتفسير أبي السعود ٢٢٩/١ وحاشية الشهاب ٣٠٣/٢ وروح المعاني ١١١/٢ .

(٣) التفسير الكبير ٦ / ٤١

(٤) التحرير والتنوير ٢ / ٣٣٨ .

(٥) المطول ص ٢٢٦ .

(٦) الأول ١ / ٢٣٢ .

ويقول الدسوقي ((وعلى مافي المطول وهو التحقيق من أن الترجي ليس بطلب بل هو ترقب الحصول [حيث] (١) يكون التباين بينهما أظهر)) (٢) .

ونستخلص مما سبق أن الرجاء : ترقب الخير وطمع في حصوله ، كما أن بعضهم نص على أن الرجاء ليس بطلب . (٣)

وعلى كل حال فخروج الأمر إلى معنى الرجاء لا ضير فيه لأن الأساليب الإنشائية - كما نعلم - تخرج إلى معنى الخبر الصرف نحو قوله تعالى :{ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً } (٤) والرجاء كغرض من الأغراض البلاغية التى يفيدها أسلوب الأمر في القرآن الكريم جاء على ألسنة الشخصيات في سياق محاورات تأخذ بمجامع القلوب لنصاعة بيانها المشرق وعطائها المتجدد .

١ - في قصة يوسف عليه السلام :-

عرض القرآن الكريم قصة يوسف عليه مفصلة في سورة تحمل اسمه عليه السلام تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً لفؤاده وللتاسي به في صبره وجهاده فى دعوته - حيث أيده الله بنصره ورفعه مكانا علياً - ، ولأخذ العظة والعبرة منها .

وفي نسق هذه القصة جاءت بعض أساليب الأمر تفيد معنى الرجاء على ألسنة شخصيات متنوعة ، حيث جاءت على لسان أخوة يوسف ، وعلى لسان مبعوث الملك .

أ - يعقوب عليه السلام وأبناؤه :-

ورد الرجاء على لسان إخوة يوسف عليه السلام في مواضع متفرقة من سورة يوسف منها قوله تعالى :{ قَالُواْ يَاأَبَانَا مَالَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُون ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (٥)

تكشف هذه الآية عن خداع إخوة يوسف ومكرهم للتفريق بين يوسف وأبيه ، فاستطاعوا بمكرهم إخراج يوسف معهم ، حيث تلطفوا في الحديث مع أبيهم وذكـروا

---

(١) حاشية الدسوقي ٢ / ٢٣٩ .
(٢) انظر المصادر السابقة المطول ، والأطول وحاشية الدسوقي .
(٣) مابين القوسين زيادة مني ليستقيم المعني .
(٤) التوبة "٨٢" وراجع في الآية الكشاف ٢٠٥/٢ والرازي ١٥٣/١٦ والبحر ٨٠/٥ وأبا السعود ٥٨٥/٢ وحاشية الشهاب ٣٥/٤ .
(٥) سورة يوسف ، الآيتين "١٢-١٣" .

نصحهم له وما في إرساله معهم من انشراح صدر يوسف باللعب والارتعاء ، وذكروا حفظهم وحرصهم على أخيهم مما قد يسوؤه .

ففي التعبير بقوله : " مالك لاتأمنا " دليل على أنهم تقدم منهم سؤال في أن يخرج معهم وذكروا سبب الأمن وهو النصح ، ((أي لم لاتأمنا عليه وحالتنا أننا له ناصحون))(١) .

كما أن في التعبير بقوله " يرتع ويلعب " استدراجاً لأبيهم ، وتحقيقاً لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة مايلائم حالة يوسف عليه السلام .(٢)

وبهذا يتضح أن الأمر في قوله " أرسله " للرجاء ونظيره قوله تعالى { فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (٣) فالأمر في هذه الآية كسابقه للرجاء .

ومنه قوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } (٤) فالأمر في قوله " واسأل " للرجاء كما هو واضح من السياق بمعونة القرائن والأحوال .

ومنه قوله تعالى { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } (٥) الأمر في قوله " استغفر لنا " يصور رغبة نفسية ورجاءً واعترافاً بالذنب وتوبة نصوحاً ، فسألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله الغفور الرحيم .

ب - يوسف ورسول الملك :-

ورد الرجاء على لسان رسول الملك في قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } (٦)

فالأمر في قوله " ارسلون للرجاء والرغبة ، وهو خطاب إما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم ، وفي الكلام حذف تقديره فأرسلون إلى يوسف وإنما لم

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/٢٨٥ وراجع الكشاف ٢/٣٠٥ .
(٢) تفسير أبي السعود ٣/١١٥ .
(٣) سورة يوسف ، الآية " ٦٣ " .
(٤) سورة يوسف ، الآية " ٨٢ " .
(٥) سورة يوسف ، الآية " ٩٧ " .
(٦) سورة يوسف ، الآية " ٤٥ " .

يذكره ثقة بما سبق من التذكر ومالحق من قوله في الآية التي بعدها " يوسف أيها الصديق " (١)

جـ - يوسف عليه السلام والفتيا :-

قال تعالى { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } (٢)

ابتدأ الرسول كلامه بنداء يوسف عليه السلام ووصفه بالصديق لأنه " ذاق أحواله وتعرف صدقه ، وهذا من براعة الاستهلال كما ذكر أبو السعود . (٣)

والأمر في قوله " أفتنا " للرجاء والرغبة ، وفي الكلام حذف أي أفتنا في رؤيا ذلك ، وإنما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ماسبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا إمكان لوقوعه في عالم الشهادة أي بين لنا مآلها وحكمها ، وحيث عاين علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالإفتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولاً نبئنا بتأويله " ، كما أن في التعبير بقوله " أفتنا " مع أنه المستفتي وحده إشعاراً بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه في ذلك معبر وسفير كما أذن بذلك حيث قال " لعلي أرجع إلى الناس " والمراد بالناس هنا الملك وأهل مجلسه " (٤) .

د - إخوة يوسف والعزيز :-

لاشك أن الأحداث في قصة يوسف عليه السلام تمضي في سرعة عجيبة ، والمشاهد أو المناظر تتوالى مسرعة مع أن مكان الأحداث إما مصر وإما فلسطين ، حيث يطوى السياق ذلك البعد وتقتضب الأسفار الشاقة (٥) ، من ذلك ما نراه في هذا المشهد حيث نجد إخوة يوسف أمام العزيز قال تعالى { قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } (٦)

---

(١) انظر الكشاف ٣٢٤/٢ والتفسير الكبير ١٥٢/١٨ وتفسير أبي السعود ١٥٣/٣ .
(٢) سورة يوسف ، الآية " ٤٦ " .
(٣) تفسير أبي السعود ١٥٣/٣ وانظر الزمخشري ٢ / ٣٢٤ .
(٤) انظر تفسير أبي السعود ١٥٣/٣ والتحرير والتنوير ٢٨٥/١٢ .
(٥) انظر من الاعجاز البلاغي للقرآن ص ٢٢١ .
(٦) سورة يوسف ، الآية " ٧٨ " .

بالغ إخوة يوسف في استعطاف العزيز واسترحامه لإطلاق سراح أخيهم حيث وصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه ، وهي حنان الأبوة ، وصفة الشيخوخة ، واستحقاقه جبر خاطره لأنه كبير قومه أو لأنه إنتهى في الكبر إلى أقصاه ، كما عرضوا عليه أن يأخذ بدله واحداً منهم ، واستعانوا في رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين قال تعالى :" إنا نراك من المحسنين " أي فاتمم إحسانك بإطلاق سراحه أو من عادتك الاحسان فأجر على عادتك ولا تغيرها . (١)

فالأمر في قوله" خذ "للرغبة والرجاء،ومثله قوله تعالى على لسان إخوة يوسف { فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ } (٢)

تبين هذه الآية الكريمة حالة اخوة يوسف عند دخولهم على العزيز فهي حالة الضعف والضيق والانكسار حيث أضرت بهم المجاعة ونفدت نقودهم ، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بهاالزاد ، وفي حديثهم إنكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على مافعلت بهم الأيام ، وهي بلاشك حالة تبعث على الرحمة والشفقة والعطف " (٣)

ونلاحظ في هذا السياق كيف تعانق الفعلان " أوف " و " تصدق " لإفادة معني الرجاء.

٢ - في قصة موسى عليه السلام :-

أ - موسى مع فرعون :-

ورد الرجاء في القران الكريم على لسان موسى عليه السلام فى دعوته لفرعون من ذلك قوله تعالى { وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ }(٤) .

---

(١) انظر الكشاف ٣٣٦/٢ وأبا السعود ١٧٧/٣ والتحرير والتنوير ٣٦/١٣ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٠٢٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية " ٨٨ " .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ١٨٣/٣ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص٢٠٢٦وما بعدها .

(٤) سورة الأعراف ، الآية " ١٠٤ - ١٠٥ " .

تكشف هذه الآيات عن رغبة موسى عليه السلام في إطلاق بني إسرائيل وتخليصهم من ظلم فرعون وبطشه ، فالأمر في قوله " ارسل معي بني اسرائيل " مستعمل فى الرجاء والرغبة أي فخلهم حتى يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة (١) .

وتقييده بقوله " معي " لأن المقصود من اخرجهم من مصر أن يكونوا مع الرسول ليرشدهم ويدبر شئونهم . (٢)

ونظيره قوله تعالى على لسان موسى وهارون عليهما السلام : { قَالَ لَاتَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَاتُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى } (٣)

فالأمر في قوله " فأرسل معنا بني إسرائيل " للرجاء والرغبة كما هو واضح من السياق وخصائص التراكيب .

ونلاحظ في هذا السياق تأييد الله لهما بانه معهما يسمع ويرى وهذا تأييد ليس بعده تأييد .

ب - بنو اسرائيل وموسى عليه السلام :-

تفيض بعض الآيات القرآنية التى جاءت على لسان بنى إسرائيل بالرجاء والرغبة من ذلك قوله تعالى :{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ... } (٤)

يبدو أن الأمر في قوله " ادع لنا ربك " للرجاء ، فهذه الآية تصور رغبتهم الأكيدة فيما ذكروه من مختلف الأطعمة ، ونلمح في طلبهم من الجفاء والغلظة وكفران النعمة مع الرسول ومع المنعم ما فيه حيث قالوا " لن نصبر على طعام واحد " فعبروا عن تناول المن والسلوى بالصبر المستلزم الكراهية حيث أكدوه بلن التي تدل على استغراق النفي .

" فادع لنا ربك " أي سله لأجلنا بدعائك إياه " يخرج لنا مما تنبت الأرض "

(١) الكشاف ١٠١/٢ وانظر تفسير أبي السعود ٣٨٥/٢ .
(٢) التحرير والتنوير ٩ / ٤٠ .
(٣) سورة طـه ، الآيتين " ٤٦ - ٤٧ " .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٦١ " .

فهـذاالتعبير دليل على ثقتهم بإجابة الله لدعائه ، أي إن إخراج ماتنبته الأرض يحصل بمجرد دعاء موسى ربه " (١)

وعلى كل حال فالفعل " ادع " جاء في القرآن يفيد أكثر من معنى بلاغـي منهـــا الرجاء (٢) ، من ذلك قوله تعالى على لسان بنى إسرائيل في قصة البقرة التى أمرهم الحق سبحانه بذبحها { قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَابِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ } (٣)

لاشك أن سؤالهم عن البقرة وصفتها دليل على مماطلتهم وقد نص القرآن على ذلك في قوله تعالى { فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ } ويدل على التعجب وفي هذا يقول الزمخشري " وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ، فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن الخارجة عما عليه البقر " (٤)

فقولهم " أدع " المراد منه الدعاء المعروف الذى هو طلب بخضوع وحرص على إجابة المطلوب فيكون في الكلام رغبتهم فى حصول البيان لتحصيل المرجو من ذبـح البقرة " (٥) فالأمر في " ادع " للرجاء والرغبة ونظيره قوله تعالى : { قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ...} (٦) وقوله تعالى :{ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ... } (٧)

جـ- موسى عليه السلام في مدين :-

إتجه موسى عليه السلام بعد خروجه من مصر خائفاً إلى مدين ، وتفاصيل هذه القصة معلومة لدينا ساقها القرآن في كثير من سوره ، وبخاصة في سورة القصص ، وفي معرض مشهد من مشاهد هذه القصه ، - مشهد موسى عليه السلام في مدين - جاءت بعض الآيات تنبض بالرجاء من ذلك قوله تعالى على لسان إبنة شعيب عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢١/١ ومابعدها .
(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٢٥٩ .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٦٨ " .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٧١ " .
(٥) الكشاف ٢٨٧/١ وينظر تفسير أبي السعود ١٨٧/١ ومابعدها .
(٦) سورة البقرة ، الآية " ٦٩ " .
(٧) سورة البقرة ، الآية " ٧٠ " .

السلام {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } (١) فهذه الآية تفيض بمعاني الرجاء والرغبة والإشفاق على أبيها والخوف عليه لكبر سنه والنصح له كما أن في وصفها لموسى عليه السلام " إن خير من استأجرت القوي الأمين " تعليلاً جارياً مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار (٢)

وحول هذا المعنى يقول الزمخشري " هذا كلام جامع لايزداد عليه ، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك ، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمه أن تقول استأجره لقوته وأمانته " (٣) ويضيف ابن المنير " وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخالص وأبقى للحشمة ، وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه"(٤)

د - بنو اسرائيل بعد موسى عليه السلام :-

قال تعالى :{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } (٥)

فالأمر في قوله " ابعث لنا " للرجاء والرغبة حيث طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته " في سبيل الله " وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال وأنه في سبيل الله يشي بقوة العقيدة ويقظة الإيمان في نفوسهم ، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيده وحق ، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل .

لكن نبيهم أراد أن يتأكد من صدق عزيمتهم وثبات نيتهم ، وجدهم فيما يعرضون عليه من الأمر كما يفهم من قوله " قل هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا " فأجابوه بقول ينم عن صدقهم موضحين له من الأسباب التي تدفعهم إلى

(١) سورة القصص ، الآية " ٢٦ " .
(٢) تفسير أبي السعود ٤ / ٣٠١ .
(٣) الكشاف ٣ / ١٧٢ .
(٤) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف ١٧٢/٣ .
(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٤٦ " .

القتال في سبيل الله في قولهم " ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا " لكن السياق يكشف عن نكثهم بالوعد حيث يقول الحق سبحانه " فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم " وفي هذا دليل على جبنهم الشديد وعلى تخاذلهم ونكوصهم عن الحق المبين " (١) ، بيد أن السياق يستثني طائفة منهم جاهدت في سبيل الله " وهم الذين اكتفوا بالغرفة من النهر كما صرح بذلك أبو السعود " (٢)

داود عليه السلام والخصمان :

ورد الرجاء في قصة داود عليه السلام على لسان الملكين اللذين بعثهما الله إليه ليحكم بينهما بالعدل قال تعالى :{ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَاتَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَاتُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلى سَوَاءِ الصِّرَاطِ } (٣)

توضح هذه الآيات الابتلاء الذي أبتلي به داود عليه السلام ، حيث أرسل الله - سبحانه وتعالى - إليه ملكين على هيئة البشر ليحكم بينهم بالحق ، لكن النبي الكريم تعجل بالحكم وقضى لأحدهما دون أن يستمع إلى الخصم الآخر .

وهو بلاشك إمتحان صعب لهذا النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل ، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم ، فهو إرشاد وتعليم له عليه السلام"(٤) وليس بخاف أن الفعلين احكم . و " اهدنا " للرجاء .

المنافقون :

ورد الرجاء على لسان المنافقين في الآخرة قال تعالى : { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ } (٥) .

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٢٦٠ .
(٢) تفسير أبي السعود ١ / ٣٧١ .
(٣) سورة ص ، الآيتين " ٢١ - ٢٢ " .
(٤) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣٠١٨ .
(٥) سورة الحديد ، الآية " ١٣ " .

تبين هذه الآية الكريمة حقيقة المنافقين وتبرز هذا النفاق المتأصل في نفوسهم المريضة فهم لايستطيعون ترك النفاق والخداع والمداراة حتى في الآخرة يوم العرض والحساب (١) ، وعلى كل حال فالأمر في قوله " انظرونا نقتبس من نوركم " للرجاء "

المعذبون في الآخرة :-

ورد الرجاء في الآخرة على ألسنة المعذبين في نار جهنم من ذلك قوله تعالى { وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ } (٢)

تكشف هذه الآية عن استجداء أهل النار لأهل الجنة ورجائهم في أن يمنوا عليهم بشربة ماء ، وأصحاب النار يعلمون أن مافي الجنة محرم عليهم ولكنهم لفرط ماهم فيه من الهول صاروا يطلبون مالاسبيل إلى تحقيقه .

فعلى هذه الصورة ينتهي الحال بأصحاب النار ، وهي حالة تدل على الانكسار والذلة والحيرة والتخبط ، لقد أصبحت شربة الماء منتهى رجائهم ، وياله من بلاء ذلك الذي أذل هذه النفوس المتطاولة وأرغم الأنوف الشامخة ، فها هي في العذاب وترجو الخلاص منه " (٣)

فالأمر في قوله " افيضوا علينا الماء " للرجاء والاستغاثة والتحسر على مافات منهم . ومنه قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ ، قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ } (٤) فالأمر في قوله " ادعوا " للرجاء ، ويجسد رغبة نفسية في الخلاص من عذاب جهنم ولو يوماً واحداً كما ذكروا .

---

(١) راجع مبحث السخرية من هذه الدراسة .

(٢) سورة الأعراف ، الآية " ٥٠ " .

(٣) انظر الكشاف ٨٢/٢ ، ودلالات التراكيب ص ٢٥٢ ومابعدها وأسلوب الدعوة القرآنية ص ١٤٥ .

(٤) سورة غافر ، الآيتين " ٤٩ - ٥٠ " .

ولعل السر من وراء التعبير بقوله " خزنة جهنم " بدل قوله " لخزنتها " لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً أو لبيان محلهم فيها بأن تكون جهنم أبعد دركات النار وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم ، أو لكون الملائكة الموكلين بعذاب أهلها أقدر على الشفاعة لمزيد قربهم من الله تعالى " (١) والأخير غير قريب .

كما أن في قوله " يوماً " محذوفاً تقديره عذاب يوم ، أي مقدار يوم ، وهو كناية عن القلة أي يخفف عنا ولو زمناً قليلاً " (٢) .

---

(١) انظر الكشاف ٣/٤٣٠ وتفسير أبي السعود ٥ / ٢١ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٤ / ١٦٤ ومابعدها .

التمنـــــــي

التمني في إصطلاح البلاغيين : طلب حصول الشيء على سبيل المحبة : (١)

وللتمني أدواته الموضوعة له أصلاً ، ومن بين الأساليب التي تفيد معنى التمني في القرآن الكريم أسلوب الأمر حيث يخرج عن دلالة وضعه الأصلي فيفيد التمني بدلالة القرينة والمقام .

والتمني في القرآن الكريم أدي بأساليب متنوعة كالأمر والنهي والاستفهام والخبر ويهمنا في هذا الموضع أن نتناول أساليب الأمر التي أفادت معنى التمني في القرآن الكريم .

والتمني المفاد عن طريق الأمر في القرآن جاء فقط على ألسنة الكافرين المعذبين في الآخرة بتنوع مراحلها ، ولتمنيهم درجات فحين يرون العذاب وأهواله قبل معاناة ويلاته واصطلائهم بلهيب جهنم المحرقة تكون الرغبة جارفة قوية والأمل حياً حاراً في العودة إلى الدنيا ، وحين يقذفون في جهنم تتنوع أمانيهم ومطالبهم بالخروج منها أو العودة إلى الدنيا أو الهلاك والخلاص النهائي .

ولعل السر البلاغي من وراء إفادة الأمر معنى التمني هو الرغبة الملحة في سرعة تنفيذ المتمني ، حيث نجد المأمور يسارع إلى تنفيذ ما أمر به ، كما أن الآمر يتوقع تنفيذ المأمور به في الأمر مطلقاً .

والواقع أن أساليب الأمر التي تفيد معنى التمني في القرآن تتنوع بتنوع مراحل الآخرة على نحو ماتكشف عنه وتبينه الصفحات التالية بعون من الله وتوفيقه .

أول منازل الآخرة :-

لاشك أن الموت يعد المرحلة الأولى من مراحل الآخرة ، فبعده يفارق الإنسان الحياة الدنيا وينتقل إلى الآخرة ، والمؤمن لايجزع عندما تحين ساعة وفاته بل يفرح بلقاء ربه أما المشرك فيجزع منه ويتمنى أن يعود إلى الدنيا ليعمل جاهداً لإصلاح

---

(١) انظر شروح التلخيص ٢٣٨/٢ والمطول ص٢٥٥ وتقرير الشمس الإنبابي ١٠٢/٣ .

ما فات ، من ذلك قوله تعالى : { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } (١) .

تبدأ الآيات بمنظر الاحتضار ، وإعلان التوبة عند مواجهة الموت ، وطلب الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فات ، فيتمنى العودة إلى الدنيا ليعمل صالحاً ، لكن الرد على هذا التمني لايوجه إلى صاحبه بل يعلن على رؤوس الأشهاد " كلا إنها كلمة هو قائلها " (٢) فكلا " كلمة ردع للسامع ليعلم إبطال طلب الكافر ، أما قوله : إنها كلمة هو قائلها " فهذا تركيب يجري مجرى المثل وهو من مبتكرات القرآن ، وحاصل معناه أن قول المشرك " رب أرجعون " لايتجاوز أن يكون كلاماً صدر من لسانه لا جدوى له فيه أي لايستجاب طلبه . (٣)

وعلى هذا فالأمر في قوله : " رب ارجعون " للتمني (٤) .

وذكر الزركشي أن قوله " ارجعون " بمعنى ازجعني ، وإنما خاطب الواحد المعظم بذلك وقيل " رب " استغاثة و"ارجعون" خطاب للملائكة ، وقال السهيلي (٥) - وكان ذا حس رهف - هو قول من حضرته الشياطين وزبانية العذاب فاختلط ولايدري مايقول من الشطط وقد اعتاد أمراً يقوله في الحياة من رد الأمر إلى المخلوقين " وهي لفتة نفسية مصورة (٦) .

---

(١) سورة المؤمنون " ٩٩ - ١٠٠ " .

(٢) انظر في ظلال القرآن المجلد الرابع ص٢٤٨٠ ومشاهد القيامة ص ٢٠٠ .

(٣) التحرير والتنوير ١٢٣/١٨ .

(٤) انظر الاساليب الإنشائية ص ٥٧ .

(٥) هو ابوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبغ الخثعمي السهيلي الاندلسي المالكي ، مؤرخ أديب ، نحوي لغوي ، محدث ولد بمدينة مالقة سنة ٥٠٨ هـ وتوفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ من مؤلفاته الروض الأنف ونتائج الفكر والتعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام انظر ترجمته وفيات الأعيان ٣٧١/٣ ومعجم المؤلفين ١٤٧/٥ .

(٦) انظر البرهان ٢٣٥/٢ والاتقان ١٠١/٣ والأساليب الإنشائية ص ٢٧٩ ودلالات التراكيب ص ٢٥٣ .

في الآخــرة :-

١ - قبل دخول النار :-

ورد التمني في الآخرة على ألسنة المشركين ، وتمني المعذبين العودة إلى الدنيا إنما يعكس حسرة وندماً وألماً نفسياً لايطاق تنبض به هذه الأساليب من ذلك قوله تعالى { وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ } (١) .

في هذه الآية الكريمة أمر الله سبحانه رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - بإنذار المشركين وتخويفهم بالعذاب ((والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين)) ولعل في التعبير بقوله " وانذر الناس " بدل قولنا " وأنذرهم " للإشعار بأن المراد بالانذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للإزعاج والإيذاء .

أما قوله { فيقول الذين ظلموا } أي فيقولون ، والعدول عنه إلى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللإشعار بأن مالقوه من الشدة إنما هو لظلمهم ، ثم إن إيثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أولا للإيذان بأن الظلم في الجملة كاف في الإفضاء إلى ماذكر من الأهوال من غير حاجة إلى الاستمرار كما ينبيء عنه صيغة الفاعل ، فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم . (٢)

ثم يضرع المشركون إلى الحق سبحانه متمنين أن يؤخرهم إلى أجل قريب { ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل } أي ردنا إلى الدنيا وأمهلنا

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية " ٤٤ " .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢٧٦/٣ وروح المعاني ٢٤٨/١٣ .

إلى أمد وحد من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك وإتباع رسلك " (١) .

فالأمر في قوله " ربنا أخرنا " للتمني .

ومنه قوله تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ } (٢)

تصور هذه الآية الكريمة مشهداً من مشاهد الآخرة ، مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة والاقرار بالحق الذي جحدوه ، وإعلان اليقين بما شكوا فيه ، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح مافات في الحياة الدنيا ، وهم ناكسوا رؤوسهم خجلاً وخزياً وهذه الكلمة " ناكسوا رءوسهم " بما لها من ارتباط نفسي تبرزهم في ذلة وضياع وإهمال ، وقوله { عند ربهم } - الذي كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا - يكمل صورة الحقارة والهوان والخجل من التفريط ترهيباً من الكفر يبلغ المدى . (٣)

ثم تكشف الآية عن أمنيتهم في العودة إلى الدنيا لإصلاح مافات بإخلاص الطاعة والعبادة لله وحده ، فالأمر في قوله تعالى { ارجعنا } للتمني .

٢ - في النــار :-

تعكس أساليب التمني التي جاءت على ألسنة المعذبين في نار جهنم رغبة ملحة وأملاً قوياً في الخروج منها والعودة إلى الدنيا أو القضاء عليهم ، من ذلك قولهم لمالك خازن النار قال تعالى :{ وَنَادَوْاْ يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَاكِثُونَ } (٤) .

---

(١) الكشاف ٣٨٣/٢ وراجع البحر المحيط ٤٣٦/٥ وتفسير أبي السعود ٢٧٧/٣ ومشاهد القيامة ص ١٩٦ .

(٢) سورة السجدة ، الآية " ١٢ " .

(٣) انظر من الاعجاز البلاغي للقرآن ص١٣ للدكتور صباح دراز وظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٨١١ .

(٤) سورة الزخرف ، الآية " ٧٧ " .

أشار الرازي إلى أن العلماء اختلفوا في قوله { يامالك ليقض علينا ربك } فقال بعضهم للتمني ، وقال آخرون للاستغاثة (١) بيد أن الإمام البيضاوي وتابعه الشهاب الخفاجي وأبو السعود والألوسي رجح أن يكون الأمر للتمني حيث يقول " سل ربنا أن يقضي علينا من قضى عليه إذا أماته وهو لاينافي إبلاسهم فإنه جؤار وتمن " (٢)

وإفتتاح الآية بندائهم بالفعل الماضي { نادوا } مع أنه مما سيقع يوم القيامة تنزيلاً للفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقق وقوعه ، ولعل في التعبير بقوله "ربك" حيث أضافوا الرب إلى ضميره قصداً إلى حثه لا للإنكار .. (٣)

ويقول الزمخشري " فإن قلت كيف قال ونادوا يامالك بعدما وصفهم بالإبلاس ؟ قلت : تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لافرج لهم ويغوثون أوقاتاً لشدة مابهم " (٤) .

ومنه قوله تعالى { أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ}(٥)

يتجلى في إعتراف المعذبين الحسرة والمرارة والشقوة والضلال ، أما الأمر في قوله " أخرجنا " للتمني (٦) .

---

(١) التفسير الكبير ٢٧/٢٢٨ .
(٢) انظر تفسير البيضاوي بهامش حاشية بهامش حاشية الشهاب ٧/٤٥١ وتفسير أبي السعود ٥/٩٥ وروح المعاني ٢٥/١٠٢ وراجع الأساليب الإنشائية ص ٥٧ .
(٣) روح المعاني ٢٥ / ١٠٢ .
(٤) الكشاف ٣ / ٤٩٦ .
(٥) سورة المؤمنون " ١٠٥ - ١٠٧ " .
(٦) أنظر الأساليب الإنشائية ص ٥٧ .

ونظيره قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لايُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلايُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ، وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ... } (١)

تصور هذه الآيات الكريمات مشهداً من مشاهد العذاب في نار جهنم يبدو فيه - بوضوح - القلق والاضطراب الذي ينتاب المعذبين ، فهم في عذاب دائم "لايقضي عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها " ثم يطرق أسماعنا صوت غليظ مختلط الأصداء إنه صوت المعذبين في نار جهنم وكلمة " يصطرخون " بظلالها وجرسها الغليظ تلقي في الحس هذه الحركة وهذه الأصوات الغليظة المنبعثة من كل حدب وصوب ، منبعثة من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة إنها حناجر أدها العذاب وأضناها الجؤار ، فهذه الكلمة تجسد صورة صوتية مستفيضة تفوق كل تصور . (٢) أما قوله " ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل " فيبدو في هذا التعبير الاعتراف والندم لكن بعد فوات الأوان ، فهم يتمنون أن يخرجوا من النار فالأمر في " أخرجنا " للتمني وليس للدعاء لأن الدعاء لايكون إلا في الدنيا .

ومنه قوله تعالى على لسان المعذبين في نار جهنم { قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار } (٣) .

وتحتمل هذه الأساليب أيضاً معنى الدعاء .

---

(١) سورة فاطر ، الآيتين " ٣٦ - ٣٧ " .

(٢ انظر من الاعجاز البلاغي للقرآن ص ١٤ ، وظلال القرآن المجلد الخامس ص٢٩٤٥ ومشاهد القيامة ص ١١٧ ومابعدها

(٣) سورة ص ، الآية " ٦١ " .

المشـــورة

تعريف المشورة

ذكر الراغب في المفردات بأن المشاورة والمشورة : استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض ، وهي مأخوذة من قولهم شرت العسل إذا اتخذته من موضعه واستخرجته منه . (١)

والمشورة لون من الألوان البلاغية التى يفيدها أسلوب الأمر في القرآن الكريم .

من ذلك مشورة إبراهيم الخليل لولده إسماعيل عليهما السلام قال تعالى : {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَاتُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } (٢) فالأمر في قوله { انظر ماذا ترى } للمشورة في أمر جلل لعلمه عليه السلام قوة يقينه وكمال عقله ورجاحته . (٣)

ويقول الزمخشري ((فإن قلت لم شاوره في أمر هو حتم من الله ؟ قلت : لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم ماعنده فيما نزل به من بلاء الله فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ويأمن عليه من الزلل إن صبر وسلم ، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله)) (٤) .

وفي ابتداء الجواب بالنداء واستحضار المنادى بوصف الأبوة وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها بالتاء مزيد من الترقيق والتحنن والاستعطاف ، كما أن في التعبير عن الذبح بالموصول وهو " ما تؤمر " دون أن يقول " اذبحني " إيماءً إلى السبب الذي جعل جوابه إمتثالاً لذبحه . (٥)

ومن ذلك قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام { قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ } (٦) .

---

(١) المفردات ص ٢٧٠ .
(٢) سورة الصافات ، الآية " ١٠٢ " .
(٣) الأساليب الانشائية وراجع عروس الأفراح ٢ / ٣٢١ .
(٤) الكشاف ٣ / ٣٤٨ .
(٥) التحرير والتنوير ٢٣ / ١٥١ .
(٦) سورة الصافات ، الآيتين " ٩٧ - ٩٨ " .

لماغلبهم إبراهيم عليه السلام بالحجة مالوا إلي الغلبة بقوة الشوكة والجمع حيث أشار بعضهم على بعض بإلقائه في النار لكن الله سبحانه وتعالى رد كيدهم إلى نحورهم وجعلهم من الخاسرين .

ونظيره قوله تعالى :{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (١)

فالأمر في قوله :{ اقتلوه أو أحرقوه } للمشورة وإن صور شدة الانفعال والحقد ورغبتهم الأكيدة في الانتقام منه والضيق به (٢)

ومما جاء للمشورة قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته { اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } (٣)

تصور هذه الآيات الكريمات ضعف النفوس والحقد الذي يغلي في الصدور ، وتعرض هذه القصة كأنموذج يوضح هذه الحقيقة .

وليس من شك في أننا نلمس من خلال التعبير القرآني في هذا السياق سيطرة الحقد العجيب الذي سيطر على أخوة يوسف عليه السلام وكيف أوصلهم إلى ما أوصلهم إليه حيث تشاوروا فيما بينهم في قتله أو نفيه ، وفي هذا الصدد يقول أبو حيان ((قيل هو من قول قوم استشارهم إخوة يوسف فيما يفعل به فقالوا ذلك والظاهر أن أو اطرحوه هو من قولهم أن يفعلوا به أحد الأمرين ويجوز أن تكون أو للتنويع أي قال بعض اقتلوا يوسف وبعض اطرحوه)) (٤) وعموماً فالأمر للمشورة كما يدل عليه السياق ويقتضيه المقام .

ومن المشورة قوله تعالى على لسان ملك مصر { يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } (٥) .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية " ٢٤ " .

(٢) راجع في الآية الكشاف ٢٠٣/٣ والبحر المحيط والنهر الماد ٢٤٧/٧ وروح المعاني ١٥/٢٠ .

(٣) سورة يوسف ، الآيتين " ٩ - ١٠ " .

(٤) البحر المحيط ٢٨٢/٥ وراجع في الآية الكشاف ٣٠٥/٢ والتفسير الكبير ٩٧/١٨ وحاشية الشهاب ١٥٨/٥ .

(٥) سورة يوسف ، الآية " ٤٣ " .

ومنه قوله تعالى على لسان بلقيس { يَاأَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَاكُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ } (١) فالأمر في قوله { أفتوني - وانظري } للمشورة ، والأسلوب ينبيء مع المشورة عن الحيرة والفزع ومحاولتها كأنثى التخفف من أعباء ثقال وخوفها من اتخاذ القرار ، بل إن الجملة الثانية { ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون }لتكشف القناع عن ضعف بشري زاده ضعف الأنثى إرتعاشاً وقلقاً . (٢)

ونلمح في جواب المستشارين مطلق الطاعة والأمانة والاستعداد لتنفيذ كل ما تأمرهم به وكمال الأدب حيث قالوا { فانظري ماذا تأمرين } ولم يقولوا فانظري ماذا ترين أو ماذا تفعلين أو نحو ذلك ، وإنما قالوا نحن مستعدون لتنفيذ أي أمر تأمرين ، فنحن أولوا قوه وبأس شديد . (٣)

ومنه قوله تعالى على لسان قوم فرعون عندما استشارهم فرعون اللعين في موسى وأخيه هارون عليهما السلام { قَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ } (٤)

ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآيات الكريمات أن الأمرين { أرجه وأرسل }للمشورة (٥) ، بدليل قوله { فماذا تأمرون } بمعنى تشيرون .

ومما جاء للمشورة قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف {... إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً } (٦) .

فالأمر في قوله " ابنوا " كما يفهم من السياق للمشورة .

---

(١) سورة النمل ، الآيتين " ٣٢ - ٣٣ " .
(٢) الأساليب الإنشائية ص ٦٢ .
(٣) انظر أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ص ١٣٠ - ١٣٤ .
(٤) سورة الأعراف ، الآيتين " ١٠٨ - ١١٢ " .
(٥) انظر الكشاف ٢ / ١٠٢ والبحر المحيط ٤ / ٣٥٩ وتفسير أبي السعود ٢ / ٣٨٦ ومابعدها والتحرير والتنوير ٩ / ٤٣ .
(٦) سورة الكهف ، الآية " ٢١ " .

الإلتمــــاس

الإلتماس لغة واصطلاحاً :

١ - في اللغـة :-

الالتماس : الطلب ، والتلمس : التطلب مرة بعـد أخرى ، والتمس الشيء وتلمسه : طلبه . (١)

٢ - في الإصطلاح :

عرف البلاغيون الالتماس : بأنه طلب الأمر من المتساويين منزلة ، وقد أوضحه القزويني بقوله ((إذا استعملت فيه على سبيل التلطف كقولك لمن يساويك في الرتبة " افعل " بدون الاستعلاء)) (٢)

واسلوب الالتماس أسلوب تنسم في أعطافه الرقة وحسن الخطاب وأدب التعبير ، وهذا مانلمسه في لغتنا العادية كقولك لصديقك مثلاً : اعطني القلم لو سمحت أو لو تكرمت ، أو فضلاً لا أمراً وغير ذلك .

وقد أومأ البلاغيون إلى هذا المعنى وألمحوا إليه بقولهم ((علــى سبيل التلطف)) واشتراطهم عدم الاستعلاء في أساليب الأمر التى تفيد معنى الالتماس .

والالتماس كلون من الألوان البلاغية في البيان القرآني أدي بأساليب متنوعة من بينها الأمر . ، ونقدم هذا التحليل من خلال الأغراض القرآنية :-

يوسف عليه السلام في السجن :-

أفادت بعض أساليب الأمر التى وردت في قصة يوسف عليه السلام وهو في السجن الالتماس من ذلك قوله تعالى على لسان الفتيين اللذين كانا معه فــي السجن ((وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)) (٣)

فالأمر في قولـه " نبئنا " للالتماس .

---

(١) انظر مقاييس اللغة ٢١٠/٥ والصحاح ٩٧٥/٣ واللسان ٤٠٧٣/٥ .

(٢) انظر الايضاح ٢٤٣/١ وشروح التلخيص ٣٢٠/٢ وبغية الايضاح ٥٥/٢ ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٧ وعلم المعاني د. درويش الجندي ص ٣٧ .

(٣) سورة يوسف ، الآية " ٣٦ " وراجع في الآية الكشاف ٣١٩/٢ والتحرير والتنوير ٢٦٩/١٢ .

وقد توسم الفتيان في يوسف عليه السلام رجاجة العقل وكمال الفهم ، وظنا أنه يحسن تعبير الرؤيا يتضح ذلك من خلال التعبير بقولهم { إنا نراك من المحسنين } ومنه قوله تعالى : { وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } (١) .

الأمر في قوله " اذكرني " مستعمل في الالتماس كما هو واضح من السياق ومنه قوله تعالى : { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } (٢) وفي هذه الآية بنظمها وتراكيبها الموحية نجد يوسف عليه السلام قد أبى الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته ، ولهذا ((قدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن بسببه لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عند الملك ويجعلوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا ماخلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره)) (٣) .

كما أن في التعبير بقوله { ارجع إلى ربك فأساله } ولم يقل سله أن يفتش عن شأنهن ذروة الأدب وكماله ، ولأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه ، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة القصة حتى تتضح له براءة يوسف عليه السلام ونزاهته .

ثم يجيء قوله : إن ربي بكيدهن عليم ((تذييلا وتعريضاً بأن الكشف سينجلي عن براءته وظهور كيد الكائدات له ثقة بالله ربه أنه ناصره لا محالة)). (٤)

أهل الكهف :-

في قصة أصحاب الكهف ومن خلال الحوار الذي دار بينهم جاءت أساليب الأمر

---

(١) سورة يوسف ، الآية " ٤٢ " .
(٢) سورة يوسف ، الآية " ٥٠ " .
(٣) الكشاف ٢ / ٣٢٥ .
(٤) انظر الكشاف ٣٢٥/٢ ومابعدها وتفسير أبي السعود ١٥٦/٣ والتحرير والتنوير ٢٨٨/١٢ ومابعدها .

تفيد معنى الالتماس من ذلك ماورد في قول الحق سبحانه في كتابه العزيز { وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَايُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً } (١)

في هذا السياق القرآني نلاحظ توالي أساليب الأمر وتعانقها في إفادة معنى الالتماس والتشاور ، حيث أشار بعضهم بإرسال أحدهم إلى المدينة لجلب الطعام ، وأوصوه بتوخي الحرص وأخذ الحيطة والحذر حتى لايفتضحوا وينكشف أمرهم ، كما أنني ألمح في نصيحتهم له { وليتلطف ولايشعرن بكم أحداً } الخوف والوجل الشديد (٢)

المنافقون والإلتماس :-

ورد الالتماس في القرآن الكريم على ألسنة المنافقين في قوله تعالى { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً } (٣)

فالتعبير بقوله " هلم " أمراً أو اسم فعل أمر على خلاف بين النحاة (٤) ، للالتماس لوجود قوله { القائلين لإخوانهم } الذي يؤكد أن الأمر - أو الطلب بمعنى أدق - صادر من المتساويين منزلة ورتبة .

وإفتتاح هذه الآية بقوله { قد يعلم الله المعوقين منكم } دليل على تحقيق علم الله لهؤلاء المثبطين من المنافقين ، وتحقيق علم الله يعني تحقيق الوعيد والتهديد ، لأن المراد بهذا الإخبار تهديد هؤلاء ووعيدهم بما أعد لهم العليم من العذاب والسعير .

أما التعبير بقوله { والقائلين لإخوانهم هلم إلينا } يصف خلقاً ثانياً من أخلاق المنافقين ، يصف تجمعهم وتحالفهم ضد الحق ومسيرة الخير ، وهذا أخطر من التثبيط

---

(١) سورة الكهف ، الآية " ١٩ " .

(٢) راجع في الآية الكشاف ٤٧٦/٢ ومابعدها وتفسير أبي السعود ٥٠٩/٣ والتحرير والتنوير ٢٨٤/١٥ ومابعدها والتصوير الفني ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية " ١٨ " .

(٤) راجع الكتاب ٢٤١/١ - ٢٤٦/١ - ٢٥٢ ، ٥٢٩/٣ والمقتضب ٢٥/٣ وشرح المفصل لابن يعيش ٤١/٤ ومابعدها وشرح الكافية في النحو للاستراباذي ٧٢/٢ .

نفسه لإنه بناء كيان لهذا الشر في حياة الناس ، وهذا الكيان يتوارث تلقائياً في أجيال البشرية يجده كل جيل في صورة هذه الشخوص التي عنتها الآيات)) (١) .

---

(١) انظر أسرار التعبير القرآني ص ٧١ - ٧٤ .

الدعـــــاء

دلالة الدعاء في اللغة والقرآن الكريم :

للدعاء في اللغة والقرآن الكريم دلالات لغوية متعددة منها :

أن الدعاء بمعنى النداء ، يقال دعاه يدعوه دعاءً : ناداه وطلبه

وبمعنى العبادة : يقال : دعاه : عبده .

وبمعني الاستعانة والاستغاثة يقال دعاه : استعانه واشتغاث به .

وبمعني التسمية نحو دعوت ابني زيداً أي سميته زيداً .

وبمعني الحث على الشيء يقال دعاه إلى الشيء وللشيء : حثه عليه ، ودعاه إلى الله : أي إلى عبادته .

وبمعنى التضرع إلى الله – وهو مايعنينا هنا – فيقال : دعا الله يدعوه دعاء : سأله كشف ضر أو سوق نفع . (١)

ويقول صاحب اللسان " والدعاء على ثلاثة أوجه : فضرب منها توحيده والثناء عليه كقول: " ربنا لك الحمد " إذا قلته دعوته بقولك " ياربنا " ثم أتيت بالثناء والتوحيد ومثله قوله تعالى : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي .. } (٢) فهذا ضرب من الدعاء ، والضرب الثاني : مسألة العفو والرحمة ومايقرب منه كقولك : اللهم اغفر لنا ، والضرب الثالث : مسألة الحظ من الدنيا : اللهم ارزقني مالا وولداً ، وإنما سمي هذا جميعه دعاء لأن الانسان يُصدِّرُ في هذه الأشياء بقوله : ياالله ، يارب ، يارحمن ، فلذلك سمي دعاء (٣) .

والدعاء عند البلاغيين : –

طلب الفعل على سبيل التضرع والخضوع لله تعالى ، وذلك بأن يكون صادراً من الأدنى إلى الأعلى " (٤)

---

(١) انظر المفردات ص١٦٩ ومابعدها والصحاح ٢٣٣٦/٦ ومابعدها واللسان ١٣٨٥/٢ ومابعدها ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٤٠٨/١ .

(٢) سورة غافر ، الآية " ٦٠ " .

(٣) اللسان ١٣٨٥/٢ .

(٤) انظر الايضاح ٢٤٣/١ وشروح التلخيص ٢٣٠/٢ والمطول ص٢٤١ والأطول ٢٤٩/١ وبغية الايضاح ٥٥/٢ .

والدعاء في البيان القرآني جاء بأساليب متنوعة من الأمر والنهي والاستفهام والخبر خروجاً عن المعنى اللغوي إلى معنى الدعاء وهو التضرع والخضوع من العبد لخالقه عز وجل . (١)

كما جاء في صورة المصدر النائب عن فعله - وهذه كما نعلم إحدى صيغ الأمر عند البلاغيين - قال تعالى { وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } (٢) .

كما جاء الدعاء بصيغة الاستعاذة لجأ الى الله وهرباً إليه قال تعالى { رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ } (٣) .

والدعاء في البيان القرآني ورد على ألسنة الأنبياء عليهم السلام ، وعلى ألسنة المؤمنين ، وعلى لسان إبليس اللعين ، بل وعلى ألسنة المعذبين في الآخرة .

فمن دعاء نوح عليه السلام وقد علمه الله إياه قال تعالى : { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ } (٤) ومنه قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام .{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} (٥) ، وقوله تعالى { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (٦)

ودعاء سليمان عليه السلام قال تعالى:{ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

---

(١) راجع الساليب الإنشائية ص ٦٧ .

(٢) سورة البقرة، الآية " ٢٨٥ " .

(٣) المؤمنون " ٩٧ " وراجع الأساليب الإنشائية ص ٦٤ .

(٤) سورة المؤمنون ، الآيتين " ٢٨- ٢٩ " .

(٥) سورة إبراهيم ، الآية " ٣٥ " .

(٦) سورة البقرة ، الآية " ١٢٩ " .

صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } (١) .

في هذا السياق نلاحظ إيثار التعبير بقوله { أوزعني } لما يشي به من معان وظلال تتناسب مع هذا الموقف .

فهو يصور رغبة سليمان عليه السلام في إخلاص الدعاء والشكر لله ، أي ألهمني وأجمع كل جوارحي ومشاعري ولساني وجميع طاقاتي لتكون كلها في شكر نعمتك عليَّ وعلى والدي .

وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان عليه السلام في تلك اللحظة ويصور نوع تأثره وقوة توجهه ، وارتعاشة وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس بالنعمة والرحمة في ارتياح وابتهال (٢) .

ودعاء زكريا عليه السلام { وَكَانَتْ إِمْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً } (٣)

وانظر إلى جمال التعبير بقوله { هب لي } حيث يصور رغبة زكريا عليه السلام الملحة في أن يرزقه الله ولداً ، ويجسد بجرسه السريع شدة فاقته وحاجته لهذا الولد ولاينسى زكريا عليه السلام أن يصور أمله في ذلك الوريث الذي ينتظره أن يجعله الله رضياً لا جباراً ولا غليظاً ولا متبطراً ولا عاقاً ، ولفظه " رضي " تلقي هذه الظلال ، فالرضي الذي يرضى ويرضي ، وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومن حوله

فالألفاظ والمعاني والظلال وجرس الألفاظ ، كلها تشارك في تصوير مشهد هذا الدعاء . (٤)

---

(١) سورة النمل ، الآية " ١٩ " .

(٢) انظر مفردات الراغب ص٥٢٢ وظلال القرآن المجلد الخامس ص٢٦٣٦ ومابعدها .

(٣) سورة مريم ، الآيتين " ٥ - ٦ " .

(٤) انظر في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٠٢ .

ومما جاء منه على ألسنة المؤمنين قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَاوَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاتُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاتُخْلِفُ الْمِيعَادِ } (١) .

وعلى لسان إمرأة فرعون قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا إِمْرَأَةَ فِرْعَونَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (٢) .

في هذا الدعاء نلاحظ أنها آثرت التعبير ببعض الألفاظ التي تجسد رغبتها في الخلاص والنجاة من طغيان فرعون وجبروته وطغيان قومه . فالتعبير بقولـه " ابن لي عندك بيتاً " يصور خوفها وعدم استقرارها رغم أنها كانت تعيش في قصر مشيد لكنها لاتشعر فيه بالأمان والسكينة فلذلك لهجت بالدعاء إلى الله بأن يبني لها بيتاً في الجنة تطمأن فيه وتركن إلى الهدوء والسكينة وتشعر فيه بالأمان .

كما أن تكرار الفعل " نجني " يجسد ضعف المرأة وخوفها الشديد من فرعون وملئه .

ومما جاء على ألسنة الملائكة للمؤمنين قوله تعالى { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } (٣) .

كما جاء الدعاء على لسان إبليس اللعين حيث طلب من الله أن يمهله إلى يوم البعث ولم يطلب إلا مقدوراً إختباراً من الله لعباده قال تعالى { قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ } (٤) .

---

(١) سورة آل عمران " ١٩٣ – ١٩٤ " .

(٢) سورة التحريم ، الآية " ١١ " .

(٣) سورة غافر ، الآية " ٧ " .

ومما جاء على ألسنة المعذبين في نار جهنم قوله تعالى : { كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاتَعْلَمُونَ} (١) فهذا السياق يجسد غيظهم الشديد وضيقهم بهؤلاء المضلين ، ويصور رغبتهم في أن يضاعف الله للمضلين العذاب ضعفين ، ولذا نلمح السرعة والخفة المناسبة للانفعال والضيق من خلال إيثار التعبير بالأمر من الفعل ((آت)) .

مما سبق نلحظ كمالحظ الدكتور صباح دراز :-

أن كل دعاء يتناسب مع الداعي وقدره ومطلبه ، وكل دعاء يختلف عن الاخر فدعاء الأنبياء مثلاً يختلف أسلوباً ومقاماً عن دعاء عبادالرحمن ، وكذلك الحال بالنسبة لدعاء الملائكة يختلف عن دعاء اللعين إبليس .

كما إلتزم في أساليب الدعاء اسم رب وربنا دون أي اسم آخر من أسمائه الحسنى لأن صفة الربوبية - بما فيها من معاني التربية والإنعام والتفضل وهي آثار لاتنقطع دنيا وآخرة - أنسب وفيها اعتراف بالربوبية ولجوء إلى مصدر الخير أملاً في الاجابة .

ولم يذكر وصف آخر إلا في موطن واحد في سورة يوسف من دعائه ختاماً لهذه القصة قال تعالى : { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } (٢) .

فقد بدأ بالاسم { رب } ثم { فاطر } أي يافاطر السموات والأرض ، وهذا مناسب لعظيم العطاء والاقتدار على النعم الخاصة في أحداث القصة المحكمة من إخراجه من السجن وإيتائه الملك وتعليمه التأويل ، كما أنه مناسب لحكمة يوسف في جوامع دعائه (٣) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية " ٣٨ " .

(٢) سورة يوسف ، الآية " ١٠١ " .

(٣) الأساليب الإنشائية ص ٦٥ - ٦٦ .

كما التزم في الدعاء حذف أداة النداء " يا " من " رب " لكثرة الاستعمال أو لإحساس الداعي وشعوره بالقرب من ربه ، والإيناس بهذا القرب . (١)

وعلى كثرة مانودي الرب في القرآن كما يقول الدكتور أحمد بدوي – لم أعثر عليه مسبوقاً بحرف النداء إلا في تلك الآية الكريمة { وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَايُؤْمِنُونَ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } (٢) وألح في المجيء بحرف النداء هنا خاصة ، تعبيراً عن حالة نفسية ألمت بالرسول ، وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم ، فلم يزدهم ذلك إلا تمادياً في كفرهم ، فأطبق السهم على فؤاده ، وكأنما شعر بتخلي الرب عن نصرته ، وبعده عن أن يمد إليه يد المساعدة ، فأتى بحرف النداء ، كأنما يريد أن يرفع صوته زيادة في الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه " (٣)

وقد يسبق النداء ثناء على الله كثناء يوسف عليه السلام قال تعالى : { فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ... } (٤)

وقد يعقب الدعاء بتذليل يؤكد مضمونه ويقوي الأمل في الاجابة (٥) نحو قوله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام { وَرَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } (٦) وقوله تعالى :{ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } (٧) .

كما نلاحظ في أساليب الأمر التي تفيد الدعاء في القرآن الكريم تقديم ضمير الداعي على المفعول وهو ذات الدعاء أملاً في الإجابة وطمعاً في الرحمة

---

(١) الاساليب الانشائية ص ٦٦ ومن بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي ص١٦٨ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية " ٨٩ " .
(٣) سورة يوسف ، الآية " ١٠١ " .
(٤) من بلاغة القرآن ص ١٦٩ .
(٥) انظر الاساليب الإنشائية ص ٦٦ .
(٦) سورة البقرة ، الآية " ١٢٧ " .
(٧) سورة الأعراف ، الآية " ١٥١ " .

وتصويراً لأشواق النفس حين تضع آمالها على باب الكريم المنان قال تعالى { فَهَبْ لِيَ مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً } (١) وقوله تعالى : { رَبِّ اشْرَحْ لِيَ صَدْرِي وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي } (٢) .

كما نلاحظ أن أساليب الأمر التي أفادت الدعاء في القرآن تفاوتت وتباينت من حيث المقاصد فبعضها مقاصد دنيوية كما في قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : { فَهَبْ لِي وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيرِثُ آلَ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً }(٣) وقوله تعالى : { أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } (٤) وبعضها مقاصدها دينية آخروية نحو قوله تعالى : { رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَاوَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَتُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَتُخْلِفُ الْمِيعَادَ } (٥) .

(١) سورة مريم ، الآية " ١٢٧ " .
(٢) سورة طه ، الآية " ٢٥ " وانظر الاساليب الإنشائية ص ٦٧ .
(٣) سورة مريم ، الآية " ٥ - ٦ " .
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .
(٥) سورة آل عمران ، الآيتين " ١٩٣ - ١٩٤ " .

الإلهاب والتهييج

الإلهاب في اللغة :-

ألهب النار فالتهبت أي أوقدها ، وألهب البرق إلهاباً ، وإلهابه : تداركه حتى لايكون بين البرقتين فرجة ، وفي حديث صعصعة قال لمعاوية : إني لأترك الكلام فما أرهف به ولا ألهب فيه أي لا أمضيه بسرعة ، والأصل فيه الجري الشديد الذي يثير اللهب وهو الغبار الساطع كالدخان المرتفع من النار . (١)

أما التهييج : فمأخوذ من هاجت الحرب إذا إشتدت . (٢)

الإلهاب والتهييج في إصطلاح البلاغيين :

ذكر العلوي (٣) بأنهما ((مقولان على كلام دال على الحث على الفعل لمن لايتصور منه تركه وعلى ترك الفعل لمن لايتصور منه فعله ، ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممن هذه حالة على جهة الإلهاب والتهييج له على الفعل أو الكف لاغير)) . ثم يضيف ((فهذان نوعان من الكلام يردان في الكلام الفصيح والخطب البالغة ولولا موقعها في البلاغة أحسن موقع لما وردا في كتاب الله تعالى الذي أعجز الثقلين الإتيان بمثله أو بأقصر سورة من سوره)) (٤)

بلاغة هذا النوع :

إثارة الشعور والوجدان والانفعال وهز المشاعر ودغدغة العواطف حيث تكون النفس عند سماعه أحسن تلقياً وأكثر تمسكاً به ، ولذلك نجد هذا الفن مستعملاً في المعاني الهامة التي هي أصول في هذا الدين . (٥)

---

(١) اللسان ٤٠٨٢/٥ ومابعدها وانظر معجم المصطلحات البلاغية للدكتور أحمد مطلوب ص ٣٠٩ .

(٢) السابق ٦ / ٤٧٣٣ .

(٣) أشار الدكتور محمد أبو موسى في كتابه البلاغية القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٦٢٦ " بأن هذا النوع من البديع في كلام العلوي مستنبط من الكشاف وليس له فيه إلا أنه جعله صنفاً مستقلاً وجمع فيه هذه الشواهد وهي منثورة في الكشاف .

(٤) الطراز ٣ / ١٦٥ - ١٦٧ .

(٥) راجع من أسرار التعبير القرآني ص ٨

وحين ننظر إلى أساليب الإلهاب والتهييج في القرآن الكريم نجدها تختلف باختلاف المخاطب على نحو مايتضح في هذه الدراسة :

بين الإلهاب والتهييج والدوام :

تتداخل دلالة الإلهاب والتهييج بدلالة الدوام في كثير من الأساليب لما بينهما من قرب شديد ، بحيث يصعب علينا أن نميز بينهما ، وهذا لايعني أنه لاتباين بينهما بل بينهما فرق دقيق هو أن الإلهاب والتهييج فيه قوة وهز للمخاطب وإثارة لوجدانه

ومشاعره ، وحث له على الفعل أو على تركه ، أما الدوام فليس فيه هذا المستوى من الإثارة .

بعد هذا يمكننا أن نقول إن مابينهما من اختلاف يعود إلى اختلاف في الدرجة والمرتبة ، فالإلهاب يمثل درجة أعلى من درجة الدوام والاستمرار .

أولاً : الإلهاب والتهييج :-

وحين ننظر إلى أساليب الإلهاب والتهييج في القرآن نجدها تختلف باختلاف المخاطب على مانوضحه في الصفحات التالية :-

١ - مع خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم :-

خوطب الرسول صلى الله عليه وسلم بأساليب عديدة تفيد معاني الإلهاب والتهييج والدوام نكتفي بإزجاء بعضها وتحليلها ليقاس بعد ذلك النظير على نظيره ، وإن كنت ألحظ أن بعضاً منها يفيد الدوام وبعضها الآخر الإلهاب والتهييج :

فمن أساليب الأمر التي أفادت الإلهاب والتهييج قوله تعالى{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَاتَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ } (١) يقول العلوي " والمعلوم من حاله عليه السلام أنــه محصل لهذه الأمور كلها من عبادة الله .. ، لايفتر عن ذلك ولايتصور منه

---

(١) سورة الشورى ، الآية " ١٥ " .

خلافها لأن خلافها معصوم منه الأنبياء ، فلايمكن تصوره من جهتهم بحال ، ولكن ورودها على هذه الأوامر إنما كان على جهة الحث له عليه السلام . (١)

ومنه قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَاتُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً وَاتَّبِعْ مَايُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } (١)

الأوامر في هذا السياق للإلهاب والتهييج له صلى الله عليه وسلم لأنه لايتصور منه خلافها وذكر الزركشي أن الخطاب في هذه الآية من خطاب العين والمراد غيره ، فالخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان تقياً وحاشاه من طاعة الكافرين . (٣)

فإذا كان الخطاب في هذه الآية ونظائرها لغيره صلى الله عليه وسلم فلا وجود للإلهاب والتهييج ، لأن الإلهاب والتهييج لايتحقق إلا إذا كان هناك مخاطب معين ، لذا أرجح أن يكون الخطاب في هذه الأساليب له صلى الله عليه وسلم على سبيل الإلهاب والتهييج .

ومنه قوله تعالى : { فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيكَ فَسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } (٤)

وحاشاه صلى الله عليه وسلم من الشك ، وإنما المراد بالخطاب التعريض بالكافرين ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يشك الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يسأل .

ومثله قوله تعالى : { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَـةً يَعْبُدُونَ } (٥)

---

(١) الطراز ٣ / ١٦٦ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآيتين " ١ - ٣ " .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٢ / ٢٤٢ .

(٤) سورة يونس ، الآية " ٩٤ " .

(٥) سورة الزخرف ، الآية "٤٥" وانظر الاتقان ١٠٣/٣ .

((الكلام على سبيل الفرض والتمثيل للمجال بياناً بأن القرآن حق وأنه من عند الله وحده وأن الرسول صادق في التبليغ مع إبراز جلال الألوهية وقوة الحفظ لهذا الذكر الحكيم)) (١)

ومنه قوله تعالى : { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَاتَطْغَوْاإِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (٢) .

الأمر في هذه الاية للحث والإلهاب والتهييج .

ونلحظ في هذه الآية سمو التعبير القرآني حيث نجد الخطاب في هذه الاية موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما كان النهي في قوله : { لاتطغوا } فيه مظنة العنف ، جمع الرسول صلى الله عليه وسلم مع غيره تليينا في الأسلوب رحمة به صلى الله عليه وسلم وتشريفاً له ، وهذا نمط من بلاغة التعبير القرآني .

٢ - مع الأنبياء عليهم السلام :

في القرآن الكريم صور عديدة أفادت عن طريق الأمر معنى الإلهاب والتهييج فوق الدوام والاستمرار كما في بعض خطابات رسل الله وأنبيائه عليهم السلام من ذلك قوله تعالى خطاباً لموسى وهارون عليهما : { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ } (٣)

في هذه الاية تعانق الأمر والنهي لإفادة الإلهاب والتهييج ، وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور ((وإذا كان موسى وهارون مستقيمين ، وناهيك باستقامة النبوة كان أمرهما بالاستقامة مستعملاً في الأمر بالدوام عليها ، وأعقب حثهما على الاستقامة بالنهي عن اتباع طريق الذين لايعلمون وإن كان ذلك مشمولاً للاستقامة تنبيهاً على توخي السلامة من العدول عن طريق الحق إهتماماً بالتحذير من الفساد)) (٤) .

---

(١) انظر الكشاف ٢/٢٥٢ والأساليب الإنشائية ص ٥٨ .

(٢) سورة هو ، الآية " ١١٢ " .

(٣) سورة يونس ، الآية " ٨٩ " .

(٤) التحرير والتنوير ١١ / ٢٧٣ .

ومنه قوله تعالى خطاباً لداود عليه السلام { يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. } (١)

والأمر والنهي للإلهاب والتهييج ، والتعبير بقوله { فيضلك } جاء تصعيداً لمعنى الإلهاب والتهييج .

يقول أبو حيان " فاحكم بين الناس بالحق أمر بالديمومة وتنبيه لغيره ممن ولي أمور الناس " (٢)

وفي قوله تعالى خطاباً للمؤمنين { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } (٣) وقوله تعالى { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (٤) .

الإلهاب والتهييج ليس مستفاداً من صيغ الأمر بل من أسلوب الشرط {إن كنتم مؤمنين } وقد ((تكرر كثيراً عقب توجيهات وأوامر إلهية حفزاً للهمم وحثاً على التسابق للخير وإلهاباً وترغيباً أي إن كان لديكم قدر من الإيمان فداموا بإخلاص على المأمور به من توكل أو طاعة أو نحوهما)) (٥)

ثانياً : الدوام والاستمرار :

الدوام طلب وقوع فعل واقع (٦) ، وقد تفاوتت أساليب الأمر التي أفادت الدوام والاستمرار في القرآن على نحو ما يتضح في السطور الآتية :

---

(١) سورة ص ، الآية " ٢٦ " .
(٢) البحر المحيط ٧ / ٣٩٥ .
(٣) سورة الأنفال
(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٨ "
(٥) الأساليب الإنشائية ص ٥٧ .
(٦) المرجع السابق الموضع نفسه .

١ - مع الأنبياء عليهم السلام :-

من ذلك قوله تعالى خطاباً لزكرياً عليه السلام : { قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } (١)

٢ - مع الرسول صلى الله عليه وسلم :-

أساليب الأمر التي أفادت الدوام في القرآن الكريم التى خوطب بها الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة تند عن الحصر نكتفي بالإشارة إلى بعضها ليقاس بعد ذلك عليها :

من ذلك قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}(٢)

أُمِرَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم في هذه الاية بتبليغ ما أنزل إليه وهو صلى الله عليه وسلم قد بلغ ما أنزل إليه فهو أمر بالديمومة . (٣)

ومنه قوله تعالى { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } (٤) .

في هذه الآية الكريمة أمر اللهُ نَبيَّه باتباع مايوحي إليه فهو أمر بالديمومة وبالصبر على مايناله في الله من أذى الكفار وإعراضهم . (٥)

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٤١ " .

(٢) سورة المائدة ، الآية " ٦٧ " .

(٣) البحر المحيط ٣ / ٥٢٩ .

(٤) سورة يونس ، الآية " ١٠٩ " .

(٥) البحر المحيط ٥ / ١٩٧ وراجع تفسير أبي السعود ٧١٣/٢ ، وروح المعاني ٢٠١/١١ ومابعدها .

ومنه قوله تعالى : { كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } (١) . فالأمر بالسجود والتقرب إلى الله للدوام أي دم وأثبت على ما أنت عليه من السجود والتقرب إلى الله (٢)

ومنه قوله تعالى : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } (٣) .

يقول الطاهر بن عاشور ((والأمر في)) وكن من الساجدين وأعبد ربك)) مستعملان في طلب الدوام (٤) .

ومنه قوله تعالى : { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ }(٥) وقوله تعالى :{ فَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ } (٦) .

ولعلك تلاحظ أن السياق يفيد هذه المعاني عن طريق صيغة واحدة من صيغ الأمر أو عن طريق تكرار الأمر مثلما جاء عليه قوله تعالى : { بل الله فاعبد وكن من الشاكرين } (٧) .

وكثيراً مايردف الأمر بما يفيد التعليل له مبالغة في أمر الحث والتحريض عليه في مثل قوله تعالى : { فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } (٨) حيث جاء قوله { إن العاقبة للمتقين } تعليلاً للأمر بالصبر زيادة في التثبيت والدوام .

ومثله قوله تعالى : { وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ } (٩)

---

(١) سورة العلق ، الآية " ١٩ " .

(٢) راجع الكشاف ٢٧٢/٤ والبحر المحيط ٤٩٥/٨ وغرائب القرآن ١٣٢/٣٠ وحاشية الشهاب ٣٨٢/٨ .

(٣) سورة الحجر ، الآية " ٩٩ " .

(٤) التحرير والتنوير ١٤ / ٩١ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية " ١٥٩ " .

(٦) سورة الذاريات ، الآية " ٥٥ " .

(٧) سورة الزمر ، الآية " ٦٦ " .

(٨) سورة هود ، الآية " ٤٩ " .

(٩) سورة الحج ، الآية "٦٧" وانظر وجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٢٩١ .

٢ - مع المؤمنين :-

تفيض بعض أساليب الأمر التي جاءت خطاباً للمؤمنين بالدوام والاستمرار من ذلك قوله تعالى على لسان المؤمنين : { إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ }(١) فالأمر في إهدنا للدوام والثبات والاستمرار . (٢)

ومنه قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ } (٣) فالأمر في قوله { آمنوا } أي أثبتوا وداموا على الإيمان وازدادوا منه . (٤)

وقوله تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } (٥) .

رجح أبو حيان وتابعه بعض المفسرين بأن الأمر في هذه الآية للدوام حيث يقول { وليؤمنوا بي } معطوف على { فليستجيبوا } ومعناه الأمر بالإيمان وحمله على الأمر بإنشاء الإيمان فيه بعد لأن صدر الآية يقتضي أنهم مؤمنون فلذلك يؤول على الديمومة . (٦)

ومنه قوله تعالى : { فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } (٧)

يقول الطاهر بن عاشور ((والأمر في { ادعوا } مستعمل في طلب الدوام لأن المؤمنين قد دعوا الله مخلصين له ، فالمقصود دوموا على ذلك وله كره الكافرون (٨) .

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية " ٦ " .

(٢) انظر الطبري ٥٥/١ والكشاف ٦٧/١ والتحرير والتنوير ١٨٩/١ والأساليب الإنشائية ص ٥٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية " ١٣٦ " .

(٤) أنظر الكشاف ٥٧١/١ والتفسير الكبير ٧٦/١١ والبحرالمحيط ٣٧١/٣ والتحرير والتنوير ٢٣٠/٥ ومن أسرار التعبير القرآني ص ٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ١٨٦ " .

(٦) أنظر البحر المحيط ٢ / ٤٧ والتحرير والتنوير ١٨٠/٢ .

(٧) سورة غافر ، الآية " ١٤ " .

(٨) التحرير والتنوير ١٠٥/٢٤ .

ومنه قوله تعالى : { يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } (١)

ذكر الرازي في هذه الآية وجوهاً كثيرة يهمنا منها قوله ((ورابعها هذا الخطاب واقع على المسلمين : { يا أيها الذين آمنوا} بالألسنة { ادخلوا في السلم كافة} أي دوموا على الاسلام فيما تستأنفونه من العمر ولاتخرجوا عنه ولا عن شيء من شرائعه)) (٢) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (٣) .

يفهم من كلام الرازي والطاهر بن عاشور أن الأوامر في هذه الآية تفيد الدوام والثبات (٤) .

وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشد منه وأشق (٥) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٠٨ " .
(٢) التفسير الكبير ٢٢٤/٥ وانظر التحرير والتنوير ٢٧٧/٢ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية " ٢٠٠ " .
(٤) ينظر التفسير الكبير ١٦٢/٩ والتحرير والتنوير ٢٠٨/٤
(٥) تفسير أبي السعود ٦٣٦/١ وينظر الكشاف ٤٩١/١ .

أسلوب التأمل والاعتبار :-

دعا القرآن - ببيانه المعجز الفريد - إلى لفت الأنظار إلى مافي الكون والنفس الإنسانية من أسرار باهرة ودلائل ساطعة تؤكد أنه الخالق المهيمن المتفرد بالملك ، والصانع المبدع الحكيم الخبير ، حيث أوضح عن ذلك في كتابه الكريم قال تعالى [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ] (١)

((والقرآن الكريم حافل بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الله في الكون ويستشعر من ورائها يد القدرة القادرة الخلاقة المبدعة في أسلوب أخاذ يأخذ بمجامع النفس ويوقظها من إلفها وعادتها فتتفتح للكون كأنه جديد)) (٢) والواقع أن فكرة التأمل والاعتبار أصيلة أساسية في البيان القرآني جاءت في أساليب متنوعة خبراً واستفهاماً وأمراً . (٣)

ويهمنا في دراستنا هذه أن نتناول أساليب الأمر التى أفادت معنى التأمل والاعتبار في القرآن الكريم والواقع أن الأمر بالتدبر والتأمل والاعتبار قد يكون في آيات الله المبثوثة في الكون ، وقد يكون في النفس الإنسانية ، وقد يكون في أحوال الأمم السابقة والتفكير في أسباب هلاكهم والتأمل فيما آلوا إليه حيث حل بهم سخط الله وغضبه وجام إنتقامه وفي هذا من التخويف والإنذار والتحذير مالايخفى .

مظاهر الاعتبار في آيات الله في الكون :-

في القرآن الكريم أوامر كثيرة تفيد معنى التأمل والتفكير في آيات الله

---

(١) سورة فصلت ، الآية " ٥٣ " .
(٢) منهج الفن الإسلامي للشيخ محمد قطب ص ١٤٤ .
(٣) في القرآن ألفاظ عديدة جاءت دالة على هذا المعني منها لفظة العبرة ، والفعل " اعتبروا " والفعل " تفكر " ولفظ آيات وآيات تعقيباً على آيات كونية في الطبيعة ومظاهرها والكون ومشاهدة وماخلق الله من أجناس وأنواع وما أبدعه من آيات أثراً لصفات القدرة والخلق والعلم والحكمة سبحانه وتعالى ، انظر الأساليب الإنشائيــة ص ٣٢ - ٣٣ .

الكونية المبثوثة حولنا ماعظم منها وما دق ، وهي مناظر خلابة تأسر القلوب بجمالها الساحر وتثير في النفس مشاعر البهجة والسرور من ذلك قوله تعالى " {انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ } (١) وقوله تعالى { قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَاتُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } (٢)

فالأمر في قوله " انظروا " للتأمل والاعتبار فيما أودعه تعالى في السموات والأرض إذ السبيل إلى معرفته هو بالتفكر في مخلوقاته " (٣)

والخطاب للكافرين بعثا لهم على إعمال فكرهم المتعطل أن يفكروا فيما يحيط بهم من آيات دالة على قدرة الخالق الصانع جل وعلا .

والواقع أن للفعل " انظر " في القرآن أكثر من معنى بلاغي (٤) حيث جاء في أكثر مواضعه يفيد معنى التأمل والاعتبار ، بيد أني ألح في بعضها إقتران التعجب بالتأمل والاعتبار في السياق القرآني الواحد .

أما إفادته لمعنى التعجب فقد جاء في مواضع يسيرة منها قوله تعالى :{ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلايستطيعون سبيلاً } (٥) وسيأتي لاحقاً الحديث عنه.

ومن الآيات التي جاءت تحث الإنسان وتدعوه إلى التفكير والتأمل في أيات الله الكونية قوله تعالى :{ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَباً ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقاً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَباً وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَــــةً وَأَبّاً } (٦) .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية " ٩٩ " .
(٢) سورة يونس ، الآية " ١٠١ " .
(٣) انظر الكشاف ٢/٢٥٥ والتفسير الكبير ١٧/١٧٦ - ١٧٧ والبحر المحيط ٥/١٩٤ والأساليب الانشائية ص ١٩ .
(٤) راجع المعجم المفهرس ص ٧٠٦ .
(٥) سورة الاسراء ، الآية " ٤٨ " .
(٦) سورة عبس ، الآيتين " ٢٤ - ٣١ " .

نص كثير من المفسرين على أن الأمر في قوله " فلينظر " للتأمل والاعتبار . (١)

ولما عدد تعالى نعمه في نفس الإنسان ذكر هنا النعم التي بها قوام حياته وأمره بالنظر إلى طعامه وكيفيات الأحوال التي اعتورت على طعامه وهي بلاشك تدل على عظمة الخالق وعلى رحمته ورأفته بالإنسان ، والطعام هنا بمعنى المطعوم .

والحق إن الخيال ليعجز عن متابعة هذه الأحداث المتعاقبة من صب الماء وشق الأرض وإنبات ما اختلف لوناً وطعماً ونفعاً ومكاناً وزماناً وفاكهة وغذاء ، فهي آثار رحمته ومنته وقدرته لايقدر عليها سواه ، ولذا كثرت " نا " الدالة على العظمة والتفرد العالي بالإبداع والإنشاء " (٢)

ومن ذلك قوله { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }(٣) .

تبدأ الآيات الكريمات بذكر تفاصيل لعملية خارقة معقدة تتم في طبقات الجو بعيداً عن متناول الإنسان تشغل عقله ولبه وتثير إنتباهه ، فهي مخلوقات مسخرة متفاعله واعدة بيد القدرة إرسال الرياح وإثارة السحاب وبسطه ثم تراكمه وتجاذبه وتلاقحه ثم يتحول ودقاً غائثاً مبشراً ، والأفعال مضارعة حالية مصورة تعين على إطالة الصورة ودوران العقل والخيال حولها وبخاصة العقل العلمي الذي يجد في هذه الآيات ومثيلاتها عوناً له في أبحاثه في الظواهر الجوية المثيرة .

والفاء في قوله " فانظر إلى آثار رحمته " للدلالة على سرعة هذا التحول وهذا التغير فما أن ينزل الغيث حتى تنفض الأرض غطاءها الترابي ليتحول زرعاً وخضرة وأشجاراً ما لعطائها نفاد كما ذكر صاحب الأساليب الانشائية (٤) ، والمراد

(١) الطبري ٣٦/٣٠ والكشاف ٢١٩/٤ والتفسير الكبير ٦٢/٣١ وغرائب القرآن ٢٩/٣٠ والبحر المحيط ٤٢٩/٨ والتحرير والتنوير ١٢٩/٣٠ .

(٢) انظر البحر المحيط ٤٢٩/٨ ونظم الدرر للبقاعي ٢٦٤/٢١ والأساليب الانشائية ص ١٩-٢٠

(٣) سورة الروم ، الآية " ٤٨ - ٥٠ " .

(٤) ص ٢٠ .

بالأمر بالنظر التنبيه على دوام الشكر لله والتوجيه إلى سعة رحمته وعظيم قدرته والإدلال بالنعمة والمن بالعطاء " (١)

موازنة بين آيتين :-

قال تعالى : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَباً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (٢)

وقوله { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَاتُسْرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (٣) .

عقد الدكتور صباح دراز موازنة بين هاتين الآيتين مفيداً من علمائنا رحمهم الله " (٤) اذ يقول " وتلحظ معي من الموازنة مايلي :

١ - في الآية الأولى أمر بالنظر في الأحوال والاعتبار بالمتغيرات والاستدلال على وجود الصانع وماتحصل به من معرفة الخالق والسعادة الروحانية الأبدية وهذا مقدم على فكرة الانتفاع المادي في الآية الثانية التى أخرها لذلك ولذا قدم الزرع - والله أعلم - في الآية الأولى لأنه سريع التغير والتحول تناسباً مع غرض الآية ، وقدم النخل في الثانية لأنه جل إهتمام العرب فقد كان للنخلة أثر في حياتهم وفي لغتهم ، وذكر الزرع في مرتبة تالية للنخل وهو مناسب للانتفاع به وصرف جزء منه للفقراء.

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٣٦٧/٤ ومابعدها والأساليب الإنشائية ص ٢٠ والتصوير الفني ص ٦٨ وظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٧٥ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية " ٩٩ " .

(٣) سورة الأنعام ، الآية "١٤١" .

(٤) انظر في الآيتين التفسير الكبير ١٣/ ١١٧ ، ٢٢٢ والبحر المحيط ١٩١/٤ - ٢٣٦ ومابعدها .

٢ - لما كان الاعتبار والتأمل مقصد الآية الأولى ذكر فعل النظر وعلقه بالثمر بدء الإثمار ونهايته لما يتوالى على الثمر من تغير في اللون والطعم والرائحة ، وكلمـــة "ينعه " لها وقع جمالي خاص مناسب للفعل " انظر " مراداً به عميق التأمل والاعتبار ، أما الآية الثانية فجاءت في سياق يبين ما أحل الله وماحرم من خير الأرض والأنعام وماهو مباح للانتفاع به ووقته وحق الله تعالى للفقراء ولذلك أتي بالفعل " كلوا " إفادة لترجيح الفعل وقيده ببدء الإثمار إباحة للمضطر وغيره أن ينتفع به قبل إخراج الحق لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير ، ثم إن الأصل في الأشياء الإباحة ، ومن هنا قدم الفعل جارياً مجرى قوله " خلق لكم مافي الأرض جميعاً " وفيه الامتنان وطلب الشكر .

٣ - ثم إن في إطالة الآية الأولى ملائمة لفكرة الاعتبار فقد اتسعت المشاهد زمناً وأحداثاً أو كثرة جزئيات ، وهي مشاهد متوالدة متداخلة يخرج من المنظر منظر آخر، ومن هنا تكرر الفعل " أخرجنا ، ونخرج " ثلاثاً ، فالخضر يخرج من النبات ، والحب المتراكم يخرج من الزرع والخضر ، ومعنى التبديل والإخراج قائم في القنوان الدانية في النخل ، وهنا جنات على الإطلاق فهو مشهد عام ولذا كان التعبير مشتبهاً أدل على التداخل وقرب الشبه بين الثمار ، وفي الآية الثانية ذكر الجنات المعروشات وغير المعروشات دلالة على تدخل اليد الإنسانية عناية وإهتماماً بالانتفاع ، وجاءت مادة الأكل مرتين " مختلفاً أكله - وكلوا " والمشاهد قصيرة لهذه الغاية ، ثم إنه لم يذكر " الينع " أي نهاية الإثمار لأن إباحة الأكل وقت الإثمار منسحبة على مابعده من أوقات ومنها حال النضج التام فهنا أمر تشريعي للإباحة ، وإخراج الحق لذويه والنهي عن الإسراف والتحذير منه لأنها نعم يجب أن توضع موضعها .

بينما الآية الأولى عُقِّبَتْ بما يدل على أثرها في القلوب الصافية " إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون " باسم الإشارة المفخم ، والجمع والتنكير المغني عن الوصف أي آيات جليلات مؤثرات مع تكرار تأكيد هذه الحقيقة وهي آيات ينتفع بها المؤمنون .

وكلمة المؤمن بما فيه من رقة وشفافية وصفاء مناسبة لهذه المشاهد الجليلة الجميلة " (١)

ومنه قوله تعالى :{ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً مَّاتَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَٰوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } (٢) " فالبصر في هذه الآية مستعمل في حقيقته والمراد به البصر المصحوب بالتفكير والاعتبار بدلالة الموجودات على موجدها سبحانه وتعالى" (٣)

مظاهر الاعتبار في النفس الإنسانية :-

حث القرآن الكريم الإنسان على التأمل والتفكر فيما حوله من أيات كونية باهرة تدل على أن وراءها صانعاً حكيماً ، ولفت نظره إلى مافي نفسه - أي النفس الإنسانيه - من أجهزة تعمل بنظام عجيب ودقة متناهية لايحيط بها إلا اللطيف الخبير .

ففي القرآن من النماذج مالايحصى من الآيات التي وجهت النظر ودعت إلى التأمل في أيات الله في النفس الإنسانية ، حيث عرض لنا قصة خلق الإنسان ومراحل تكوينه من تراب وانتهاءً بالنطفة فالعلقة حتى أصبح جنيناً في بطن أمه ، واستخلاص مافيها من قدرة الخالق ودقيق صنعه ، وهي بلاشك تنطق بعظمة الباري وقدرته وأنه وحده الخالق المدبر { صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً } (٤) .

وهذه الأساليب جاءت في القرآن عن طريق الخبر والاستفهام والأمر ، وقد كان الأمر أقلها حظاً حيث ورد عن طريقه أساليب يسيرة منها قوله تعالى : { فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ } (٥) .

---

(١) الأساليب الإنشائية ص ٢٢ - ٢٤ وراجع الكشاف ٤١/٢ ، ٥٦ والتفسير الكبير ١١٧/١٣ و ٢٢٢ والبحر المحيط ١٩١/٤ ، ٢٣٦ ومابعدها وأبا السعود ٢٥٧/٢ ، ٢٩٣ ، وروح المعاني ٢٣٨/٧- ٤٠ ، ٣٧/٨ ومابعدها .

(٢) سورة الملك ، الآيتين " ٣ - ٤ " .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩ / ١٨ - ١٩ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ١٣٨ " .

(٥) سورة الطارق ، الآيتين " ٥ - ٨ " .

فالأمر في قوله " فلينظر " للتأمل والاعتبار ، وقال الزمخشري " لما ذكر أن على كل نفس حافظاً أتبعه بوصية الإنسان بالنظر في أول أمره ونشأته الأولى حتى يعلم أن من أنشاه قادر على إعادته وجزائه ليوم الإعادة والجزاء " (١) .

ومنه قوله تعالى { أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٢) .

فالأمر في هذه الآية كما هو واضح من السياق يفيد التأمل والاعتبار .

الاعتبار من أحوال مكذبي الأمم السابقة :-

من خلال إحصاء أساليب التأمل والاعتبار في القرآن الكريم نجد أن أكثرها جاءت موجهةً إلى التأمل والاعتبار في أحوال السابقين وأخذ العظة والعبرة بما حل بهم من عذاب الله وانتقامه السريع وبطشه الشديد من ذلك قوله تعالى : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } (٣)

في هذه الآية الكريمة حث الله سبحانه وتعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار من آثار هلاكهم ، وتأمل أحوالهم ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإيمان به سبحانه وتعالى " (٤)

ونلحظ في الآية الكريمة إرتباط فعل النظر بفعل السير لترتبه عليه بل هو وحده الوسيلة إلى النظر والإكتشاف لمجاهل التاريخ أو لما أعلمنا به القرآن الكريم اعتباراً بسنن الله في الأولين وهو نوع - آخر - من دلائل التوحيد ممزوج بنوع من

---

(١) الكشاف ٤ / ٢٤١ وراجع في الآية البحر المحيط ٨ / ٤٥٥ وأبا السعود ٥ / ٥١٤ ، والتحرير والتنوير ٣٠ / ٢٦١ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآيتين " ١٩ - ٢٠ " .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٣٧ " .

(٤) انظر الكشاف ٤٥٦/١ والتفسير الكبير ١٢/٩ وغرائب القرآن ٨٠/٤ والبحر المحيط ٦١/٣ والبيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٦٤/٣ وروح المعاني ٦٥/٤ والتحرير والتنوير ٩٥/٤ .

التخويف كما ذكر الرازي في تفسيره (١) .

بل إن الفعلين جاءا متواليين في القرآن الكريم في ستة مواضع عدا آية واحدة جاءا متعاطفين بحرف العطف " ثم " في سورة الأنعام (٢) ، لبيان مابينهما " السير والنظر" من التفاوت لبيان خطر النظر والتأمل وهو الهدف من السير في الأرض كما وضح ذلك أبو السعود " (٣) ، وقد عقبت المواضع الستة بالاستفهام بكيف عن عاقبة المكذبين ماعدا آية واحدة وهى قوله تعالى :{ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (٤) .

ففي التعبير بالاستفهام في هذه الآية { كيف بدأ الخلق } تعقيباً علـــى جملة { قل سيروا في الأرض فانظروا } دعوة وتوجيه للانسان إلى التأمل والتدبر في خلق الله ،وتنبيه لحواسه ومشاعره لرؤية آثار قدرة الله على إنشاء الحياة في هذه المشاهد التي تتكرر في ساعات الليل والنهار تقريراً لقدرة الله وسيطرته على هذا الكون الفسيح .

كما أن التعبير بالإعادة عن النشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن من شئونه تعالى حقيقة واسما من حيث إن كلاً منهما إختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ولا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرية ، وفي إظهار الاسم الجليل في قوله " ثم الله ينشيء النشأة الآخرة " إبراز لمزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة بالإشارة إلى علة الحكم وتكرير الإسناد أما قوله " إن الله على كل شيء قدير " فهو تعليل لما قبله بطريق التحقيق فإن من علم قدرته تعالى على جميع الأشياء التي من جملتها الإعادة لا يتصور أن يتردد في قدرته عليها ولا في وقوعها بعد ما أخبر به سبحانه وتعالى علواً كبيراً " (٥) .

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٤/١٣ والأساليب الإنشائية ص ٢٦ .
(٢) آية "١١" قال تعالى" قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين".
(٣) انظر المعجم المفهرس ص ٣٧٤ وتفسير أبي السعود ١٧٧/٢ والأساليب الإنشائية ص ٢٧ .
(٤) سورة العنكبوت ، الآية " ٢٠ " .
(٥) انظر تفسير أبي السعود ٣٣٢/٤ وفي ظلال القرآن المجلدالخامس ص ٢٧٣٠ .

وفي هذه الأساليب نجد الدعوة إلى الضرب في الأرض والنظر والاعتبار بأحوال الماضين والتفكر في أسباب هلاكهم وصولاً إلى من بيده الخلق والأمر والإحياء والإفناء وتضيف أساليب الاستفهام التوبيخ والتقرير والإنكار لعدم السير والنظر وتعطيل العقول والقلوب لتعطل منافذ الإدراك ، ثم هذا التعجب المثير الذي تختم به الآيات بكيف ، كما أن العاقبة قد تكون عامة خصصت في آيات أخرى ، أو خاصة تعود على ما في النسق)) (١)

بيد أن في القرآن الكريم آيات إنفرد بها فعل الأمر " انظر " (٢) جاء بعده الاستفهام بكيف في كثير من مواضعه ، وهذا في العقاب الخاص الذي أنزله بهم تعجيباً من هول الانتقام وشدته وعظم الذنب كقوله تعالى في قوم لوط عليه السلام {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } (٣) والتنوين في " مطراً " للتنويع أي نوعاً عجيباً من المطر وهو الحجارة بدليل أنه بينه في آية أخرى قال تعالى :{ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ } (٤) .

أما الخطاب في قوله " فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ((فهو خطاب لكل ما يتأتى منه التأمل والنظر تعجيباً من حالهم وتحذيراً من أعمالهم))(٥)

ومنه قوله تعالى في إهلاك قوم نوح عليه السلام بالطوفان { فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ } (٦) .

ومنه قوله تعالى في ثمود لعنهم الله حيث تآمروا على قتل نبي الله صالح عليه السلام فردَّ الله مكرهم إلى نحورهم { وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ

(١) الاساليب الانشائية ص ٢٧ .
(٢) مراجع المعجم المفهرس ص ٧٠٦ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية " ٨٤ " .
(٤) سورة الحجر ، الآية "٧٤" وانظر الكشاف ٩٣/٢ والتفسير الكبير ١٧٩/١٤ وتفسير أبي السعود ٣٦٨/٢ .
(٥) تفسير أبي السعود ٣٦٩/٢ .
(٦) سورة يونس ، الآية " ٧٣ " .

لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ] (١)

فالأمر في " انظر " مراد به التأمل والاعتبار والتعجب من عاقبة مهولة لكفر فاجر ، ويجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم إيماءً إلى أن الاعتبار بمكر الله هو المقصود من سوق القصة تعريضاً بأن عاقبة أمره مع قريش أن يكف عنه كيدهم وينصره عليهم ، وفي ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يكون عاماً لكل من يتأتى منه النظر . (٢)

ومنه قوله تعالى في قصة إغراق فرعون وملئه في اليم عقاباً لهم [فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ] (٣)

هذه الآية مهولة بتراكيبها العنيفة وألفاظها الغاضبة المصورة من الأخذ والنبذ في اليم دلالة على الاقتدار الظاهر ثم هوانهم عليه تعالى مالايخفى كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في البحر ، (٤) ثم ايضاً هذه اللازمة التي تكررت في مقامات متشابهة وكانت بمعنى خاص وعاقبة خاصة وقوم معينين بعيداً عن التكرار ، ثم انظر الفارق في الوصف بين إجرام قوم لوط وظلم فرعون وطغيانه تجد الدقة الملائمة لنوع الكفر وأسلوب الجرم)) (٥) .

---

(١) سورة النمل ، الآيتين " ٥٠ - ٥١ " .
(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٨٤/١٩ ومابعدها والأساليب الإنشائية ص ٢٨ .
(٣) سورة القصص ، الآية " ٤٠ " .
(٤) تفسير أبي السعود ٤ / ٣٠٧ .
(٥) الأساليب الإنشائية ص ٢٨ - ٢٩ .

التعجب

التعجب في اللغة :

ذكر صاحب اللسان أن العُجْب والعَجَب : إنكار مايرد عليك لقلة اعتياده . (١)

وعند النحاة : إنفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه ولهذا قيل إذا عُرِفَ السببُ بَطَلَ العجب ، (٢) وعرَّفه آخر بقوله " هو معنى يحصل عند التعجب عند مشاهدة مايجهل سببه ويقل في العادة وجود مثله . (٣)

فالتعجب إذن هو النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد ، فهو حالة تعرض للإنسان حين يعظم موقع الشيء عنده ويخفى ، والشيء الذي يكون كذلك عجيب وعجيبة .(٤)واشترط الرماني في التعجب الإبهام حيث يقول (المطلوب في التعجب الإبهام ، لأن من شأن الناس أن يتعجبوا مما لايعرف سببه وكلما استبهم السبب كان التعجب أحسن (٥) . وذكر الزمخشري - وتابعه أبو حيان - تحليلاً طريفاً لدلالة التعجب عند تفسير قوله تعالى { كبر مقتاً عند الله } قائلاً ، ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين لأن التعجب لايكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله) (٦) .

لكن هل يقع من الله سبحانه وتعالى ؟ أو بمعنى آخر هل يصح إسناد التعجب إلى الله؟

هذه القضية شغل بها العلماء قديماً ونجم عنها آراء ثلاثة :

١ - رأي السلف : إثبات هذه الصفات كما أثبتها الله لنفسه على نحو يليق بجلاله من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل .

٢ - أما المأولون فيأولون هذه الصفات كالضحك والرجاء والاستواء والتعجب وغيرها على نحو يليق بجلاله وعظمته .

٣ - أما أصحاب الرأي الثالث فيقولون إن ورد التعجب من الله صرف إلى المخاطب

---

(١) اللسان ٤ / ٢٨١١

(٢) شرح الكافية ٣٠٧/٢ وشرح الأشموني ١٥٢/٣ والنحو القرآني ص ٥٦٤ .

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ١٤٢/٧ .

(٤) انظر المفردات ص ٣٢٢ ومفردات ألفاظ القرآن ١٨٨/٢ والاساليب الانشائية ص٢٤٣ .

(٥) انظر البرهان ٣١٧/٢ والاتقان ٢٩٨/٣ ومعترك الاقران ٤٢٣/١ .

(٦) الكشاف ٩٧/٤ والبحر المحيط ٢٦١/٨ .

كقوله تعالى { فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ } أي هؤلاء ممن يجب أن يتعجب منهم ، ولا يوصف سبحانه بالتعجب لأنه استعظام يصحبه الجهل وهو تعالى منزه عن ذلك ، ونظير ذلك مجيء الدعاء والترجي منه وإنما هو بالنظر إلى ماتفهمه العرب أى هؤلاء مما يجب أن يقال لهم عندكم هذا . (١)

وأول من قال بهذا فيما أعلم سيبويه حيث قال في قوله تعالى { ويل للمطففين } لاينبغي أن تقول له إنه دعاء ها هنا ، لأن الكلام بذلك قبيح واللفظ به قبيح ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم ، وجاء القرآن على لغتهم وعلى مايعنون ، فكأنه والله أعلم قيل لهم ويل للمطففين ، وويل يؤمئذ للمكذبين ، أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم لأن هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشر والهلكة ، فقيل : هؤلاء ممن دخل في الشر والهلكة ووجب لهم هذا .

ومثل ذلك قوله تعالى { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } " فالعلم قد أتى من وراء مايكون ، ولكن اذهبا على رجائكما وطمعكما ومبلغكما من العلم ، وليس لهما أكثر من ذا ما لم يعلما " (٢)

ونحن على رأي سلف هذه الأمة من ذلك قول ابن تيمية " وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل " (٣) .

ومعلوم أن للتعجب صيغه القياسية والسماعية لكن الذي يعنينا في هذا المبحث أن نتناول أساليب الأمر التي أفادت معنى التعجب في القرآن الكريم .

التعجب من آيات الله في خلقه :

قال تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى

---

(١) انظر البرهان ٣١٨/٢ والإتقان ٢٢٨/٣ومعترك الأقران ٤٢٤/١ .

(٢) الكتاب لسيبويه تحقيق عبدالسلام هارون ٣٣١/١ وراجع اللسان ٢٨١١/٤ والأمالي الشجرية ٢٣٧/٢ وشرح المفصل ١٤٢/٧ وشرح الكافية ٣٠٧/٢ والكشاف ٥٣٨/٢ ، ٣٣٧/٣ والبرهان ٣١٨/٢ - ٣٢٠ ومعترك الأقران ٤٢٤/١ وأساليب الاستفهام في القرآن الكريم ص ٢١٥ - ٢١٧ .

(٣) الرسالة التدمرية ص ٧ .

الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (١)

هذه الآية الكريمة تصور مشهداً موحياً ، مشهد الموت والبلى والخراب والخواء الذى حل بهذه القرية يتضح لنا ذلك جلياً من خلال الوصف " وهي خاوية على عروشها " ومن خلال مشاعر الرجل الذي مر على القرية ، هذه المشاعر التى ينضح بها تعبيره " أنى يحيى هذه الله بعد موتها " فهذا التعبير يفيض بالدهشة والحيرة والاستغراب .

فالآية بألفاظها وتراكيبها تصور هذا المشهد وتعرضه شاخصاً للأبصار والمشاعر.

وقد جاءت محاورة الله تعالى له بعد إماتته وبعثه ليكون هو ذاته وماوقع عليه إجابة لتساؤله .

ولاشك أن التعجيب جاء من تكرار الفعل " انظر " في الآية ثلاثاً " انظر إلى طعامك ، انظر إلى حمارك ، انظر إلى العظام " فهو تعجيب من آثار قدرة الله ، وإثارة للتأمل والاعتبار في آيات الله في مخلوقاته وعظيم قدرته . (٢)

ومنه قوله تعالى في قصة المسيح بن مريم وأمه عليهما السلام { مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } (٣)

جاءت هذه الآية في سياق الرد على إبطال مزاعم أهل الكتاب بأن الله ثالث ثلاثة وقد نصب الحق سبحانه الأدلة على بشريته بالولادة وأكل الطعام ، وفي هذا التعبير " كانا يأكلان الطعام " كناية رائعة عن الحاجة والنقص والعوز والضعف كسائر أفراد البشر مدة الحياة والارتزاق ، وإحتراساً حتى لايتوهم أحد أن المقصود به الذم وصفه بالرسالة ووصف أمه البتول بأنها صديقة ، أما قوله " انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظرأني يؤفكون" فالأمربالنظر للتعجيب كما نص على ذلك كثير من أهل التفسير (٤)

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٥٩ " .

(٢) راجع في الآية الكشاف ٣٨٩/١ ومابعدها والتفسير الكبير ٣٤/٧ ومابعدها وأبا السعود ٣٩٣/١ - ٣٩٥ والتحرير والتنوير ٣٦/٣ - ٣٧ وظلال القرآن المجلد الأول ص٢٩٣ .

(٣) سورة المائدة ، الآية " ٧٥ " .

(٤) انظر الكشاف ٦٣٥/١ وأبا السعود ١٠٣/٢ والتحرير والتنوير ٦ / ٢٨٧ .

كما أن الاستفهام بقوله " أنى " مبالغة في التعجيب " (١) وتكرير الأمر بالنظر للتعجيب أيضاً ، وثم لإظهار مابين العجبين من التفاوت أي إن بياننا للآيات أمر بديع عجيب ، وأن إعراضهم عنها أعجب منه وأبدع (٢) .

والخطاب يجوز أن يكون للرسول صلى الله عليه وسلم ويجوز أن يكون لكل من تتأتى منه الرؤية والنظر .

٢ - التعجيب من أعمال المكذبين بالرسل :

ساق لنا القرآن في كثير من سوره إفتراءات المكذبين وتفننهم العجيب في اختلاق الأكاذيب ودأبهم المتواصل في تكذيب رسل الله عليهم السلام وقد جاءت الآيات القرآنية تحكى ذلك وتعقب عليه بأساليب تفيض تعجيباً وإثارة واعتباراً .

" وقد جاءت بعض أساليب الأمر في القرآن للتعجيب من أعمال هؤلاء المكذبين وإثارة للتأمل والاعتبار من ذلك قوله تعالى تعجيباً للنبى صلى الله عليه وسلم من أفعال المشركين المريبة وأقوالهم العجيبة ثم تعجيب أكثر من إعجاز القرآن وتصريفه البيان الباهر والآيات المنزلة القاهرة الاعجاز "(٣)

قال تعالى " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ " (٤)

بدأت الآية الكريمة بالاستفهام الإلزامي تبكيتاً وتهديداً وإلزاماً بالحجة فإن أخذ الله ما أعطاهم من حاسة السمع والبصر وطمس قلوبهم ، فهل ثم إله غير الله يرد عليهم ما أخذ منهم ، والاستفهام الثاني للنفي ولتعظيم شأن الله تعالى وإثبات الوحدانية له ونفيها عما سواه ، وهي حجة ملزمة مزلزلة فيها تهديد صعده الالتفات بالخطاب المهين المرعد ، ثم اتجه الخطاب نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه من تصريف البيان وقهر الحجة بالقرآن لهم - التي تصدع الصخر قبل القلوب - ولكنهم عنها معرضون غير متأثرين (٥) ، فالأمر في قوله " انظر " تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عدم تأثرهم بما عاينوا وشاهدوا من الآيات الباهرة أي انظر

---

(١) الاساليب الانشائية ص ٣١ .
(٢) انظر الكشاف ٦٣٥/١ وتفسير أبي السعود ١٠٣/٢ .
(٣) الأساليب الإنشائية ص ٢٩ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية " ٤٦ " .
(٥) الأساليب الإنشائية ص ٢٩ .

كيف نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب تارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير "(١)

ومنه قوله تعالى { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } (٢) .

فهذه الآية كما نلاحظ بدأت بهذا الأسلوب الخبري الذي يجعل العذاب معلقاً بالقدرة والإرادة متوقفاً على الإذن رصداً ينصب عليهم من فوقهم عذاباً أو يأتيهم من تحت أرجلهم من حيث لايحتسبون أو يوقع العذاب بينهم دماراً وقتلاً لأن الكون بيده والقلوب بين أصابعه عز شانه ، والتعجب هنا كما في الآية السابقة من تصريف الآيات التي جاءت على طريق الالتفات بياناً لجلالها واقتدارها ثم يختم سبحانه وتعالى الآية ذاماً لهم بعدم الفقه مرجواً منهم أن يفقهوا ذلك ،ولذا فإن هذا التصريف للآيات سبب حامل على التدبر والفهم والفقه أو لمن عنده استعداد ، ولهذا قال الرازي " أما من أعرض وتمرد فلايصرف الله هذه الآيات لهم " (٣)

لكن لما كان الحديث مع كفار قريش وهم أعرف الناس بمواقع الألفاظ وما تحمله الكلمات من معاني عديدة في النظم القرآني واعجازه الباهر الفذ الفريد كان التعبير بالفعل " نصرف " من تنويع الأساليب والافتنان في التراكيب كما ذكر الدكتور صباح دراز .

ولما كان الحديث مع اليهود في سياق قصة المسيح وأمه عليهما السلام في قوله تعالى " ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة " والتى أتى فيها بأدلة دامغة على بشريته عليه السلام ختمها بقوله { انظر كيف نبين لهم الآيات ثم أنظر أني يؤفكون } أتى بالفعل " نبين " لأن الجدال معهم باق إلى يوم الدين بالحجة والبرهان الدامغ لم يأت بالفعل « نصرف » إذ ليس لهم فطرة العرب في مكة " بل أتي بالفعل " نبين " لأنه الملائم لإيضاح الحجة " (٤) .ومنه قوله تعالى : { انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَايَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً }(٥) .

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٠٨/٢ .
(٢) سورة الانعام ، الآية " ٦٥ " .
(٣) انظر التفسير الكبير ٢٥/١٣ والأساليب الانشائية ص ٣٠
(٤) راجع الأساليب الإنشائية ص ٣٠ ومابعدها .
(٥) سورة الفرقان ، الآية " ٩ " .

فالمراد والله أعلم إستعظام تلك الأباطيل التى إجترأوا على التفوه بها وتعجيب منها أي أنظر كيف قالوا في حقك تلك الأقاويل العجيبة والأحوال النادرة الخارجة عن حد العقول السليمة والفطر القويمة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال حيث اقترحوا لك تلك الأحوال البعيدة " (١)

" وفرع على هذا التعجيب إخبار عنهم بأنهم ضلوا في تلفيق المطاعن في رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم فسلكوا طرائق لاتصل بهم إلى دليل مقنع على مرادهم ، ففعل " ضلوا " مستعمل في معنييه ، معنى عدم التوفق في الحجة ، ومعنى عدم الوصول للدين الحق ، وهو هنا تعجيب من خلطهم وإعراض عن مجاوبتهم " (٢)

ونظير هذا ما جاء في قوله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم من افتراء اليهود وإدعاء زكائهم ومكانتهم عند الله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ، انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا } (٣) .

فالأمر في " انظر " تعجيب وتنبيه على أن ما إرتكبوه متضمن لأمرين عظيمين موجبين للتعجب : إدعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه ، وإفتراؤهم على الله سبحانه . (٤)

ويقول صاحب التحرير والتنوير " جعل افتراءهم الكذب لشدة تحقق وقوعه كأنه أمر مرئي ينظره الناس بأعينهم ، وإنما هو مما يسمع ويعقل ، وكلمة "وكفى به إثما مبيناً" نهاية في بلوغ زعمهم غاية الإثم كما يؤذن به تركيب " وكفى به كذا " (٥) مما يستتبع غاية التعجيب " (٦) .

وقد ذكر السكاكي في استعمال الإنشاء بمعنى الخبر قوله " أحسن بزيد " ومنه

---

(١) حاشية المرشدي على عقود الجمان ١٩٢/١ نقلاً عن وجود الخطاب في القرآن ومواقعها البلاغية ص ٣٥٣ .

(٢) التحرير والتنوير ١٨ / ٣٣٠ .

(٣) سورة النساء ، الآيتين " ٤٩ – ٥٠ " .

(٤) تفسير أبي السعود ١ / ٧١٤ .

(٥) التحرير والتنوير ٥ / ٨٥ .

(٦) وجود الخطاب في القرآن الكريم ص ٣٥٥ .

قوله تعالى : { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } (١) كما ذكر هذه الآية ابن فارس والسيوطي على إفادة الأمر معنى التعجب (٢) ، والواقع أن المعنى إنشائي وهو التعجب واللفظ خبري ، وهذه الصيغة إحدى صيغتى التعجب القياسي وليست أمراً لأن الضمير في " بهم " في محل رفع فاعل " (٣) .

---

(١) سورة مريم ، الآية "٣٨" وانظر مفتاح العلوم ص ١٥٥ وعروس الأفراح ٣٢٢/٢ ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٩ ومعترك الأقران ٤٤٣/١ .

(٢) انظر الصاحبي ص ٣٠١ والاتقان للسيوطي ٢٧٨/٣ ومعترك الأقران له أيضاً ٤٤٣/٣ .

(٣) الاساليب الانشائية ص ٥٦ وما بعدها .

الإباحـة والامتنـان

دلالة الإباحة اللغوية والاصطلاحية :-

١ - الدلالة اللغوية :

الإباحة في اللغة مصدر أباح ، وأبحتك الشيء : أحللته لك ليس بمحظور عليك ، فأمره واسع غير مضيق .

والمباح خلاف المحظور . (١)

٢ - في إصطلاح البلاغيين :

((وذلك إذا استعملت صيغة الأمر في مقام توهم السامع فيه عدم جواز الجمع بين أمرين)) (٢) .

وبدهي أن ((العلاقة بين الطلب والإباحة أن كلاً منهما مأذون فيه ولا يقال الجزئية لأن المباح جنس للواجب)) (٣) .

والإباحة لون من المعاني الثانية التي يخرج إليها الأمر في القرآن الكريم ، وكثيراً مايرتبط بها في الأسلوب القرآني الامتنان والرضا والتكريم والادلال بالنعمة للمنعم الوهاب .

وحين ننعم النظر في أساليب الأمر التي أفادت الإباحة في القرآن نجدها تتنوع حسب الأغراض القرآنية على نحو مانوضحه في الصفحات التالية بعون الله :-

---

(١) انظر مقاييس اللغة ٣١٥/١ والصحاح ٣٥٧/١ وأساس البلاغة ص ٣٣ واللسان ٣٨٤/١ .

(٢) حاشية الدسوقي ٣١٣/٢ وانظر شروح التلخيص ٣١٣/٢ .

(٣) عروس الأفراح ٣١٣/٢ .

١ - الرسول صلى الله عليه وسلم :-

ورد الأمر مراداً به الإباحة في قوله تعالى خطاباً لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ } (١)

إن كان المراد بالنعمة النبوة والرسالة فالأمر حقيقي للتكليف ، وإن كان المراد بها عموم النعم فالأمر للإباحة والامتنان والادلال بالنعمة .

يقول الزمخشري ((التحديث بنعمة الله شكرها وإشاعتها ، يريد ماذكره من نعمة الإيواء والهداية والاغناء وماعدا ذلك)) (٢) ورجح أبو حيان أن يكون للامتنان حيث يقول ((ويظهر أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بثلاثة ، أمره بثلاثة فذكر اليتيم أولاً وهي البداية ثم ذكر السائل ثانياً وهو العائل ، وكان أشرف ما إمتن به عليه هي الهداية فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة))(٣) .

ويؤيده ماذكره الشيخ محمد عبده قائلاً : ((وقد يقال إن المراد من النعمة النبوة ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله : { ووجدك عائلاً }(٤) .

فتكون النعمة بمعنى الغنى ولو كانت بمعنى الرسالة لكانت مقابلة {ووجدك ضالاً }))(٥) .

وردته بنت الشاطيء ورجحت الأول وهو مايدل عليه السياق حيث تقول ((ومن هنا نؤثر أن تكون النعمة هنا ، مهما يكن من دلالتها المعجمية اللغوية هي

---

(١) سورة الضحى ، الآيتان " ٩ - ١١ " .

(٢) الكشاف ٤ / ٢٦٥ .

(٣) البحر المحيط ٨ / ٤٨٧ .

(٤) سورة الضحى ، الآية " ٨ " .

(٥) سورة الضحى ، الآية " ٧ " وانظر تفسير جزء عم ص ١١٧ .

الرسالة ، أكبر النعم التي يؤثر بها نبي مرسل)) (١) .

فالسياق القرآني يفيض بهذه العطاءات ولايمنع الحمل على الوجهين السابقين غير أني أرجح أن يكون المراد بالنعمة الرسالة ، ويكون الأمر بالتحديث للتكليف .

ومنه قوله تعالى آمراً نبيه الكريم أن يأذن للمؤمنين { .. فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (٢) .

فالأمر في قوله " فأذن " للإذن والإباحة بدليل قوله " لمن شئت منهم " على نحو ماهو واضح من السياق بمعونة القرائن والمقام .

٢ - فعل الأكل والشرب في القرآن :

من أساليب الأمر التي أفادت الإباحة والامتنان في القرآن الفعلان " كلوا واشربوا " والواقع أن لهذين الفعلين في البيان القرآني دلالاتٍ بلاغيةً كثيرة كالإباحة والامتنان والتكريم والرضا نحو قوله تعالى { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } (٣) .

وقد ورد الأمر من الفعل " أكل " في تسعة وعشرين موضعاً " (٤) ، وتوالى الفعلان " كلوا واشربوا " في سبعة مواضع " (٥) ، وانفرد فعل الأكل عن الشرب ببعض المعاني البلاغية كالتهديد والوعيد في قوله تعالى خطاباً للمشركين :

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ٥٤/١ .

(٢) سورة النور ، الآية " ٦٢ " .

(٣) سورة الحاقة ، الآية " ٢٤ " .

(٤) انظر المعجم المفهرس ص ٣٥ ومابعدها .

(٥) انظر المعجم المفهرس ص ٣٧٧ .

{ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ } (١) والإلهام والتسخير في قوله تعالى خطاباً للنحل { ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً } (٢)

أما المخاطبون بهذين الفعلين في القرآن فمتنوعون على نحو مايتضح لك فيمايلي :-

أ - آدم وزوجه في الجنة :

قال تعالى خطاباً لآدم وزوجه في الجنة { وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَتَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (٣) .

لاشك أن نداء آدم قبل خطابه بسكنى الجنة فيه تنويه بذكر اسمه في الملأ الأعلى تشريفاً وثناء وتعظيماً له ، والأمر في قوله " اسكن " مستعمل في الامتنان والتكريم (٤) ، وهذا الرأي أقرب وأنسب من الذهاب به إلى معنى الإباحة أو الوجوب " (٥) .

ولعل إيثار التعبير بأسكن " على " أسكنا " للتنبيه على أنه عليه السلام هو المقصود بالحكم وزوجه تبع له كما أنها في الخلقة كذلك " (٦) كما يظهر أن المراد بالجنة هنا دار ثواب المؤمنين على مايشهد به السياق وبعض صحيح الخبر والمأثور "(٧) .

---

(١) سورة المرسلات ، الآية " ٤٦ " .

(٢) سورة النحل ، الآية " ٦٩ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٣٥ " .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٤٢٨/١ والأساليب الإنشائية ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٥) انظر الطبري ١٨٣/١ والتفسير الكبير ٢/٣ والبحر المحيط ١٥٨/١ والدر اللقيط ١٥٥/١ وتفسير أبي السعود ١٥٨/١ وروح المعاني ٢٣٤/١ .

(٦) روح المعاني ٢٣٣/١ .

(٧) المصدر السابق ووجوه الخطاب في القرآن ص ٣١٣ .

والأمر في قوله " كلا منها " للإباحة والامتنان والتكريم والرضا ، وإنما ((وجه الخطاب إليهما تعميماً للتشريف والترفيه ومبالغة في إزاحة العلل والإعذار وإيذاناً بتساويهما في مباشرة المأمور به)) (١) .

و " رغداً ((" صفة " للمصدر المؤكد أي أكلا راغداً واسعاً رافهاً))(٢) و((حيث شئتما " وحيث للمكان المبهم أي من أي مكان في الجنة الواسعة فمع الإباحة التكريم والرضا)) (٣) .

((وهو كما ترى إطلاق كلي حيث أبيح لهما الأكل من الجنة على جهة التوسعة البالغة المزيحة للعلل ولم يحظر عليهما بعض الأكل ولابعض المواضع الجامعة للمأكولات حتى لايبقى لهما عذر في التناول من شجرة واحدة من بين أشجارها الفائتة للحصر)) (٤) .

ب – الرسل عليهم السلام :

قال تعالى خطاباً للرسل عليهم السلام { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } (٥) .

وهذه الآية الكريمة " جيء بها((إثر حكاية إيواء عيسى عليه السلام وأمه إلى الربوة إيذاناً بأن ترتيب التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام بل إباحة الطيبات شرع قديم ، وتعريضاً ببطلان ماعليه الرهبانية من رفض الطيبات بحيث لايخفى)) (٦) .

(١) تفسير أبي السعود ١ / ١٥٨ .

(٢) الكشاف ١ / ٢٧٣ .

(٣) انظر المصدر السابق والأساليب الإنشائية ص ٣٤ .

(٤) انظر الكشاف ٢٧٣/١ وتفسير أبي السعود ١٥٨/١ .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية " ٥١ " .

(٦) انظر تفسير أبي السعود ٦٨/٤ وراجع الأساليب الإنشائية ص٣٤ ومابعدها .

وروى الطبري (١) " أن ذلك الخطاب لعيسى عليه السلام تعظيماً وتكريماً " وهو " كلوا " .

((وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي رحمهم الله تعالى أنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وحده على دأب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع وفيه إبانة لفضله وقيامه مقام الكل في حيازة كما لاتهم فالأمر للإباحة والترفية)) (٢) .

ولاريب أن " هذه الآية الكريمة مظهر من ظاهرة الإيجاز القرآني المثير حين يجمع المنادى في صياغة واحدة مع اختلاف أفراده زماناً ومكاناً وذاتاً وصفة وذلك لوحدة الفاعل والقول أو المفعول ووحدة الصفة في المخاطبين أعنى الرسل " (٣) عليهم السلام .

جـ- مريم عليها السلام :

أفاد الأمر معنى الإباحة في قوله تعالى خطاباً لمريم عليها السلام وهى تلك المعجزة { وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً } (٤) .

السياق في هذه الآية دال على الرحمة والرأفة والتفضل والإنعام والإحسان أي فطيبي نفساً ولاتغتمي وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك ، وتأمل جمال التعبير بقوله "وقري عيناً " وهي على عين الرحمن حفظاً ورعاية وعناية . (٥)

---

(١) انظر الطبري ١٨ / ٢٢ .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٦٨/٤ وروح المعاني ٣٩/١٨ ومابعدها .

(٣) الأساليب الإنشائية ص ٣٤ .

(٤) سورة مريم ، الآيتان " ٢٥ – ٢٦ " .

(٥) انظر الكشاف ٥٠٧/٢ والأساليب الإنشائية ص ٣٦ .

ولعل في التعبير به كنايةً عن طيب النفس ورضاها وكشف مايحزنها ، فاشتقاقه في الأصل إما من القرار فإن العين إذا رأت مايسر النفس سكنت إليه من النظر إليه ، أو من القر وهو البرد ، فإن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ، فاستعمل كناية عن طيب النفس من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم ، وواضح مافيها من تصوير مؤثر في النفس لأنه أبرز المعنى الذهني في صورة محسة ملموسة "(١).

فالأمر في قوله " كلي واشربي " للإباحة (٢) كما هو واضح من السياق .

د - بنو إسرائيـل :

تفيد بعض صيغ الأمر في القرآن التي جاءت خطاباً لبني إسرائيل بالإباحة والامتنان من ذلك قوله تعالى : { ... قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (٣) الأمر في هذه الآية للإباحة (٤) .

ومنه قوله تعالى : { وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } (٥) فالأمر للإباحة كما أشار كثير من المفسرين (٦) .

ومنه قوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً .. } (٧) .

---

(١) انظر أسلوب الدعوة القرآنية ص٢٩٧ وراجع تفسير أبي السعود ٥٧٩/٣ .

(٢) انظر روح المعاني ١٦ / ٨٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٦٠ " .

(٤) انظر البحر المحيط والدر اللقيط ٢٣٠/١ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٥٧ " .

(٦) انظر الطبري ٢٣٧/١ وغرائب القرآن ٢٩٢/١ والبحر المحيط ٢١٤/١ وروح المعاني ٢٦٤/١ .

(٧) البقرة "٥٨" وراجع التفسير الكبير ٩٤/٣ والدر اللقيط ٢٢١/١ .

هـ - عامة الناس :

جاء الأمر مراداً منه الإباحة في قوله تعالى خطاباً لعامة الناس [يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً] (١) .

يقول أبو حيان " كلوا " أمر إباحة وتسويغ لأنه تعالى هو الموجد للأشياء فهو المتصرف فيها على مايريد " (٢) .

ومنه قوله تعالى خطاباً لبني آدم أي عامة الناس : [يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَاتُسْرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ] (٣) .

وأفتتح النظم بهذا النداء " يابني آدم " ليهيء النفوس ويشد انتباهها إلى ماسيلقى عليها ، " ويلفت الناس جميعاً إلى الأصل الواحد والأبوة الواحدة مهما تنوعت أجناسهم وتباينت لغاتهم وتفرقت أماكنهم فهم فرع عن رجل واحد وهذه القرابة تعود بالناس إلى المنبع الواحد وتضعهم جميعاً في المستوى الواحد دون تفاضل بينهم إلا بما يكون من تقوى وعمل " (٤) .

والمراد بأخذ الزينة عند كل مسجد على ماروي في أسباب النزول ستر العورة بالثياب (٥) .

((ونفهم من توجيه الأمر بأخذ الزينة إلى بني آدم دلالة العموم المطلق ، ويكون " كل مسجد " عاماً كذلك في دور العبادة)) (٦) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٦٨ " .
(٢) انظر البحر المحيط ٤٧٨/١ وراجع روح المعاني ٣٨/٢ والتحرير والتنوير ١٠١/٢ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية " ٣١ " .
(٤) من أسرار التعبير في القرآن . الدكتور عبدالفتاح لاشين ص ١٨٦ .
(٥) انظر أسباب النزول للواحدي ص ١٦٨ والباب النقول للسيوطي ص ١٠٥ وتفسير الطبري ١١٩/٨ .
(٦) انظر الشخصية الإسلامية . الدكتورة بنت الشاطيء ص ٧٥ .

أما قوله " كلوا واشربوا " فالظاهر أنه أمر بإباحة الأكل والشرب من كل مايمكن أن يؤكل أو يشرب مما لم يحظر أكله أو شربه في الشريعة " (١) .

وجملة " ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين " معطوفة على الجملة السابقة جيء بها لتأكيد الأمر بالأكل والشرب أي كلوا واشربوا ولاتسرفوا بتحريم الحلال أو بالتعدي إلى الحرام أو بالإفراط في الإكل والشره عليه (٢) ، كما إن جملة " إنه لايحب المسرفين ، تذليل مؤكد لمضمون ماقبله فيه تنفير وتقبيح للإسراف .

ويظهر أن الزينة كما يؤخذ من كلام العلماء هي كل مايتجمل ويتزين به الانسان من لبس الثياب الساترة للعورة مع التقيد بالتقاليد الإسلامية ، والذي يعنينا هنا كيف التأمت وتناسقت هذه الكلمة مع الفعل خذ القوي ؟ .

جاء السياق ينبض بالقوة والحسم والرغبة الجارفة والإلحاح الشديد في ستر العورة في الصلاة .

وستر العورة مطلب أساسي في صحة الصلاة ، لهذا نرى الاهتمام الشديد ، وذلك أن الاسلام دين طهارة ونظافة وجمال وبها يختلف عن جميع الأديان السماوية .

فالتعبير بقوله " خذوا زينتكم " جاء على أبلغ وجه وأكده إتساقاً مع هذا المعنى ، وهذا أقوى من قولنا " تزينوا " فكأن في الآية تكراراً للفعل مرتين مرة بالأخذ ومرة بالزينة .

---

(١) البحر المحيط ٢٩٠/٤ وانظر التفسير الكبير ٦٥/١٤ والدر اللقيط ٢٨٩/٤ وروح المعاني ١١١/٨ والتحرير والتنوير الجزء الثامن القسم الثاني ص٩٤ .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢ / ٢٢٩ .

و - للمؤمنين :

تفيد بعض أساليب الأمر التى جاءت خطاباً للمؤمنين الإباحة والامتنان في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } (١) . فالأمر في هذه الاية للإباحة كما ذكر كثير من المفسرين . (٢)

كما أفاد هذا الفعل معنى الإباحة في خطابات المسلمين خاصاً بحال معينة توهم فيها المؤمنون تحريم الأكل بذاته أو مطلق الانتفاع كما في الصيام والحج والزكاة وغنيمة القتال (٣) وغير ذلك نحو قوله : { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ ...} (٤) فالأمر في قوله " كلوا واشربوا " للإباحة .

وقوله تعالى : { فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ...} (٥) يقول الطبري " وقوله " فكلوا منها " وهذا مخرجه مخرج الأمر ومعناه الإباحة والاطلاق ، يقول الله فإذا نحرت فسقطت ميتة بعد النحر فقد حل لكم أكلها وليس بأمر إيجاب " (٦)

ومنه قوله تعالى : { كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى } (٧)

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٧٢ " .

(٢) انظر الطبري ٥٠/٢ والتفسير الكبير ١٠/٥ والبحر المحيط ٤٨٥/١ وغرائب القرآن ١١٣/٢ والتحرير والتنوير ١١٤/٢ .

(٣) انظر الأساليب الإنشائية ص ٣٥ .

(٤) المائدة " ٨٨ " وانظر التفسير الكبير ٧٧/١٢ وغرائب القرآن ٢٣/٧ .

(٥) سورة الحج ، الآية " ٣٦ " .

(٦) التحرير والتنوير ٧٩/١٠ .

(٧) سورة طه ، الآية " ٥٤ " .

في هذا السياق توالى الفعلان " كلوا وارعوا " لإفادة معنى الإباحة والإذن بمعونة السياق ومقتضيات الأحوال ، وفي هذا الصدد يقول الزمخشري " أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها "(١)

ز - في قصة سبأ :-

ورد الأمر مراداً به الامتنان في قوله تعالى : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } (٢) فالأمر في قوله " كلوا " ليس للإباحة بدليل قوله " من رزق الله " ففيه الادلال بالنعمة والتفضل عليهم .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن السياق الواحد يفيض بمعان أصلية ومعان ثانوية يعين على إبرازها السياق والمقام ، فالإباحة في كثير من الأساليب وغيرها المعنى الأصلى أما الامتنان والتكريم والرضا فهي معان ثانوية تبرز بجوار الإباحة.

والواقع أن هذين الفعلين " كلوا واشربوا " في أكثر مواضعهما جاءا للإباحة والامتنان ، فحيث ذكر معهما " رزق الله " فالأمر للامتنان والادلال بالنعمة والحث على شكر المنعم جل جلاله نحو قوله تعالى : { كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ } (٣) ، وإن خلا السياق من هذه القرينة فهو للإباحة نحو قوله تعالى : { كلوا من ثمره إذا أثمر ... } (٤) .

---

(١) الكشاف ٥٤١/٢ وانظر التفسير الكبير ٦٩/٢٢ والبحر المحيط ٢٥١/٦ وغرائب القرآن ١١٥/١٦ وحاشية الشهاب ٢٠٩/٦ والتحرير والتنوير ٢٣٩/١٦ .

(٢) سورة سبأ ، الآية " ١٥ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٦٠ " .

(٤) سورة الأنعام ، الآية " ١٤١ " .

٢ - ماتقاربت دلالته فيما دل على الحركة :

في القرآن أفعال ذات دلالات متقاربة وذلك نحو " سيروا - سيحوا - امشوا - اسعوا - وإن اختلفت دلالاتها ، وكل فعل له من حيث بنيته دلالته ومقامه الخاص به لايغني عنه سواه يتضح هذا من خلال عقد الموازنات فيما بينها :-

قال تعالى : { بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ... } (١)

وقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ } (٢)

وقوله تعالى : { إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ... } (٣)

وقوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ... } (٤)

وإذا تتبعنا هذه الأفعال في معاجم اللغة والمعاجم القرآنية نجدها دالة على الحركة :-

ساح : ساح فلان في الأرض مر مر السائح قال تعالى : " فسيحوا في الأرض " ورجل سائح وسياح وقوله " والسائحون " أي الصائمون ، وقيل السائحون

---

(١) سورة التوبة ، الآية " ٢ " .

(٢) سورة سبأ ، الآية " ١٨ " .

(٣) سورة الجمعة ، الآية " ٩ " .

(٤) سورة الملك ، الآية " ١٥ " .

هم الذين يتحرون ما اقتضاه قوله { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } (١)

والسير : هو المضي في الأرض ، ورجل سائر وسيار ، والسيارة الجماعة ... وأما قوله " سيروا في الأرض " فقد قيل حث على السياحة بالجسم وقيل حث على إجالة الفكر ومراعاة أحواله " (٢)

والمشي : هو الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة قال تعالى : { فامشوا في مناكبها } (٣)

والسعي : هو المشي السريع وهو دون العدو ، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً (٤) .

وبتأمل سياقات هذه الصيغ في القرآن نجد كل صيغة منها جاءت مناسبة للمقام بشكل تعجز عن القيام به أي صيغة أخرى .

وقد نص جمع من المفسرين على أن الأمر في قوله تعالى خطاباً للمشركين ((فسيحوا في الأرض)) للإباحة (٥) ، وأضاف أبو حيان قائلاً " فسيحوا " أمر إباحة وفي ضمنه تهديد " (٦) .

وما ذهب إليه أبو حيان بعيد ، بل فيه مع الإباحة الأمان والترفية ، ولهذا

---

(١) الحج " ٤٦ " وانظر مفردات الراغب ص ٢٤٦ ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٦٣٩/١ ومابعدها .

(٢) انظر المفردات ص ٢٤٧ ومعجم ألفاظ القرآن ٦٤٠/١ ومابعدها .

(٣) الملك " ٢ " وانظر المفردات ص ٤٦٩ ومعجم ألفاظ القرآن ٦٤٠/١ ومابعدها .

(٤) المفردات ص ٢٣٣ ومعجم ألفاظ القرآن ٥٩٠/١ .

(٥) انظر الكشاف ١٧٣/٢ والتفسير الكبير ٢٢٧/١٥ والبحر المحيط ٥/٥ وتفسير أبي السعود ٥١٥/٢ وروح المعاني ٤٣/١٠ .

(٦) البحر المحيط ٥ / ٥ .

نجد أبا السعود يقول " فسيحوا " السياحة والسيح الذهاب في الأرض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفية ماليس في سيروا ونظائره ، ... وإيثار صيغة الأمر مع تسني إفادة ذلك المعنى بطريق الإخبار أيضاً كأن يقال مثلاً فلكم أن تسيحوا أو نحو ذلك لإظهار كمال القوة والغلبة وعدم الاكتراث لهم ولاستعدادهم فكأن ذلك أمر مطلوب منهم " (١) .

والأمر في قوله " سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين " للإباحة (٢) ، ويقول الزمخشري ((وقلنا لهم سيروا ولا قول ثم ، ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه كأنهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه ، فإن قلت مامعنى قوله " ليالي وأياماً"؟ قلت : معناه سيروا فيها آمنين لاتخافون وإن تطاولت مدة سفركم وإمتدت أياماً وليالي ، أو سيروا فيها لياليكم وأيامكم مدة أعماركم فإنكم في كل حين وزمان لاتلقون فيها إلا الأمن)) (٣) .

وكذلك الأمر في قوله : " فامشوا في مناكبها " للإباحة (٤) ، واختار الطاهر ابن عاشور أنه للدوام والتذكير حيث يقول " فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيراً بما سخر الله لهم من المشي في الأرض إمتناناً بذلك ، ومناسبة " وكلوا من رزقه " أن الرزق من الأرض ، والأمر مستعمل في الإدامة أيضاً للامتنان " (٥) .

---

(١) تفسير أبي السعود ٢ / ٥١٥ .

(٢) انظر الكشاف ٣/٣٨٦ وحاشية الشهاب ٧/١٩٨ وروح المعاني ٢٢/١٣٠ .

(٣) الكشاف ٣ / ٣٨٦ .

(٤) انظر التفسير الكبير ٣٠/٦٩ وغرائب القرآن ٢٩/٩ وروح المعاني ٢٩/١٥ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٩/٣٢ .

ويبدو أن الأمر بالسعي في قوله " فاسعوا إلى ذكر الله " حقيقي فيه حث وإرشاد وترغيب في الصلاة مع الجماعة .

وخلاصة القول : إن الأفعال في هذه الآيات يجمعها رباط واحد فهي دالة على الحركة والانتقال بيد أن للحركة درجات مختلفة ، فكل فعل منها دل على درجة معينة من الحركة ، وجاء مناسباً لسياقه ومقامه .

ونستطيع أن نرتب درجات الحركة على ضوء ماذكرناه في اطمئنان - بمعونة السياق والمقام - من الأبطأ إلى الأسرع ، فيكون الترتيب عى هذا النحو : المشي ، ثم السياحة ، فالسير ، وأخيراً السعي .

فهذا نمط عجيب من بلاغة القرآن فكل لفظة فيه وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى ، ولهذا " لاتجد في القرآن ترادفاً بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً " (١) ، كما هو واضح من هذه الأفعال السابقة .

٤ - بين الزوجين :

تفيد بعض أساليب الأمر في القرآن الكريم معنى الإباحة وقد جاءت في أسلوب كنائي رفيع يدل على المراد أبلغ دلالة وخاصة فيما يتصل في تلك العلاقة التي تكون بين الزوجين ، وقد آثر القرآن التعبير بالكناية على التصريح حثاً منه للمسلمين ودعوة منه إلى تمسكهم بهذا الأدب الرفيع والخلق الكريم ، وهذا ماصرح به بعض الباحثين حيث يقول " كنايات القرآن تعد انعكاساً صادقاً للأدب الرفيع والخلق الكريم الذي يدعو إليه ذلك الكتاب " (٢)

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٥٧ .

(٢) من بدائع النظم القرآني ، الدكتور / السيد عبدالفتاح حجاب ٦٨/١ .

من ذلك قوله تعالى : { نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ... } (١) .

في هذه الآية الكريمة يصور لنا القرآن لوناً من ألوان العلاقة الزوجية في تعبير دقيق يبين طبيعة هذه العلاقة ، أما مناسبة السياق هنا فيتسق معها التعبير بالحرث لأنها مناسبة إخصاب وتوالد ونماء ، ومادام حرثاً فأتوه بالطريقة التي تشاؤون ولكن في موضع الإخصاب الذي يحقق غاية الحرث " (٢) .

والأمر في قوله " فأتوا حرثكم " للإباحة والإذن (٣) .

ومنه قوله : { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ... } (٤) .

يبين السياق رحمة الله بعباده حيث شرع لهم في هذه الآية وفصل بعض أحكام الصيام وحكم المباشرة في فترة الاعتكاف في المساجد .

ولا ريب أن الأمر في قوله " الآن باشروهن " للإباحة لكونه ورد بعد الحظر والنهي " (٥) .

ويقول ابن القيم ((أرشدهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة ، ولايباشروهن بحكم مجرد الشهوة ، بل يبتغوا ماكتب الله لهم من الأجر

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٣ " .

(٢) راجع في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٢٣٦ .

(٣) انظر التفسير الكبير ٦ / ٧٩ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ١٨٧ "

(٥) انظر الطبري ٩٤/٢ والكشاف ٢٨١/٢ والبحر المحيط والدر اللقيط ٤٩/٢ والتحرير والتنوير ١٨٣/٢ وخصائص التشبيه في سورة البقرة ص ١٣٦ - ٣١٧ .

والولد الذي يخرج من أصلابهم يعبد الله ولايشرك به شيئاً)) (١)، ثم يقول " رحمه الله)) مما تعلق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم ؟

فيقال : فيه إرشاد إلى أن لايشغلهم ما أبيح لهم من المباشرة عن طلب هذه الليلة التي هي خير من ألف شهر ، فكأنه سبحانه يقول " اقضوا وطركم من نسائكم ليلة الصوم ولايشغلكم ذلك عن ابتغاء ماكتب الله لكم من هذه الليلة التي فضلكم بها والله أعلم)) (١) .

ومنه قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَاتَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } (٢) .

يقول الطبري " فإن قال فما معنى قوله " إذا تطهرن فأتوهن " قيل ذلك إباحة ما كان منع قبل ذلك من جماعهن وإطلاق لما كان حظر في حال الحيض وذلك كقوله : { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٣) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : { فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ .. } (٤) . فالأمر في قوله " انكحوا " للإباحة والإذن كما هو واضح من السياق بمعونة القرائن والمقام .

---

(١) التفسير القيم لابن القيم ص ١٤٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٢ " .

(٣) سورة المائدة ، الآية " ٢ " ؛ وانظر تفسير الطبري ٢٢٨/٢ وراجع البحر المحيط ١٦٩/٢ وحاشية الشهاب ٣٠٨/٢ .

(٤) سورة المائدة ، الآية " ٣ " .

٥ - المسلمون :

أ - إباحة الصيد :

قال تعالى خطاباً للمسلمين : { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (١) أشار كثير من المفسرين والبلاغيين (٢) إلى أن الأمر في قوله " فاصطادوا " للإباحة ، فأباح لهم الاصطياد بعد حظره عليهم كأنه قيل : إذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطادوا .

ب - في الجهاد :

تفيد بعض أساليب الأمر التي جاءت خطاباً للمسلمين بالإباحة والإذن في الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته من ذلك قوله تعالى : { فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ } (٣) .

يقول الطاهر بن عاشور " الأمر في " فاقتلوا المشركين " للإذن والإباحة بإعتبار كل واحد من المأمورات على حدة ، أي فقد أذن لكم في قتلهم ، وفي أخذهم ، وفي حصارهم ، ، وفي منعهم من المرور بالأرض التي تحت حكم الإسلام " (٤) .

وحيث جاء الأمر في القرآن بقتال المشركين في الأشهر الحرم أو بعد انقضائها ، أو في المسجد الحرام فهو للإباحة والإذن نحو قوله تعالى خطاباً

---

(١) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .

(٢) انظر الطبري ٦/٤١ والكشاف ١/٥٩٢ والتفسير الكبير ١١/١٣٣ والبحر المحيط ٣/٤٢١ وحاشية الشهاب ٣/٢١٤ وتفسير أبي السعود ٢/٧ وروح المعاني ٦/٥٦ والتحرير والتنوير ٦/٨٥ والأساليب الإنشائية ص ٣٤ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ٥ " .

(٤) التحرير والتنوير ١٠ / ١١٥ .

للمسلمين : { ... وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } (١) .

ونلاحظ أن الأمر بقتال المشركين في هذه الآية ونظائرها جاء من قبل الحق سبحانه وتعالى حيث أباح للمسلمين فيها بقتال المشركين وأذن لهم فيه بعد أن كان محظوراً عليهم .

وقد جاء الأمر بقتل المشركين واليهود وغيرهم من أعداء الإسلام في أكثر مواضعه في القرآن حقيقياً (٢) ، فيه حث وترغيب في الجهاد في سبيل الله نحو قوله تعالى : { وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (٣) وقوله تعالى : { فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ .. } (٤) وقوله تعالى : { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً } (٥)

جـ- في القصاص :

قال تعالى خطاباً للمؤمنين : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ } (٦)

الأمر في هذه الاية للإباحة كما ذكر أبو السعود أي " إن أردتم المعاقبة فعاقبوا بمثل مافعل بكم ، وقد عبر عنه بالعقاب على نهج المشاكلة " ويضيف رحمه الله " والأمر وإن دل على إباحة المماثلة في المثلة من غير تجاوز لكن تقييده بقولـه

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٩١ " .

(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٤ " .

(٤) سورة التوبة ، الآية " ١٢ " .

(٥) سورة التوبة ، الآية " ٣٦ " .

(٦) سورة النحل ، الآية "   " .

" وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبت به " حث على العفو تعريضاً ، وقد صرح به على الوجه الآكد فقيل " (١) " ولئن صبرتم " " وأكد كون الصبر خيراً بلام القسم زيادة في الحث عليه ، وعبر عنهم بالصابرين إظهاراً في مقام الإضمار لزيادة التنويه بصفة الصابرين أي الصبر خير لجنس الصابرين " (٢) .

ومنه قوله تعالى : { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ .. } (٣) .

الأمر في هذه الآية للإباحة إذ العفو جائز (٤) ، أي فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، هكذا " بلا تجاوز ولا مغالاة ، والمسلمون موكولون في هذا إلى تقواهم ، وقد كانوا يعلمون أنهم ينصرون بعون الله ، فيذكرهم هنا بأن الله مع المتقين بعد أمرهم بالتقوى ، وفي هذا الضمان كل الضمان " (٥) .

د - في التناجي :

قال تعالى خطاباً للمسلمين : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } (٦) ، يقول الطاهر بن عاشور " الأمر في قوله " تناجوا بالبر والتقوى " مستعمل في الإباحة كما اقتضاه قوله إذا تناجيتم " (٧) وهو تاكيد للنهي الجازم .

---

(١) تفسير أبي السعود ٤١٧/٣ ومابعدها .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣٣٦/١٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ١٩٤ " .

(٤) انظر روح المعاني ٧٧/٢ وخصائص التصوير البياني . الدكتور/ محمد أبو موسى ص ٣٤٨ .

(٥) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ١٨٥ .

(٦) سورة المجادلة ، الآية " ٩ " .

التخييـر

بين الإباحة والتخيير :-

يبدو أن دلالة الإباحة قريبة من دلالة - التخيير ، وهذا القرب أوقع بعض العلماء في الخلط بينهما ، وقد نبه السبكي على هذا الخلط مشيراً إلى الفرق الدقيق بينهما فقال ((الإباحة في جالس الحسن أو ابن سيرين)) ليست من اللفظ وكذلك التخيير فى ((خذ درهماً أو ديناراً)) بل من خارج فحينئذ كل من هذين المثالين كالآخر يقتضى إباحة أحدهما والتخيير ، وأما إباحة الأخذ من أحدهما وامتناع ذلك في المثال الآخر فليس من اللفظ ، ثم إن الأصوليين قاطبة فسروا الإباحة بالتخيير وإن كان التحقيق خلافه فإن الإباحة هو إذن في الفعل وإذن في الترك بنظم إذنين معاً ، والتخيير إذن في أحدهما لا بعينه (١)

ويزيد هذا الأمر وضوحاً ماذكره الكفوي (٢) في الكليات والإباحة : ترديد الأمر بين شيئين يجوز الجمع بينهما ، وإذا أتي بواحد منهما كان امتثالاً للأمر كقولـــه ((جالس الحسن أو ابن سيرين)) فلا يكون إلا بين مباحين في الأصل ، وهي تدفع توهم الحرمة ، كما أن التسوية تدفع توهم الرجحان .

وأما التخيير : فهو ترديد الأمر بين شيئين ولايجوز الجمع بينهما كقولـك ((تزوج زينب أو أختها)) فلا يكون إلا بين ممنوعين في الأصل ومن ثمة يجوز بين المعطوف والمعطوف عليه (٣)

والواقع أن التخيير شيء من طبيعة البشر ، وحين يأتي في كثير من أساليب التشريع كما في الدعاء أو في التحية أو في الجهاد في سبيل الله أو في الحدود كما في الطلاق فهو مبني على السعة رحمة من الله بعباده ورأفة بهم .

---

(١) عروس الأفراح - ضمن شروح التلخيص ٣١٣/٢ ومابعدها وراجع مواهب الفتاح وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٣١٣/٢ .

(٢) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي الحنفي ولد في كفا بالقرم سنة ١٠٢٨هـ وتوفي وهو قاض بالقدس سنة ١٠٩٤هـ من مؤلفاته الكليات .
انظر ترجمته الأعلام ١٨٣/١ ومعجم المؤلفين ٣١/٣ .

(٣) الكليـات ١ / ٢٧ .

كما جاء التخيير في خطابات الأنبياء مناً وعطاءً أو رحمة بهم وبياناً لفضلهم عليهم السلام .

ونتناول الآن أساليب الأمر التى أفادت معنى التخيير نكتفي بإزجاء بعض النماذج وتحليلها ومحاورة العلماء فيما ذكروه :-

التخيير في الدعاء " بمعنى التسمية " :-

من ذلك قوله تعالى { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياً مَاتَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى .. } (١) نص كثير من المفسرين على أن الأمر في هذه الآية الكريمة للتخيير(٢) والدعاء هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء أي سموا ربكم الله أو سموه الرحمن فلله الأسماء الحسنى .

في التحيــة :

أرشد الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين إلى مكارم الأخلاق وأدبهم بأدب الاسلام حيث أمرهم في هذه الآية برد التحية قال تعالى { وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً } (٣) .

فهذه الآية الكريمة تشتمل على أدب من آداب الإسلام العليا التى أدب بها المؤمنين وليس بخاف على أحد أن الأمر برد السلام للوجوب لإجماع الفقهاء على ذلك ، ولكن المفسرين أشاروا إلى أن قوله { فحييوا بأحسن منها أو ردوها } يفيد التخيير بين الزيادة وتركها ، (٤) وعلم من تقديم قوله { أحسن منها } أن ذلك أفضل ولذا أعقبه بقوله { إن الله كان على كل شيء حسيباً "}وعلى كل فالتخيير مستفاد من " أو " والفعل في هذه الآية الكريمة .

---

(١) سورة الاسراء ، الآية " ١١٠ " .

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٤٧٠ ، والتفسير الكبير ٢١ / ٧١ ، والبحر المحيط ٩٠/٦ والتحرير والتنوير ١٥ / ٢٣٥ ومابعدها ودراسات لأسلوب القرآن ، الجزء الأول القسم الأول ص ٥٨٦ .

(٣) سورة النساء ، الآية " ٨٦ " .

(٤) انظر الكشاف ٥٤٩/١ والبحر المحيط ٣١٠/٣ وأبا السعود ٧٥٠/١ وروح المعاني ٩٩/٥ والتحرير والتنوير ١٤٦/٥ ودراسات لأسلوب القرآن الجزء الأول من القسم الأول ص ٥٨٥ .

في الجهاد في سبيل الله :

تنبض بعض الآيات القرآنية التى جاءت ترغب المسلمين وتحثهم على الجهاد في سبيل الله بالتخيير من ذلك قوله { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ...} (١)

فالأمر في هذه الآية للالتماس لكن هذا لايمنع أن يكون الأمر في قوله { قاتلوا أو أدفعوا } " للتخيير " يؤيد هذا ماذكره القاضي البيضاوي قائلاً ((فهذا تقسيم للأمر عليهم ، وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن النفس والأموال)) (٢)

ومن ذلك قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً } (٣) أمر الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية المسلمين بالخروج للجهاد في سبيله ، وخيرهم بين أن ينفروا جماعات متفرقة أو أن ينفروا مجتمعين .

وعلى هذا فالأمر في قوله { انفروا ثبات أو انفروا جميعاً }للتخيير ، وهذه الجملة تفريع عن أخذ الحذر لأنهم إذا أخذوا حذرهم تخيروا أساليب القتال بحسب حـال العدو (٤)

في الطلاق :-

من ذلك قوله تعالى { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَتُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ... } (٥)

يقول الطاهر بن عاشور ((ذكر التسريح هنا مع الإمساك ليظهر معنى التخيير بين أمرين وليتوسل بذلك إلى الإشارة إلى رغبة الشريعة في الإمساك وذلك بتقديمه في الذكر ، إذ لو لم يذكر الأمران لما تأتى التقديم المؤذن بالترغيب)) (٦)

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتين " ١٦٦ - ١٦٧ " .
(٢) تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٧٩/٣ وراجع الألوسي ١١٨/٤ .
(٣) سورة النساء ، الآية " ٧١ " .
(٤) انظر الكشاف ٥٤١/١ والبحر المحيط ٢٩٠/٣ والتحرير والتنوير ١١٨/٥ ودراسات لأسلوب القرآن القسم الأول الجزء الأول ص ٥٨٥ .
(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٣١ " .
(٦) التحرير والتنوير ٤٢٢/٢ وراجع الكشاف ٣٦٨/١ .

فالأمر في قوله { امسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف مستعمل في التخيير . ونظيره قوله تعالى " فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ . } (١)

ذكر كثير من أئمة التفسير بأن الأمر في قوله { أمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف } للتخيير (٢) ، غير أن الطاهر بن عاشور ذكر بأنه للإباحة وأو فيــه للتخيير (٣) .

والواقع أن التخيير متفرع عن الإباحة التي هي الأصل كما هو واضح من سياق الآية الكريمة .

موازنة بين سياقين :-

وإذا كان الأمر في الآيتين السابقتين للتخيير كما ذكرنا فما السر من وراء إختلاف الصياغة في الآيتين حيث ذكر في الآية الأولى { سرحوهن بمعروف } وفي الثانية { فارقوهن بمعروف } ؟

الواقع أنني لم أظفر على شيء في كتب المتشابه التى تعنى بهذا النوع من الدراسة ، لكنني عثرت على كلام طيب للسيوطي في معترك الأقران حيث يقول ((فإن قلت ما الحكمة في تعبيره في آية البقرة بالسراح في مكان الفراق هنا)) ؟

والجواب : لاكتناف آية البقرة النهي عن مضارة النساء وتحريم أخذ شيء منهن ما لم يكن منهن مايسوغ ذلك من ألا يقيما حدود الله ، فلما اكتنفها ما ذكر وأتبع ذلك بالمنع عن عضلن ، وتكرار أثنا ء ذلك مايفهم الأمر بمجاملتهن والإحسان إليهن حالي الاتصال والانفصال لم يكن ليناسبها - قصد مــن هذا أن يعبر بلفظ { أو فارقوهن } لأن لفظ الفراق أقرب إلى الإساءة منه إلى الإحسان ، فعول إلى مايحصل منه المقصود مع تحسين العبارة وهو لفظ التسريح فقال تعالى { فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف } ولايجري مع ماتقدم من قوله تعالى { الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان } وقيل هنا : بإحسان ليناسب به تعالى المذكور مــن قوله { أو تسريح } وقد روعي في هذه الآيه كلها مقصد التلطف وتحسين الحال فى الصحبة

---

(١) سورة الطلاق ، الآية " ٢ " .

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٨/٨٨ والكشاف ٤/١١٩ والتفسير الكبير ٣٠/٣٣ وغرائب القرآن ٢٨/٨٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٨ / ٣٠٨ .

والافتراق ، ولما لم يكن في سورة الطلاق تعرض لعضل ، ولا ذكر مضاره - لم يذكر ، وورد التعبير بلفظ { أو فارقوهن } على الانفصال ، ووقع الاكتفاء فيما يراد من المجاملة في الحالين بقوله { معروف} وبان افتراق القصتين في السورتين ، وورود كل من العبارتين على مايجب " (١) .

فهذه لفته بارعة ذكية من السيوطي حيث فطن إلى أسرار الاختلاف بين هاتين الآيتين الكريمتين مع دقة في العبارة وإجادة في العرض .

في خطاب الأنبياء عليهم السلام :

من ذلك قوله تعالى خطاباً لسليمان عليه السلام { فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } (٢)

فالأمر في قوله { فامنن أو أمسك } للتخيير كما هو واضح من نظم الآية الكريمة .

اليهـــود :

قال تعالى خطاباً لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فـي شـأن اليهـود { سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (٣)

أشار كثير من المفسرين إلى أن الأمر في قوله { فاحكم بينهم أو أعرض عنهم } مستعمل في التخيير .

فالرسول صلى الله عليه وسلم مخير إذا تحاكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين أن لايحكم بينهم (٤) .

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ١ / ١٤١ .
(٢) سورة ص ، الآيتين " ٣٦ - ٣٩ " .
(٣) سورة المائدة ، الآية " ٤٢ " .
(٤) انظر تفسير الطبري ٦/١٥٦ والكشاف ١/٦١٤ والتفسير الكبير ١١/٢٤٢ والبحر المحيط ٣/٤٨٩ وتفسير أبي السعود ٢/٥٩ وحاشية الشهاب ٣/٢٤٤ وروح المعاني ٦/١٤١ والتحرير والتنوير ٦/٢٠٢ .

التسويـــة

دلالة التسوية لغة وإصطلاحاً :

التسوية في اللغة :((ساوى الشيء الشيء : عادله وماثله ، وساوي الرجل الشيء بالشيء وساوى بينهما جعلهما متعادلين فاستويا وتساويا)) (١)

وتكون التسوية عند الأصوليين والبلاغيين في مقام يتوهم فيه المخاطب رجحان أحد الطرفين (٢)

بين الإباحة والتسوية :-

أشار البلاغيون إلى الفرق الدقيق بين الإباحة والتسوية ((بأن الإباحة يخاطب بها من هو بصدد أن يتوهم المنع من الفعل فيخاطب بالإذن ونفي الحرج كما في قوله تعالــى { وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا } (٣) والتسوية يخاطب بها من هو بصدد أن يتوهم أن أحد الطرفين المذكورين في محلهما من الفعل ومقابله أرجح من الآخر وأنفع فيرفع ذلك ويسوي بينهما)) (٤)

وعلى الرغم من أن البلاغيين عدوا التسوية من المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب الأمر نجد أن التسوية ليست غرضاً مستقلاً بذاته وإنما جاءت مرتبطة أو متفرعة عن معان بلاغية أخرى في البيان القرآني كالتهديد والإهانة أو في مقام العتاب والتبيين للرسول صلى الله عليه وسلم في شأن استغفاره للمنافقين حيث مات رأس النفاق عبدالله بن أبي سلول فنزلت آيات بينات تهدد المنافقين وتبين للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ما كان ينبغي أن يستغفر لهم ، وبأن الله لن يغفر لهم .

والتسوية جاءت في القرآن بأساليب مختلفة من الخبر والاستفهام والأمر والنهي تعديلاً للفكر أو السلوك أو إظهاراً لحقيقة ينبغي ألا تغرب عن المخاطب ، وهي لاتبعد عن فكرة الترغيب والترهيب بمعناها الوسيع في دعوة القرآن الكريم كما نص

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم ٦٣٦/١ وانظر مفردات الراغب ص٢٥٢ واللسان ٢١٦١/٣ .

(٢) انظر الايضاح ٢٤٣/١ والطراز ٢٨٣/٣ والمطول ص ٢٤١ وشروح التلخيص ٣١٨/٢ ومابعدها والأساليب الانشائية ص ٥٤ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٣٩ .

(٣) سورة المائدة ، الآية " ٢ " .

(٤) انظر مواهب الفتاح ٣١٩/٢ والمطول ص ٢٤١ والأطول ٢٤٨/١ وحاشية الدسوقي ٣١٩/٢ .

على ذلك الدكتور صبّاح دراز . (١)

ولقلة أساليب التسوية التي جاءت عن طريق الأمر في القرآن الكريم آثرت عرضها على التوالي :-

من ذلك قوله تعالى آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبلغ المنافقين هذا التهديد الشديد { قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ } (٢) نص الطبري وتابعه كثير من المفسرين على أن الأمر خرج إلى معنى الخبر (٣) ، وذكر البلاغيون وبعض المفسرين (٤) أن الأمر للتسوية وهي تئول إلى الخبر فلا خلاف في ذلك .

والتسوية في هذه الآية الكريمة دالة على الوعيد الشديد فإنفاقهم سواء أكان طوعاً أو كرهاً لن يتقبل الله منهم لإنهم فاسقون .

والتعبير بقوله { إنكم كنتم قوماً فاسقين } تعليل لرد إنفاقهم (٥) ، ودليل على عدم الرضا والسخط والضيق منهم ، وكشف عن حقيقة المنافقين فهم فاسقون متمردون ، ومنه قوله تعالى فى شأن المنافقين خطاباً لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم وقد عزم - لقلبه االكبير - أن يستغفر لعبدالله بن أبي سلول رأس النفاق حين مات فنزل الوحي معاتباً للرسول صلى الله عليه وسلم ومهدداً المنافقين { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (٦)

---

(١) انظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ص ٥٥ .
(٢) سورة التوبة ، الآية " ٥٣ " .
(٣) انظر الطبري ١٠٧/١٠ والكشاف ١٩٥/٢ والتفسير الكبير ٩٠/١٦ وتفسير أبي السعود ٥٦٤/٤ وحاشية الشهاب ٣٣٣/٤ وروح المعاني ١١٦/١٠ .
(٤) انظر الايضاح ٢٤٣/١ وشروح التلخيص ٣١٨/٢ وبغية الايضاح ٥٥/٢ والأساليب الإنشائية ص ٥٥ .
(٥) تفسير أبي السعود ٢ / ٥٦٤ .
(٦) سورة التوبة ، الآية " ٨٠ " .

نص الطبري وتابعه الزمخشري على أنه كلام خرج مخرج الأمر وتأويله الخبر (١) ، كما ذكر أبو حيان وبعض المفسرين رأيين : الأول : أن المراد بهذا الكلام التخيير وهو الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال له عمر رضي الله عنه كيف تستغفر لعدو الله وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم فقال صلى الله عليه وسلم ما نهاني ولكنه خيرني ... ، والثاني بأنه أمر في معني الخبر وإن للشرط والجزاء أي إن استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم فيكون مثل قوله : { قل انفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم } (٢)

والواقع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أختار من الآية التخيير لأنه يلاءم طبعه حيث جبل صلى الله عليه وسلم على الرحمة والشفقة وقد صدق الحق في قوله { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } (٣)

أما عمر رضي الله عنه فقد فهم منها التسوية وهو ملائم لطبعه ، ففي عمر رضي الله عنه شدة في الحق وغيرة عليه ، وقد وافق الوحي عمر رضي الله عنه .

وعلى كل الأمر في هذه الآية للتسوية كما ذكر كثير من العلماء (٤) ، وعلى نحو ماهو مستفاد من السياق بمعونة القرائن وأحوال التراكيب .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين { قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَتُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً } (٥) .

تفيض هذه الآية الكريمة بالتهديد والوعيد لهؤلاء المشركين ، وبالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم وقلة المبالاة بهم (٦)

---

(١) انظر الطبري ١٣٦/١٠ والكشاف ٢٠٤/٢ .

(٢) انظر البحر المحيط ٧٦/٥ ومابعدها وحاشية الشهاب ٣٤٨/٤ وروح المعاني ١٤٧/١٠ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ١٢٨ " .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٧٧/١ والأساليب الإنشائية ص ٥٥ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية " ١٠٧ " .

(٦) انظر الكشاف ٤٦٩/٢ والتفسير الكبير ٦٩/٢١ والبحر المحيط ٨٨/٦ .

فالأمر والنهي في قوله : { آمنوا به أو لا تؤمنوا } ((للتسوية وشديد الإهمال)) (١) ((أي فإن إيمانكم وعدم إيمانكم سواء لأن إيمانكم لا يزيده كمالاً وعدم إيمانكم لا يورثه نقصا(٢) كما أن قوله { إن الذين أوتوا العلم من قبله ..} تعليل لمعني التسوية بين إيمانكم به وعدمه)) (٣)

وفي التعبير بقوله { إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً } بيان لأثر القرآن الكريم - وسطوته - في القلوب المؤمنة العارفة بطبيعته وبلاغته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله ، حيث يكشف السياق عن هذا التأثير بأنهم يخرون للأذقان سجداً أي على الأذقان ، وفي ذكر الأذقان دلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض رغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع والخشوع لله تعالى (٤)

ونظيره قوله تعالى خطاباً للكفار { وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } (٥) .

في هذه الآية الكريمة التسوية نابضة بالتهديد والوعيد لهؤلاء المشركين فصيغة الأمر في قوله " اسروا " و " اجهروا " مستعملة في التسوية أي ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما ، ثم إنه علله { إنه عليم بذات الصدور } (٦) فهذه الجملة تعليل للتسوية المستفادة من صيغة الأمر أي فسواء في علم الله الإسرار والإجهار لأن علمه محيط بما يختلج في صدور الناس بله مايسرون به من الكلام ولذلك جيء بوصف عليم بياناً لإحاطة علمه فسبحانه لاتخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . (٧)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٣٢/١٥ والاساليب الانشائية ص ٥٥ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٨٨ .
(٢) تفسير أبي السعود ٤٨٨/٣ وانظر روح المعاني ١٨٩/١٥ .
(٣) التحرير والتنوير ١٥ / ٢٣٣ .
(٤) انظر في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٥٤ والتحرير والتنوير ٢٣٤/١٥ .
(٥) سورة الملك ، الآية " ١٣ " .
(٦) انظر الكشاف ١٣٧/٤ والتفسير الكبير ٦٦/٣٠ وغرائب القرآن ٢٩/ ٧ - ٨ وتفسير أبي السعود ٣٦٢/٥ وحاشية الشهاب ٢٢٢/٨ .
(٧) راجع التحرير والتنوير ٢٩ /. ٣٠ .

ومنه قوله تعالى خطاباً للكفار في نار جهنم { ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } (١)

أشار كثير من المفسرين والبلاغيين إلى أن الأمر والنهي في هذه الآية للتسوية أي سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه ، فكلاهما لايخففان عنهم شيئاً من العذاب (٢)

((وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة من أن يعلم أن الصبر وعدمه سواء ، فالعذاب واقع ماله من دافع وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع ، والبقاء فيه مقرر سواء صبر عليه أم هلع ، والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل " (٣) " إنما تجزون ما كنتم تعملون)) " توالى الأمران " اصلوها " و " اصبروا " في هذا السياق لإفادة معاني التهديد والتقريع والوعيد الشديد .

---

(١) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٢) انظر الطبري ١٤/٢٧ والكشاف ٢٣/٤ والبحر المحيط ١٤٧/٨ وتفسير أبي السعود ٢٠٩/٥ وحاشية الشهاب ١٠٣/٨ والتحرير والتنوير ٤٤/٢٧ والإيضاح ٢٤٣/١ وشروح التلخيص ٣١٨/٢ والأساليب الإنشائية ص ٥٥ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٣٩ ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٩ والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص١٠٦ .

(٣) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٣٩٦ .

التكوين والتسخير

تتداخل دلالة التكوين بالتسخير في كتب المفسرين والبلاغيين على حد سواء نظراً للتقارب الشديد بين الدلالتين ، لذا كان لزاماً أن نحرر دلالة كل من التكوين والتسخير لغة واصطلاحاً .

الدلالة اللغوية للتكوين :

الكون : الحدث وقد كان كونا وكينونة ، وكون الله الشيء : أحدثه ، والله مكون الأشياء يخرجها من العدم إلى الوجود "(١)

أما دلالة التسخير اللغوية : فالتسخير لغة التذليل والإهانة . (٢)

الدلالة الاصطلاحية :-

الرأى السائد لدى كثير من البلاغيين أن التسخير : التبدليل من حالة إلى أخرى فيها مهانة ومذلة ، ويستشهدون بقوله تعالى { كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (٣)

بيد أن العلامة عبدالحكيم والعلامة العصام يميلان إلى اعتماد الدلالة اللغوية للتسخير (٤) كما وضحها الراغب في قوله " التسخير سياقة إلى الغرض المختص قهراً ، قال تعالى{ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ...}، فَالمُسَخَّرُ هو المُقَيَّضُ للفعل ، والسُّخْرِيُّ هو الذي يُقهرُ فيَتسَخَّرُ بإرادته(٥)

وعلى هذا يكون التسخير عندهما أعم من التكوين (٦) ، والصواب أن التكوين

---

(١) اللسان ٣٩٥٩/٥ - ٣٩٦٠ .

(٢) السابق ١٩٦٣/٣ وشروح التلخيص - مواهب الفتاح وعروس الأفراح ٣١٧/٢ ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٨ .

(٣) سورة البقرة ، الآية "٦٥" انظر الايضاح ٢٤٢/١ والطراز ٢٨٢/٣ ومابعدها وشروح التلخيص ٣١٧/٢ والاتقان ٢٤٢/٣ ومعترك الأقران ٤٤٢/١ .

(٤) انظر حاشية عبدالحكيم ص ٣٩٩ والأطول ٢٤٨/١ .

(٥) مفردات الراغب ص ٢٢٧ .

(٦) يقول عبدالحكيم "والتسخير" أي جعله مسخراً منقاداً لما أمر به فإن إيجاب شيء لا قدرة على المخاطب عليه بحيث يحصل عقيبه من غير توقف يستلزم تسخير لذلك " حاشية عبدالحكيم على المطول ص ٣٩٩ ويقول العصام " ويعرف التسخير من الإهانة بأنه في التسخير لاينفك الأمر عن الانقياد ، وفي الإهانة لايتحقق المأمور " الأطول ٢٤٨/١ .

أعم من التسخير كما نص على ذلك علماء البلاغة المتأخرون " (١)

والفرق بين التكوين والتسخير كما ذكر ابن يعقوب المغربي وتابعه بعض البلاغيين" أن التسخير تبديل من حالة إلى أخرى أخس منها ، والتكوين إنشاء من عدم لوجود ، ويوجد إستعمال الأمر فيه كقوله تعالى { كن فيكون } والتعبير عن الإيجاد بكن ايماءٌ إلى أنه يكون في أسرع لحظة وأنه طائع لما يراد فكأنه إذا أمر ائتمر ويحتمل أن يكون التكوين أعم بأن يراد به مطلق التبديل إلى حالة لم تكن ، ويراد بالتسخير ماتقدم ، أي التبديل من حالة إلى أخرى فيها مهانة ومذلة . (٢)

مع أساليب التكوين :

للتكوين شقان أو طرفان ، إما إنشاء من عدم ، أو التبديل من حالة إلى حالة أخرى لم تكن ، ويسمى التكوين أيضاً الفعل التكويني أو الإيجادي بمعنى إبداع الأشياء وتكوينها من العدم إلى الوجود .

وحين ننظر إلى المخاطب بالقول الآلهي في أساليب التكوين يتفاوت في الوجود والعدم ، فأحياناً يكون موجوداً كالقوم الذين قال لهم الله موتوا قال تعالى{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ } (٣) والنار في قوله تعالى { يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ }(٤) والأرض والسماء في قوله عز وجل { وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ ..}(٥)

وتارة يكون معدوماً كما في قوله تعالى { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (٦) وقوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين } (٧)

---

(١) انظر شروح التلخيص ٣١٧/٢ والاتقان ٤٤٢/٣ ومعترك الأقران ٤٤٢/١ .
(٢) مواهب الفتاح ، وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٣١٧/٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٤٣
(٤) سورة الأنبياء ، الآية " ٦٩ " .
(٥) سورة هود ، الآية " ٤٤ " .
(٦) سورة النحل ، الآية " ٤٠ " .
(٧) سورة فصلت ، الآية "١١" وانظر الأساليب الإنشائية ص ٤٩ .

وفي مثل هذه الأساليب نقل الإمام الطبري أراء كثيرة دارت أراء العلماء وحتى اليوم بينها انحيازاً لرأي أو إبطالاً لآخر بشيء من السعة والتفصيل . (١)

وطبيعي أن تتعدد الأفهام وتتباين الآراء في قضية ثار حولها جدل كبير وهي كيف يخاطب الله المعدوم أهو على سبيل الحقيقة أم المجاز أم الكناية .

ونحن في غنى عن الوقوف على أراء العلماء وعرضها في هذه القضية ، بل الذي يهمنا أن نشير إلى الرأي الذي أجمع عليه سلف هذه الأمة ، وهو أولى الأقوال بالصواب .

فرجح الأمام الطبري - والمهدوي ومكي فيما نقله أبو حيان وأيده ، وانتصر له ابن تيمية وابن القيم وكثير من المفسرين وبعض المعاصرين أن يكون الخطاب على الحقيقة وأن الله حين يخاطب المعدوم ففي علمه موجود . (٢)

بدهي أن يكون الحديث عن أساليب التكوين في القرآن وفق الترتيب الزمني لهذه الأساليب على نحو مايتضح في هذا المبحث بعون الله وتوفيقه :-

قبل الخلق :-

من ذلك قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (٣)

نص كثير من المفسرين على أن الأمر في هذه الآية الكريمة للتكوين " (٤)

ومعنى الأمر بالإتيان الإذعان والامتثال في خضوع تام لإرادة الخالق سبحانه . أما قوله " طوعاً أو كرهاً " فهو كناية عن استحالة امتناعهما على قدرته وأنهما منقادتان خاضعتان ، كما تقول : ستفعل هذا شئت أو أبيت ، وغرضك إخباره أنه لايملك المخالفة ، وهو تأكيد للمعنى السابق ، ويلاحظ ما فيه من طباق يلفت النظر ويشد الانتباه "(٥) .

---

(١) راجع الطبري ٤٠٤/١ - ٤٠٦ .

(٢) انظر الطبري ٤٠٥/١ - ٤٠٦ ، والبحر المحيط ٣٦٤/١ - ٣٦٥ ، ودقائق التفسير لابن تيميه ٣٢٤/٣ - ٣٢٥ .

(٣) سورة فصلت ، الآية " ١١ " .

(٤) انظر الطبري ٦٤/٢٤ ، والكشاف ٤٤٥/٣ ، والتفسير الكبير ١٠٧/٢٧ والبحر المحيط ٤٨٦/٧ .

(٥) انظر البحر المحيط ٤٨٧/٧ وأسلوب الدعوة القرآنية ص ١٢٢ ومابعدها .

والتعبير بقوله " أتينا طائعين " بالجمع كما يقول الدكتور صباح دراز " يبدو والله أعلم أنه إظهار تام للخضوع والعبودية ، وكأن كل جزء من أجزائها قال ذلك القول ، فلفظ " طائعين " يصور الإذعان المطلق جرساً ولفظاً ودلالة وجمعاً وظلالاً ، دلالة الاهتمام البالغ بالمبادرة إلى الانقياد " (١) .

تكوين الخلق :-

خاطب الله البشر بهذا الخطاب عند النشأة الأولى يوم أذن سبحانه وتعالى لجنس البشر أن يوجد فكان بكن .

والواقع أن الفعل " كن " ورد في القرآن في أحد عشر موضعاً ، في ثمانية مواضع منها جاء لمعنى التكوين ، وإن كان لكل موضع منها خصائص نظمه ودلالات تراكيبه جاءت في اتساق تام مع السياق والمقام . (٢)

ولخشية الإطالة أثرت أن أكتفي بتحليل شاهد منها ليقاس بعد ذلك النظير على نظيره قال تعالى { بَدِيْعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ } (٣)

يقول الزمخشري " وهذا مجاز من الكلام تمثيل ولا قول ثم كما لا قول في قوله : إذا قالت الأنساع للبطن الحق ، وإنما المعنى أنّ ماقضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولاتوقف كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لايتوقف ولايمتنع ولايكون منه الإباء ، أكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في توالدها " (٤)

وقد تبع الزمخشريَ حشدٌ من العلماء - بالقول بالتمثيل - كأبي السعود والبيضاوي والشهاب . (٥)

وقد ضعف رأيَ الزمخشري عديدٌ من العلماء القدامى والمعاصرين والفعل حقيقة في الآية وفي نظائرها ، يقول الرازي في سر التعبير بالفعل :

---

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية ص ٥٤ .
(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٦٤١ .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ١١٧ " .
(٤) الكشاف ١ / ٣٠٧ .
(٥) أنظر تفسير أبي السعود ٢٤٦/١ وحاشية الشهاب ٢٢٩/٢ .

((والأقوى أن المراد من هذه الكلمة سرعة نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء لا بفكرة ومعاناه وتجربة ، ... ومن غير ممانعة أو مدافعة)) (١)

الهبوط من الجنة :

هذا ضرب آخر من أساليب التكوين في القرآن الكريم لإنشاء هبوط جديد لأن المخاطبين عاجزون عن الهبوط من الجنة إلى الأرض إلا بتكوين من الله سبحانه في معرض قصة آدم وحواء عليهما السلام وإبليس اللعين قال تعالى { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } (٢)

أشار كل من الشهاب الخفاجي والألوسي إلى أن الأمر في قوله " اهبطوا " أمـــر تكوين " (٣) ونظيره قوله تعالى { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى } (٤)

يقول الطاهر بن عاشور " والأمر في " اهبطا " أمر تكوين ، لأنهما عاجزان عن الهبوط إلى الأرض إلا بتكوين من الله إذ كان قرارهما في عالم الجنة بتكوينه تعالى " (٥)

في الدنيا :-

نجد الخطاب في هذا النوع موجهاً لمخاطبين معينين في الدنيا نحو قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ } (٦) .

نص كثير من المفسرين على أن الأمر في هذه الآية للتكوين نحو قوله { كن فيكون } ويرى الزمخشـري أنه مجاز . (٧)

---

(١) التفسير الكبير ٤ / ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٣٦ " .

(٣) انظر حاشية الشهاب ١٣٨/٢ وروح المعاني ٢٣٦/١ .

(٤) سورة طـه ، الآية " ١٢٣ " .

(٥) التحرير والتنوير ١٦ / ٣٢٨ .

(٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٤٣ " .

(٧) أنظر الكشاف ٣٧٧/١ والتفسير الكبير ١٧٦/٦ والبحرالمحيط ٢٥٠/٢ وحاشية الشهاب ٣٢٧/٢ وتفسير أبي السعود ٣٦٩/١ وروح المعاني ١٦١/٢ والتحرير والتنوير ٤٧٩/٢ .

ونقل أبو حيان رأي الزمخشري بصيغة التمريض قائلاً " وقيل لا قول هناك ، وهو كناية عن قابليتهم الموت في ساعة واحدة ، وموتهم كموتة رجل واحد ، والمعنى فأماتهم الله لكن أخرج ذلك مخرج الشخص المأمور بشيء المسرع بالامتثال من غير توقف ولا امتناع " (١) ثم أشار إلى أن في الآية حذفاً تقديره فماتوا ، وأضاف قائلاً " وهذا الموت ليس بموت الآجال بل جعله الله في هؤلاء كمرض وحادث مما يحدث على البشر ... ، ثم إن العطف بثم يدل على تراخي الإحياء عن الإماتة " (١)

" وجملة " إن الله لذو فضل على الناس " واقعةٌ موقع التعليل لجملة " ثم "احياهم والمقصود منها بث خلق الاعتماد على الله في نفوس المسلمين في جميع أمورهم وأنهم إن شكروا الله على ما أتاهم من النعم زادهم من فضله ويسر لهم ما هو صعب " (٢)

مع مظاهر الكون والطبيعة :-

هذا ضرب آخر من التكوين يختلف عما سبق حيث نجد المخاطب المأمور في هذه الأساليب ينفعل وينقاد في طواعية لأمر الله ويتبدل من حالته السابقة قبل الخطاب إلى حالة أخرى كآية دالة على الإعجاز ومظهر تتجلى فيه قدرة الباري عز سلطانه .

من ذلك قوله تعالى { وَقِيلَ يَاأَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (٣)

أفاض المفسرون والبلاغيون في تحليل هذه الآية الكريمة بما لايدع لمتأمل أو باحث يحاول إستجلاء لطائف هذه الآيات البيانية وأسرارها البلاغية أن يتفوه ببنت شفة ، حتى إن بعض البلاغيين كابن أبي الأصبع ذكر أن في هذه الآية واحداً وعشرين ضرباً من البديع مع أن عدد ألفاظها سبع عشرة لفظة ، ونكتفي بنقل ماذكره الإمام عبدالقاهر الجرجاني والزمخشري باختصار :[نداء الأرض والسماء والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات فيه من الدلالة على الاقتدار العظيم مافيه ، وأن هذه السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها مايشاء غير ممتنعة عليه

---

(١) انظر البحر المحيط ٢ / ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) التحرير والتنوير ٢ / ٤٨٠ .

(٣) سورة هود ، الآية " ٤٤ " .

منقاده لأمره سبحانه وتعالى]،[ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ، ثم في أن كان النداء " بيا " دون " أي " نحو أيتها الأرض ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال " ابلعي الماء " ثم أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل و " غيض الماء " فجاء على صيغة " فعل " الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى " وقضى " الأمر " ثم ذكر ماهو فائدة هذه الأمور وهو " استوت على الجودي " ثم إضمار " السفينة " قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة " قيل " في الخاتمة " بقيل " في الفاتحة] (١)

ومنه قوله تعالى { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى ابْرَاهِيمَ } (٢)

لم يبق أمام هؤلاء الكافرين بعد أن ألقمهم إبراهيم عليه السلام الحجر ، وأفحمهم بحججه المسكتة الدامغة إلا اللجوء إلى العدوان والبطش شأن كل ظالم غاشم وتلك ذروة الهزيمة في مقارعة الحجة بالحجة تركتهم ونفوسهم تتلظى بالمرارة والحقد الذي تجلى في إختيارهم أبشع ألوان العقاب وهو النار (٣) ، وإنما اختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول مايعاقب به وأفظعه كما قال ذلك المفسرون (٤) ، لكن الله رد كيدهم إلى نحورهم حيث خاطب النار بقوله " يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم " فأطاعت وأذعنت وانقادت لأمر الله فكانت برداً وسلاماً عليه ، وفي هذا التعبير

---

(١) انظر دلائل الإعجاز تحقيق محمود شاكر ص ٤٥ ومابعدها والكشاف ٢٧١/٢ وراجع في الآية البحر المحيط ٢٨٨/٥ وحاشية الشهاب ١٠١/٥ والتحرير والتنوير ٨٠/١٢-٨٢ ، ومفتاح العلوم ص ٤١٧ - ٤٢١ والطراز ٢٢٧/٣ - ٢٢٨ وتحرير التحبير ص ٦١١ - ٦١٤ ووجوه الخطاب ص ٤٠٧ - ٤١٥ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآيتين " ٦٨ - ٦٩ " .

(٣) أسلوب الدعوة القرآنية ص ١٥٦ وراجع أبا السعود ٣ / ٧١٤

(٤) انظر الكشاف ٥٧٨/٢ ، والتفسير الكبير ١٨٨/٢٢ ، والبحر المحيط ٣٢٨/٦ وروح المعاني ١٧ / ٦٧ .

تصوير لنفاذ قدرة الله في مخلوقاته ، ويلاحظ ما في التعبير الكريم من جمال آخاذ ودقة في العبارة حيث جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة مطيعة ، وفي إقامة " كوني ذات برد " مقام " ابردي " ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه كأنها هي البرد نفسه ، كما يلاحظ أنه لم يأمرها بأن تكون برداً فقط وإلا لهلك ابراهيم عليه السلام وإنما عطف عليه " سلاماً " أي برداً محبباً غير ضار " (١) .

ومنه قوله تعالى{ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ...} (٢)

فلام الأمر في قوله " فليلقه " دالة على التكوين أي سخرنا اليم لأن يلقيه بالساحل " ومنه قوله تعالى خطاباً للجبال والطير في سياق التفضل على داود عليه السلام وبيان فضله وعلو منزلته عند الله تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (٣)

في هذا النظم القرآني الكريم خاطب الله سبحانه وتعالى الجبال والطير فأطاعت وانقادت لأمره ومشيئته سبحانه وتعالى وفي هذا من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية ونفاذ أمره في مخلوقاته بحيث لايخفى ، وإشعار بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئة غير ممتنع على إرادته سبحانه عز وجل.

ولعل في تصدير الآيات الكريمات بالقسم قصداً إلى توكيد الخبر لكونه أمراً عجيباً غير معتاد أو لأن هذا الخطاب جاء في سياق الرد على الكفار الذين أنكروا البعث لاستحالته عندهم فأخبروا بوقوع ماهو مستحيل في العادة مما لايمكنهم إنكاره .(٤)

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ٧١٤/٣ ومابعدها وروح المعاني ٦٨/١٧ وأسلوب الدعوة القرآنية ص ١٥٦ .

(٢) سورة طه ، الآيتين " ٣٨ - ٣٩ " .

(٣) سورة سبأ ، الآيتين " ١٠ - ١١ " .

(٤) انظر الكشاف ٢٨١/٣ ، والبحر المحيط ٣٦٢/٧ ووجوه الخطاب في القرآن ومواقعها البلاغية ص ٣٨٨ .

وتنكير " فضلاً " للتفخيم والتعظيم ، أما قوله " منا " فهو كما ذكر الرازي " إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام ، وتقريره هو أن قوله " ولقد آتينا داود منا فضلاً " مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل : آتى الملك زيداً خلعة ، فإذا قال القائل أتاه منه خلعة يفيد أنه كان من خاص ما يكون له ، فكذلك إيتاء الله الفضل عام ، لكن النبوة من عنده خاص بالبعض " (١) ، أما أبو السعود فذهب إلى أن قوله " منا " لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية كما في قوله{وَآتَيْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا} (٢) وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فإذا وردها يتمكن عندها فضل تمكن " (٣) أما الألوسي فقد لمح في قوله " منا " معنى ذكياً أي بلا واسطة " (٤)

وعموماً فالأمر في هذه الآيات للتكوين (٥) ، وإن ذهب الطاهر بن عاشور إلى القول بأنه أمر تكوين وتسخير " (٦)

ويبدو أن الذي دفعه إلى هذا القول إختلاط دلالتي التكوين والتسخير عنده ، والصواب أن الأمر للتكوين إذ لا معنى للتسخير في هذه الآية ويأباه السياق لأن التسخير في اصطلاح البلاغيين التبديل من حالة إلى أخرى فيها مهانة ومذلة " (٧)

التسخير :-

للتسخير في القرآن الكريم دلالتان دلالة اصطلاحية وقد سبق تحريرها وتحديدها ، ودلالة أخرى بمعنى الإلهام على نحو مايتضح بعد قليل فى السطور التالية

والواقع أن التسخير والنكال لم يرد في القرآن الكريم إلا في موضعين في

---

(١) التفسير الكبير ٢٥ / ٢٤٦ .
(٢) سورة الكهف ، الآية " ٦٥ " .
(٣) تفسير أبي السعود ١٢٤/٧ .
(٤) روح المعاني ١١٢/٢٢ .
(٥) انظر كتب التفسير السابقة وتنزيه القرآن عن المطاعن ص ٣٣٧ ووجوه الخطاب فى القرآن ص ٣٨٩ .
(٦) التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٦ .
(٧) انظر شروح التلخيص ٢ / ٣١٧ .

سياق مسخ بعض بني إسرائيل قردة خاسئين قال تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} (١)

عبر بهذا عن نقلهم من حالة إلى أخرى إذلالاً لهم ، أما قوله " خاسئين " أي صاغرين مطرودين عن ساحة القرب والعز ، ووصف القردة به لتأكيد ما تضمنه معناه ويصح أن يكون خاسئين خبراً لكان أي كونوا جامعين بين القردية والخسوء وهو الصغار والطرد " (٢)

وجمهور المفسرين على أن المسخ حقيقي ، وإن أشار بعضهم إلى أنهم لم يمسخوا قردة وإنما هو مثل ضربه الله كما قال تعالى{كمثل الحمار يحمل أسفاراً } وهذا الرأي منسوب لمجاهد ، (٣) والأولى هو الأول .

ويضاف إلى التسخير سرعة التكوين أو كما قالوا سرعة الكون على هذا الوصف نكالاً لهم وموعظة للمتقين " (٤)

ونظيره قوله تعالى : { فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسئين } (٥) فالأمر كسابقه للتسخير والنكال .

التسخير بمعنى الإلهام :-

للتسخير دلالة لغوية أخرى بمعنى الإلهام في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (٦)

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٦٥ " .
(٢) انظر شروح التلخيص - مواهب الفتاح وعروس الأفراح وحاشية الدسوقي ٣١٧/٢ والكشاف ٢٨٦/١ .
(٣) البحر المحيط ٢٤٦/١ .
(٤) راجع الطبري ٢٦٤/١ ومابعدها والبحر المحيط ٢٤٦/١ وأبا السعود ١٨٧/١ والطراز ٢٨٣/٣ والبيضاوي والشهاب حاشية الشهاب ١٧٥/٢ وروح المعاني ٢٨٣/١ والتحرير والتنوير ٥٤٤/١ والأساليب الإنشائية ص ٤٨ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية " ١١٦ " .
(٦) سورة النحل ، الآيتين " ٦٨ - ٦٩ " .

افتتح النظم الكريم بالفعل " أوحى " لما فيه من الإيماء إلى إلهام الحشرة الضعيفة تدبيراً عجيباً وعملاً متقناً ، فكان الإلهام فى ذاته دليلاً على عظيم حكمة الله تعالى فضلاً على مابعده من دلالة على قدرة الله تعالى ومنة منه " (١)

ويقول الزمخشري " الإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه " (٢)

فالأوامر في قوله " اتخذي - كلي - اسلكي " للإلهام ، وليس كما نقل عن بعضهم الحمل على الظاهر حيث زعموا أنه " لايبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولايبعد أن يتوجه عليها من الله تعالى أمر ونهي " (٣)

ولاريب أن في هذا القول مخالفة لما عليه المفسرون حيث فسروا الوحي في هذه الآية بالإلهام ، بل إن أبا حيان نقل إجماع العلماء على الإلهام " (٤) ومنه قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام إلهاماً لأمه { إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ... } (٥)

فالأمر في هذه الآية الكريمة للإلهام . والله أعلم .

---

(١) التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٤ .
(٢) الكشاف ٢ / ٤١٧ .
(٣) التفسير الكبير ٢٠ / ٧٣ .
(٤) البحر المحيط ٥/٥١١ وراجع الكشاف ٤١٧/٢ والتفسير الكبير ٧٣/٢٠ وتفسير أبي السعود ٣٧٨/٣ وحاشية الشهاب ٣٤٨/٥ وروح المعاني ١٨١/١٤ والتحرير والتنوير ٢٠٤/١٤ ووجوه الخطاب فى القرآن ومواقعها البلاغية ص ٣٩٤ .
(٥) سورة طه ، الآيتين " ٣٨ - ٣٩ " .

التكريـــم

جاء التكريم فى أساليب الأمر موزعاً بين الدنيا والآخرة ، وإن كثر في الآخرة كلون من ألوان الجزاء ، بل إن التكريم جزء أساسي في مشاهد يوم القيامة نحو قوله تعالى { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّا تٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (١)

وفي التكريم ترغيب إلى الجنة وما فيها من نعيم دائم أعده الله لعباده المخلصين ، وإثارة الأشواق في نفوس المؤمنين المخلصين إلى العالم الآخر المليء بالبهجة والحبور والنعيم المقيم .

ويعد التكريم لوناً من ألوان الترغيب في الصفات العالية والأعمال النقية التى بها – وفضل الله سابق – نال المتقون ما نالوا ...

ونلاحظ في عرض القرآن الكريم لأحوال المنعمين في الجنة وأحوال المعذبين في نار جهنم ، وفي مقابلة جزاءات المؤمنين بجزاءات الكافرين تسليطاً للضوء على التكريم وعلى الإهانة حين يتقابل الضدان .

وفي هذا المبحث نتناول أساليب الأمر التي أفادت معنى التكريم في القرآن نكتفي بذكر بعض النماذج وتحليلها :

١ - في الدنيا :-

ورد التكريم في القرآن من ذلك قوله تعالى خطاباً لنوح عليه السلام { قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } (٢) .

فالأمر في قوله { اهبط } على مايبدو أمر حقيقي ، لكن الرضا والتكريم فى هذه الآية مستفاد من المتعلق { بسلام منا وبركات عليك } لأن الحال هيئة من هيئات الفعل أي اهبط يحفك السلام .

((أما التعبير بقوله " منا " فهو تأكيد لتوجيه السلام إليه لأن " من " إبتدائية

---

(١) سورة الحديد ، الآية " ١٢ " .

(٢) سورة هود ، الآية " ٤٨ " .

فالمعنى بسلام ناشيء من عندنا ، وهذا التأكيد يراد به زيادة الصلة والإكرام " (١)

ومن ذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام قال تعالى { فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } (٢)

فالأمر بالدخول للتكريم والطمأنة بدليل قوله { إن شاء الله آمنين } فهذا التعبير يوحي بالأمن والسلامة والطمأنة .

٢ - في الآخرة :-

وحيث ورد الأمر بالدخول للمنعمين في الآخرة فهو للتكريم والرضا (٣) ، من ذلك قوله تعالى { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ } (٤) فالتكريم في هذه الآية جاء على أتم وجه وأكد حال حيث قرن الله تعالى دخولهم الجنة بالسلام والأمن في هذه الآية فالمراد كما ذكر الرازي { ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات في الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة والأمن من زوالها } (٥)

ومنه قوله تعالى { وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ } (٦)

ففي قوله { ادخلوا الجنة ...الخ} تلوين للخطاب وتوجيه له إلى أولئك المذكورين ، أي ادخلوا الجنة رغم أنوفهم " (٧) ، فإن لكم النعيمَ الدائمَ والسعادةَ الغامرةَ التي لايشوبها حزنٌ ولايكدرها هَمٌّ .

ويلاحظ التنكير في " خوف " ووقوعه في سياق النفي يفيد العموم ، إشارةً إلى نفي أي خوف عنهم زيادةً في الترغيب ونهايةً للرضا والتكريم (٨)

---

(١) التحرير والتنوير ١٢ / ٨٩ .
(٢) سورة يوسف ، الآية " ٩٩ " .
(٣) راجع المعجم المفهرس ص ٢٥٤ .
(٤) سورة الحجر ، الآية " ٤٦ " .
(٥) التفسير الكبير ١٩ / ١٩٧ .
(٦) سورة الأعراف ، الآيتين " ٤٨ - ٤٩ " .
(٧) تفسير أبي السعود ٢ / ٣٤٧ .
(٨) راجع أسلوب الدعوة القرآنية ص ١٤٥ .

ومنه قوله عز وجل { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذَا مَاتُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ، لَهُمْ مَايَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } (١)

تصور هذه الآيات الكريمات مشهداً من مشاهد الآخرة يلقي في النفس ظلال الرضا والتكريم والحفاوة التى ينالها عباد الله المتقون حيث يقال لهم في ذلك اليوم "ادخلوها بسلام " والباء للمصاحبة في معنى الحال أي سالمين مقرونين بالسلامة ، أو معناه ادخلوها مسلماً عليكم ويسلم الله عليكم وملائكته (٢) ، وللرازي تفسير غريب ضعيف في قوله { ادخلوها بسلام } حيث يقول ((يحتمل عندي وجهاً آخر وهو أن يكون ذلك إرشاداً للمؤمنين إلى مكارم الأخلاق في ذلك اليوم كما أرشدوا إليها في الدنيا)) (٣).

ثم يختتم السياق بتعبير دال على حفاوة التكريم وزيادته ونهاية التنويه بالرضا عن هؤلاء المحظوظين { لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد } فهم أهل لهذا التكريم بفضل الله ومنته (٤) .

ونلاحظ في أساليب التكريم في الآخرة كثرة إقتران السلام بالدخول سواء جاء السلام بعد الدخول – كما في الآيات السابقة – أو قبله نحو قوله تعالى { وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } (٥) ، أما قوله تعالى { يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي } (٦)

فقد أغنى عن ذكر السلام ثلاث كلمات تدل على كمال الرضا والتكريم هي ((المطمئنة ، راضية ، مرضية)) .

---

(١) سورة ق ، الآيتين " ٣١ – ٣٥ " .
(٢) انظر الكشاف ٤ / ١١ .
(٣) التفسير الكبير ٢٨ / ١٧٩ .
(٤) راجع مشاهد القيامة في الآخرة ص ٩١ .
(٥) سورة الزمر ، الآية " ٧٣ " .
(٦) سورة الفجر ، الآيتين " ٢٧ – ٣٠ " .

وفي إضافة العباد والجنة إلى ضميره سبحانه دلالة على نهاية الرضا والقبول والتكريم .

ولنعد إلى الآية نستجلي دقائقها ولطائفها :-

نجد المولى عز وجل ينادى هذه النفس في حفاوة وتكريم وفي ثناء وتطمين إرجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ، { راضية مرضية } بهذه النداوة التى تفيض بالرضا والقبول ، { فادخلي في عبادي } المقربين المختارين ، { وادخلي جنتي } في كنفي ورحمتي إنها رأفة تنسم فيها أرواح الجنة إلى هذه النفس المطمئنة إلى ربها ، المطمئنة إلى طريقها ، المطمئنة إلى قدر الله بها ، المطمئنة فلا ترتاب ولاتنحرف ولاتتلجلج في الطريق ، المطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرهيب (١)

بل إننا نلاحظ كثرة السلام في البيان القرآني سواء أكان في أساليب الأمر أم في الأساليب الخبرية نحو قوله تعالى " سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار " (٢) إذ ان لفظ السلام في هذه الأساليب يوحي بالأمن والطمأنينة والرضا والتكريم .

ومن أساليب الأمر التي أفادت معنى التكريم والرضا في القرآن الفعلان { كلوا واشربوا } وكنت قد أشرت من قبل إلى أن لهذين الفعلين في القرآن أكثر من معنى بلاغي ويهمنا هنا أن نتناول ما أفاد منه معنى التكريم .

فحيث جاء الخطاب موجهاً للمؤمنين المنعمين في الجنة فهو للتكريم والرضا والإحسان ، وهو تكريم قولي ومجازاة رحيمة من الله لعباده المؤمنين (٣) ، نحو قوله تعالى } إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما أتاهم ربهم ووقاهم عذاب الجحيم { كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (٤) وقوله عز وجل { فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } (٥) وليس الأمر في قوله { كلوا واشربوا } أمر إباحة ، وليس بأمر إيجاب ولا ندب ، لأن الأخرة ليست دار تكليف وإنما دار تكريم (٦) .

---

(١) (٢) انظر اليوم الآخر في ظلال القرآن إعداد أحمد فائز ص ٣٠٧ والتصوير الفني ص ٩٧ .

(٣) الأساليب الإنشائية ص ٣٦ .

(٤) سورة الطور ، الآية «١٩»

(٥) سورة الحاقة ، الأيتين " ٢٢ - ٢٤ " .

(٦) راجع التفسير الكبير ٣٠ / ١١٢ .

ولذا لم يذكر الإسراف في الدنيا ، وذكر { هنيئاً } وهو تعبير يسري فيه كمال الرضا والتكريم والود الحبيب (١)

ونظيره قوله تعالى { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } (٢)

فالأمر في هذه الآية للتكريم كسابقه ، ومعنى { هنيئاً } أي خالص اللذة لايشوبه سقم ولاتنغيص (٣)

والباء في { بما كنتم تعملون } للسببية أي كلوا وأشربوا بسبب ماكنتم تعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة وذلك من إكرامهم بأن جعل ذلك الإنعام حقاً لهم ، وجملة { إنا كذلك نجزي المحسنين } مسوقةلزيادة التكريم والثناء عليهم " (٤) .

(١) انظر الاساليب الإنشائية ص ٣٧ .
(٢) سورة المرسلات ، الآيتين " ٤١ - ٤٤ " .
(٣) راجع التفسير الكبير ٢٨٢/٣٠ والتحرير والتنوير ٢٩ / ٤٤٣ .
(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٩ / ٤٤٤ .

الإهانـــــة

دلالة الإهانة في اللغة والاصطلاح :-

أولاً في اللغة :-

الإهانة في اللغة مصدر أَهَانَهُ أي إستَخَفَّ به واستحقره .

ويقال : رجل فيه مهانة أي ذُلٌّ وضَعْفٌ . (١)

وفي إصطلاح البلاغيين :-

وهي إظهار مافيه تصغير المهان وقلة المبالاة به وذلك إذا استعملت صيغة الأمر في مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور (٢) .

والإهانة لون من الألوان البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر في القرآن الكريم حيث جاءت في أساليب متنوعة ، ويلزمها غالباً التهكم والسخرية ، وقد تكون لوناً من ألوان التعذيب يوم القيامة ، على نحو مايتضح في الصفحات التالية :

إهانة إبليس :-

في القرآن الكريم أساليب كثيرة جاءت تنبض بالإهانة والازدراء لإبليس اللعين بسبب عصيانه لأمر الله بالسجود لآدم عليه السلام حسداً وحقداً وتعالياً عليه (٣) ، فزين للناس - من ذرية آدم عليه السلام - طريق الغواية والضلال .

من ذلك قوله تعالى : { قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ

---

(١) انظر مقاييس اللغة ٦/٢١ وأساس البلاغة ص٤٨٩ والصحاح ٦/٢٢١٨ واللسان ٦/٤٧٢٤ .

(٢) انظر حاشية الدسوقي ٢/٣١٧ وبغية الايضاح ٢/٥٤ حاشية رقم "٧" .

(٣) تفاصيل هذه القصة مذكورة في القرآن وانظر خصائص التعبير في القرآن الكريم وسماته البلاغية ص ٢٧٦ - ٣٠٣ وهو بحث قدم لنيل درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر .

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَايَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً } (١)

تفيض هذه الآيات الكريمات بإهانة إبليس وطرده ، إذ ليس المراد بقوله : "اذهب " حقيقة الأمر بالذهاب ضد المجيء بل المراد كما قال الألوسي نقلاً عن الزمخشري وأبي السعود " تَخْلِيَتُهُ وماسوّلَتْ له نفسُهُ إهانةً له كما تقول لمن يخالفك : افعل ماتريد ، وقيل يجوز أن يكون من الذهاب ضد المجيء فمعناه حينئذ كمعنى قوله تعالى : { اخرج منها فإنك رجيم } (٢) وقيل هو طرد وتخلية .

والذي يدل على أنه ليس المراد منه ضد المجيء تعقيبه بالوعيد في قوله سبحانه { فمن تبعك منهم } (٣)

ويقول الزمخشري ((فإن قلت : أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك ، قلت : بلى ولكن التقدير : فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤكم ، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم ، ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات)) (٤)

فالأوامر في هذا السياق تفيد معاني الإهانة والتحقير والازدراء .

ونظيره قوله تعالى خطاباً لإبليس إثر إبائه أمر السجود لآدم عليه السلام { قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } (٥) .

لاشك أن التعبير بالهبوط مشعر بمعاني الإهانة والتحقير ، أما قوله : { فاخرج } فهو توكيد للأمر السابق ، وأعيدت الفاء مع الجملة الثانية لزيادة تسبب الكبر في الإخراج من الجنة (٦) ، كما أن جملة " إنك من الصاغرين "

---

(١) سورة الإسراء ، الآية " ٦٣ - ٦٤ " .

(٢) سورة الحجر ، الآية " ٣٤ " .

(٣) روح المعاني ١١٠/١٥ وانظر الكشاف ٤٥٦/٢ وتفسير أبي السعود ٤٦٥/٣ .

(٤) الكشاف ٤٥٦/٢ .

(٥) سورة الأعراف ، الآية " ١٣ " .

(٦) انظر التحرير والتنوير ٤٣/٨ - ٤٥ ووجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٣٢٧

تعليل للأمر بالخروج مشعر بأنه - لتكبره - من الأذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أولياءه] (١)

ومن أساليب الأمر التي تفيد معنى الإهانة والتحقير لإبليس اللعين(اخرج) حيث جاء في أربعة مواضع منها قوله تعالى : [قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ] (٢) وقوله تعالى : [قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ] (٣) وقوله تعالى : [قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومَاً مَدْحُورَاً لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ، وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ...] (٤)

((ففي توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده زيادة إهانة لإن أعطاء النعم لمرضى عليه في حال من أستأهل العقاب زياده حسرة على المعاقب وإظهاراً للتفاوت بين مستحق الإنعام ومستحق العقوبة)) (٥)

إهانة المشركين :-

حين ننعم النظر في أساليب الإهانة في القرآن نجدها تختلف باختلاف زمن القول ، فهناك إهانة في الدنيا ، وإهانة في الآخرة .

أولاً - في الدنيا :-

في القرآن صور عديدة تحمل معاني الإهانة والتحقير للمشركين في الدنيا والإهانة ، وهذه الأساليب تتنوع بتنوع القائلين حيث جاءت من قبل الحق سبحانه وتعالى ، أو على ألسنة الملائكة ، أو الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .

---

(١) تفسير أبي السعود ٣٢٩/٢ .
(٢) سورة الحجر ، الآية " ٣٤ ، ٣٥ "
(٣) سورة ص ، الآية " ٧٧ ، ٧٨ "
(٤) سورة الأعراف ، الآيتان " ١٨ - ١٩ " .
(٥) التحرير والتنوير ، الجزء الثاني ص ٥٣ وراجع وجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٣٢٨ .

من ذلك قوله تعالى إهانة للمشركين المكذبين بالبعث : { وَقَالُوٓاْ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... } (١)

فقوله : { كونوا حجارة } إهانة لهم إذ يسلبهم كل ماللإنسان من خصائص ، فالأمر في هذه للإهانة كما ذكر الإمام القزويني وتابعة العلوي والشهاب الخفاجي وبعض المحدثين . (١)

وقد خالف القزويني بهذا الفهم جمعاً من المفسرين الذين ساروا على نهج الإمام الطبري في أن الأمر في هذه الآية للتوهم والتقدير ، أي قدروا أن تكونوا ماشئتم حجارةأو حديداً أو مايكبر في صدوركم وهو الموت ذاته فالله قادر على بعثكم وإعادتكم .

وتأويل مايكبر بالموت مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وابن عمر رضي الله عنهما والحسن وابن جبير والضحاك ... (٣)

وذكر ((الطيبي أن الأمر في هذه الآية للتسخير كقوله : { كونوا قردة خاسئين } ، لكونه على الفرض ، والألزم أن يكونوا حجارة ، قال في الكشف : وهو غير ظاهر لأنه لا معنى للتسخير الفرضي ولو جعل من قبيل " كن فلاناً " على معنى أنت فلان باستعمال الطلب في معنى الخبر أي أنتم حجارة ولستم عظاماً ومع ذلك تبعثون لامحالة لكان وجهاً قوياً)) (٤) .

---

(١) سورة الإسراء الآيتان " ٤٩ – ٥١ " .

(٢) الإيضاح ١ / ٢٤٢ ، والطراز ٢٨٣/٣ ، وحاشية الشهاب ٣٩/٦ ، وبغية الإيضاح ٥٤/٢ ، والأساليب الإنشائية ص ٤٧ .

(٣) أنظر الطبري ١٥ / ٦٨ ومابعدها ، والبحر المحيط ٤٦/٦ .

(٤) حاشية الشهاب ٦ / ٣٩ .

غير أن الشهاب الخفاجي اعترض عليه بقوله : ((كيف يقال أنتم حجارة على أنه خبر وهو غير مطابق للواقع ، فلا بد من قصد الإهانة وعدم المبالاة وجعل الأمر مجازاً عن الخبر والخبر خبر فرضي وليس فيه مايدل على الفرض كان ولو الشرطية وهومالايخفى بعده وليس بأقرب مما استبعده والصواب أنه للإهانة كما جنح إليه في الإيضاح)) (١)

فالأمر في هذه الآية للإهانة عند كثير من البلاغيين والمفسرين (٢)

ومن هذا الضرب قوله تعالى للمنافقين في الدنيا : { هَا أَنتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } (٣)

ذكر الطبري وتابعه بعض المفسرين بأن قوله : { قل موتوا بغيظكم } دعاء عليهم بأن يزداد مايوجب غيظهم من قوة الإسلام وعز أهله ، فإن ذلك يتضمن ذلهم وخزيهم (٤) .

((وعلى ذلك فالدعاء عليهم بهذا صريحه طلب موتهم بسبب غيظهم وهو كناية عن ملازمة الغيظ لهم وذلك كناية أيضاً عن دوام سبب غيظهم وهو حسن حال

---

(١) حاشية الشهاب ٣٩/٦

(٢) راجع في الآية الطبري ٦٨/١٥ ؛ والكشاف ٤٥٢/٢ ؛ والبحر ٤٦/٦ ؛ والرازي ٢٢٦/٢٠ ؛ وغرائب القرآن للنيسابوري ٤٨/١٥ ؛ والإيضاح ٢٤٢/١؛ والطراز ٢٨٣/٣ ؛ وبغية الإيضاح ٥٤/٢ ؛ والأساليب الإنشائية ص ٤٧.

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١١٩)

(٤) انظر الطبري ٤٤/٤ ؛ والرازي ٢٢٠/٨ ؛ وأبا السعود ٥٤٣/١ ؛ والنيسابوري ٥٥/٤ ؛ وحاشية الشهاب ٥٩/٣ ؛ وروح المعاني ٤٠/٤ ؛ والتحرير والتوير ٦٧/٤ .

الإسلام وانتظامُ أمرهِ ، فالكلام جارٍ على مايعرف بالكناية على الكناية كما ذكر الشهاب الخفاجي)) (١)

غير أن أبا حيان ردّ القول السابق قائلاً : ((والأمر ليس بدعاء لأنه لـــو أمره بالدعاء لماتوا جميعهم على هذه الصفة فإن دعوته لاترد وقد آمن منهم بعد هذه الآية كثير ...)) (٢)

والذي أرتضيه أن الأمر في هذه الآية للإهانة والتهليف والتحسير كما ذكر الزركشي وبعض المحدثين (٣)

ومن أساليب الأمر التي أفادت معنى الإهانة والتحقير في القرآن الكريم الفعل { ألقوا } حيث ورد في أربعة مواضع على لسان موسى عليه السلام في سياق محاورته مع السحرة .(٤)

ويبدو أن السحرة كانوا واثقين من نصرهم على موسى عيه السلام بدليل أنهم تمنوا على فرعون الأماني بلهجة الواثق المنتصر ، وأنهم خيروا موسى بيـن أن يبدأ هو أو أن يبدأوا وأن يفعلوا مايشاءون من سحر ، فألقوا حبالهم وعصيهم تشبها بعصاً موسى فإذا هي حية تسعى (٥)

قال تعالى : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ، فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ } (٦)

---

(١) انظر حاشية الشهاب ٣/٥٩ ؛ ووجوه الخطاب ص ٣٥٨

(٢) البحر المحيط ٣/٤٢

(٣) انظر البرهان ٢/٢٥١ ؛ وأساليب بلاغية ص ١١٥

(٤) راجع المعجم المفهرس ص ٦٥٢

(٥) أسلوب المحاورة د. عبد الحليم حفني ص ١٧٥ ومابعدها

(٦) سورة يونس ، الآيتان (٧٩ - ٨٠)

نص كثير من البلاغيين على أن الأمر في قوله : { أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ } للتحقير (١) وهو قريب من الإهانة .

ثانياً : الإهانة في الآخرة :

لاشك أن الإهانة في الآخرة تكون لوناً من ألوان التعذيب النفسي بجانب العذاب الذي أعده الله سبحانه في الآخرة للكافرين .

وحين ننظر الى أساليب الإهانة في الآخرة نظرة متأملة نجدها تتنوع بتنوع مراحل الآخرة كالعرض للحساب والجزاء ، أو دخول المعذبين النار ، أوالعذاب نفسه الذي يعذب به هؤلاء المشركون .

وليس بلازم أن تكون الإهانة في القرآن الكريم مرتبطة بالمأمور دائماً بل قد تكون واقعة على من وقع عليه الفعل فهو مفعول مهان على نحو مانجده في قوله تعالى : { مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَايُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَايَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَايَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ } (٢)

فالخطاب في قوله تعالى : { خذوه - غلوه - صلوه } ، موجه للملائكة فهو تكليف من الله لملائكته لكن فيه اهانةٌ لهذا المعذب حيث أن متعلق الأخذ واقعٌ عليه.

---

(١) الإيضاح ١/ ٢٤٣ ؛ وعروس الأفراح ٢/٣٢١ ؛ والإتقان ٢/٢٤٣ ؛ ومعترك الأقران ١/٤٤٢ ؛ وأساليب بلاغية ص ١١٤ ؛ ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٦ .

(٢) سورة الحاقة ، الآيات (٢٨ - ٣٧)

وأود أن أشير هنا إلى أنّ للفعل " خذ " دلالتين في لغة القرآن الكريم هما:-

١- القوة والاهتما م البالغ والإقبال الكلي نحو قوله تعالى : { يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ....} (١)

وقوله تعالى : { قَالَ خُذْهَا وَلاتَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَها الأُولَى . } (٢)

٢ - في أساليب الانتقام نجد القوة والإهانة والهول الشديد على نحو ماتوضحه الآية السابقة فهي مهولة بتراكيبها وإيقاعها السريع الدال على الغضب والعنف .

وإن النفس تضطرب هلعا وخوفا لما توحي به هذه الآية من العذاب عن طريق الإيقاع الصوتي وظلال الألفاظ ، فالفعل " خذ " بجرسه السريع مناسب لمقامات الغضب والانتقام والعذاب الشديد .

ولعل من الأنسب والأجدر أن نتناول أساليب الإهانة في الآخرة في القرآن الكريم حسب التدرج الذي اتبعه القرآن الكريم كي نسلم من العشوائية في المناولة والدراسة توخياً للمنهج العلمي الدقيق .

فمن أساليب الأمر التي جاءت إهانة للمشركين في الآخرة الفعل " أدخل " في القرآن الكريم ، وحيثما جاء الفعل للمعذبين فهو للإهانة والذم والتحقير نحو قوله تعالى : { قِيلَ ادْخُلواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ }(٣)

---

(١) سورة مريم ، الآية (١٢)

(٢) سورة طه ، الآية (٢١)

(٣) سورة الزمر ، الآية (٧٢) .

وحيث جاء الخطاب بهذا الفعل للمنعمين فهو للتكريم والرضا والبشرى(١) نحـو قوله تعالى : { وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ } (٢) .

فالأمر في قوله :{ ادخلوا ابواب جهنم } للإهانة والتحقير .

ونظيره ايضا قوله تعالى : { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ، فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } (٣)

فالأمر في قوله : { ادخلوا ابواب جهنم } للإهانة والازدراء وا لشماتة ، والمخصوص بالذم محذوف ، اي فلبئس مثوى المتكبرين ، هي أى جهنم ، ووصف التكبر دليل على استحقاق صاحبه ا لنار (٤)

والمثوى : محل الثواء ، والثواء الإقامة الدائمة ، وأوثر لفظ مثوى دون مدخل المتكبرين المناسب لـ { أدخلوا } لأن المثوى أدل على الخلود ، فهو أولي زيادةً في الإهانة والتحقير ، ولأنَّ الدخولَ لايدل على الدوام فلم يبالغ في ذمه بخلاف الثواء الدائم (٥)

ومن صور الإهانة في الآخرة للمشركين ، وهي صورة توضح السبب الذي دفع المشركين إلى الجحيم وهو منع الخير في إهانة محقرة ونبذ وإلقاء في النار في قوله تعالى : { وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَـذَا

---

(١) راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٥٤

(٢) سورة الزمر ، الآية ٧٣

(٣) سورة النحل ، الآيتان (٢٨ - ٢٩)

(٤) البحر ا لمحيط ٤٨٧/٥

(٥) انظر الكشاف ٤٣٧/٣ ؛ والبحر المحيط ٤٧٦/٧ ؛ والتحرير والتنوير ٢٠٧/٢٤

مَالَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ] (١)

هذه الآيات الكريمات توضح صورة من صور القيامة ، صورة النفس المعذبة اللاهية عن ذكر الله وهي تساق ذليلة مهانة .

فالأمر في قوله : [ألقياه] تكليف من الله للملائكة وإهانة قاسية مؤلمة للمعذب حيث يلقى به في النار كشيء تافه حقير يلقى به ، ثم يأتي قوله [القياه] تكرير للتوكيد كما يقول الزمخشري (٢)

فالفعل " ألق " يصور مدلوله بجرسه وظله حيث نجده في هذا السياق يجسد صورة الإلقاء بقوة وعنف في النار ، لأن حروفه مجهورة وفيها قوة .

لذا نجد سياقاته في القرآن عنيفة فاعلة ، ومقاماته بين القهر الإلهي على نحو ما توضحه الآيات السابقة ، أو الغضب البشري نحو قوله تعالى :[اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ] (٣) ، أو الاهتمام الشديد بما يقوم به الفعل في نسق متناسب مع سياقه ومقامه (٤)

ومن صور الإهانة في القرآن الكريم قوله تعالى : [انطَلِقُوا إِلَى مَاكُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَاظَلِيلٍ وَلَايُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ] (٥)

الأمر في قوله [انطلقوا] للإهانة والتوبيخ ، وأعيد فعل [انطلقوا] ترقيا وتصعيدا لمعاني الإهانة والتوبيخ . كما أن التعبير بقوله : [لا ظليل] تهكم

---

(١) سورة ق ، الآيات (٢١ - ٢٦)

(٢) انظر الكشاف ٨/٤

(٣) سورة النمل ، الآية (٢٨)

(٤) راجع المعجم المفهرس ص ٦٥٢

(٥) سورة المرسلات ، الآيتان (٢٩ - ٣٠)

بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين ، وتسميته بالظل ليست إلا امتداداً للتهكم والتوبيخ .

فالسياق بجرسه وألفاظه وتوالي اللامات يصور هذا العذاب الشديد ، ويوضح سطوة القدر وجلال الانتقام (١)

ومن صيغ الأمر التي أفادت معنى الإهانة في الذكر الحكيم الفعل { ذق } مفردا وجمعا حيث ورد في خمسة وعشرين (٢) موضعا في أساليب متوهجة تنبض بلظى النار المحرقة تفيد معاني الإهانة والتنكيل من ذلك قوله تعالى :{ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } (٣)

لا شك أن الأمر في { ذق } للإهانة والتهكم والاستهزاء بهـذا المشرك الضال (٤)

وتأمل إيحاءات الألفاظ الرهيبة : خذوه - اعتلوه - والعتل : الأخذ بمجامع الثوب سحبا مهيناً وايقافه وسط الجحيم أو بؤرتها وصب العذاب على رأسه تعميما لجسمه وتعذيبه بالتهكم { ذق } والذوق لايكون الا لمطعوم يساغ ، ثم إنك أنت العزيز بأسلوب القصر وضمير الفصل ، وهذا التعبير يقال له وهو في دركات العذاب لتكمل السخرية والتحقير وتصل قمتها (٥)

---

(١) انظر الكشاف ٢٠٤/٤ ؛ والتحرير والتنوير ٤٣٥/٢٩ ؛ وفي ظلال القرآن - المجلد السادس ص ٣٧٩٣ ؛ ومشاهد القيامة ص ٨٥ ؛ والأساليب الإنشائية ص ٤٦ ومابعدها .

(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٢٧٩

(٣) سورة الدخان ، الآيات (٤٧ - ٤٩)

(٤) انظر الطبري ٨٠/٢٥ ؛ وا لكشاف ٥٠٧/٣ ؛ والتفسير الكبير ٤٥٣/٢٧ ؛ والبحر المحيط ٤٠/٨

(٥) الأساليب الإنشائية ص ٤٦

وتبدو روعة هذه الصورة في الموازنة بين مجد هذا الضال وجبروته وماكان عليه من عزة وكرامة في الدنيا وبين حاله الذليلة المهينة هذه عند الله .

وحين نجد الآيات تتحدث عن عذابه البدني فإنها لاتعنى كثيرا بشدة العذاب بالنسبة له وإنما تكتفي بتصويره واقفاً خائفاً ذليلاً ، والجمع القوي يصبون فوق رأسه من عذاب الحميم ، ولـو قَصِدَ إلى توضيح شدة تعذيبه لَصَوَّرَ في طعام شجرة الزقوم الذي يشبه المهل يغلي في ا لبطون .

فهذه الفئة من المشركين الذين كانت لهم مكانة مرموقة في قريش يؤلمهم ويسيء إلى كرامتهم وعزتهم الهوان والمذلة أكثر من التعذيب البدني (١)

وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام ، فبعد أن كان الخطاب في هذه الآيات في قوله : " خذوه – اعتلوه – صبوا " موجهاً للملائكة توجه الخطاب للمعذب بقولـه : " ذق " ترقياً وتصعيداً لمعاني الإهانة والتحقير وا لسخرية .

ومنه قوله تعالى : { أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ } (٢)

الأمر في قوله : " ذوقوا " إهانة مبكتة وسخرية بالغة (٣)

على أن اساليب الإهانة للمشركين داخل جهنم في كثير من صورها جاء ت من قبل الحق سبحانه وتعالى أو على لسان زبانية العذاب ، وفي بعضها الآخرجاءت على ألسنة المعذبين أنفسهم للإهانة والتنكيل والتشفي من بعضهم بعضا نحو قوله تعالى : { وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ } (٤)

---

(١) راجع أُسلوب السخرية ص ١٠٩ و ص ٢٢٦

(٢) سورة الزمر ، الآية (٢٤)

(٣) أسلوب السخرية ص ١٠٨ ؛ وراجع مشاهد القيامة ص ١٦٩

(٤) سورة الأعراف ، الآية « ٣٩ »

يقول الطاهر بن عاشور : ((صيغة الأمر في قولهم " فذوقوا " مستعملة في الإهانة والتشفي)) (١)

ومن أساليب الإهانة في النظم القرآني قوله تعالى : { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } (٢)

تصور هاتان الآيتان مشهدا من مشاهد الآخرة ، يتجلى فيه الضيق والنفار بهؤلاء المشركين حيث يقال لهم : " اخسأوا " وهي زجر وشتم بأنهم خاسئون ، ومعناه عدم استجابة طلبهم وفعل خسأ من باب منع ، ومعناه : ذل .

ونهوا عن خطاب الله والمقصود تأييسهم من النجاة مما هم فيه (٣) حيث تجاوزوا حدهم وأساءوا أدبهم فلم يك مأذونا لهم إلا بالإجابة على قدر السؤال ، بل لعله سؤال لايطلب عليه جواب فهم يزجرون زجرا قاسيا عنيفاً (٤)

فالأمر في هذه الآية الكريمة يفيد الإهانة (٥)

وهنا يتضح لنا سمو البيان القرآني في هذا السياق حيث تعانق الأمر والنهي { اخسأوا ولا تكلمون } في إبراز هذا المعنى وتأكيده في قوة وعنف شديدين.

ومن أساليب الأمر التي تنبض بمعاني الإهانة والتحقير والتنكيل في القرآن الكريم " امتازوا " في قوله تعالى إهانة للمشركين في نار جهنم { سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ، وَ امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } (٦)

فالمشركون يتلقون التحقير والترذيل والإهانة " امتازوا اليوم " انعزلوا هكذا بعيدا عن المؤمنين وكونوا على حدة (٧) ، وتميزوا بعلامة تعرفون بهـــا كما

---

(١) التحرير والتنوير ، الجزء الثامن ، القسم الثاني ، ص ١٢٤ .

(٢) المؤمنون ، الآيتان ، « ١٠٧ – ١٠٨ » .

(٣) التحرير والتنوير ١٢٩/١٨ .

(٤) مشاهد القيامة ، ص ٢٠١ .

(٥) انظر دلالات التراكيب . الدكتور / محمد ابو موسى ص ٢٥٧ .

(٦) يس الآيتان « ٥٨ – ٥٩ » .

(٧) انظر الكشاف ٣٣٧/٣ وظلال القرآن ، المجلد الخامس ص ٢٩٧٢ .

يعرف المجرمون بسيماهم ، زيادة في الإهانة والتحقير .

وقد وجه الرازي الأمر في الآية السابقة بأنه للتكوين نحو قوله تعالى : { كن فيكون } ، وتابعه بعض المفسرين (١) ، ولامعنى للتكوين في هذه الآية والصواب أنه للإهانة والتحقير كلون من ألوان العذاب النفسي بجانب العذاب البدني الذي يعذب به المجرمون يومئذ .

ومن صور الإهانة في القرآن الكريم ايضاً قوله تعالى : { هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ }(٢)

فهذه صورة تعنى بتصوير الهول وفظاعة النار وبشاعتها ، فالنار حاضرة ماثلة بحيث يشار إليها { هذه جهنم التي كنتم توعدون }فانظر إلى جمال التعبير باسم الإشارة " هذه " كيف جعل النار قريبة شاخصة أمام أعين الناظرين { اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون } أي : قاسوا حرها ولهيبها بسبب كفركم وإعراضكم عن دعوة الحق وتماديكم في الضلال .

ونص كثير من المفسرين على أن الأمر " اصلوها " أمر إهانة وتنكيل وتحقير (٣) .

---

(١) انظر التفسير الكبير ٩٥/٢٦ ؛ وروح المعاني ٣٩/٢٣ ؛ والتحرير والتنوير ٤٥/٢٣

(٢) سورة يس ، الآيتان (٦٣ - ٦٤)

(٣) راجع التفسير الكبير ١٠١/٢٦ ؛ وأبا السعود ٥١٥/٤ ؛ وحاشية الشهاب ٢٤٩/٧ ؛ وروح المعاني ٤١/٢٣ ؛ والتحرير والتنوير ٤٩/٢٣

السخريـــــة

كثرت في معالجات المفسرين والبلاغيين كلمات السخرية والتهكم والاستهزاء ، وهى على نحو متقارب في الدلالة وإن بقي بينها فرق دقيق في دلالاتها المعجمية .

وقد أحس بعض الباحثين بالارتباط الوثيق بين هذه الكلمات دون أن ينبه إلى ما بينها من فروق دقيقة حيث يقول " السخرية في مدلولها العرفي واضحة محددة لا تلتبس بمعنى آخر ، ويدور في فلكها بل يؤدي معناها ألفاظ عدة أبرزها التهكم والاستهزاء " (١)

فالدلالات متقاربة بين هذه الألفاظ لكن المفسرين والبلاغيين واللغويين اعتادوا تفسير الكلمة بمرادفتها .

لكننا نلحظ فروقاً دقيقة بين هذه الألفاظ وهى فروق مأخوذة من دلالة اللفظة في موضعها اللغوي فالاستهزاء : السخرية والاستخفاف ، وأصل الباب الخفة من الهزء(٢) والسخرية كما يقول ابن فارس : السين والخاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال " (٣)

والتهكم : السخرية القوية العنيفة فاشتقاقها يدل على القوة إذ هي مأخوذة من " تهكمت البئر إذا تهدمت " (٤) وهذه الكلمة لم ترد في القرآن الكريم .

وترتبط بهذه الكلمات كلمة أخرى هى " الضحك " .

وقد ورد الضحك بمعنى السخرية في القرآن قال تعالى { فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ } (٥) بيد أن الأمر لم يرد

---

(١) أسلوب السخرية ص ١٣

(٢) الكشاف ١ / ١٨٦ .

(٣) مقاييس اللغة ٣ / ١٤٤ .

(٤) انظر مقاييس اللغة ٦/٥٩ والصحاح ٥/٢٠٦٠ وأساس البلاغة ص ٤٨٣ واللسان ٦/٤٦٨١ .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية " ١١٠ " .

من هذه المادة . فالضحك يمثل قمة اتحاد المعنى النفسي للسخرية مع الحركي ، أو هو بمعنى أدق ثمرة السخرية .

وللسخرية درجات متفاوتة وهذه الألفاظ تمثل درجات مختلفة من السخرية بالمخاطب والنيل منه والاستهزاء به ، كل لفظه منها تمثل درجة معينة من السخرية . وإذا أردنا ترتيب درجات السخرية فهي على النحو التالي :

الاستهزاء ، فالسخرية ، ثم التهكم ، وأخيراً الضحك .

وحين ننظر إلى سخرية القرآن نظرة فاحصة متأملة نجدها تهدف إلى أكثر من غاية وتحقق أكثر من نتيجة . (١)

والسخرية بطبيعتها مرة لاذعة ، وقد استهدفت سخرية القرآن أعداء الإسلام والمسلمين أيضاً على نحو مانبينه فى هذا المبحث .

والواقع أن سخرية القرآن حينما تتجه إلى أعداء الله تراعى طبائعهم ونفسياتهم حتى يكون وقعها عليهم أشد وألم ، فهي تحدد نقطة الضعف التى تهز مشاعرهم وتضعضع كيانهم ، وأهم من ذلك شعور العدو أن هذه السخرية صادرة من عليم بطبعه ودخيلة نفسه مما يجعل للسخرية حينئذ وقعاً بليغاً . (٢)

أسباب السخرية ودواعيها :-

بدهي أن سخرية القرآن تغاير السخرية البشرية من حيث الهدف والمضمون والأسلوب ، بل تغايرها في جميع أحوالها وصورها المتعددة المتنوعة . لذا آثرت الحديث عن أسباب السخرية تاركاً الخوض في قضية اتصاف الحق سبحانه وتعالى بالسخرية . (٣)

---

(١) راجع أسلوب السخرية ص ٢٧ .

(٢) راجع أسلوب السخرية ص ٧ .

(٣) ونحن على مذهب سلف هذه الآمة : نثبت ما أثبته الله لنفسه من الصفات من غير تكييف ولاتمثيل ومن غير تحريف ولاتعطيل . انظر الرسالة التدمرية لابن تيمية ص ٧ أما المعتزلة فلهم رأي أخر حيث يقول الزمخشري " فإن قلت =

أما أسباب سخرية القرآن فمعلومة من أغراض السخرية وأنها لون من تعرية النفوس في الدنيا ، والتعذيب النفسي في الآخرة .

وذكر الباحثون أسباباً عديدة للسخرية البشرية يمكننا أن نجعل بعضها أسباباً للسخرية القرآنية منها النقد والإصلاح الاجتماعي ، فاستغلال السخرية في تحقير نوع من العادات أو السلوك يعد من أقوى الأسلحة في زلزلة كيانها وإثارة النفور منها . (١)

أهداف السخرية القرآنية :

ليست السخرية مجرد هجاء أو تهوين شأن ، أو بالأحرى ليست مجرد أسلوب فكه يثير النفوس أو يبعث على الضحك ، وإنما ترتبط بها نواح وأهداف على جانب كبير من الأهمية سواء من الناحية المعنوية أو من الناحية الاجتماعية . وهذه الأهداف تنحصر في الدعوة إلى الوحدانية ونبذ الإشراك بالله ، والإصلاح الاجتماعي ومحاربة الرذيلة والتفاهة ، والدعوة إلى المثل العليا والمبادىء القويمة والسلوك السوي . (٢)

السخرية من قبل الحق وأوليائه :-

لم تستهدف سخرية القرآن أعداءالإسلام وحدهم وإنما استهدفت كل مصدر يمكن أن يسيء إلى مبادىء الإسلام ولو كان المصدر نابعاً من صفوف المسلمين أنفسهم في صورة عادات أو تقاليد أو خلق لا تقره مبادىء القرآن . (٣)

= لايجوز الاستهزاء على الله تعالى لأنه متعال عن القبيح والسخرية من باب العيب والجهل .. فمامعنى استهزائه بهم ؟ قلت : معناه إنزال الهوان والحقارة بهم لأن المستهزىء غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية بمن يهزأ به وإدخال الهوان والحقارة عليه " الكشاف ١/١٨٦ .

(١) أنظر أسلوب السخرية ص ١٧ .

(٢) راجع أسلوب السخرية ص ٢٥ ومابعدها .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧ .

ويهدف القرآن من وراء سخريته بالمؤمنين إلى تقويم سلوكهم وإلى دعوتهم بنبذ الرذيلة والتمسك بمكارم الأخلاق الفاضلة .

السخرية والمشركون :-

المقصود بها كل سخرية وردت في القرآن الكريم تسخر من المشركين سواء كانت هذه السخرية من قبل الحق سبحانه أو جاءت على ألسنة أوليائه من الملائكة أو المرسلين أو المؤمنين .

ولاشك أن الشرك ملة واحدة مهما اختلفت مظاهره وتنوعت مسمياته من نفاق أو إشراك أو تثنية أو تثليث .

وقد تنوعت سخرية القرآن بالمشركين من حيث زمن القول فجاءت على ضربين : سخرية في الدنيا ، وسخرية في الآخرة على لسان زبانية العذاب .

" والعلاقة بين السخرية والأعداء وثيقة ، وقد جند القرآن كل طاقاته ليواجه بها الأعداء ومن أبرزها السخرية " (١)

أولاً : في الدنيا :-

من أساليب الأمر التى أفادت معنى السخرية في القرآن الفعل " بشر " حيث ورد في ستة عشر موضعاً في سبعة منها للسخرية والتهكم (٢) ، وحيث ذكر العذاب مع البشارة في القرآن الكريم فهو للسخرية والتهكم والاستهزاء .

من شواهده قوله تعالى سخرية بالمنافقين { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } (٣)

تبدأ الآيات بهذه السخرية اللاذعة وهذا التهكم الواضح في استعمال كلمة

---

(١) انظر اسلوب السخرية ص ٢٩ .

(٢) راجع المعجم المفهرس ص ١١٩ .

(٣) سورة النساء ، الاية " ١٣٨-١٣٩ "

"بشر" مكان " أنذر " وفي جعل العذاب الأليم الذي ينتظر المنافقين بشارة بسبب اتخاذهم المشركين أولياء من دون المؤمنين وسوء ظنهم بالله وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة " (١)

ومن الاستعارة التهكمية (٢) عند علماء البلاغة هذا الأسلوب ونحوه وهو" أن تستعمل الألفاظ الدالة على المدح في نقائضها من الذم والإهانة تهكماً بالمخاطب وإنزالاً لقدرة وحطاً منه نحو قوله تعالى ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٣) بدل قوله " أنذرهم " لأن البشارة إنما تستعمل في الأمور المحمودة والمراد هاهنا العذاب والويل ، وإنما وردت هنا في عكسها تهكماً بهم وغضباً عليهم " (٤) وقد أفاد البلاغيون من الزمخشري ولم يكن لهم فضل إبتداع الإستعارة التهكمية ، وإن لم يذكرها صراحة في تفسيره ، من ذلك قوله " أما قوله " فبشرهم بعذاب أليم فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه كما يقول الرجل لعدوه : أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك " (٥)

وإن كنت أجد لما ذكره الدكتور محمد أبو موسى هوى في نفسي ، حيث يقول " وهذه صورة الاستعارة العنادية " التهكمية " كما ذهب إلى ذلك السكاكي وغيره ، ولست أجد لهذا النوع مذاق الاستعارة ، ولست أستسيغ أيضاً تكلف إجرائها في هذه الأساليب ، وأن طريقة الزمخشري هذه التي تكتفي ببيان أصل هذه

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٧٧٩ وراجع الكشاف ٥٧٢/١ والتفسير الكبير ٨١/١١ والبحر المحيط ٣٧٣/٣ وتفسير أبي السعود ٧٩٨/١ .

(٢) انظر مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور ص ٣٧٥ والايضاح ١٢٢/٢ ومابعدها ، ويقول القزويني في تعريفها " ومنها مااستعمل في ضد معناه بتنزيل التضاد منزلة التناسب بوساطة تهكم أو تمليح " .

(٣) هذه جزء من آية في سورة آل عمران "٢١" والتوبة "٣٤" والانشقاق "٢٤" .

(٤) انظر الطراز ٢٤٦/١ ومابعدها و ٣٦/٣ .

(٥) الكشاف ٢٥٤/١ ومابعدها وانظر البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٦٠ .

الطريقة وأنها من العكس في الكلام ، وأن القوم كثيراً مايذهبون إليها وهم ليسوا بدعاً في هذا ، من الأعاجم قد يعكس في كلامه ، لاشك أن هذه الطريقة خير من تكلف الاستعارة التي ينزل فيها التضاد منزلة التناسب (١) " وهذا قريب جداً .

كما أن في القرآن شواهد أخرى تنعي على الأفراد في إلفائهم لعقولهم ، من ذلك هذا النعي الشديد الذي تصبه هذه الآية الكريمة على أحد المشركين موضحة أنه تاجر ، وأن تجارته شراء الضلال أو وسيلة الضلال ليضل بها الناس ويصرفهم عن الحق والهدى ، وقد حكم الله عليه بالعذاب المهين ، مبيناً موقفه من دين الله بأنه لايحاول أن يتأمل ولا أن يتدبر ولا أن يفكر ، وإنما يسمع وكأنه أصم لكونه لايستخدم تفكيره لما يسمع من كلام الله بل يتمادى في غيه وضلاله فيولي مستكبراً كأن لم يسمعها .

ولئن كان المفسرون يقولون إن المعني هو النضر بن الحارث – على ماروي في أسباب النزول (٢) بأنه كان يشتري كتب الأعاجم وأحاديثهم ليشغل بها الناس عن الاتجاه إلى الاسلام والدخول فيه – فإن القرآن حين يقرر معنى أو يصدر حكماً فإنه وإن عنى به حادثه معينة إقترن بها نزول هذا المعنى أو الحكم إلا أن هذا المعنى أو الحكم يكون عاماً ينطبق على كل حالة مشابهة (٣) ، – فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب – نحو قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ، وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } (٤)

---

(١) البلاغية القرآنية في تفسير الزمخشري د. محمد أبو موسى ص ٤٢٦ .
(٢) راجع أسباب النزول للواحدي ص ٢٥٩ ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١٦٩ .
(٣) أنظر أسلوب السخرية ص ١٣٨ .
(٤) سورة لقمان ، الآية " ٦ – ٧ " .

بيّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات أحوال هذا الضال وصفاته ، بأنه كان يشتري لهو الحديث ليضل به الناس ويصدهم عن الدخول في الإسلام ، واستماع القرآن ويضلهم عنه ، ثم انظر إلى مايدل عليه القيد بقوله " بغير علم " ففيه بيان لجهله وضلاله وتصوير لسفاهته وتقبيح لأمره .

كما أن التعبير بقوله " ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين " يدل على التهديد والوعيد بسبب استهزائه بآيات الله ، وما أعده الله له في الآخرة من العذاب المهين ثم تمضي الآيات في وصف حركات هذا الضال عند سماعه لكلام الله " وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً " ثم أخيراً هذا التهكم الواضح والسخرية المرة التى يفيض بها التعبير بقوله " فبشره بعذاب أليم ". والبشارة هنا فيها ما فيها من التهكم والسخرية اللاذعة " (١)

ومن أساليب الأمر التى أفادت معنى السخرية والتهكم في القرآن الفعل " ادعوا " في قوله تعالى { قُلْ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَاتَحْوِيلاً } (٢) ونظيره قوله تعالى { قُلْ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَايَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .. } (٣) فسر الزمخشري الضر في الآية الأولى بأنه إما أن يكون مرضاً أو فقراً أو عذاباً . (٤)

" لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد إلى خطابهم وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم (٥) ، ثم بين أنهم لايملكون شيئاً

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٨١ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية " ٥٦ " .

(٣) سورة سبأ ، الآية " ٢٢ " .

(٤) الكشاف ٢ / ٤٥٤ .

(٥) انظر التفسير الكبير ٢٥ / ٢٥٥ .

بقوله " لايملكون كشف الضر عنكم ولاتحويلاً " وفي الآية شية من التحدي كما هو واضح بجوار التهكم والتوبيخ " (١) .

ومن أساليب الأمر التى وردت في القرآن سخرية بالمشركين وقت نزول العذاب بهم في الدنيا الفعل " ارجعوا " في قوله تعالى { وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ، لاَتَرْكُضُواْ وَارْجِعُواْ إِلَى مَاأُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ } (٢)

هذه الآيات تصور مشهداً للقصم والاستئصال ، وهى كما يقول الزمخشري " واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم ، (٣) لأن القصم أشد حركات القطع وجرسها يصور معناها ، ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التى كانت ظالمة " (٤) وأراد بالقرية أهلها ولذلك وصفها بالظلم . (٥)

ولعل في التعبير بالمضارع " يركضون " الدال على التجدد والحدوث لإستحضار حالة هلعهم وركضهم ماثلة أمام أعيننا ، ظانين أن الركض ينجيهم من بأس الله وعذابه .

عندئذ يتلقون التهكم المرير " لاتركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون " لاتركضوا من قريتكم ، وعودوا إلى متاعكم الهنىء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح ، عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيما أنفقتموه ؟ وما عاد هنالك مجال لسؤال ولا لجواب ، إنما هو التهكم والإستهزاء " (٦)

---

(١) راجع التحرير والتنوير ١٨٦/٢٢ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٩٠٣ .
(٢) سورة الأنبياء ، الأيتين " ١١ - ١٣ " .
(٣) الكشاف ٢ / ٥٦٤ .
(٤) فى ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٧٠ .
(٥) المصدر السابق نفس الموضع .
(٦) راجع الكشاف ٥٦٥/٢ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٧١ .

ومن أساليب الأمر التي وردت في القرآن الفعل " اقعدوا " حيث ورد في موضعين في سورة التوبة (١) سخرية بالمنافقين قال تعالى { إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ، وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ } (٢)

وموقف تثبيط المنافقين للمسلمين في الحرب وإثارة الفتن والوقيعة أو محاولتهما معروفة في التاريخ الإسلامي ، وقد سجلها عليهم القرآن وكشف خباياها في كثير من الآيات ، على نحو ماتفيض به الآيات السابقة من تهكم شديد وسخرية لاذعة وهتك لأستارهم وكشف لأسرارهم حيث شهد عليهم سبحانه وتعالى بالنفاق وأنهم لايؤمنون بالله واليوم الآخر ثم تتجلى السخرية في هذه الآيات في قوله " وقيل اقعدوا مع القاعدين " ويقول الزمخشري " فإن قلت مامعنى قوله " مع القاعدين ؟ قلت هو ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان ، الذين لايستطيعون الغزو ولاينبعثون للجهاد ، فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية من اليقين . (٣)

وقد كشف القرآن في كثير من سوره عن حقيقة المنافقين ، حيث نجد في القرآن الكريم صورة كاملة عن المنافقين في سلوكهم وعقيدتهم وعن خبايا نفوسهم وطرفاً من سخريتهم المختلفة .

والقرآن في كثير من مواضعه يكشف عن صفاتهم وأحوالهم ، ويبادلهم سخرية بسخرية وإن كانت سخرية القرآن أشد وقعاً وأوقع أصابة (٤) ، ويؤكد

---

(١) سورة التوبة ، الأيتين " ٤٦ ، ٨٣ " .

(٢) سورة التوبة ، الايتين " ٤٥ ، ٤٦ " .

(٣) انظر الكشاف ١٩٣/٢ وفي ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٦٦٣ .

(٤) من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر قوله تعالى رداً على سخرية المنافقين واستهزائهم " وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم السفهاء ولكن لايشعرون " البقرة "١٣" فقد روي أن هذه الآية نزلت =

القرآن أن سخرية المنافقين مهما صيغت في كلام أو صورت في شيء محسوس فإنها متعمقة في قلوبهم نابعة من أعماق نفوسهم ، لذلك كانوا يتوجسون دائماً ويخافون من نزول القرآن ، لأن الله سبحانه يكشف فيه عن أسرارهم ويفضح مكنوناتهم لأنهم يفعلون كل مايفعلون ويكيدون أنفسهم كل جهد في سبيل أن تظل أسرارهم ونفوسهم مغلقة معماة على المسلمين ولكن القرآن يذهب كل جهودهم هباء حين يكشف للمسلمين ماجهدوا في إخفائه على نحو مايتضح في قوله تعالى : { يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَاتَحْذَرُونَ } (١)

ومن أساليب الأمر التي أفادت معنى السخرية في القرآن الفعل " اسألوا " حيث ورد على لسان إبراهيم عليه السلام سخرية بالمشركين قال تعالى { قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ } (٢) .

لقد واجه إبراهيم هؤلاء الكفرة وواجههم وجابههم بالحجة فأفحمهم وأخرس ألسنتهم ، والتعبير القرآني يكشف عن جهلهم وحماقتهم حيث أطلقوا على هذه التماثيل التي صارت جذاذاً أنها آلهتهم ، ولكنه التحجر الفكري الذي أصابهم به تقليدهم الأعمى " قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون " إنها ذروة المواجهة واللحظة الحاسمة التي يسدد فيها إبراهيم ضربته القاتلة إليهم " (٣)

= في عبدالله بن أبي وأصحابه وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبدالله : انظروا كيف أرد عنكم السفهاء.." انظر أسباب النزول للواحدي ص١٣ ومابعدها ولباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١٧ .

(١) سورة التوبة ، الآية "٦٤" وانظر أسلوب الدعوة القرآنية ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآيتين " ٦٢ - ٦٣ " .

(٣) أسلوب الدعوة القرآنية ص ١٥٣ .

فهم مايزالون يصرون على أنها آلهة وهى جذاذ مهشمة ، أما ابراهيم فهو يتهكم بهم ويسخر منهم وهو فرد وحده وهم كثير ، ويجيبهم إجابة تتناسب مع هذا المستوى العقلي الدون " (١) فالتهكم واضح في هذا الجواب الساخر .

وللزمخشري تحليل طريف جدير أن يذكر هنا ، يقول " هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لايتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني ، والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمي لايحسن الخط ولايقدر إلا على خرمشة فاسدة ، فقلت له : بل كتبته أنت ، كأن قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لانفيه عنك وإثباته للأمي أو المخرمش لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر " (٢)

ثانياً : في الآخرة :-

حين ننظر إلى سخرية القرآن بالمشركين نظرة التأمل والبحث الدقيق من الناحية الزمنية نجدها تختلف باختلاف زمن القول في الدنيا وفي الآخرة من حيث خصائصها وسماتها وتتباين في الهدف أيضاً .

حيث يهدف القرآن من وراء سخريته بالمشركين في الدنيا إلى التوجيه والدعوة إلى الحقيقة الكبرى حقيقة الوحدانية ، وأن هذا الكون ليس له إله سواه .

أما سخريته بالمشركين في الآخرة فهي لون من ألوان التعذيب النفسي الأليم - لأن الآخرة لاتكليف فيها - إضافة إلى العذاب المادي الذي يلقونه جزاء وفاقاً

والقرآن حين يعرض لنا صورة من صور العذاب في الآخرة يتضمن دعوة

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٨٦ ومابعدها .

(٢) الكشاف ٢ / ٥٧٧ .

بتفرد الخالق ووحدانيته ، ودرساً بليغاً للمسلمين بأخذ العظة والاعتبار من حال هؤلاء المشركين فإن سرنا سيرتهم نعذب مثلهم .

" فالقرآن يصور عذاب المشركين في الآخرة بصور مختلفة وألوان متعددة وأساليب متنوعة ، حتى يشعر المشركون بأنها حياة كاملة حقيقة بأن تَشْغَلَ نفوسهم وتُثِيرَ مشاعرهم وألا يقتصر تصورُهم على صورة واحدة قد تُذْهِبَ حدةَ تأثيرها الأيامُ وإنما هي صور كثيرة إن خف تأثير إحداها في النفس أذكته صورةٌ أخرى ، وهكذا ، فحتى السخرية جعلها القرآن نوعاً من الأنواع التي يعذب بها المشركون عذاباً نفسياً في الآخرة " (١) ، من ذلك قوله تعالى خطاباً للمكذبين بيوم البعث يوضح فيه سخريتهم من البعث ويركز في الرد عليهم بسخرية عجيبة – وتهكم بالغ وتوبيخ شديد – نصبها في الرد عليهم قال تعالى : { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَالَكُمْ لَاتَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ } (٢)

هذه الآيات تصور فزعهم الشديد من العذاب يوم القيامة ومايسيطر عليهم من ذل العذاب والخزي والشعور بالضعف هم وأزواجهم وآلهتهم التي يعبدونها ويرجونها للنصر في الدنيا والنجاة في الآخرة (٣) ، زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم " (٤) "فاهدوهم إلى صراط الجحيم " أي فعرفوهم طريق النار حتى يسلكوها ، وهذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعدما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا متعاضدين متناصرين " (٥) " والتعبير بالصراط والهداية للتهكم بهم " (٦)

---

(١) أسلوب السخرية ص ٣٦٢ .

(٢) سورة الصافات ، الآيتين " ٢٢ – ٢٦ " .

(٣) راجع أسلوب السخرية ص ٧٠ ، ١١٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٥٣١/٤ وراجع الفتوحات الإلهية ٥٣٣/٣ .

(٥) الكشاف ٣٣٨/٣ .

(٦) حاشية الشهاب ٢٦٦/٧ .

فالأوامر في هذه الآية الكريمة للسخرية والتهكم والتوبيخ .

ومن أساليب الأمر التى تفيض بمعاني السخرية والتهكم والتيئيس في القرآن الكريم الفعل " ادعوا " في قوله تعالى خطاباً للمشركين في الآخرة { وَقِيلَ ادْعُواْ شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } (١)

ينبض السياق كما ترى بمعاني التهكم والسخرية والتوبيخ ، والسخرية تبدأ تسلسلها فى هذه الايات باتخاذ الشركاء آلهة من دون الله ، حيث نجد الزمخشري يقول " حكى أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم مايقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم ، لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها ثم الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم مايبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وازاحة العلل " (٢)

" فدعوهم فلم يستجيبوا لهم " ولم يكن منتظراً غير ذاك ، ولكنه الإذلال والاعنات ، "ورأوا العذاب " رأوه في هذا الحوار ، ورأوه ماثلاً وراءه ، فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب "

وهنا في اللحظة التي يصل فيها المشهد إلى ذروته يعرض عليهم الهدى الذي يرفضونه وهو أمنية المتمني فى ذلك الموقف المكروب ، وهو بين أيديهم في الدنيا لو أنهم إليه يسارعون ، " لو أنهم كانوا يهتدون " (٣)

في المشهد تتجسد المشاعر الانسانية والخلجات النفسية في صورة محسوسة تشاهدها العين وتحس بها الأذن من خلال التعبير القرآني .

ونظيره أيضاً قوله تعالى سخرية بالمشركين يوم القيامه : { بَلْ كَذَّبُوا

---

(١) سورة القصص ، الآية " ٦٤ " .

(٢) الكشاف ٣ / ١٨٨ .

(٣) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٠٦ .

بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً ، إِذَا رَأَتْهُمْ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً. وَإِذَا أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً دَعَواْ هُنَالِكَ ثُبُوراً. لاتَدْعُواْ الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُواْ ثُبُوراً كَثِيراً(١)" .

" هذه الصورة تحتوي على منظرين متصلي المعنى أو يكمل أحدهما الآخر كمرحلتين لموضوع واحد ، أحدهما حالة جهنم ومدى بشاعة عذابها ، والآخر حالة المشركين وهم يعذبون فيها ، فأما حالة جهنم في هذه الصورة فهي من شدة مافيها من نار ومن قوة اتقاد هذه النار تجدها تغلي غلياناً شديداً مسموعاً ، ولكن صوت غليانها فيه إيماء واضح نحو المشركين كأنه دعاء أو استقبال لهم ، فهذا الصوت حينما يدنو المشركون من جهنم لايعود مجرد صوت غليان وإنما هو حرارة استقبال لهم ، ولكنه ليس استقبال الترحيب والتكريم وإنما استقبال الحقد الشديد والغل العميق ، أما حالة المشركين في جهنم فإننا نراهم في هذه الصورة وقد حشروا في مكان ضيق منها وقد قرن بعضهم ببعض في السلاسل وهذا الوضع في تصويرهم إنما يقصد به بطبيعة الحال زيادة السخرية بهم فليست جهنم ضيقة حتى يحشروا متزاحمين متلاصقين ، ولايخشى منهم الهروب حتى يربطوا بالسلاسل ليطمأن إلى بقائهم في أماكنهم " (٢) ، ثم هاهم أولاء يائسون من الخلاص ، مكروبون في السعير ، فراحوا يدعون الهلاك أن ينقذهم من هذا البلاء " وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً " فالهلاك أمنية المتمني والمنقذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذي لايطاق ، ثم هاهم أولاء يسمعون جواب الدعاء ، يسمعون تهكماً ساخراً مريراً " لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً " فهلاك واحد لايجدي شيئاً ولايكفي شيئاً " (٣) .

---

(١) سورة الفرقان ، الآيتين " ١١ - ١٤ " .

(٢) أسلوب السخرية ص ١١٠ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٥٥٤ .

(٣) راجع في ظلال القرآن المجلدالخامس ص٢٥٥٤ والتصوير الفني ص ٧٤ .

ووصف الثبور بالكثير إما لكثرة ندائه بالتكرير وهو كناية عن عدم حصول الثبور لأن إنتهاء النداء يكون بحضور المنادى ، أو يأس يقتضي تكرير التمني أو التحسر " (١) .

ومن أساليب الأمر التى أفادت معنى السخرية والتهكم والتيئيس في القرآن الفعل " ارجعوا " في قوله تعالى خطاباً للمنافقين يوم القيامه { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} (٢) .

هذه الآيات تصور مشهداً من مشاهد الآخرة ، تبرز المنافقين والمنافقات في صورة مترديه فهم في حيرة وضلال ومهانة وإهمال يتخبطون في الظلمات وتلفهم حجبه الكثيفة يتطلعون إلى بصيص من نور أو بارقة من ضياء يتبينون بها معالم الطريق ويُسَكِّنُونَ بها بعض مافي نفوسهم من هلع ، إنهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات " انظرونا نقتبس من نوركم " إنهم يضرعون إليهم أن ينتظروهم ويتمهلوا في إسراعهم إلى الجنة ليهتدوا بنورهم ، أو يطلبون منهم أن ينظروا إليهم فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذي بين أيديهم " (٣) .

وياله من تعبير دقيق يجسد خبيئة نفوسهم وخبثهم ونفاقهم ، فهم لايتركون النفاق والخداع والمدارة البتة بل يلجأون إليه إن سنحت لهم فرصة حتى لو كانت في الآخرة على نحو مانلمسه بوضوح في هذه الآية الكريمة .

وقوله " قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً " رد عليهم بما يستحقون من طرد وتهكم وتوبيخ وتيئيس " ارجعوا وراءكم " عودوا إلى الموقف فالتمسوا هناك ماتريدون من نور ، أو عودوا إلى الدنيا فاعملوا مايمنحكم النور ، وقد علموا أن

---

(١) التحرير والتنوير ١٨ / ٣٢٤ . (٢) الحديد ، ١٣ .

(٣) انظر في ظلال القرآن المجلد السادس ص٣٤٨٦ واسلوب الدعوة القرآنية ص٢٢٣

لا نور وراءهم ولا رجعة إلى الدنيا وإنما هو تخييب وإقناط وتهكم وتيئيس ، يملأ قلوب المنافقين حسرة ويزيد المؤمنين غبطة وفرحاً " (١)

السخرية بالمؤمنين :-

أشرت من قبل إلى أن سخرية القرآن لم تستهدف أعداء الإسلام وحدهم وإنما استهدفت المسلمين أيضاً تقويماً لسلوكهم وتعديلاً لأخلاقهم وحضاً لهم على التحلي بالأخلاق الفاضلة ، وحين ننظر إلى هذه السخرية لانجدها تسخر من أشخاص المسلمين وإنما تسخر من السلوك والعادات والتقاليد ، عادات لاتقرها مبادىء القرآن على نحو مانجده في هذه السخرية التي تنعي على المسلمين اكتناز المال قال تعالى : { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَايُنفِقُونَهَافِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَاكَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ } (٢) .

فهذه صورة من سخرية القرآن باكتناز المال ، لاتنهي عن الاكتناز بصريح اللفظ المألوف ، وإنما تستثني أولاً من الكانزين من ينفق من هذا المال في سبيل الله وأما الباقون فتأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يزف لهم بشرى ، ولما كان المال حبيباً إلى النفس ويقترن جمعه واكتنازه بالسرور في نفوس المولعين به ، فإنهم حين يسمعون أنه ستزف إليهم بشرى تنبسط نفوسهم ويتوقعون بشرى حقيقية تدخل سعادة جديدة إلى غرسهم مع سعادتها بالمال ، ولكنهم يفاجأون بما لم يخطر لهم على بال ، يفاجأون بأن هذه البشرى هي عذاب أليم (٣) "فبشرهم بعذاب أليم " على سبيل التهكم " (٤) وتنكير العذاب ومايوحي به من تعظيم لشدته وهوله

---

(١) انظر الكشاف ٤/٦٣ وأسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٢٣ .

(٢) سورة التوبة ، الأيتين " ٣٤ - ٣٥ " .

(٣) أسلوب السخرية ص ١٨٥ ومابعدها .

(٤) البحر المحيط ٥ / ٣٦ .

ووصفه بـ " أليم " زيادةٌ في الترهيب والتحذير ، كما أن إيثار التعبير بصيغة " المضارع " تكوى " ومايوحي به من ألم وكون الكي بعين الكنز ، لاستحضار الصورة كأنها ماثلةٌ زيادةً في الترهيب بما تثيره من فزع وهلع في القلوب .

" هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون " الاشارة هنا إلى ماتقدم من تفصيل العذاب وعلى إرادة القول أي يقال لهم هذا .." وفي هذا التعقيب على مشهدِ العذابِ توبيخٌ وتحسيرٌ لهم ليضيفَ إلى الألم المادي الألمَ المعنويَ الذي يذيب القلوبَ حسراتٍ .

ويلاحظ مافي التعبير بـ " هذا " للإشارة الدالة على القرب ، لتتخيل أن العذاب كأنه قريب حاضر يشار إليه ، وما في قوله " لأنفسكم " من توبيخ واستهزاء فما كنزوه لمنفعة أنفسهم ينقلب أذى لها وعذاباً " (١)

وعموماً ففي هذا التعبير سخريتان لفظيتان ، إحداهما " هذا ماكنزتم لأنفسكم " والأخرى يقال لهم فيها " ذوقوا ماكنتم تكنزون " (٢)

سخرية المشركين بالفئة المؤمنة :-

من أخطر الوسائل التي لجأ إليها المشركون السخرية ، وكانت سخريتهم تنصب على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى المسلمين ، وعلى الدين نفسه وقد ساق لنا القرآن طرفاً غير يسير من سخريتهم واستهزائهم .

والقرآن نفسه يؤكد أثر سخرية المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى قلبه الرقيق حيث يقول سبحانه { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } (٣)

---

(١) راجع أسلوب الدعوة القرآنية ص٢٣٦-٢٣٩ والتصوير الفني ص١٣٦ومابعدها.

(٢) أسلوب السخرية ص ١٨٦ .

(٣) سورة الحجر ، الآيات " ٩٥ – ٩٩ " .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتأثر بالسخرية ويضيق بها فكيف بغيره من المسلمين وكيف يكون وقع السخرية وتأثيرها في نفوس عامة المسلمين ؟

هذا أمر لانحتاج إلى إثباته والوقوف عنده ، لأنه من المتعالم ، فقد ذكرت ذلك المصادر التاريخية.

لكن القرآن كان لهم بالمرصاد يرد كل سهم يطلقونهم إلى نحورهم ويرد على كل سخرية لهم بسخرية أشد وأنكى لاتقف أمامها السخرية المضادة ولا أصحابها لأن سخرية القرآن من الأعداء فضلاً عن إبطالها مفعول سخريتهم تحقق في الأعداء الآثار التي كانوا ينتظرونها في المسلمين ومن أهم الآثار التي يعرفها علماء النفس حينئذ أنها تزعزع كيان من توجه ضده وتهز معنوياته وتفقده أو تشككه في الثقة بالنفس والموقف الذي يدافع عنه ، ولئن كان أعداء الإسلام بسخريتهم من المسلمين في ضعفهم وفقرهم قد أوشكوا أن يحققوا شيئاً من أهدافهم في زعزعة الثقة بالنفس وإضعاف المعنويات فإن القرآن بسخريته المضادة قد أبطل ذلك وحقق جميع أهدافه " (١)

وبتأمل ما ورد في القرآن من سخرية المشركين بالفئة المؤمنة لانجد إلا القليل منها وردت عن طريق الأمر أما أكثرها فقد جاءت عن طريق الاستفهام أو الخبر ، وهذا أمر يخرج عن نطاق دراستنا هذه ، وإنما يمكن أن نذكر أمثلة لها ، قال تعالى { وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ } (٢) .

وقوله تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ } (٣)

---

(١) انظر أُسلوب السخرية ص ٨٢ ، ص ٢٠٥ ومابعدها .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية " ٣٦ " .

(٣) سورة سبأ ، الآيتين " ٧ – ٨ " .

وقوله تعالى { وَقَالُوا مَالَنَا لَانَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِنَ الْأَشْرَارِ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ }(١) وغير ذلك كثير جداً لايحصى ، وإنما نتناول ماورد منها عن طريق الأمر من ذلك قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } (٢)

فقولهم " لاتسمعوا لهذا القرآن " تحذير واستهزاء بالقرآن ، واسم الاشارة مستعمل في التحقير ، وتسميتهم إياه بالقرآن حكاية لما يجري على ألسنة المسلمين من تسميته بذلك " (٣) فهذه كلمة يوصى بها الكبراء من قريش أنفسهم ويغرون بها الجماهير وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم وفي نفوس الجماهير .

" والغوا فيه لعلكم تغلبون " وهي مهاترة لاتليق ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة بالبرهان ينتهي إلى المهاترة عند من يستكبرون على الإيمان .

ولقد كانوا يلغون بقصص اسفنديار ورستم كما فعل النضر ليصرف الناس عن القرآن ويلغون بالصياح والهرج ويلغون بالسجع والرجز ، ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح وغلب القرآن لأنه يحمل سر الغلب ، إنه الحق ، والحق غالب مهما جهد المبطلون " (٤) .

ومن ذلك أيضاً استعجالهم العذاب سخرية واستهزاء قال تعالى { وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِن فَوَاقٍ ، وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ } (٥) حكاية حالة استخفافهم بالبعث والجزاء وتكذيبهم ذلك ، وتكذيبهم بوعيد القرآن إياهم ، فلما هددهم القرآن بعذاب الله قالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب .

---

(١) سورة ص ، الأيتين " ٦٢ – ٦٣ " .

(٢) سورة فصلت ، الآية " ٢٦ " .

(٣) التحرير والتنوير ٢٧٧/٢٤ .

(٤) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣١٢٠ .

(٥) سورة ص ، الأيتين " ١٥ – ١٦ " .

" سخرية واستهزاء وإظهاراً لعدم اكتراثهم بالوعيد والعذاب " (١) " وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للإمعان في الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال"(٢) وفي القرآن صور عديدة من سخرية الأمم السابقة بالفئة المؤمنة من ذلك سخرية فرعون اللعين بموسى عليه السلام قال تعالى {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } (٣)

تكشف هذه الآية عن ضيق فرعون بموسى عليه السلام وإستهتاره وتطاوله عليه بالاستهزاء والسخرية بقوله " وليدع ربه " سخرية واستهزاءً ، أي فإني أقتله فليقل لربه حتى يخلصه مني " (٤)

وقال بعض المعاصرين " ويبدو من قوله " ذروني أقتل موسى " أن رأيه هذا يجد ممانعة ومعارضة – من ناحية الرأي – كأن يقال مثلاً إن قتل موسى لاينهي الإشكال ، فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً وقد يكون بعض مستشاري الملك أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له ويبطش بهم وليس هذا ببعيد " (٥)

فهذا – كما ترى – توجيه بعيد لا دليل عليه ، وعندي أن جملة " ذروني أقتـــل موسى ..." تدل على قمة الغضب والانفعال الذي سيطر على فرعون فجعله يتخذ هذا القرار ويقول ماذكره القرآن عنه ، أما قوله " وليدع ربه " فهو دليل على تبجحه واستهتاره وتطاوله على موسى وخالقه عز وجل .

كما أن التعبير بقوله " إني أخاف أن يبدل عليكم دينكم .." إلخ يكشف عن خداع فرعون وشدة مكره .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٢٤ ومابعدها .
(٢) تفسير أبي السعود ٤ / ٥٦٦ .
(٣) سورة غافر ، الآية " ٢٦ " .
(٤) التفسير الكبير ٢٧ / ٥٥ .
(٥) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣٠٧٨ .

وكشف القرآن في سور كثيرة عن حقيقة اليهود وعداوتهم للإسلام والمسلمين ، فلم يعرف الاسلام أعداءً أشد حقداً عليه ونقمة على أبنائه ومحاولة القضاء عليه من اليهود قال تعالى { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا }(١)

وفي القرآن أساليب قليلة تكشف عن سخريتهم بالمؤمنين منها قوله تعالى { مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } (٢)

وللمفسرين فى هذه الايات كلام طويل نحن في غنى عنه وإنما نشير إلى أن الأمر في " اسمع ، وراعنا " سخرية بالدين وتهكماً وهزؤاً برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث خاطبوه بكلام محتمل الوجهين ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإحترام " (٣)

ومن شواهده أيضاً ماورد على لسان بنى إسرائيل سخرية بموسى وربه قال تعالى {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } (٤)

تكشف هذه الآية الكريمة عن وقاحة اليهود وجبنهم وغدرهم حيث أكدوا لموسى عليه السلام أنه لاينبغي أن يتعب هو أو غيره في إقناعهم أو تشجيعهم " انا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها " فاكدوا كلامهم بثلاث مؤكدات "إن ، ولن ، وأبداً " ولكنهم زادوا طلباً أكثر غرابة وعجباً حيث صوروا الله سبحانه في صورة شخص مقاتل وطلبوا من موسى أن يذهب هو وربه لقتال هؤلاء القوم ، وإلا فلا ينبغي أن يطلب منهم قتالاً " أذهب أنت وربك فقاتلا " ويرى الزمخشري أنهم لم يقصدوا بكلامهم هذا " حقيقة الذهاب ولكن كما تقول كلمته فذهب يجيبني ، تريد معنى

(١) سورة المائدة ، الآية " ٨٢ " وانظر اسلوب السخرية ص ٢٣٨ ، ٢٧٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية " ٤٦ " .

(٣) الكشاف ٥٣٠/١ ومابعدها .

(٤) سورة المائدة ، الآية " ٢٤ " .

الإرادة والقصد للجواب ، كأنهم قالوا أريد قتالهم والظاهر أنهم قالوا ذلك إستهانة" بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما استهزاءً قصدوا إذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم " (١)

ويجوز أن يقصدوا بهذا الأسلوب الاستهزاء والسخرية " (٢)

ثم يختمون حديثهم إلى موسى بأقصى مايصور التعبير من عجز في قولهم { إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } (٣)

هذه صور من سخرية المشركين على تنوعهم بالفئة المؤمنة في القرآن عرضنا لجوانب منها فيما مضى ، توضح شدة العداء الذي منى به الاسلام منذ أن أشرق نوره .

" على أن مجرد رواية القرآن لسخريتهم وكونه يسوق وينقل سخرياتهم هو نوع من التحقير لهم ولسخريتهم ، فلو كان القرآن يعنى بسخرياتهم أو يخشى تأثيرها لما كان يرويها وينقلها من مجتمع صغير ، هو المجتمع الذي قيلت فيه ، إلى مجتمع واسع إتساع الإسلام وانبساطه لكنها ثقة القرآن في تفاهة أثر سخريتهم وهوان شأنها " (٤) .

---

(١) الكشاف ١ / ٦٠٤ ومابعدها .

(٢) أسلوب السخرية ص ٢٧٦ .

(٣) سورة المائدة ، الآية " ٢٤ "

(٤) أسلوب السخرية ص ٢٠٩ .

التعجيز والتحدي

دلالة التعجيز اللغوية والاصطلاحية :

دلالته في اللغة :

التعجيز : التثبيط ، وذلك إذا نسبته إلى العجز ، وأعجزت فلاناً وعاجزته جعلته عاجزاً . (١)

دلالته الاصطلاحية :

وفي اصطلاح البلاغيين : هو الطلب بما لايقدر عليه المخاطب ليظهر عجزه.(٢)

((والعلاقة بين الأمر والتعجيز مابينهما من شبه التضاد في متعلقهما ، فإن التعجيز في المستحيلات ، والطلب في الممكنات كما يقول ابن يعقوب المغربي)) (٣)

وفي القرآن الكريم أفاد الأمر معنى التعجيز وقد تنوعت أساليبه وتباينت وتداخلت صوره على نحو مايتضح لك في الصفحات التالية بإذن الله :-

١ - من قبل الحق سبحانه :

أ - حول القرآن الكريم :

سلك القرآن منهجاً فريداً في تحدي العرب - وغيرهم - وتعجيزهم حيث سلك منهج التدرج في التحدي والتعجيز بالقرآن ارخاء للعنان وزيادة في التسجيل عليهم إظهاراً لعجزهم . حيث أمرهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن في بيانه ونظمه ، ثم بمثل عشر سور ، ثم بسوره واحدة ، وأباح لهم في كل مرة أن

---

(١) انظر المفردات ص ٣٢٢ ومقاييس اللغة ٨٨٤/٣ واللسان ٢٨١٧/٤ والكليات ٢٣٧/١ وفكرة إعجاز القرآن . نعيم الحمصي ص ٧ .

(٢) انظر شروح التلخيص ٣١٤/٢ وأساليب بلاغية ص ١١٣ والأساليب الأنشائية ص ٣٨ ومن بلاغة النظم العربي ٧٦/٢ .

(٣) مواهب الفتاح ٣١٥/٢ .

يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا ، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربه فقال { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } (١) فقضى عليهم بالعجز مطلقاً .

وطبعي أن هذا التدرج زاد هذا التعجيز والتحدي تصعيداً وتسجيلاً على المخاطبين في إظهار عجزهم (٢) ، على نحو مايفهم من كلام الرازي ((ونظير هذا كمن يتحدى صاحبه بتصنيفه فيقول : ائتني بمثله ، ائتني بنصفه ، ائتني بربعه ، ائتني بمسألة منه ، فإن هذا هو النهاية في التحدي وإزالة العذر)) (٣)

ومعلوم أن التحدي والتعجيز بالقرآن الكريم للعرب وغيرهم مستمر إلى أن يرث الأرض ومن عليها (٤) .

ومن أشهر أساليب التعجيز في الذكر الحكيم آيات التعجيز أو المعاجزة بالقرآن الكريم ويهدف القرآن من تحدي المشركين وتعجيزهم بالقرآن إلى تقرير الوحدانية لله تعالى وإلى إثبات رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه فيما يبلغ به عن ربه عز وجل .

وأساليب التعجيز في القرآن كثيرة نكتفي بإزجاء بعضها من ذلك قوله تعالى : { قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٥) ((وهي الآية الوحيدة التي ذكر فيها الوصف " مفتريات " لأنهم تعللوا بأنهم كيف يأتون بمعان مثل القرآن ، فأعفاهم من ذلك

---

(١) سورة الإسراء ، الآية " ٨٨ " .

(٢) انظر النبأ العظيم ص ٨٤ ومقدمة الظاهرة القرآنية بقلم محمود شاكر ووجوه الخطاب ص ٣٣١ .

(٣) التفسير الكبير ١٢٨/٢ .

(٤) انظر النبأ العظيم ص ٨٥ ومقدمة الظاهرة القرآنية ص ٢٥ .

(٥) سورة هود ، الآية " ١٣ " .

وقرب لهم الغاية بأن يأتوا بمثل نظمه وسبكه وألفاظه)) (١) ، فالأمر في قولـه : {فأتوا بعشر سور} للتعجيز (٢) ، ومنه قوله تعالى { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٣) .

يقول أبو السعود " قل " تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة إن كان الأمر كما يقولون " فأتوا بسورة مثله " أي في البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعنى على وجه الافتراء ، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرساً مني في النظم والعبارة " (٤) فالأمر في قوله " فأتوا " للتعجيز (٥) .

ومنه قوله تعالى : { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } (٦) .

هذه الآية هي آخر آية من آيات التحدي بالقرآن تحدياً وتعجيزاً لكفار المدينة ومن سواهم وفيها إشارة إلى قيام التحدي والإعجاز ما كان إنسان (٧) .

ولنتوقف عند هذه الآية نستجلي لطائفها :-

---

(١) الأساليب الإنشائية ص ٣٩ .

(٢) انظر الطبري ٧/١٢ والكشاف ٢٦١/٢ والتفسير الكبير ٢٠٢/١٧ والبحر المحيط ٢٠٨/٥ وتفسير أبي السعود ١٨/٣ وحاشية الشهاب ٧٩/٥ ومابعدها والتحرير والتنوير ١٩/١٢ .

(٣) سورة يونس ، الآية " ٣٨ " .

(٤) تفسير أبي السعود ٦٦٥/٢ .

(٥) انظر الطبري ٨٢/١١ ومابعدها وروح المعاني ١١٨/١١ والتحرير والتنوير ١٧٠/١١ .

(٦) سورة البقرة ، الآيتان " ٢٣ - ٢٤ " .

يبدأ التحدي بلفتة لها قيمتها في هذا السياق تنبض بمعاني التعجيز والتحدي والتبكيت { فأتوا بسورة من مثله } بمعنى جيئوا ، وهو اشارة إلى تنزيل القرآن من عند الله تعالى .

((وإيثار التنزيل المنبيء عن التدريج على مطلق الإنزال لتذكير منشأ إرتيابهم وبناء التحدي عليه إرخاء للعنان وتوسيعاً للميدان ، فإنهم كانوا اتخذوا نزوله منجماً وسيلة إلى إنكاره ، فجعل ذلك من مبادىء الاعتراف به ، كأنه قيل : إن ارتبتم في شأن ماانزلناه على مهل وتدريج فهاتوا أنتم مثل نوبة فذة من نوبه ، ونجم فرد من نجومه ، فإنه أيسر عليكم من أن ينزل جملة واحدة ، ويتحدى بالكل ، وهذا كما ترى غاية مايكون في التبكيت وإزاحة العلل)) (١) .

والتعبير بقوله " على عبدنا " بهذا الوصف له ((دلالات منوعة متكاملة ، فهو أولاً تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى ، دلالة على أن مقام العبودية لله أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك ، وهو ثانياً : تقرير لمعنى العبودية في مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده وإطراح الأنداد كلها من دونه ، فها هو ذا النبي في مقام الوحي ، وهو أعلى مقام - يدعى بالعبودية لله ويشرف بهذه النسبة في هذا المقام)) (٢)

فالأمر في قوله : " فأتوا " للتعجيز كما أشار كثير من المفسرين والبلاغيين (٣) .

والواقع أن لهذا الفعل - " أتوا " - دلالات بلاغية متنوعة في القرآن تستفاد من السياق بمعونة القرائن ومقتضيات الأحوال .

---

(١) الكشاف ٢٣٨/١ ومابعدها وتفسير أبي السعود ١١١/١ .

(٢) في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٤٢ .

(٣) انظر الطبري ١٢٨/١ وتفسير أبي السعود ١١١/١ وروح المعاني ١٩٣/١ والإيضاح ٢٤٢/١ وشروح التلخيص ٣١٤/٢ والمطول ص ٢٤٠ وأساليب بلاغية

فقد جاء في عشرين موضعاً مفيداً لمعني التعجيز والتحدي (١) ، كما جاء للإباحة كما في قوله تعالى : { نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ } (٢) .

والتكذيب نحو قوله تعالى : { قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٣) إلى غير ذلك من المعاني الثوان التى يفيض بها هذا الفعل في البيان القرآني .

وهنا يثار سؤال على جانب كبير من الأهمية لماذا آثر القرآن فعل الأمر من " أتى " ومشتقاته على الفعل " أعطى " ونحوه في مقامات التعجيز والتحدي وما إليها ؟ لأن الفعل " أتى " بجرسه وحركاته المتوالية دال على السرعة المناسبة لمقامات التحدي والتعجيز .

وكما جاء التعجيز بالقرآن من قبل الحق سبحانه جاء على ألسنة مشركي قريش تعجيزاً للرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيباً له ، وافتراءً منهم يحاولون الوصول عن طريقه إلى إشاعة أن القرآن مصدره بشري كما في قوله تعالى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ } (٤) .

لاريب أن الأمر في هذه الآية " ائت بقرآن غير هذا أو بدله " للتحدي والتعجيز ، وإنما قالوا ذلك كيداً وطمعاً في المساعدة ليتوسلوا به إلى الإلزام والاستهزاء به " (٥) .

---

(١) راجع المعجم المفهرس ص ٦ ، ٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٣ " .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .

(٤) سورة يونس ، الآية " ١٥ " .

فهو قول هاذر يوهمون به أن مصدر القرآن بشري كيداً ومخرقة ويريدون قرآناً آخر له مقاييس ملائمة لعقولهم (١) .

ثم يمضي السياق يبين رد الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله " قل مايكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا مايوحى إلي " .

ب - التعجيز والملائكة :

جاءت بعض أساليب الأمر في القرآن تفيد معنى التحدي والتعجيز خطاباً من الله عز وجل للملائكة تعجيزاً لهم قال تعالى : { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } (٢)

((المقصود من الأمر في قوله تعالى : " أنبئوني بأسماء هؤلاء " هو التعجيز ليدركوا من عجزهم ثم من قدرة عدم ماعجزوا عنه جانب الفضل والزيادة عليهم ، وهو أمر يتصل بالعلم الذي ألهمه الله إياه ويسر له سبله)) (٣) .

وذهب الزمخشري والرازي والنيسابوري إلى أن الأمر في هذه الآية مستعمل في التبكيت (٤) ، وهو مبني على رأيهم في أن الأستفهام " أتجعل " للإنكار والتعجب وليس للإرشاد كما يرى غيرهم ، وهذا بعيد جداً يأباه السياق ، والأقرب للصواب أنه للتعجيز كما أشار كثير من المفسرين (٥) ، لأن المراد إظهار عجزهم وقصور استعدادهم عن رتبة الخلافة التي استخلف لها آدم وذريته .

---

(١) انظر الأساليب الإنشائية ص ٤٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآيتان " ٣١ - ٣٢ " .

(٣) من بدائع النظم القرآني . الدكتور السيد عبدالفتاح حجاب ١٥٩/١ .

(٤) انظر الكشاف ٢٧٢/١ والتفسير الكبير ١٩٢/٢ ومابعدها وغرائب القرآن ٢٢٢/١ .

(٥) انظر البحر المحيط ١٤٦/١ وحاشية الشهاب ١٢٦/٢ وروح المعاني ٢٢٥/١ والتحرير والتنوير ٤١٢/١ .

جـ - تحدي المشركين :

تنبض بعض أساليب الأمر التي جاءت خطاباً للمشركين بالتحدي والتعجيز ، وقد تفاوتت من حيث زمن القول في الدنيا أو في الآخرة .

وكما نعلم الشرك ملة واحدة مهما تعددت مسيماته من شرك أو نفاق أو تثنية أو تثليث .

١ - في الدنيا :-

قال تعالى خطاباً لكفار قريش تحدياً وتعجيزاً لهم في الدنيا { أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُواْ بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (١) .

ينبىء السياق في هذه الايات عن سخط عظيم وإنكار فظيع وإستبعاد شديد وتسفيه لأحلام قريش حيث ادعوا زوراً وبهتاناً أن الملائكة بنات الله ، وجاء قوله " أم لكم سلطان مبين " انتقالاً " من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر إلى تبكيتهم بتكليفهم مالايدخل تحت الوجود أصلاً ، أي بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لابد له من سند حسي أو عقلي وحيث انتفى كلاهما فلابد من سند نقلي ، ((فأتوا " بكتابكم " وليس لهم كتاب يأتون به ، فهو تجهيل وتسفيه لآرائهم وتعجيب من جهلهم استهزاءً بهم مع تعجيز أن يأتوا بسند لايملكونه)) (٢) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٣) .

---

(١) سورة الصافات ، الآيتان " ١٥٣ - ١٥٧ " .

(٢) انظر الكشاف ٣ / ٣٥٥ وتفسير أبي السعود ٥٥٢/٤ والأساليب الإنشائية ص٤٤ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية " ١٩٤ " .

لاريب أن الأمر في قوله " ادعوهم " مستعمل في التعجيز بإعتبار ماتفرع عليه من قوله " فليستجيبوا " وهو للتعجيز أيضاً (١) .

والواقع أن لهذا الفعل " ادع " في الذكر الحكيم أكثر من معنى بلاغي (٢) ، كالتعجيز والرجاء والتخيير والتبكيت والتحسير ، كما جاء في بعض مواضعه حقيقياً مقيداً تخليصاً للمعنى وتوجيهاً إلى الأمثل نحو قوله تعالى : { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (٣) وقوله تعالى : { فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } (٤) .

أما دلالته على التحدي والتعجيز فقد ورد في سبعة مواضع منها قوله تعالى : { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } (٥).

سبقت الإشارة إلى أن الأمر في قوله " فأتوا " للتعجيز والتحدي ، أما قوله " وادعوا شهداءكم من دون الله " فهو معطوف على الأمر السابق المتحدى به جيء به ((لتحقيق معنى المبالغة في أمر التحدي إذ المراد : ادعوا نصراءكم من أهل البلاغة فيكون تعجيزاً للعامة والخاصة ، ويكون قوله " من دون الله " على معنى اجعلوا جانب الله الذي أنزل الكتاب كالجانب المشهود عليه فقد أذناكم بذلك تيسيراً عليكم لأن شدة تسجيل العجز تكون بمقدار تيسير أسباب العمل)) (٦) .

بل المراد من جملة " ادعوا شهداءكم من دون الله " ارخاء العنان والانصاف

---

(١) انظر البحر المحيط ٤٤٥/٤ والتحرير والتنوير ٢٢١/٩ .

(٢) راجع المعجم المفهرس ص ٢٥٩ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية " ٥٥ " .

(٤) سورة غافر ، الآية " ١٤ " .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٦) انظر التحرير والتنوير ٣٤٠/١ .

حتى يكون العجز أبلغ داعياً إلى الحق . واللازمة " إن كنتم مؤمنين " تهييج وإلهاب ودفع إلى المعارضة لو أمكن .

ومنه قوله تعالى : { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (١) .

ومن أساليب الأمر التي أفادت معنى التعجيز والتحدي في القرآن الكريم الفعل " أروني " حيث ورد في أربعة مواضع في جميعها (٢) للتعجيز من ذلك قوله تعالى خطاباً لكفار قريش : { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } (٣) .

فالأمر في قوله " أروني " للتعجيز والتهكم والتبكيت ، وفي التعبير بقوله ((بل الظالمون في ضلال مبين ، إضراب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط في ضلال ليس بعده ضلال)) (٤) .

ومنه قوله تعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٥) .

تحمل هذه الآية في طياتها معنى التحدي والتعجيز والتبكيت والتوبيخ الشديد لهؤلاء المشركين فالأمر في " أروني " جاء توكيداً لقوله " أرأيتم " كما جاء

---

(١) سورة يونس ، الآية " ٣٨ " .

(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٢٨٥ .

(٣) سورة لقمان ، الآية " ١١ " .

(٤) انظر الكشاف ٢٣٠/٣ ومابعدها والبحر المحيط ١٨٥/٧ وتفسير أبي السعود ٣٧٥/٤ والتحرير والتنوير ١٤٧/٢١ ومن بلاغة النظم العربي ٧٧/٢ .

(٥) سورة الأحقاف ، الآية " ٤ " .

قوله " ائتوني " تصعيداً للتبكيت بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي " (١) .

وقال صاحب التحرير والتنوير " الأمر في قوله " أروني ماذا خلقوا " مستعمل في التسخير والتعجيز " (٢) ولامعنى للتسخير في هذه الآية لأن التسخير في إصطلاح البلاغيين " التبديـل من حالة إلى أخرى فيها مهانة ومذلة " (٣) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمنافقين : { مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَايَغِيظُ } (٤) .

هذه الآية تصور مشهداً متحركاً لغيظ النفس ، " وللحركات المصاحبة لذلك الغيظ التي يبلغ فيها الضيق بالنفس أقصاه عندما ينزل بها الضر وهي على غير اتصال بالله " (٥) .

حيث ((شبهت حالة استبطان هذا الفريق الكفر وإظهارهم الاسلام على حنق أو حالة ترددهم بين البقاء في المسلمين وبين الرجوع إلى الكفار بحالة المغتاظ مما صنع فقيل لهم : عليكم أن تفعلوا مايفعله أمثالكم ممن ملأهم الغيظ وضاقت بهم سبل الانفراج فامددوا حبلاً بأقصى مايمد إليه حبل ، وتعلقوا به في أعلى مكان ثم اقطعوه تخروا إلى الأرض ، وذلك تهكم بهم في أنهم لايجدون غنى في شيء من أفعالهم ، وإنذار باستمرار فتنتهم في الدنيا مع الخسران في الآخرة .

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٥/١٢١ ووجوه الخطاب ص ٢٣٧ ومابعدها .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦ / ٩ .

(٣) انظر شروح التلخيص ٢ / ٣١٧ .

(٤) سورة الحج ، الآية " ١٥ " .

(٥) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤١٣ .

ومفعول " يقطع " محذوف لدلالة المقام عليه والتقدير ثم ليقطعه أي يقطع السبب ، والأمر في قوله " فليمدد بسبب إلى السماء " للتعجيز)) (١) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين : { أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ } (٢) .

هذه الآيات مهولة عنيفة محقرة لهؤلاء المشركين من صناديد قريش لإنكارهم نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم وإختصاصه بالرسالة حسداً وبغضاً ، فجاء السياق ينبض مع التعجيز بمعانى السخرية اللاذعة والتهكم من هؤلاء المشركين ، ويندهم بسوء أدبهم مع الله وتدخلهم فيما ليس من شأنهم .

وتأمل جمال التعبير بقوله ((رحمة ربك حيث أضاف اسم الرب المنبيء عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ففيه من التشريف واللطف به مالايخفى)) (٣) .

فالأمر في قوله " فليرتقوا في الأسباب " للتعجيز على ماهو مستفاد من السياق والمقام (٤) .

٢ - في الآخرة :

تفيد بعض صيغ الأمر التى جاءت خطاباً للمشركين في الآخرة بالتحدي والتعجيز من ذلك قوله تعالى : { وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً } (٥) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٩/١٧ ومابعدها .

(٢) سورة ص ، الآيتان " ٩ - ١٠ " .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٥٦٣/٤ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢١٧/٢٣ .

(٥) سورة الكهف ، الآية " ٥٢ " .

تصور هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامه ، يكشف فيه سبحانه عن مصير الشركاء ومصير المجرمين حيث يقول لهم في ذلك اليوم استهزاءً بهم وتوبيخاً وتعجيزاً لهم (١) " نادوا شركائي " فالأمر " بمناداة الشركاء مستعمل في معناه مع إرادة لازمه وهو إظهار باطلهم بقرينة فعل الزعم " زعمتم " ولذلك لم يسعهم أن ينادوهم حيث قال " فدعوهم " لطمعهم ، فإذا نادوهم تبين لهم خيبة طمعهم ولذلك عطف فعل الدعاء بالفاء الدالة على التعقيب ، وأتى به في صيغة المضي للدلالة على تعجيل وقوعه حينئذ حتى كأنه قد انقضى " (٢) " وإضافة الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم والمراد بالشركاء الجن " (٣) ، " وهم بعض خلق الله الذين لايملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً في الموقف المرهوب " (٤) .

ومن ذلك هذا التعجيز الذي يشي به الأسلوب مع التهكم والتوبيخ والتهديد في قوله تعالى خطاباً للمشركين في الآخرة : { هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ } (٥) .

يصور التعبير في هاتين الآيتين مشهداً من مشاهد الآخرة ، مشهد الحساب والجزاء ، تتجلى فيه هذه الصورة حية شاخصة للأبصار من خلال التعبير باسم الاشارة " هذا يوم الفصل " فهو يوم الفصل لايوم الاعتذار ، وقد جمعناكم والأولين وقد فرع على ذلك قوله ((فإن كان لكم كيدن فكيدون ، ولاتدبير ولا قدرة ، إنما هو الصمت الكظيم على التأنيب الأليم)) (٦) .

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٥٣١/٣ وروح المعاني ٢٩٨/١٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٤٥/١٥ .

(٣) انظر الكشاف ٤٨٨/٢ .

(٤) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٧٥ .

(٥) سورة المرسلات ، الآيتان " ٣٨ - ٣٩ " .

(٦) انظر الكشاف ٢٠٥/٤ والتفسير الكبير ٢٨١/٣٠ والبحر المحيط ٤٠٨/٨ =

هـ - الجن والإنس :-

قال تعالى خطاباً للجن والإنس : { إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } (١) .

لعلك تلحظ أن السياق يمضي في إيقاع مرعب مزلزل يتحدى فيه سبحانه وتعالى الثقلين أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض ، وفي ذكرهما ((إحاطة بالجهات كلها تحقيقاً للتعجيز ، أي فهذه السموات والأرض أمامكم فإن استطعتم فاخرجوا منها فراراً من موقفكم هذا ، وذلك لأن تعدد الأمكنة يسهل الهروب من إحدى جهاتها)) (٢) .

فالأمر في قوله " انفذوا " للتعجيز والتحدي ، وجملة " لاتنفذون إلا بسلطان " بيان للتعجيز الذي في الجملة قبله " (٣) .

التعجيز بين الأنبياء والمكذبين : -

١ - الأنبياء عليهم السلام :

ورد التحدي والتعجيز في القرآن الكريم على ألسنة الأنبياء عليهم من ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل في سياق محاورة بينه وبين الذي حاجه في

= وحاشية الشهاب ٢٩٩/٨ والتحرير والتنوير ٤٤٢/٢٩ وفي ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٧٩٤ .

(١) سورة الرحمن ، الآية " ٣٣ " .

(٢) التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٥٩ .

(٣) انظر البحر المحيط ١٩٤/٨ وروح المعاني ١١٢/٧٢ والتحرير والتنوير ٢٥٩/٢٧ وفي ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٤٥٦ .

ربه { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (١) .

تكشف هذه الآية الكريمة عن ذكاء ابراهيم وفطنته وقدرته على إفحام خصومه ، فحين سمع هذا الجواب الأحمق فيما يتصل بأمر الإحياء والإماتة لم يجادل فيه ، ولكنه انتقل إلى مالايقدر عليه مخاطبه فاتى بمثال لايجد اللعين فيه مجالاً للتمويه والتلبيس فبهت الذي كفر (٢) ، على نحو ماينبيء عنه التعبير بقوله " فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب " فالأمر في قوله " فأت " أمر تعجيز والفاء الأولى الفصيحة للإيذان بتعلق مابعدها بما قبلها والمعنى : إذا ادعيت الإحياء والإماتة فأثِّرْ في هذه المخلوقات الكونية بتغيير سننها تلك التي لاتطيقها قدرة بشر (٣) .

ومنه هذا التعجيز الذى ينبض به الأسلوب مع التكذيب والتعجيب والتبكيت في قوله تعالى على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم خطاباً للمنافقين { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٤) .

" فالمنافقون يتخلفون عن الجهاد ويبثون الوهن في الصفوف بأن الخروج إلى الجهاد باب من أبواب القتل وقصف الأعمار ، دون أن يدركوا الحقيقة الكبرى

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٥٨ " .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢٩٠/١ ووجوه الخطاب ص ٣٣٨ ومابعدها .

(٣) راجع روح المعاني ١٩/٣ ووجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٣٣٩ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٨ " .

وهي أن للأعمار آجالاً مكتوبة " (١) ، قال تعالى : { فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَايَسْتَقْدِمُونَ } (٢) .

يقول الزمخشري " قل إن كنتم صادقين في إنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلاً وهو القعود عن القتال فجدوا إلى دفع الموت سبيلاً : يعنى أن ذلك الدفع غير مغن عنكم ، لأنكم إن دفعتم القتل الذى هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه ولابد لكم من أن يتعلق بكم بعضها " (٣) .

وننبه إلى أن للفعل " درأ " دلالة خاصة مقصودة لايغني عنها الفعل " دفع " ذلك لأن الدرء فيه تطلب حيلة ودهاء لدفع الحدث ، ثم استعمال القوة حين وقوعه يقال : فلان ذو تدريء أي قوي على دفع أعدائه ، والمهم أن اصطناع الحياة أو عدمها في دفع أسباب الموت سواء " (٤) .

٢ - المكذبون :

ورد التحدي والتعجيز على ألسنة المكذبين تحدياً أخرق لرسلهم عليهم السلام وتعجيزاً واهماً - على حسب اعتقادهم - نسجته خيالاتهم الآفنة ووساوسهم الهاجسة (٥) كقولهم للمصطفى صلى الله عليه وسلم{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (٦)

---

(١) الأساليب الإنشائية ص ٤٢ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية " ٣٤ " .

(٣) الكشاف ١ / ٤٧٨ .

(٤) انظر الأساليب الإنشائية ص ٤٢ ومابعدها ومفردات الراغب ص ١٦٩ وتفسير أبي السعود ٥٩٧/١ ومابعدها .

(٥) الأساليب الإنشائية ص ٤٤ .

(٦) سورةالجاثية ، "٢٥" ؛ وراجع الكشاف ٥١٣/٣ والتفسير الكبير ٢٧١/٢٧ والبحر المحيط ٤٩/٨ وتفسير أبي السعود ١١٧/٥ وحاشية الشهاب ٢١/٨ والتحرير والتنوير ٣٦٤/٢٥ .

فالأمـر فـي " ائتوا " للتحدي والتعجيز ومنه قوله تعالى على لسان كفار قريش { بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} (١) ومنه قوله تعالى { إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ•إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَانَحْنُ بِمُنْشَرِينَ•فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٢) . ومنه قوله تعالى على لسان فرعون اللعين تحدياً وتكذيباً لموسى عليه السلام { قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } (٣) .

فالأمر في قوله " فأت بها " للتحدي والتعجيز أي فأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك " (٤) . كما جاء على لسان قوم نوح عليه السلام { مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } (٥) .كما تكرر التعبير « ائتنا بما تعدنا » على ألسنة المكذبين لرسل الله عليهم السلام استعجالاً للعذاب ، فقال المكذبون لنوح { قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } (٦) .وعلى لسان قوم صالح { وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } (٧) ، وعلى لسان قوم هود { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } (٨) . وورد على لسان قوم لوط « ائتنا بعذاب الله »

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية " ٥ " .

(٢) سورة الدخان ، الآيتان " ٣٤ - ٣٦ " .

(٣) سورة الأعراف ، الآية " ١٠٦ " .

(٤) انظر البحر المحيط ٣٥٧/٤ وراجع الطبري ٩/٨ ومابعدها والكشاف ١٠٠/٢ ومابعدها وتفسير أبي السعود ٣٨٦/٢ .

(٥) الشعراء ، الآية ١٥٤ .

(٦) هود ، الآية ٣٢ .

(٧) الأعراف ، الآية ٧٧ .

(٨) الاحقاف ، الآية ٢٢ .

قال تعالى : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } (١) .

والواقع أن أساليب استعجال العذاب « ائتنا بما تعدنا » التي وردت على ألسنة المكذبين لها نظائر من الأساليب الاستفهامية نحو قوله تعالى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٢) فقد نصت بعض المراجع على أن فيها شيئاً من السخرية والاستهزاء (٣) ، ولا مانع أن يكون في أساليب الأمر هذا المعنى أيضاً .

بين التحدي والتعجيز :-

كثيراً ما ارتبط التحدي بالتعجيز في سياقات أساليب التعجيز التي سبق ذكرها ، بيد أن في القرآن الكريم أساليب تحد جاءت خالية من التعجيز تفيض بمعان ثانوية كالتهديد والتهكم تأتلف مع التحدي في السياق القرآني الواحد ، ولاعجب في هذا لأن السياق القرآني ينبض بعطاءات متنوعة وهذا سر من أسرار إعجازه وخلوده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

من ذلك قوله تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَايَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَاتُنْظِرُونِ } (٤) .

---

(١) العنكبوت ، الآية ٢٩ .

(٢) سورة يونس ، الآية " ٤٨ " وتكررت كثيراً في القرآن .

(٣) أساليب الإستفهام في القرآن الكريم ص ١٤٣ .

(٤) سورة يونس ، الآية " ٧١ " .

فالأمر في قوله " اجمعوا " " واقضوا " للتحدي والتهكم (١) ، وإن ذهب بعض المفسرين إلى أن صيغة الأمر مستعملة في التسوية أي أن عزمهم لايضيره بحيث هو يغريهم بأخذ الأهبة التامة لمقاومته " (٢) .

وهذا التوجيه كما ترى بعيد جداً لايعين عليه السياق ، والصواب أنه للتحدي والتهكم كما أشار كثير من المفسرين .

ومن أساليب التحدي في القرآن ماورد في قوله تعالى : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .. } (٣) .

هذه الآيات تكشف عن لون آخر من افتراء اليهود وتبجحهم ، إنهم يتعنتون فيطلبون من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بكتاب من السماء ، كتاب مخطوط ينزله عليهم من السماء، فلاعليك من هذا التعنت ولاغرابة فيه ولاعجب منه ((فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة)) (٤) .

فالأمر في قوله " أرنا " للتحدي والتعنت ، طابعه التبجح الذي لايصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان أو فيه استعداد للإيمان .

بين التعجيز والتكذيب : -

يرتبط التكذيب بالتعجيز في كثير من أساليب التعجيز التي سبق ذكرها لأن القرآن يهدف من وراء هذه الأساليب تكذيب المشركين وإبطال مفترياتهم وإفحامهم حتى لكأن أسلوب التعجيز طريق سلك لبلوغ هذه المعاني (٥) ، بيد أن في القرآن أساليب عديدة جاءت تفيد معنى التكذيب انفرد بها التكذيب عن التعجيز نفصل القول فيها بإذن الله في الصفحات الآتية :-

---

(١) انظر الكشاف ٢/٢٤٥ والبحر المحيط ٥/١٧٩ وتفسير أبي السعود ٢/٦٩٢ وروح المعاني ١١/١٥٨ .

(٢) التحرير والتنوير ١١/٢٣٩ .

(٣) سورة النساء ، الآية " ١٥٣ " .

(٤) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ٧٩٩ ومابعدها .

(٥) راجع وجوه الخطاب ص ٣٤١ ومابعدها .

أساليب التكذيب في القرآن الكريم

١ - تكذيب المشركين :

تنبض بعض أساليب الأمر التي جاءت خطاباً للمشركين في الذكر الحكيم بالتكذيب من ذلك قوله تعالى : { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَاحَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (١)

فقوله تعالى { قل فأتوا بالتوراة فاتلوها } أمر له صلى الله عليه وسلم بأن يحاج اليهود ويبكتهم بكتابهم المكذب لهم فيما يدعون بما هو ناطق به من أن تحريم ماحرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم لاتحريم قديم كما يدعونه " (٢)

ونلحظ في هذا السياق اجتماع صيغتي أمر " أتوا - اتلوها " تصعيداً لمعاني التحدي والتكذيب حيث تحداهم الله سبحانه بالتوراة التي بين أيديهم تكذيباً لهم وتهكما بهم .

ومع وضوح معنى التكذيب في هذه الآية الكريمة بل هي من متعالم شواهده لكنني رأيت صاحب التحرير والتنوير يقول بأن الأمر للتعجيز (٣) ، ولا أكاد أفهم لذلك وجهاً لبعده عن دلالة التعجيز ، بل الأمر فيها للتحدي والتكذيب .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين في أسلوب ينبض مع التكذيب بالتبكيت والتهكم والإفحام { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .

(٢) انظر الكشاف ٤٤٦/١ وتفسير أبي السعود ٥١٤/١ وعروس الأفراح ٣٢١/٢ ووجوه الخطاب ص ٣٤٢ وأساليب بلاغية ص١١٦ والأساليب الإنشائية ص٤٣

(٣) التحرير والتنوير ٩/٤ وراجع وجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٣٤٣ .

نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (١) .

يقول الطبري " هذا إعلام من الله جل ثناؤه لنبيه أن كل ماقاله المشركون في ذلك وأضافوه إلى الله فهو كذب وأنه لم يحرم شيئاً من ذلك وأنهم إنما اتبعوا خطوات الشيطان وخالفوا أمره " (٢) .

أما قوله " نبئوني بعلم إن كنتم صادقين " " فهو تكرير للإلزام وتثنية للتبكيت والإفحام أى أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب أو أخبار الأنبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئاً مما ذكر أو نبئوني تنبئة ملتبسة بعلم صادرة عنه ، إن كنتم صادقين في دعوى التحريم عليه سبحانه وتعالى " (٣)

فالأمر في قوله " نبئوني " للتكذيب والإفحام والتبكيت على نحو ماهو مستفاد من السياق والمقام .

ومنه قوله تعالى تكذيباً لليهود في إدعائهم بأن الجنة خالصة لهم من دون الناس { قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَاللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } (٤) .

يبدو أن الأمر بالتمني كما يتضح من هذا السياق قصد به تكذيب تلك الدعوى وإبطالها وفضح زيفهم وافترائهم (٥) ، كما أن التعبير بقوله " ولن يتمنوه أبداً " على هذا النحو من التوكيد لبيان مايكون منهم من الاحجام الدائم الدال على

---

(١) سورة الأنعام ، الآية " ١٤٣ " .

(٢) تفسير الطبري ٨ / ٤٨ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ / ٢٩٥ .

(٤) سورة البقرة ، الآيتان " ٩٤ – ٩٥ " .

(٥) راجع الطبري ٣٣٧/١ والتفسير الكبير ٢٠٧/٣ والبحر المحيط ٣١١/١ وتفسير أبي السعود ٢١٧/١ والتحرير والتنوير ٦١٤/١ .

كذبهم في دعواهم تلك على أبلغ وجه وأكده (١) ، وهذا كما يقول الزمخشري " من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به ، حيث لم يؤثر أن أحداً منهم قد كان منه مطلوب هذا الخطاب " (٢) .

ونظيره قوله تعالى : { قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُواْ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَايَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدَاً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } (٣) .

فالأمر في قوله " فتمنوا " للتكذيب كسابقه " .

ومنه قوله تعالى : { وَقَالُواْ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودَاً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٤) .

فالتعبير بقوله " هاتوا " على خلاف بين النحاة أهو فعل أمر أم اسم فعل أمر (٥) ، للتكذيب بمعونة السياق وخصائص التراكيب .

فالسياق دال على التكذيب لليهود في دعواهم هذه ، " وأتى بإن المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم صدقهم لاستدراجهم حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن البرهان ، لأنَّ كلَّ اعتقادٍ لايُقيمُ مُعْتَقِدُهُ دليلَ اعتقادِهِ فهو اعتقادٌ كاذب ، فإن صدقَ كلِ مُعْتَقِدٍ رهينُ بُرْهَانِهِ " (٦) .

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢١٨/١ ووجوه الخطاب ص ٣٤٣ .

(٢) انظر الكشاف ٣٩٧/١ ووجوه الخطاب الموضع السابق .

(٣) سورة الجمعة ، الآيتان " ٦ - ٧ " وراجع التحرير والتنوير ٦٧٤/١ ووجوه الخطاب ص ٣٤٣ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ١١١ " .

(٥) انظر شرح المفصل لابن يعيش ٤٣/٤ وشرح الكافية ٧٠/٢ .

(٦) انظر الطبري ٣٩٣/١ والتحرير والتنوير ٦٧٤/١ ووجوه الخطاب ص ٣٤٤ .

ومنه قوله تعالى : { قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَاتَشْهَدْ مَعَهُمْ } (١)

جاء التعبير بقوله " هلم " - على الرغم من اختلاف النحويين حوله - (٢) دالاً على التكذيب والتحدي (٣) للمشركين في تحريمهم على أنفسهم أنواعاً من الذبائح مدعين أن الله حرمها عليهم ، فقوله " هلم شهداءكم " إبطال لاحتجاجهم كأنه قال : احضروا كبراءكم ومن يشهد لكم توبيخاً وتفضيحاً " (٤)

" وإنما لم يقل شهداء يشهدون لأنه ليس الغرض إحضار أناس يشهدون بالتحريم وإنما المراد إحضار شهدائهم الموسومين بالشهادة المعروفين بنصرة مذهبهم ولهذا قال " فإن شهدوا " أي فإن وقعت شهادتهم " فلاتشهد معهم " أي لاتسلم لهم ماشهدوا به ولاتصدقهم لأن شهادتهم محض الهوى والتعصب ، ولأجل ذلك قال أيضاً " ولاتتبع أهواء الذين كفروا " فوضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالتكذيب وليرتب عليه باقي الآية فيعلم أن المتصف بهذه الصفات لاتكون شهادتهم مقبولة عند العقلاء " (٥) .

وعلى هذا فان قوله " هلم " للتكذيب وفيه إيماضة بالتعجيز كما ذكر غير واحد " (٦) .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية " ١٥٠ " .

(٢) انظر الكتاب ٢٤١/١ ، ٢٤٦/١ . ٥٢٩/٣ والمقتضب ٢٥/٣ وشرح المفصل ٤١/٤ وشرح الكافية ٧٢/٢ .

(٣) انظر عروس الأفراح ٣٢١/٢ وأساليب بلاغية ص ١١٦ .

(٤) الأساليب الإنشائية ص ٤٥ .

(٥) غرائب القرآن للنيسابوري ٤٢/٨ ومابعدها .

(٦) انظر البحر المحيط ٢٤٨/٤ والتحرير والتنوير الجزء الثامن القسم الثاني ص ١٥٣ .

على ألسنة المكذبين :-

ورد التكذيب على ألسنة المكذبين خطاباً لأنبيائهم عليهم السلام من ذلك هذا التكذيب الذي يشي به الأسلوب مع التحدي والتهكم في قوله تعالى على لسان قوم شعيب عليه السلام : { قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ } (١) .

فالأمر في قوله " اسقط " للتكذيب والتحدي (٢) ، حيث تحدوه بأن يأتيهم بما يخوفهم به من العذاب إن كان صادقاً فيما يدعيه ، وأن يسقط عليهم رجوماً من السماء أو يحطمها عليهم ويسقطها قطعاً " (٣)

ويقول الزمخشري " وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم عى الجحود والتكذيب ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلاً أن يطلبوه" (٤) .

غير أن صاحب التحرير والتنوير يقول إن الأمر في " اسقط " أمر تعجيز"(٥) .

ولامانع من هذا الوجه مادام السياق يبرره حسب اعتقادهم ، والأولى منه أن يكون للتكذيب والتحدي .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان " ١٨٥ - ١٨٨ " .

(٢) انظر الكشاف ٣/١٢٧ والتفسير الكبير ٢٤/١٦٤ والبحر المحيط ٧/٣٨ وغرائب القرآن ١٩/٧٦ وتفسير أبي السعود ٤/٢٣١ .

(٣) فى ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦٦٥ .

(٤) الكشاف ٣ / ١٢٧ .

(٥) التحرير والتنوير ١٩ / ١٨٧ .

ومنه قوله تعالى : { وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ .. } (١) .

يقول الزمخشري : ((وهذا أسلوب من الجحود بليغ : يعني إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر ، ومرداه نفي كونه حقاً ، وإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكرة عذاباً ، فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال في قولك " إن كان الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة " وقوله - هو الحق - تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص هذا هو الحق " (٢) .

ولعلك لاحظت أن ما جاء من الأساليب تعجيزاً أو تحدياً وتكذيباً على ألسنة الرسل كانت أقوى تركيباً وأشد وقعاً وأكثر تركيزاً وتلهياً وغضباً ، كما تلحظ أن نهاياتها جاءت " بفاء الفصيحة { فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين } (٣) { فَادْرَأُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٤) وهذا من أساليب الاحتباك التى توالى فيها أسلوبا شرط مكررين وحذف فعل الشرط من الأول وجوابه من الثاني شدة سبك وتركيز وإشعاع بالمعاني ، وزادت أساليب التعجيز بمعارضة القرآن ذكر الشرط وأداته في الجملة الأولى وحذف الشرط الثاني { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُواْ مَن اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٥) إظهاراً واثقاً وبسطاً مقتدراً لإعجاز القرآن الكريم وعجزهم (٦) .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية " ٣٢ " .

(٢) الكشاف ٢ / ١٥٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ٩٣ " .

(٤) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٨ " .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٣ " .

(٦) الأساليب الإنشائية ص ٤٥ .

التهديـــد

الدلالة اللغويـة :

التهديد في اللغة التخويف والوعيد . (١)

وفي اصطلاح البلاغيين :

وذلك إذا استعملت صيغة الأمر في مقام عدم الرضا بالمأمور به . (٢)

وقد اتخذ القرآن طرقاً عديدة للتأثير في النفس الإنسانية ، فتارة يعمد إلى الترغيب ، وتارة أخرى إلى الترهيب والتهديد .

والتهديد في القرآن جاء عن طريق أساليب عديدة كالأمر والنهي والخبر ، وفي هذا الموضع نتناول أساليب الأمر التي تفيد التهديد والوعيد في القرآن الكريم .

التهديد والمشركون :

جاءت بعض أساليب الأمر في القرآن دالة على التهديد والوعيد للمشركين من قبل الحق سبحانه أو على ألسنة أنبيائه عليهم السلام من ذ لك قوله تعالى خطاباً لكفار قريش : { كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ } (٣) .

السياق في هذه الآية الكريمة دال على التهديد والوعيد والتهكم والتوبيخ فالأمر في قوله " كلوا وتمتعوا " للتهديد والوعيد كما ذكر كثير من المفسرين (٤) .

وتأمل جمال التعبير بالقيد في قوله " قليلاً " ومايدل عليه ، أي كلوا وتمتعوا زماناً قليلاً إذ قصارى أكلكم وتمتعكم هو الموت (٥) ، أما جملة " إنكم مجرمون " فهـي

---

(١) انظر أساس البلاغة ص ٤٨١ والصحاح ٦/٥٥٦ واللسان ٦/٤٦٣١ .

(٢) انظر حاشية الدسوقي ٢/٣١٤ وبغية الايضاح ٢/٥٤ وعلم المعاني الدكتور / درويش الجندي ص ٣٩ ومن بلاغة النظم العربي ٢ / ٧٥ .

(٣) سورة المرسلات ، الآية " ٤٦ " .

(٤) انظر الطبري ٢٩/١٤٩ والبحر المحيط ٨/٤٠٨ وروح المعاني ٢٩/١٧٨ والتحرير والتنوير ٢٩/٤٤٥ ومابعدها .

(٥) انظر البحر المحيط ٨ / ٤٠٨ .

تقبيح وتبشيع وذم وتعليل ، وتأكيدها بإن لتحقيق الاجرام وتأكيده فهم مجرمون ((لادين لهم ولا آخرة ، ولا عقيدة ، يقبلون على الطعام متعة وتلذذاً وانطلاقاً لمتعة طريفة ولذة جديدة فهم في دائرة دائمة من الأكل والمتعة والتوله البهيمي)) (١) وصدق الحق فيما وصفهم به في قوله { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ } (٢) .

ومنه قوله تعالى خطاباً لأبي جهل : { قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً } (٣)

فالأمر في قوله " تمتع " للتهديد والوعيد " (٤) ، والتعبير بقوله " قليلاً " يدل على إقناطه وتيئيسه أي تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً " فإنك من أصحاب النار " وهذه الجملة تعليل لقلة التمتع وفيها من الإقناط من النجاة مالا يخفى كأنه قيل إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقك أن تومر بتركه لتذوق عقوبته زيادة في التهديد والتنكيل " (٥) .

والواقع أن الأمر بالتمتع ورد في القرآن في سبعة مواضع (٦) في جميعها للتهديد والوعيد في خطابات شديدة فيها إهانة وتبكيت من ذلك قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ } (٧) وقوله تعالى : { وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ } (٨) وعن مشركي العرب

---

(١) انظر الأساليب الإنشائية ص ٣٧ .

(٢) سورة محمد ، الآية " ١٢ " .

(٣) سورة الزمر ، الآية " ٨ " .

(٤) انظر الطبري ١٢٨/٢٣ والكشاف ٣٩٠/٣ والتفسير الكبير ٢٤٩/٢٦ والبيضاوي والشهاب حاشية الشهاب ٣٣٠/٧ وغرائب القرآن ١٢٨/٢٣ وتفسير أبي السعود ٦٠١/٤ وروح المعاني ٢٤٥/٢٣ والتحرير والتنوير ٣٤٤/٢٣ .

(٥) انظر الكشاف ٣٩٠/٣ وتفسير أبي السعود ٦٠١/٤ .

(٦) راجع المعجم المفهرس ص ٦٥٨ .

(٧) سورة هود ، الآية " ٦٥ " .

(٨) سورة الذاريات ، الآية " ٤٣ " .

{ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ } (١) وقوله { قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } (٢) وفي هذه الآية أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يهدد المشركين بقوله " تمتعوا " أي تمتعوا بشهواتكم قليلاً فإن نهايتكم النار خالدين فيها فليس المراد أمرهم بالتمتع بل تهديدهم ووعيدهم (٣) ، وفي التعبير عن ذلك كما يقول الزمخشري ((إيذان بأنهم لا نغماسهم في التمتع بالحاضر وأنهم لايعرفون غيره ولايريدونه مأمورون قد أمرهم آمر مطاع لايسعهم أن يخالفوه ولايملكون لأنفسهم أمراً دونه وهو أمر الشهوة)) (٤) .

وكل موضع في القرآن ذكر فيه - فعل الأمر - " تمتعوا " في الدنيا فإنما هو على التهديد وذلك لما فيه من معنى التوسع " (٥) .

((أما الفعل " تمتع " في صيغة الماضي الخبري أو المضارع فهو وسيع الدلالة تشريعاً وترغيباً وترهيباً)) (٦) .

ومن أساليب التهديد التي يتنامى فيها الأسلوب فيصل إلى الذروة في الشدة والغضب قوله تعالى : { فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَايَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } (٧) .

---

(١) سورة المرسلات ، الآية " ٤٦ " .

(٢) سورة ابراهيم ، الآية " ٣٠ " .

(٣) انظر شروح التلخيص ٣١٤/٢ وأساليب بلاغية ص ١١٣ وعلم المعاني ص ٣٩ ومن بلاغة النظم العربي ٢ / ٧٥ .

(٤) الكشاف ٢ / ٣٧٨ .

(٥) انظر مفردات الراغب ص ٤٦١ وبصائر ذوي التمييز ٤٧٩/٤ ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٢ / ٦٠٧ .

(٦) انظر الأساليب الإنشائية ص ٤٨ والمعجم المفهرس ص ٦٥٨ .

(٧) سورة القلم ، الآيتان ٤٤ - ٤٥ .

السياق دال على الشدة والغضب والنفار بهؤلاء المشركين ، فالأمر في قوله "ذرني " للتهديد والوعيد ، أي " حسبي مجازياً لمن يكذب بالقرآن فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل علي في الانتقام منه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديداً للمشركين " (١) .

ومنه قوله تعالى خطاباً لرسوله الكريم أن يهدد المشركين { ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } (٢) فالأمر في " ذرهم " للتهديد والوعيد (٣) .

والواقع أن فعل الأمر " ذر " بمعنى دع واترك كثر استعماله في القرآن في معنى التهديد والوعيد (٤) ، لما فيه من الخفة في نطقه وانزلاق اللسان بحروفه المناسبة للانتقام الهائل والتهديد المرعد والحسم السريع ، من ذلك قوله تعالى : { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } (٥) وقوله تعالى : { فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ } (٦) وقوله تعالى على لسان صالح عليه السلام { وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ } (٧) .

وجاء أيضاً في مقامات أخرى يدل فيها على التحذير الشديد أو الإرشاد كما في قوله تعالى : { وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ } (٨) وقوله تعالى : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ

---

(١) الكشاف ١٤٧/٤ وانظر الطبري ٢٨/٢٩ والبحر المحيط ٣١٧/٨ والتحرير والتنوير ٢٩ / ١٠٠ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية " ٩١ " .

(٣) انظر الطبري ١٧٩/٧ والتفسير الكبير ٨٤/١٣ والبحر المحيط ١٧٨/٤ .

(٤) انظر المعجم المفهرس ص ٤٧٨ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية " ١٣٧ " .

(٦) سورة المؤمنون ، الآية " ٥٤ " .

(٧) سورة هود ، الآية " ٦٤ " .

(٨) سورة الأنعام ، الآية " ١٣٧ " .

الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } (١) وقوله تعالى : { فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ } (٢) أو تحقيق رغبة ملتوية عند المنافقين كما في قوله تعالى : { سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ } (٣) أو رغبة في الهروب من المجاعة كما في نصيحة يوسف عليه السلام : { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ } (٤) .

في هذه المقامات تتجلى القوة والعنف والحسم ، وإن دلت على معنى التهديد لكن لاتصل إلى درجة التهديد المستفاد من صيغة الأمر ، وهذا نمط عجيب من بلاغة القرآن وأسراره التى لا تتناهى .

وخلاصة القول إن فعل الأمر " ذر " كثر استعماله في القرآن في معنى التهديد والوعيد أعان عليها الفعل نفسه لما فيه من الخفة والسرعة والحسم التي تناسب المقام ، وقد جاء قليلاً في مقامات أخرى تقتضي هذه السرعة في أمور منهي عنها أو محظورة

موازنـــة :

في القرآن أفعال متقاربة الدلالة وذلك نحو ((اترك ، اجتنب ، دع ، ذر)) وإن اختلفت دلالتها لأن كل فعل له من حيث بنيته وهيئته وصوته دلالته ومقامه لايغني عنه سواه يتضح ذلك من خلال هذه الموازنات :-

قال تعالى : { ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَايُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } (٥) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية " ١٨٠ " .

(٢) سورة الجمعة ، الآية " ٩ " .

(٣) سورة الفتح ، الآية " ١٥ "

(٤) سورة يوسف ، الآية " ٤٧ " .

(٥) سورة الحج ، الآية " ٣٠ " .

وقوله تعالى : { وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ } (١)

وقوله تعالى : { فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ } (٢) .

وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } (٣) .

فالفعل " اجتنبوا " جاء في مقامات قوية عنيفه وذلك لاتصالها بأمور خطيرة ، دعا القرآن إلى تحريمها واجتنابها نحو قوله تعالى : { أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ } (٤) .

وقوله تعالى : { فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } (٥) وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } (٦) ، وقوله { إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (٧) .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية " ١٢٠ " .

(٢) سورة الدخان ، الآيتان " ٢٣ - ٢٤ " .

(٣) سورة الأحزاب ، الآيات " ٤٥ - ٤٨ " .

(٤) سورة النحل ، الآية " ٣٦ " .

(٥) سورة الحج ، الآية " ٣٠ " .

(٦) سورة الحجرات ، الآية " ١٢ " .

(٧) سورة المائدة ، الآية " ٩٠ " .

فقد جاءت هذه الآيات لتدل على معاني التحذير والتهديد والوعيد في أساليب مرعدة عنيفه تتناسب مع صيغة الفعل " اجتنبوا " الذي نحس فيه الجلبة والقصف المرعد الناجم من حرف الجيم .

وفي آية الحج يقول الزمخشري ((لما حث الله على تعظيم حرماته واحمد من يعظمها اتبعه بالأمر باجتناب الأوثان وقول الزور ، لأن توحيد الله ونفي الشركاء عنه ، وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطوا ، وجمع الشرك وقول الزور في قران واحد وذلك لأن الشرك من باب الزور لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال : فاجتنبوا عبادة الأوثان التى هي رأس الزور ، واجتنبوا قول الزور كله لا تقربوا شيئاً منه لتماديه في القبح والسماجه ، وسمى الأوثان رجساً وكذلك الخمر والميسر والازلام على طريق التشبيه : يعنى أنكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبوه فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة)) (١) .

فهذه الآية مهولة بتراكيبها العنيفة وألفاظها الغاضبة ، فتكرار الفعل ، ودلالة الرجس – كما ذكر الراغب يقال للصوت الشديد وبعير رجاس شديد الهدير ، وغمام راجس ورجاس شديد الرعد – (٢) وظلال الأوثان والزور توحي بالشدة والعنف .

وتكرار الجيم في هذا السياق نحس فيه معنى الجلبة والضوضاء التى تتناسب مع هذا التهديد الشديد .

اما الفعل " ذر " فقد أشرنا قبل قليل إلى مقاماته ، والآية لم نخترها جزافاً ، بل تعمدنا اختيارها لأن فيها دعوة إلى ترك الآثام والمحرمات .

ففيها دعوة إلى التقرب إلى الله بترك الإثم واجتناب المعاصي ((والتعريف في الإثم يفيد الاستغراق ، والمقصود منه تعميم أفراد الإثم وانحصاره في هذين القسمين

---

(١) الكشاف ٣ / ١٢ .

(٢) انظر المفردات ص ١٨٨ .

ظاهره وباطنه ، وجملة " إن الذين يكسبون " تعليل للأمر بترك الإثم وإنذار وإعذار للمأمورين ولذلك أكد الخبر " بأن " وإظهار لفظ الإثم في مقام اضماره إذ لم يقل " إن الذين يكسبونه " لزيادة التنديد بالإثم وليستقر في ذهن السامع أكمل إستقرار ، ولتكون الجملة مستقلة فتسير مسير الأمثال والحكم)) (١) .

أما الفعل " اترك " فلم يرد في القرآن إلا في هذا الموضع ، وهو خطاب لموسى عليه السلام فيه تهديد لفرعون وقومه ، أي يتبعكم فرعون وقومه فيكون ذلك سبباً لهلاككم " واترك البحر رهواً " وفي الرهو قولان :

" أحدهما " انه الساكن يقال عيش راه إذا كان خافضاً وادعاً ، وأفعل ذلك سهواً رهواً أي ساكناً بغير التشدد ، أراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق كما كان فأمره الله تعالى بتركه ساكناً على هيئته قاراً على حاله في إنفلاق الماء وبقاء الطريق يبساً حتى تدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقهالله عليهم .

و " الثاني " أَنَّ الرهو هو الفرجة فيما بين البحر ، " إنهم جند مغرقون " يعني اترك الطريق كما كان حتى يدخلوا فيغرقهم الله ، وإنما اخبره الله تعالى بذلك حتى يبقى فارغ القلب عن شغلهم وإيذائهم .(٢)

أما الفعل " دع " فلم يرد في القرآن إلا في هذا الموضع ، في خطاب موجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره برسالته في الأرض ويحدد له مهماته وأنه شاهد ومبشر يبشر المؤمنين ونذيرٌ ينذر بالهلاك والدمار حزب الباطل ، وأنه داع يدعو إلى الله وسراج منير يهدى إلى الطريق المستقيم ، فهو متصل بالرحمة والبشرى والدعوة إلى الله والصبر والجلد في مصارعة أهل الباطل والضلال . (٣)

---

(١) التحرير والتنوير الجزء الثامن ، القسم الأول ص ٣٧ ومابعدها .

(٢) انظر الكشاف ٥٠٣/٣ ؛ والتفسير الكبير ٢٧ / ٢٤٧ .

(٣) انظر من أسرار التعبير القرآني ص

فهذه الأفعال كلها دالة على الترك والاجتناب نرى كل لفظ منها جاء في اتساق مع سياقه ومقامه لايغني عنه سواه .

ومن أساليب الأمر التى أفادت التهديد والوعيد الفعل " تربصوا " حيث ورد في القرآن في خمسة مواضع في جميعها للتهديد والوعيد . (١) ، من ذلك قوله تعالى أمراً نبيه أن يهدد المشركين ويتوعدهم : { أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ } (٢) .

فالأمر في قوله : " تربصوا " للتهديد والوعيد (٣) ، وفيه عدة كريمة بإهلاكهم ، فتكرار مادة التربص في هذا السياق للسخرية والتهديد .

ويبدو أنَّ ما ذكره صاحب التحرير والتنوير من أن الأمر في قوله " تربصوا " مستعمل في التسوية (٤) ، بعيد عن الصواب لايتفق مع سياق الآية الكريمة .

ومنه قوله تعالى : { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (٥) .

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٢٩٩ .

(٢) سورة الطور ، الآية " ٣١ " .

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٨ / ٢٥٥ ؛ والبحر المحيط ، ١٥١/٨ ؛ وتفسير أبي السعود ٢١٣/٥ ؛ وروح المعاني ٤١/٢٧ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٧ / ٦٢ .

(٥) سورة التوبة ، الآية " ٢٤ " .

السياق دال في هذه الآية على التهديد والوعيد لهؤلاء المشركين ، فالأمر في قوله " تربصوا " للتهديد والوعيد (١) ، وجملة " والله لايهدي القوم الفاسقين " تذييل وتعريض بتهديدهم ، لأنهم " فضلوا قرابتهم واموالهم على محبة الله ورسوله وعلى الجهاد فقد تحقق أنهم فاسقون ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ، فحصل بموقع التذييل تعريض لأنهم من الفاسقين " (٢) .

ومنه قوله تعالى : { قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ } (٣) .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين : { قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } (٤)

لاريب ان الأمر في قوله " اعبدوا ماشئتم " للتهديد والوعيد (٥) .

وفي هذه الآية الكريمة : ((أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أولاً ببيان كونه مأموراً بعبادة الله مخلصاً له الدين ، وهذا أمر بالإخبار بامتثاله الأمر على أبلغ وجه وآكده إظهاراً لتصلبه في الدين وحسماً لقطع أطماعهم الفارغة وتمهيداً لتهديدهم

---

(١) انظر الكشاف ١٨١/٢ ؛ والتفسير الكبير ٢٠/١٦ ؛ والبحر المحيط ٢٣/٥ ؛ وتفسير أبي السعود ٥٣٦/٢ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٥٤/١٠ .

(٣) سورة طه ، الآية " ١٣٥ " .

(٤) سورة الزمر ، الآيتان "١٤- ١٥"

(٥) انظر الطبري ١٣٠/٢٣ ومابعدها ؛ والتفسير الكبير ٢٥٥/٢٦ ؛ والبحر المحيط ٤٢٠/٧ ؛ وتفسير أبي السعود ٦٠٤/٤ ؛ وغرائب القرآن ١٣١/٢٣ .

بقوله تعالى : " فاعبدوا ماشئتم " (١) وجعلت الصلة هنا فعل المشيئة إيماءً إلى أن رائدهم في تعيين معبوداتهم هو مجرد المشيئة والهوى بلا دليل . (٢)

وقد ورد الأمر بالعبادة في القرآن في نيف وعشرين موضعاً ، فإن كان خاصاً بعبادة الله تعالى فهو حقيقي للتكليف ، وإن وقع على غيره سبحانه فهو للتهديد والوعيد (٣) .

ولم يرد للتهديد إلا في الموضع السابق " والله أعلم " .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين : { قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } (٤)

فالأمر في قوله " اعملوا " للتهديد والوعيد كما نص على ذلك بعض المفسرين (٥) ، غير أن الطاهر بن عاشور اشار إلى أن الأمر مستعمل في التسوية (٦) وهذا كما نرى توجيه بعيد لايعتد به لأن السياق ينبو عنه .

وقد ورد هذا الفعل في القرآن في أحد عشر موضعاً في ستة منها أفاد معنى التهديد ، وفي المواضع الأخرى حقيقي فيه حث وترغيب للمؤمنين ووعيد وتهديد لغيرهم (٧) .

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٦٠٤/٤ ؛ وروح المعاني ٢٥٠/٢٣ ومابعدها .

(٢) التحرير والتنوير ٢٥٩/٢٣ .

(٣) انظر المعجم المفهرس ص ٤٤٢ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية " ١٣٥ " .

(٥) انظر تفسير الطبري ٢٩/٨ ومابعدها ؛ والكشاف ٥٢/٢ ؛ والتفسير الكبير ٢١٣/١٣ ؛ وتفسير أبي السعود ٢٨٨/٢ ؛ وغرائب القرآن ٢٩/٨ ؛ وحاشية الشهاب ١٢٧/٤ ؛ وروح المعاني ٣١/٨ .

(٦) التحرير والتنوير الجزء الثامن القسم الأول ص ٩٠ .

(٧) راجع المعجم المفهرس ص ٤٨٧ .

ومما أفاد منه معنى التهديد والوعيد قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (١) .

السياق في هذه الآية ينبض بمعاني التهديد والوعيد الشديد ، حيث ذكر بعض البلاغيين أن الأمر في قوله " اعملوا ماشئتم " للتهديد والوعيد (٢) .

والأسلوب يشارك في إبراز هذا المعنى وترقيه بجمله وتراكيبه ، حيث ان المراد بلحد كما ذكر الزمخشري ((يقال الحد الحافر ولحد : إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق فاستعير للإنحراف في تأويل أيات القرآن عن جهة الصحة والإستقامة)) (٣) ثم إن الصلة في قوله " يلحدون في أياتنا " منبئة عن وجه بناء الخبر كما يقول البلاغيون (٤) وأنه لا محالة واقع بهم وأنه صادر عن نفثة غضب ، وفي إضافة الآيات إلى الله عز وجل ما يؤكد ذلك ، وفي قوله " لايخفون علينا " قرع أعنف وإنذار أشد ، ويزداد فعله بمقدار هيمنة قائله ، وقولك لمن يناوئك : إن ما تفعله لايخفى عليّ ، فيه تهديد صريح ، وقيمة هذا التهديد مستمدة من قيمة من يهدد فإذا كان فارغاً كان التهديد كذلك ، وقوله " أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة " تلويح واضح بسوط العذاب الموجع ، وهذا الاستفهام فيه إنكار واستجهال وتقرير وتهديد وتهكم واستخفاف ، والبناء

---

(١) سورة فصلت ، الآية " ٤٠ " .

(٢) انظر الإيضاح ٢٤٢/١ ؛ وشروح التلخيص ٣١٤/٢ ؛ والمطول ص ٢٤٠ ؛ والأطول ٢٤٨/١ ؛ وأساليب بلاغية ص ١١٣ ؛ وعلم المعاني ص ٣٩ ؛ ومن بلاغة النظم العربي ٧٥/٢ ؛ ودلالات التراكيب ص ٢٤٨ .

(٣) الكشاف ٣ / ٤٥٥ .

(٤) انظر الإيضاح ١ / ١١٧ .

للمجهول فيه إشارة إلى أنه يخطف من حيث لايدري ، وفي التعبير بالالقاء إيحاء بالنبذ والطرح ، وتأتي في مقابلة هذه الصورة المفزعة صورة من يأتي أمناً تتلقاه الملائكة بالتكريم والحفاوة (١) .

((وهي موازنة غير متكافئة تعقدها سطوة القدر ولذا فقد حذفت النتيجة لوضوحها بل إن ذكر الخيرية هنا فيها مسحة من السخرية بالمكذبين فأي خير في جزائهم الرهيب ، وفي لمحة بمثل الحاضر يملؤها الوعيد المرعد ينصب تلقائياً على النوع الخاسر من البشر بدون ذكر صفاتهم ، أو سبق نداء لهم ، فهم هم الملحدون ، وهم هم الملقون في النار ، انه إلتفات في ثلاث كلمات ملتهبة الحروف " اعملوا ماشئتم " بالإطلاق في الفعل والمفعول فليس فيه إباحة للشر بل إنه الوعيد الشديد ، وماذا يصنع الكافر أمام خالقه الجبار وهو مقيد الخطو بسنن راغمة وان ربك لبالمرصاد)) (٢)

ومنه قوله تعالى : { لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } (٣) .

رجح العلماء على أن اللام في قوله ليكفروا " وليتمتعوا " في هذه الآية لام الأمر وليست للتعليل لوجود قراءة تؤيدهم حيث قرأ بها ابن كثير وقالون وحمزه والكسائي بجزم اللام في الموضعين (٤) ويكون الأمر للتهديد والوعيد .

((والله سبحانه لايأمرهم بالكفر ولكن لما علم أنه لايكون منهم إلا ذلك وأنهم أصحاب لجاجه واجههم بهذا التهديد الموحي بأنه لشدة غضبه عليهم كأنه يأمرهم بما

---

(١) دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ص ٢٤٨ ومابعدها ؛ وراجع وجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٢٦٦ .

(٢) الأساليب الإنشائية ص ٥٥ ومابعدها .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية " ٦٦ " .

(٤) انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٥٠٢ ؛ والإقناع في القراءات السبعة لابن الباذش ٧٢٧/٢ .

يوجب عقابهم ، وقد ذكر البلاغيون في ذلك مثالاً ترى فيه دقة هذه الفكرة ووضوحها مع أنه مؤلف مبذول قالوا يقول السيد لخادمه اعصني وهو لايريد منه المعصية وإنما يهدده وكأن رغبته الشديدة في الإيقاع به تجعله يطلب منه مايثير غضبه عليه أكثر فيكون عقابه الذع وأوجع)) (١) .

ومنه قوله تعالى : { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... } (٢) .

السياق في هذه الآية دال على التهديد والوعيد فالأمر في قوله " ليؤمن ، ليكفر " للتهديد ، ويومض السياق بالتخيير مع التهديد فهومستفاد من الجملة الشرطية"(٣).

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين : { قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ } (٤) .

فالأمر في قوله " انتظر " تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد ووعيد للمشركين كما ذكر المفسرون (٥) .

---

(١) دلالات التراكيب ص ٢٥٠ .

(٢) سورة الكهف ، الآية " ٢٩ " .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ٥١٧/٣ ومابعدها ؛ وروح المعاني ٢٦٨/١٥ ؛ والتحرير والتنوير ٣٠٧/١٥ ومابعدها ؛ ووجوه الخطاب ص ٢٧١ - ٢٧٤ .

(٤) سورة السجده ، الآيتان ٢٩-٣٠ " .

(٥) انظر الكشاف ٢٤٧/٣ ؛ والتفسير الكبير ١٨٩/٢٥ ؛ والبحر المحيط ٢٠٦/٧ ؛ وتفسير أبي السعود ٣٩٧/٤ ؛ وروح المعاني ١٤١/٢١ ؛ والتحرير والتنوير ٢٢٤/٢١ ؛ وظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٧٧٢ .

ومنه قوله تعالى : { يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَيَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلْ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ } (١) .

وتشي كثير من أساليب التسلية التي جاءت خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم أو للأنبياء عليهم السلام بالتهديد والوعيد للمشركين من ذلك قوله تعالى : { فارتقب يوم تاتي السماء بدخان مبين } (٢) ، وقوله تعالى : { وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ } (٣) ، وقوله تعالى : { إِنَّا مُرْسِلُواْ النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ } (٤) .

فالخطاب في هذه الآية لنبي الله صالح عليه السلام فهو تأييد له وتثبيت له عليه السلام وتهديد لهم .

ومنه قوله تعالى : { فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً } (٥) .

وقوله تعالى : { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } (٦) .

((فهذه كلمة يقولها الجبار القهار ، والمكذبون بشر من البشر والذى يتهددهم هو الذي خلقهم ابتداءً وخلق هذا الكون " بكن " ولا تزيد ، ذرني والمكذبين ... فهي

---

(١) سورة الأنعام ، الآية " ١٥٨ " ؛ وراجع الكشاف ٦٤/٢ ؛ والتفسير الكبير ٨/١٤ ؛ والبحر المحيط ٢٦٠/٧ ؛ وتفسير أبي السعود ٣١٣/٢ .

(٢) سورة الدخان ، الآية " ١٠ " .

(٣) سورة هود ، الآية " ٩٣ " .

(٤) سورة القمر ، الآية " ٢٧ " .

(٥) سورة الطارق ، الآية " ١٧ " .

(٦) سورة المزمل ، الآيتان " ١٠ - ١١ " .

دعوتي وما عليك إلا البلاغ ، ودعهم يكذبون ، واهجرهم هجراً جميلا وساتولى أنا حربهم فاسترح أنت من التفكير في شأن المكذبين (١) ، " ومهلهم قليلاً " فهذا وعيد لهم بسرعة الانتقام (٢) ، ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلاً وإن هى يوم أو بعض يوم في حساب الله سبحانه وتعالى (٣) .

ولا ريب في أن ماتضمنته أساليب الأمر في هذه الآية الكريمة من تهديد وتوبيخ وتهكم بهؤلاء المشركين من صناديد قريش كان لها أثرها الفعال في خدمة أغراض الدعوة القرآنية .

فهذا التهديد المستفاد من أساليب الأمر في هذه الآية ونظائرها جيء به من أجل تقرير حقيقة الوحدانية وإثبات صدق رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

على ألسنة المشركين :

تفيد بعض أساليب الأمر التي جاءت على ألسنة الكافرين التهديد والوعيد والتهكم من ذلك قوله تعالى : { فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِ حَتَّى حِينٍ } (٤) .

لاشك أن الأمر في هذه الآية يفيد التهديد والوعيد بدلالة السياق ومقتضيات الأحوال .

ومنه قوله تعالى على ألسنة المشركين : { وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ } (٥)

---

(١) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٧٤٧ .

(٢) انظر البحر المحيط ٨ / ٢٦٤ .

(٣) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٧٤٧ .

(٤) سورة المؤمنون ، "٢٤" " ٢٥ " .

(٥) سورجة فصلت ، الآية " ٥ " .

السياق في هذه الآية يصور تماديهم في الكفر والضلال ويوضح شناعتهم حيث تجرأوا على الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم وتهديده بقولهم " اعمل " سخرية واستهزاءً وتهديداً " إننا عاملون " فهذا خبر مستعمل أيضاً في التهديد (١) .

التهديد والمنافقون :

تفيد بعض أساليب الأمر معنى التهديد والوعيد من ذلك قوله تعالى خطاباً للمنافقين : { يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِأُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ } (٢)

يكشف الحق سبحانه في هذه الآية عن حقيقة ا لمنافقين وماتنطوي عليه نفوسهم المريضة من كره وحقد على الإسلام وأهله ، وعن استهزائهم بالله وآياته ورسوله ومايتآمرون به ويدبرونه في الخفاء ، حيث يوضح السياق شدة خوفهم من أن يكشف الله لرسوله حقيقتهم .

وفي هذه الآية يأمر الله رسوله الكريم أن يهددهم ويأمرهم بقوله : " قل استهزأوا " على سبيل التهديد والوعيد الشديد لهم (٣) ، وأتى بالجملة التعليلية للأمـر " إن الله مخرج " زيادة في تهديدهم وكشفاً لما تنطوي عليه نفوسهم من خبث وكيد .

وإيثار " التعبير بالموصول في قوله " ماتحذرون " دون أن يقال " ان الله مخرج سورة تنبئكم بما في قلوبكم " لأن الأهم من تهديدهم هو إظهار سرائرهم لا إنزال سورة ، فذكر الصلة واف بالأمرين : إظهار سرائرهم ، وكونه في سورة تنزل ، وهو انكى لهم ففيه إيجاز بديع " (٤)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٣٦ .

(٢) سورة التوبة ، الآية " ٦٤ "

(٣) انظر الطبري ١١٨/١٠ ؛ والتفسير الكبير ١٢٤/١٦ ؛ والبحر المحيط ٦٦/٥؛ وتفسير ابي السعود ٥٧٢/٢؛ وغرائب القرآن ١١٨/١٠؛ وروح المعاني١٣٠/١٠.

(٤) التحرير والتنوير ٢٤٩/١٠.

إضافة الى ماسبق بيانه وتفصيله من أساليب الأمر التي افادت معنى التهديد في القرآن ، فهناك أوامر حقيقيةإئتلف بها معنى التهديد والوعيد وهي كثيرة تند عن الحصر نكتفي بإيراد بعضها على سبيل الإستشهاد من ذلك قوله تعالى : { خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ... } (١) ولا ريب في أن توالي الأوامر في هذه الآيات الكريمات دالة على أنهاأوامر حقيقية تصور التهديد الغاضب والوعيد والغضب الأخاذ والإهانة المبكتة.

ومنه قوله تعالى : { قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً } (٢)

واضح أن الأمر في هذه الآية حقيقي فيه تهديد شديد ، فقد هدده بعقوبة أجلة إن لم يقلع عن كفره بآلهتهم ، وبعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته وقطع مكالمته .

ومنه قوله تعالى : { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } (٣)

---

(١) سورة الحاقة ، الآية " ٣٠ " ومابعدها

(٢) سورة مريم ، الآية " ٤٦ "

(٣) سورة النمل ، الآيات " ٢٩ - ٣١ "

متفرقـات

هناك طائفة من المعاني البلاغية التي أفادها الأمر في القرآن الكريم وقد وردت في أساليب محدودة من أهمها :

التشريف : وهو كل مافي القرآن الكريم من الفعل " قل " كالمعوذتين والإخلاص والكافرون ، ومن الآيات قوله تعالى { قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ } (١)

فالأمر في قوله " قل " تشريف منه تعالى لهذه الأمة بأن يخاطبها الله بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة " (٢)

ومن معاني الأمر البلاغية : التفويض كما في قوله تعالى على ألسنة السحرة بعد ما تبين لهم الحق فآمنوا برب موسى وهارون { قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ } (٣)

يوضح هذا السياق موقف السحرة أمام فرعون بعد ظهور الحق ، ويصور حالهم بعدما رأوا الآيات البينات فمس الإيمان شغاف قلوبهم ، حيث أعلن السحرة وقفة التحدي لفرعون ، والقوه وعدم المبالاة بما يفعله بهم ، وتجاهلوا كل مايصيبه من وعيد ، فلم يخافوا من تعذيب وتعزير فقالوا " أقض ما أنت قاض " وهذا الموقف يمثل الإيمان وحلاوته وصلابة التحدي وعمق التضحية ، وليس من المتصور أنهم يريدون الموت من فرعون ولكنه أسلوب السخرية والتحدي " (٤)

فالأمر في قوله " أقض ما أنت قاض " للتفويض كما ذكر بعض البلاغيين والأصوليين (٥) ، وذكر ابن فارس رحمه الله أنه للتسليم (٦) ، والدلالتان متقاربتان كما هو واضح .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٨٤ " .

(٢) انظر البرهان ٢٥١/٢ ومابعدها والاتقان ١٠٤/٣ ومعترك الأقران ٢٣٧/١ والأساليب الانشائية ص ٦٢ .

(٣) سورة طه ، الآية " ٧٢ " .

(٤) انظر أسلوب المحاورة ص ١٩٠ ومن بلاغة النظم العربي ٨٧/٢ .

(٥) انظر عروس الأفراح ٣٢١/٢ والإبهاج في شرح المنهاج ٢ / ٢١ .

(٦) الصاحبي ص ٣٠٠ وراجع معجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٩ وأساليب بلاغية ص ١١٤ .

ومن معاني الأمر البلاغية الطمأنة والتثبيت نحو قوله تعالى خطاباً لموسى عليه السلام { وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ } (١)

تكشف هذه الآية عن الحالة التي كان عليها موسى عليه السلام حين رأى عصاه تهتز كأنها جان حيث سيطر عليه الخوف وتملك جميع أعضائه ففر هارباً ، ولم يعقب وهذا مايتضح من خلال التعبير بقوله " ولى مدبراً ولم يعقب ياموسى أقبل ولاتخف " فهو يصور حالة الخوف التي سيطرت على موسى وجعلته يتصرف هذا التصرف لكن الحق سبحانه وتعالى سرعان ما يطمأنه ويزيل عنه الخوف والهم بقوله " ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين " فالأمر في قوله " أقبل " للطمأنة والتثبيت وكذلك النهي في قوله " لاتخف " بدليل قوله " إنك من الآمنين " فهذا التعبير يدل على زيادة تحقيق الأمن والطمأنينة حيث جاء مؤكداً " بان " وجعله من جملة الآمنين وهو أشد في تحقيق الأمن من أن يقال " إنك آمن " (٢) ودليل على كمال العناية الإلهية به وزيادة تشريف له عليه السلام .

ومن أغراض الأمر البلاغية في القرآن : التحريض والحث نحو قوله تعالى: { يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } (٣)

فلام الأمر في قوله " فليتنافس المتنافسون " للتحريض والحث والترغيب ، أي فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله ، كما أن التعبير باسم الاشارة " ذلك " دلالة على علو شأن هذا النعيم ، وإشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم الدائم لا في النعيم الذي هو مكدر سريع الفناء ، فهذا النعيم مطلب يستحق المنافسة وأفق يستحق السباق وغاية تستحق الغلاب . (٤)

ونظيره قوله تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَايُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً } (٥)

---

(١) سورة القصص ، الآية " ٣١ " .

(٢) التحرير والتنوير ٢١ / ١١٣ .

(٣) سورة المطففين ، الآيتان " ٢٥ - ٢٦ " .

(٤) التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٠٧ .

(٥) سورة الكهف ، الآية " ١١٠ " .

ومن معاني الأمر البلاغية : إظهار السعادة والرضا والتباهي بما أعطي نحو قولهتعالى على لسان الذي أوتي كتابه بيمينه في الآخرة { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ } (١)

فقوله " هاؤم اقرأوا كتابيه " لإظهار السعادة والفرح والرضا والتباهي بما أعطي جزاءً ورحمة من الله لعبادة المؤمنين .

وهذه الآية تصور مشهداً من مشاهد الآخرة ، مشهد التكريم لهذا الناجي في ذلك اليوم العصيب وهو أخذ كتابه بيمينه والدنيا لاتسعه من الفرحة والسرور وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة ، والسعادة تملأ جوانحه وتغلبه على لسانه فيهتف " هاؤم اقرءوا كتابيه " وفي هذا التعبير كناية عن كونه في حبور ونعيم وتكريم عظيم أنعم الله به عليه . (٢)

ومن أغراض الأمر البلاغية في القرآن التبشير والتعجيل بالمسرة نحو قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَاتَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } (٣)

تبرز هذه الآية الكريمة التكريم البالغ الذي حظي به المؤمنون في الدنيا حيث تتنزل عليهم الملائكة بالطمأنة والتثبيت ونفي الخوف عن أنفسهم ، وليس هذا فحسب بل بالبشارة بدخول الجنة ، وفي وصف الجنة بقوله " التى كنتم توعدون " تذكير لهم بأعمالهم التى وعدوا عليها بالجنة وتعجيل لهم بمسرة الفوز برضا الله وتحقيق وعده أي التي كنتم توعدونها في الدنيا " (٤) .

---

(١) سورة الحاقة ، الآيتان " ١٩ - ٢٠ " .

(٢) انظر في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٦٧٦ ، ص ٣٦٨١ والتحرير والتنوير ١٣٠/٢٩ .

(٣) سورة فصلت ، الآية " ٣٠ " .

(٤) التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٨٥ .

الباب الثاني

أساليب النهي في القرآن الكريم

و

أسرارها البلاغية

المدخـل

أسلوب النهي

الدلالة اللغوية للنهي :

النهي في اللغة مصدر نهي : إذا زجره وكفه . (١)

وفي إصطلاح البلاغيين :-

طلب الكف عن الفعل إستعلاءً ، وصيغته لاتفعل وهـي حقيقة فـي التحريم . (٢)

معاني النهي البلاغية :-

تخرج صيغة " لاتفعل " عن دلالتها الأصلية فتفيد معاني بلاغية متنوعة تستفاد من السياق بمعونة القرائن وأحوال التراكيب .

---

(١) راجع في تحرير الدلالة مقاييس ٣٥٩/٥ ومابعدها وأساس البلاغة ص ٤٧٥ والصحاح ٢٥١٧/٦ ومابعدها واللسان ٤٥٦٤/٦ والمفردات ص ٥٠٧ ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ٧٦٧/٢ ومابعدها .

(٢) انظر شروح التلخيص ٣٢٤/٢ والمطول ص ٢٤١ ؛ والأطول ٢٤٩/١ والاتقان ٢٤٣/٣ ومابعدها ومعترك الأقران ٤٤٣/١ وبغية الإيضاح ٥٦/٢ والأساليب الانشائية ص ٦٨ وأساليب بلاغية ص ١١٦ .

الفصل الأول

مناهج العلماء في معالجة أساليب النهي

مناهج العلماء في معالجة أساليب النهي

النهي كصنوه الأمر من أوائل الاساليب التي تنبه العلماء إلى خروجه عن دلالته الأصلية إلى معان بلاغية متنوعة إهتداءً بالمقام وقرائن الأحوال .

ولعل من أبرز هؤلاء العلماء الذين كان لهم أثر واضح في ميدان البحث البلاغي بصفة عامة ، وفي الإشارة إلى بعض المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي بصفة خاصة علماء اللغة والنحو وعلماء التفسير وعلماء أصول الفقه والبلاغة .

وإذا كنا في دراستنا لأسلوب الأمر قد عثرنا عى نصوص كثيرة تدل على خروج الأمر عن معناه الأصلي إلى معان بلاغية كثيرة فإننا لانكاد نعثر إلا على نزر يسير من النصوص التي تشير إلى خروج النهي عن دلالته الأصلية إلى معان بلاغية وهذا ما أمكن الجهد الوصول إليه ، فليس الهدف من الدراسة التاريخية السعي إلى الإكثار من الشواهد والنصوص وإنما التأصيل لبلاغة هذه الأساليب والتأكيد على إفادتها للأغراض البلاغية بمعونة السياق والمقام .

أولاً منهج اللغويين والنحاة :-

١ - سيبويه :-

سبق سيبويه علماء البلاغة في الحديث عن أغراض النهي البلاغية حيث تنبه إلى خروج النهي إلى معنى الدعاء قائلاً " هذا باب مايعمل في الأفعال فيجزمها. وذلك : لم ، ولما ، واللام التى في الأمر ، وذلك قولك ليفعل ، ولا في النهي وذلك قولك لاتفعل ، فإنما هما بمنزلة لم .

وأعلم أن هذه اللام ولا في الدعاء بمنزلتهما في الأمر والنهي وذلك قولك لايقطع الله يمينك ، وليجزيك الله خيراً " (١)

من خلال هذا النص يتضح لنا أن سيبويه قد فطن إلى خروج النهي عن معناه الأصلي إلى معني الدعاء .

---

(١) الكتاب تحقيق عبدالسلام هارون ٣/٨ وانظر ١/١٤٢ .

٢ - الفـــراء :-

أشار الفراء في كتابه معاني القرآن إلى بعض المعاني البلاغية التي يخرج إليها النهي عند تفسيره لآيات القرآن الكريم منها خروج النهي إلى معنى التأديب يقول في تفسير قوله تعالى{وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ }(١) " وليس هذا بنهي محرم ، إنما هو من الله أدب " (٢)

وأشار إلى خروجه إلى معنى الدعاء في قوله تعالى { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } (٣) يقول : الفراء وقوله { فلايؤمنوا } كل ذلك دعاء ، كأنه قال اللهم فلايؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم " (٤)

بهذا يتضح لنا أن الفراء قد أدرك بحسه البلاغي بعض سمات التعبير القرآني ومايحويه من لطائف وأسرار بلاغية ، منها إشارته إلى خروج النهي عن دلالته الأصلية إلى معان بلاغية ينبض بها بيان القرآن المشرق .

٣ - أبو عبيدة :-

عرض أبو عبيدة لبعض الصور البلاغية التى يخرج إليها النهي كالدعاء يقول في تفسير قوله { وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } (٥) يقول أبوعبيدة " فلايؤمنوا " جزم لأنه دعاء عليهم أي فلايؤمنن " (٦)

٤ - أبو العباس المبرد :-

تأثر أبوالعباس المبرد في كتابه المقتضب بسيبويه إلى حد كبير ، فقد تابع سيبويه في الإشارة إلى خروج النهي عن دلالته الأصلية إلى معنى الدعاء حيث

---

(١) سورة النساء ، الآية " ٣٢ " .

(٢) معاني القرآن ٢٦٤/١ .

(٣) سورة يونس ، الآية " ٨٨ " .

(٤) معاني القرآن ٤٧٧/١ .

(٥) سورة يونس ، الآية " ٨٨ " .

(٦) مجاز القرآن ٢٨١/١ .

يقول " والدعاء يجري مجري الأمر والنهي ، وإنما سمي هذا أمراً ونهياً ، وقيل للآخر طلب للمعنى ، فأما اللفظ فواحد ، وذلك قولك في الطلب : اللهم اغفر لي ، ولايقطع الله يد زيد ، وليغفر لخالد " (١)

فالمبرد لم يقدم أي جديد يسجل له وإنما كان في هذا النص متأثراً بسيبويه وناقلاً عنه وإن لم يصرح بذلك . (٢)

٥ - ابن الشجري :-

درس ابن الشجري في أماليه أسلوب النهي دراسة جيدة لانكاد نظفر على مثلها لدى سابقيه ، حيث عرف النهي وذكر بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة النهي .

يقول في تعريف النهي " النهي هو المنع من الفعل بقول مخصوص مع علو الرتبة وصيغته لاتفعل ، ولايفعل فلان " ثم أشار إلى أن هذه الصيغة ترد للمخاطب والغائب بقوله " فمن النهي للمواجه { وَلَاتَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ }(٣) -{وَلَاتَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}- (٤) ومنه قوله عليه السلام { لاتباغضوا ولاتحاسدوا}(٥) " ومن النهي للغائب { لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ }(٦) -{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً}- (٧) فهذا كله يراد به التحريم ".

بعد هذا يعقب بذكر بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة النهي حيث

---

(١) المقتضب ٢ / ٤٤ .

(٢) راجع الكتاب لسيبويه ٨/٣ وأثر النحاة في البحث البلاغي ص ٢٠٧ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية " ١٥١ " .

(٤) سورة القصص ، الآية " ٨٨ " .

(٥) الحديث في صحيح مسلم ١٩٨٦/٤ كتاب البر والصلة والآداب ؛ وانظر فتح الباري ٤٨١/١٠ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية " ٢٨ " .

(٧) سورة الحجرات ، الآية " ١٢ " .

يقول : وقد ترد هذه الصيغة والمراد بها التنزيه كقوله تعالى : { وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ } (١) " أي لاتتركوه " (٢) .

كما أشار إلى خروج الخبر إلى معنى النهي بقوله " ومن النهي بلفظ الخبر أيضـاً: { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} (٣) معناه لايلهكم التكاثر كما قال { لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ } (٤) ومنه { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ } (٥) يقول " لا تطيعوهم " ومنه { قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَاقَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى } (٦) يقول " لاترغبوا في متاع الدنيا وارغبوا في الآخرة " ومنه {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ } (٧) معناه لاتجزعوا من الموت وقاتلوا فإن الموت ملاقيكم " (٨) وما ذكره ليس موضع إتفاق بين العلماء .

كما أشار إلى أن النهي يرد بغير صيغة النهي ، حيث يقول " وقد ورد النهي بغير هذه الصيغة وذلك نحو قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ (٩) -[حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } (١٠) وقد جاء النهي بلفظ الوعيد كقوله جل اسمه { إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً } (١١) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٧ " .
(٢) الأمالي الشجرية ٢٧١/١ .
(٣) سورة التكاثر ، الآية " ١ " .
(٤) سورة المنافقون ، الآية " ٩ " .
(٥) سورة آل عمران ، الآية " ١٤٩ " .
(٦) سورة النساء ، الآية " ٧٧ " .
(٧) سورة النساء ، الآية " ٧٨ " .
(٨) الأمالي الشجرية ١ / ٢٧٢ .
(٩) سورة النساء ، الآية " ٢٣ " .
(١٠) سورة المائدة ، الآية " ٣ " .
(١١) سورة النساء ، الآية " ١٠ " .

ومما جاء من النهي بلفظ النفي قوله جل وعز { مَاكَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } (١) أراد لاتستغفروا لهم ومنه { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ } (٢) أي لاترتابوا فيه أي لاتشكوا فيه ، ومثله { لَاتَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } (٣) أي لاتبدل أيها الانسان كلمات الله ..." (٤)

وبهذا الجهد خطا ابن الشجري بأسلوب النهي خطوات واسعة أفاد منها البلاغيون فيما بعد .

٦ - المرادي :-(٥)

تناول المرادي في كتابه الجنى الداني في حروف المعاني " لا " الناهية وأشار إلى إفادتها الدعاء حيث يقول " وأما " لا " الناهية فحرف يجزم الفعل المضارع ويخلصه للاستقبال نحو {وَلَاتَخَافِي وَلَاتَحْزَنِي } (٦) وترد للدعاء نحو { لَاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } (٧)

٧ - ابن هشام :-

أشار ابن هشام في كتابه مغني اللبيب إلى بعض المعاني البلاغية التي

---

(١) سورة التوبة ، الآية " ١١٣ " .

(٢) سورة البقرة ، الآية "٢" وانظر الأمالى الشجرية ٢٧١/١ ومابعدها .

(٣) سورة يونس ، الآية " ٦٤ " .

(٤) المصدر السابق ٢٧١/١ - ٢٧٢ .

(٥) هو محمد بن الحسن بن قاسم بن عبدالله المرادي المصري بدر الدين المعروف بابن أم قاسم المتوفي سنة ٧٤٩ هـ عالم مشارك في النحو والتفسير والفقه والقراءات من مصنفاته :شرح المفصل للزمخشري ، شرح الشاطبية في القراءات والجنى الداني فى حروف المعاني انظر ترجمته الأعلام ٢١١/٢ ومعجم المؤلفين ٢٧١/٣ .

(٦) سورة القصص ، الآية " ٧ " .

(٧) سورة البقرة ، الآية "٢٨٦" وانظر الجنى الداني ص ٣٠٠ .

تستفاد من صيغة النهي فى ضوء السياق والمقام كالتنزيه والدعاء والالتماس والتهديد حيث يقول " ولا فرق في اقتضاء "لا" الطلبية للجزم بين كونها مفيدة للنهي سواء كان للتحريم ، أو التنزيه نحو { وَلَاتَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ } (١) وكونها للدعاء كقوله تعالى { رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا } (٢) ... وكونها للالتماس كقولك لنظيرك غير مستعل عليه " لاتفعل كذا " وكذا الحكم إذا خرجت عن الطلب إلى غيره كالتهديد في قولك لولدك أو عبدك " لاتطعني " (٣)

بعد هذا العرض الموجز وهذه السياحة المباركة مع اللغويين والنحاة نستطيع القول بأن للغويين والنحاة أثراً كبيراً فى تطور المباحث البلاغية .

ثانيا : منهج المفسرين :-

لاشك أن للمفسرين جهداً بارزاً نحو البلاغة وتطورها ، إذ عالجوا كثيراً من الأساليب البلاغية التي يزخر بها النظم القرآني ومن بينها أسلوب النهي في القرآن الكريم .

١ - الطبـــري :-

ضم تفسير الطبري كثيراً من الفنون البلاغية التى تؤكد على جدارته ورسوخ قدمه في علوم البلاغة وقد عول كثير من المفسرين على مانثره الطبري في تفسيره من تحليلات بلاغية ولطائف بيانية فاحتذوا حذوه وتأثروا به وخاصة الزمخشري ومن سار على هديه .

ومن بين الفنون البلاغية التي تناولها خروج النهي عن دلالته الأصلية إلى

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٧ " .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .

(٣) مغني اللبيب ص ٣٢٦ تحقيق الدكتور مازن المبارك وآخرين .

معان بلاغية أخرى تفهم من السياق بمعونة القرائن وخصائص التراكيب كالدعاء نحو قوله تعالى : { رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } (١) يقول الطبري " وهذا تعليم من الله عز وجل عباده المؤمنين دعاءه كيف يدعونه ومايقولون في دعائهم إياه.(٢) " ومنه قوله تعالى { فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (٣) يقول " وقوله ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، يقول جل ثناؤه مخبراً عن قوم موسى أنهم دعوا ربهم فقالوا ياربنا لاتختبر هؤلاء الكافرين ولاتمتحنهم بنا يعنون قوم فرعون " (٤)

والتعزية نحو قوله تعالى { وَلَاتَهِنُوا وَلَاتَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ } (٥) يقول الطبري : "وهذا من الله تعزية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماأصابهم من الجراح والقتل بأحد قال ولاتهنوا ولاتحزنوا يا أصحاب محمد يعني ولاتضعفوا بالذي نالكم من القتل والقروح عن جهاد عدوكم وحربهم ..."(٦)

وقد ذهب بعض الأصوليين (٧) إلى أن صيغة النهي في هذه الآية ونظائرها مستعملة للطمأنة والتسكين ، وهذا الرأي قريب من رأي الطبري .

وأشار الطبري إلى خروج الخبر والاستفهام إلى معنى النهي كما في قوله تعالى : {.. لَاتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً } (٨) يقول الطبري " فإن قال قائل كيف قيل

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .
(٢) الطبري ٣ / ١٠٣ .
(٣) سورة يونس ، الآية " ٨٥ " .
(٤) الطبري ١٠٥/١١ وانظر ١٠٨/١١ .
(٥) سورة آل عمران ، الآية " ١٣٩ " .
(٦) تفسير الطبري ٤ /٦٦ .
(٧) انظر التمهيد في أصول الفقه ١ / ٣٦١ .
(٨) سورة البقرة ، الآية " ٨٣ " .

وقولوا للناس حسناً فأخرج الكلام أمراً ولما يتقدمه أمر بل الكلام جار من أول الآية مجرى الخبر ، قيل إن الكلام وإن كان قد جرى في أول الآية مجرى الخبر فإنه مما يحسن في موضعه الخطاب بالأمر والنهي فلو كان مكان " لاتعبدون إلا الله " " لاتعبدوا إلا الله " على وجه النهي من الله لهم عن عبادة غيره كان حسناً صواباً " (١) فالطبري يرى أن قوله "لاتعبدون" خبر مراد به النهي .

وقد نبه الزمخشري إلى أسرار التعبير بالخبر عن النهي وبلاغته بقوله " وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه " (٢) .

ومنه قوله تعالى { لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ }" (٣) يقول الطبري في توجيه هذه القراءة بالرفع " لانه خبر مراد به النهي . (٤)

هذه بعض الشواهد والأمثلة التى صرح فيها الطبري بخروج النهي عن دلالته الأصلية إلى معان بلاغية أخري تستفاد من السياق والمقام .

٢ - الزمخشري :

نص الزمخشري على أن النهي يخرج عن وضعه الأصلي فيفيد معاني أخري تفهم من السياق وهو يعرض لتفسير القرآن الكريم منها خروج النهي إلى معنى الدوام والاستمرار نحو قوله تعالى : { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ } (٥) يقول الزمخشري فيه وجهان والذي يهمنا الوجه الثاني " الثاني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ماكان عليه وثبت على التزامه كقوله " ولاتكونن من المشركين - ولاتطع المكذبين ، وهذا في

(١) الطبري ١ / ٣٦١ .

(٢) الكشاف ٢٩٢/١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٣ " .

(٤) الطبري ٢ / ٣٠٦ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية "١٩٦ " .

النهي نظيرقولك في الأمر - اهدنا الصراط المستقيم - يا أيها الذين آمنوا آمنوا " (١) .

وهذا الأسلوب نفسه الذي نهي به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفعال لايجوز عليه التلبس بها يلحظ الزمخشري فيه معنى الإلهاب والتهييج والاثارة لشدة التمسك بما هو عليه (٢) .

من ذلك قوله في تفسير قوله تبارك وتعالى { لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَلاَتَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (٣) .

يقول " أي اثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله ، ويجوز أن يكون على طريق التهييج والإلهاب كقوله - فلا تكونن ظهيراً للكافرين ولايصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك - ولزيادة التثبيت والعصمة " (٤)

ومنه قوله تعالى: { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ } (٥) " يقول الزمخشري " ونهيه عن الامتراء وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممترياً من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنة (٦) .

ومن معاني النهي البلاغية التى أشار إليها الزمخشري الحث والرغبة في الاتصاف بصفة معينة قال تعالى : { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَتَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } (٧) .

---

(١) الكشاف ١ / ٤٩. .
(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣١٢ .
(٣) سورة يونس ، الآيتين " ٩٤ - ٩٥ " .
(٤) الكشاف ٢ / ٢٥٣ .
(٥) سورة آل عمران ، الآيتين " ٥٩ - ٦٠ " .
(٦) الكشاف ١ / ٤٣٣ .
(٧) سورة البقرة ، الآية " ١٣٢ " .

يقول الزمخشري " معناه لايكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الاسلام ، فالنهي في الحقيقة عن كونهم خلاف الإسلام إذا ماتوا كقولك : لاتصل إلا وأنت خاشع فلاتنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته . فإن قلت : فأي نكتة في إدخال حرف النهي على الصلاة وليس بمنهي عنها ؟ قلت : النكتة فيه إظهار أن الصلاة التى لاخشوع فيها كلا صلاة ، فكأنه قال : أنهاك عنها إذا لم تصلها على هذه الحالة ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام " لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد " فإنه كالتصريح بقولك لجار المسجد ، لاتصل إلا في المسجد ، وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لاخير فيه وأنه ليس بموت السعداء وأن من حق هذا الموت أن لايحل فيهم ، وتقول في الأمر أيضاً : مت وأنت شهيد ، وليس مرادك الأمر بالموت ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات ، وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته وإظهاراً لفضلها على غيرها وأنها حقيقة بأن يحث عليها " (١) .

وأشار إلى خروج النهي إلى معنى التهويل والتعظيم نحو قوله تعالى : { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ } (٢) " يقول الزمخشري "قرىء ولاتسأل على النهي .. فنهي عن السؤال عن أحوال الكفرة والاهتمام بأعداء الله ، وقيل معناه تعظيم ماوقع فيه الكفار من العذاب كما تقول كيف فلان سائلاً عن الواقع في بلية ؟ فيقال لك لاتسأل عنه ، ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجري على لسانه ماهو فيه لفظا عنه فلا تسأله ولا تكلفه مايضجره ، وأنت يامستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع واضجاره فلا تسأل " (٣) .

ومن أغراض النهي البلاغية التيئيس والاستهزاء نحو قوله تعالى :

---

(١) الكشاف ٣١٣/١ وانظر البلاغة القرآنية ص ٣١١ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ١١٩ " .

(٣) الكشاف ١ / ٣٠٨ .

{ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } (١) " يقول الزمخشري " لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود منهم حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء ، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير ، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته " ولاتعتذروا " لاتشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لاتنفعكم بعد ظهور سركم (٢) " .

والإهانة نحو قوله تعالى خطاباً للمعذبين في النار { قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَاتُكَلِّمُونِ } (٣) .

يقول الزمخشري " أخسأوا فيها " ذلوا وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت ، يقال خسأ الكلب وخسأ بنفسه " ولاتكلمون " في رفع العذاب فإنه لا يرفع ولايخفف (٤)" فالأمر والنهي للإهانة والتحقير كما هو واضح من سياق الآية الكريمة .

هذه بعض معاني النهي التى أشار إليها الزمخشري ، وهناك أغراض أخرى ومن أراد الاستزادة فعليه بمراجعة الكشاف (٥) والبحوث التي قامت حوله .

٣ - فخر الدين الرازي :-

من المفسرين الذين عنوا بالبلاغة عناية خاصة الرازي فقد نثر في تفسيره المسمى بالتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب كثيراً من الفنون البلاغية منها خروج النهي عن معناه الأصلي إلى معان بلاغية كالإباحة كما في قوله تعالى :{ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } (٦) يقول الرازي " ولاتنس نصيبك من الدنيا " فيه وجوه ، ... وثانيها " لما أمره الواعظ بصرف المال إلى

---

(١) سورة التوبة ، الآية " ٦٦ " .
(٢) الكشاف ٢ / ٢٠٠
(٣) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .
(٤) الكشاف ٣ / ٤٤ .
(٥) لأستاذنا الدكتور محمد أبو موسى دراسة جيدة عن بلاغة الزمخشري .
(٦) سورة القصص ، الآية " ٧٧ " .

الآخرة بين له بهذا الكلام أنه لاباس بالتمتع بالوجوه المباحة " (١)

ومنها الدوام والاستمرار نحو قوله تعالى إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين " (٢) يقول الرازي وهذا " خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى : فدم على يقينك وعلى ما أنت عليه من ترك الامتراء " (٣)

والتبكيت كما في قوله تعالى { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ۔ لَاتَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَاتُنْصَرُونَ } (٤) يقول الفخر " بين سبحانه أن المنعمين منهم إذا نزل بهم العذاب يجارون أي يرتفع صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ماهم عليه ويقال لهم على وجه التبكيت " لاتجاروا اليوم إنكم منا لاتنصرون" (٥)

والارشاد يقول في تفسير قوله تعالى : { وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ..} (٦) " ظاهر هذا الكلام نهي لكل من كان كاتباً وإيجاب الكتبة على كل من كان كاتباً ، وفيه وجوه " الأول " أن هذا على سبيل الارشاد إلى الأولى لا على سبيل الإيجاب " (٧)

والالتماس والاعتذار كما في قوله تعالى : { قَالَ لَاتُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَاتُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً } (٨) يقول الرازي " فعند هذا اعتذر موسى عليه

---

(١) التنفسير الكبير ٢٥/١٦ .
(٢) سورة آل عمران ، الآيتين " ٥٩ – ٦٠ " .
(٣) التفسير الكبير ٨/٨٦ .
(٤) سورة المؤمنون ، الآيتين " ٦٤ – ٦٥ "
(٥) التفسير الكبير ٢٣/١١١ .
(٦) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢" .
(٧) المصدر السابق ٧ / ١٢٠ .
(٨) سورة الكهف ، الآية " ٧٣ " .

السلام بقوله " لاتؤاخذني بما نسيت " أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناس بشيء..."(١)

٤ - أبو حيان :-

عرض أبو حيان في تفسيره البحر المحيط لكثير من الفنون البلاغية واللطائف البيانية التى يمتاز بها النظم القرآني .

ويهمنا منها أنه تناول النهي وأشار إلى بعض أغراضه وأسراره البلاغية التي تستفاد من السياق بمعونة القرائن والأحوال كالتحقير ، يقول أبوحيان معلقاً على قوله تعالى : { فَلَاتُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } (٢) يقول : لما قطع رجاء المنافقين عن جميع منافع الآخرة بين الأشياء التي يظنونها من باب منافع الدنيا جعلها الله تعالى أسباباً ليعذبهم بها في الدنيا أي لايعجبك أيها السامع بمعنى لايستحسن ولايفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا كقوله " ولاتمدن عينيك " وفي هذا تحقير لشأن المنافقين"(٣) .

والإهانة والتوبيخ كما في قوله تعالى : { قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَاتُكَلِّمُونِ }(٤) يقول أبوحيان " ومعنى اخسأوا أي ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت يقال خسأ الكلب وخسأ هو بنفسه يكون متعدياً ولازماً ، ولاتكلمون " أي في رفع العذاب أو تخفيفه هذا هو كلام الزمخشري الذي سبق أن نقلناه لكن أبا حيان يعقب عليه بقوله " وهذه الآية مما يقال للكفار على جهة التوبيخ " (٥) وعموماً فالأمر والنهي في هذه الآية للإهانة كما صرح بذلك علماء البلاغة . (٦)

---

(١) المصدر السابق ٢١ / ١٥٥

(٢) سورة التوبة ، الآية " ٥٥ " .

(٣) البحر المحيط ٥ / ٥٣ ومابعدها .

(٤) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .

(٥) البحر المحيط ٦ / ٤٢٣ .

(٦) انظر عروس الأفراح ٢/٣٢٧ والاتقان ٣/٢٤٤ .

والتهديد والوعيد نحو قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ. وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْمُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } (١) يقول أبو حيان " لما نهى تعالى عن تولي الأدبار توعد من ولى دبره وقت لقاء العدو وناسب قوله " ومن يولهم " فقد باء بغضب " كأن المعنى فقد ولى مصحوباً بغضب الله ، وعدل أيضاً عن ذكر الظهر إلى الدبر مبالغة في التقبيح والذم إذ تلك الحالة من الصفات القبيحة المذمومة جدا"(٢) .

والإلهاب والتهييج كما في قوله تعالى : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ } (٣) تابع أبو حيان الزمخشري ونقل كلامه في أن النهي للالهاب والتهييج لزيادة الثبات والطمأنينة له عليه الصلاة والسلام ولطفاً لغيره " (٤)

٥ - أبو السعود :-

ضم تفسير أبي السعود كثيراً من الفنون البلاغية ، ومن خلال قراءة يسيرة في هذا التفسير القيم يبدو واضحاً تأثر أبي السعود في تحليلاته البلاغية بالزمخشري والبيضاوي بصفة خاصة ، وقد كفانا أبو السعود مؤونة الاجتهاد فقد نص في مقدمة الكتاب على تأثره بالكشاف ، وأنوار التنزيل ، ونعتهما بقوله " المتفردان بالشأن الجليل والنعت الجميل ، فإن كلا منهما قد أحرز قصب السبق أي إحراز كأنه مرآة لاجتلاء وجوه الإعجاز ، صحائفها مرايا المزايا الحسان وسطورها عقود الجمان وقلائد العقيان " (٥) .

---

(١) سورة الأنفال ، الآيتين " ١٥ - ١٦ " .

(٢) البحر المحيط ٤٧٤/٤ .

(٣) سورة آل عمران ، الآيتين " ٥٩ - ٦٠ " .

(٤) انظر البحر المحيط ٢٧٩/٢ ، ١٤٦/٣ ومابعدها .

(٥) انظر تفسير ابي السعود ٣/١ ومابعدها .

ومن بين الفنون البلاغية التي تناولها أبوالسعود - والتي هي موضع عناية هذه الدراسة - خروج النهي عن دلالته الأصلية إلى بعض المعاني البلاغية ، سنوضح فيمايلى أهم الأغراض التي أشار إليها :-

منها الإلهاب والتهييج نحو قوله تعالى : { وَلَاتُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } (١) يقول " نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة واستعمال لين الجانب في التبليغ والمسامحة في الإنذار كنى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغة في الزجر والتنفير عن المنهي عنه بنظمه في سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل النهي عن التهييج والإلهاب فقد أبعد عن التحقيق بمراحل " (٢)

ومنها الدوام كما في قوله تعالى : { كَلَّا لَاتُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب } (٣) يقول أبوالسعود " لاتطعه " أي دم على ما أنت عليه من معاصاته ، " واسجد " وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به " (٤) .

ومنها الحث والرغبة في الاتصاف بصفة معينة ففي قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَاتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } (٥) يقول "ظاهره النهي عن الموت على خلاف حال الاسلام والمقصود الأمر بالثبات على الاسلام إلى حين الموت أي فاثبتوا عليه ولاتفارقوه أبداً كقولك لاتصل إلا وأنت خاشع ، وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على سبيل الاسلام موت لاخير فيه وأن حقه أن لايحل بهم وأنه يجب أن يحذروه غاية الحذر ونظيره مت وأنت شهيد " (٦)

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية "٤٨" .

(٢) تفسير أبي السعود ٤/٤٢٤ وانظر ٤٩٦/١ ، ٦٣٣/١ والبلاغة في تفسير أبي السعود ص ٢٠٧ .

(٣) سورة العلق ، الآية " ١٩ " .

(٤) تفسير أبي السعود ٥ / ٥٥٦ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ١٣٢ " .

(٦) المصدر السابق ١ / ٢٦٤ .

والتهويل والتحذير كما في قوله تعالى: { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ} (١) يقول أبو السعود بعد أن أفاض في تحليل هذه الآية " وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير منه وإيذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمة وسراية الغائلة " (٢) .

ومنها الكراهة كما في قوله تعالى : { وَلَاتَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً } (٣) يقول أبو السعود " إنك لن تخرق الأرض " تعليل للنهي وفيه تهكم بالمختال وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وتكبر عليها أي لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك " ويضيف قائلاً – وهو مايهمنا هنا – " عند ربك مكروهاً " .. وهو تتمة لتعليل الأمور المنهي عنها جميعاً ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعض من الكبائر للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عن ذلك " (٤) والتيئيس والتبكيت كما في قوله تعالى { لَاتَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَاتُنْصَرُونَ } (٥) يقول " لا تجأروا اليوم " على إضمار القول مسوقاً لردهم وتبكيتهم وإقناطهم مما علقوا بها أطماعهم الفارغة من الإغاثة والإعانة من جهته تعالى ، وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار " (٦) .

٦ – **الشهاب الخفاجي** :-

كشف الشهاب كغيره من المفسرين عن الأسرار واللطائف البيانية في نظم القرآن الكريم وعني ببيان الأغراض البلاغية التي يخرج إليها النهي في البيان

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٢ " .

(٢) السابق ١ / ٣٥٦ .

(٣) سورة الإسراء ، الآيتين " ٣٧ – ٣٨ " .

(٤) السابق ٣ / ٤٤٩ .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية " ٦٥ " .

(٦) المصدر السابق ٤ / ٧٤ .

القرآني إهتداءً بالسياق وقرائن الأحوال منها التهكم والاستهزاء كما في قوله تعالى : { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ } (١) يقول الشهاب " وقوله فتهكم ألخ " أي شنع عليهم بجمعهم بأن يجعلوا أنداداً لمن لاندله ولا ضد كما في الكشاف " (٢)

والاستهزاء أيضاً نحو قوله تعالى { فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ . لَاتَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ } (٣) يقول الشهاب "قيل ولايظهر للاستهزاء وجه إذا كان بلسان الحال ولا مانع من فرض القول على طريق الاستهزاء بهم فتأمل " (٤).

والإلهاب والتهييج كما في قوله تعالى { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَاللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ } (٥) يقول الشهاب " التهييج : الاثارة يقال هيجه وهاجه وهو كقوله " ولاتكونن من المشركين " وفائدته أنه إذا سمع صلى الله عليه وسلم مثل هذا الخطاب حرك أريحيته فكان يقينه نوراً على نور وغيره إذا سمعه ينزجر لأنه صلى الله عليه وسلم مع جلالته إذا خوطب به فماظنك بغيره .." (٦)

ونظيره قوله تعالى { وَلَاتُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } (٧) يقول الشهاب " وقوله تهييج الخ لأنه لم يطعهم حتى ينتهي أو هو لأمته " (٨)

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٢ " .
(٢) حاشية الشهاب ٢/٢٥ ومابعدها .
(٣) سورة الأنبياء ، الآيتين " ١٢ - ١٣ " .
(٤) حاشية الشهاب ٦/٢٤٤ وانظر ٦/٣٩٦ .
(٥) سورة أل عمران ، الآيتين " ٥٩ - ٦٠ " .
(٦) المصدر السابق ٣ / ٣٢ .
(٧) سورة الأحزاب ، الآية " ٤٨ " .
(٨) المصدر السابق ٧ / ١٧٧ .

٧ - شهاب الدين الألوسي :-

على الرغم من اعتماد الألوسي في تفسيره روح المعاني على المفسرين ضم تفسيره كثيراً من الأسرار البلاغية والصور البيانية لعل من أهمها - من وجهة نظر هذه الدراسة - اشارته إلى بعض المعاني البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي في القرآن الكريم .

منها النصح نحو قوله تعالى { .. وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ } (١) .

يقول الألوسي " .. وماذكرنا أن القول على سبيل النصح في هذا الوجه هو الظاهر ، وحكي المهدوي أنه على سبيل الاستهزاء لا النصيحة وهو الأنسب بحال الشياطين " (٢) .

والتيئيس والإقناط نحو قوله عز وجل { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ } (٣) يقول الألوسي " لاتجأروا اليوم " على تقدير القول أي قلنا لهم ذلك ، والكلام استئناف مسوق لبيان إقناطهم وعدم انتفاعهم بجؤارهم ، والمراد باليوم الوقت الحاضر الذي اعتراهم فيه ما اعتراهم ، والتقييد بذلك لزيادة إقناطهم والمبالغة في إفادة عدم نفع جؤارهم " (٤) .

والإرشاد نحو قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام { يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } (٥) يقول الألوسي " والأمر والنهي على ماقيل

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٠٢ " .

(٢) روح المعاني ١ / ٣٤٤ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآيتين " ٦٤ - ٦٥ " .

(٤) روح المعاني ٤٨/١٨ وينظر ١٨ / ٢٤٤ .

(٥) سورة يوسف ، الآية " ٨٧ " .

إرشاد لهم إلى بعض ماأبهم في قوله { وأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالاَتَعْلَمُونَ } (١) .

والإلهاب والتهييج كما في قوله تعالى { وَلاَتُطِعِ الْكَافِرِينَ والْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ..} (٢) يقول الألوسي " نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة ولين الجانب في التبليغ والمسامحة في الإنذار كنى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغة في النهي والتنفير عن المنهي عنه بنظمها في سلكها وتصويره بصورتها ، وحمل غير واحد النهي على التهييج والإلهاب من حيث أنه صلى الله عليه وسلم لم يطعهم حتي ينهي ..." (٣)

ولعلك تلحظ معي أن هذا الكلام هو كلام أبي السعود الذي نقلناه فيماسبق نقله الألوسي بالحرف الواحد دون أن يعزوه إليه ، واكتفى بالقول " وحمل غير واحد النهي على التهييج والإلهاب " .

٨ - محمد الطاهر بن عاشور :-

ضم تفسير الطاهر بن عاشور المسمى بالتحرير والتنوير بين دفتيه كثيراً من الفنون البلاغية . بيد أن الذي يهمنا حديثه عن الأغراض البلاغية التي يخرج إليها النهي في البيان القرآني إهتداءً بالسياق وخصائص التراكيب وقرائن الأحوال .

فقد أشار في أكثر من موضع إلى بعض معاني النهي البلاغية منها التعجيز كما في قوله تعالى : { قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنْظِرُونِ } (٤) يقول الطاهر " الأمر والنهي في قوله " كيدون فلا تنظرون " للتعجيز (٥) وهذا التوجيه

---

(١) سورة يوسف ، الآية " ٨ " وانظر السابق ٤٤/١٣ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية " ٤٨ " .

(٣) روح المعاني ٢٢ / ٤٦ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية " ١٩٥ " .

(٥) التحرير والتنوير ٩ / ٢٢٣ .

البلاغي بعيد يأباه السياق ، لأن التعجيز هو الطلب بما لايقدر عليه المخاطب ليظهر عجزه " (١) فالمطلوب في هذه الآية مما يقدر عليه المخاطب يمكن وقوعه منه ، فالأمر والنهي للتحدي والتبكيت وإلقام الحجر كما نص عليه المفسرون " (٢) .

والتهديد نحو قوله تعالى { قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ }(٣) يقول : "والا تعلوا على " نهي مستعمل في التهديد ولذلك أتبعته ملكة سبأ بقولها { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي } (٤) .

والتسوية كما في قوله تعالى { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (٥) يقول الطاهر ((وإما أن تكون صيغة النهي استعملت لمعنى التسوية لأنها قارنت الأمر الدال على إرادة التسوية ويكون المعنى : أمرك بالاستغفار لهم ونهيك عنه سواء ...)) (٦) .

والإباحة نحو قوله تعالى { وَلاتَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاتَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } (٧) يقول الطاهر بن عاشور معلقاً على هذه الآية " والنهي فى " ولاتنس نصيبك " مستعمل في الإباحة " (٨) .

---

(١) انظر شروح التلخيص ٣١٥/٢ والأساليب الانشائية ص ٣٨ وأساليب بلاغية ص١١٣ .

(٢) راجع الكشاف ١٣٨/٢ والبحرالمحيط ٤٤٥/٤ وتفسير أبي السعود ٤٥٥/٢ وروح المعاني ١٤٥/٩ وفي ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٤١٥ .

(٣) سورة النمل، الآيتين " ٢٩ - ٣١ ".

(٤) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٦٢ .

(٥) سورة التوبة ، الآية " ٨٠ " .

(٦) التحرير والتنوير ٢٧٨/١٠ .

(٧) سورة القصص ، الآية " ٧٧ " .

(٨) التحرير والتنوير ٢٠ / ١٧٩ .

والدوام نحو قوله تعالى { وَلَاتُطِعِ الكَافِرِينَ والمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً } (١) يقول " والنهي مستعمل في معني الدوام على الانتهاء"(٢) .

والإرشاد كما في قوله تعالى { يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ولَاتُسْرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ المُسْرِفِينَ } (٣) يقول الطاهر " فالنهي عن السرف نهي إرشاد لا نهي تحريم بقرينة الإباحة اللاحقة في قوله " قل من حرم زينة الله - إلى قوله - والطيبات من الرزق .. ولأن مقدار الاسراف لاينضبط فلايتعلق به التكليف ولكن يوكل إلى تدبير مصالحهم ، وهذا راجع إلى معنى القسط الواقع في قوله سابقاً "قل أمر ربي بالقسط" فإن ترك السرف من معنى العدل " (٤)

بهذا يتضح لنا أن للمفسرين أثراً كبيراً في تطور المباحث البلاغية وتأصيل قواعدها وإرساء دعائمها بصفة عامة ، وجهداً بارزاً في تطور البحث البلاغي لأسلوب النهي بصفة خاصة .

كما يتضح أن للزمخشري جهداً كبيراً وسبقاً جليلاً وأثراً خطيراً فيمن جاء بعده من المفسرين .

ثالثاً : منهج الأصوليين :-

للأصوليين أثر بارز لايقل شأناً عن أثر المفسرين والبلاغيين على حد سواء ، فهناك قضايا كثيرة تناولها البلاغيون والأصوليون أهمها الدلالة وأقسامها . والخبر والانشاء والحقيقة والمجاز والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد وغير ذلك . فالصلة بين علمي الأصول والبلاغة قوية وقد وضح السبكي هذه الصلة وهذا التقارب بين العلمين بقوله " وأعلم أني مزجت قواعد هذا العلم بقواعد الأصول

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية " ٤٨ " .
(٢) المصدر السابق ٢٢ / ٥٨ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية " ٣١ " .
(٤) التحرير والتنوير القسم الثاني من الجزء الثامن ص ٩٥ .

والعربية " (١) ويقول فى موضع أخر " وأعلم أن علمي أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل فإن الخبر والإنشاء اللذين يتكلم فيهما المعاني هما موضوع غالب الأصول"(٢) .

وهناك عدد كبير من أعلام البلاغة كانت لهم قدم راسخة في علم أصول الفقه كالسبكي والرازي والسعد والسيد الشريف الجرجاني وغيرهم ، مما يؤكد لنا أن من أقرب العلوم رحماً بعلم أصول الفقه علوم البلاغة " (٣) .

ومن المباحث البلاغية التي أفاض الأصوليون في الحديث عنها الأغراض البلاغية لأسلوب النهي ، وهو موضوع حديثنا في الصفحات القادمة بإذن الله .

١ - محفوظ بن أحمد الكلوذاني الحنبلي المتوفي سنة ٥١٠هـ

أشار الكلوذاني في كتابه التمهيد إلى بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة النهي حيث يقول " احتجوا بأن هذه الصيغة ترد والمراد بها الكف عن الفعل ، وترد والمراد بها الدعاء كقوله { رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } (٤) وترد والمراد بها التسكين كقوله تعالى { أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا } (٥) وكقوله تعالى : { لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ } (٦) وترد والمراد بها التفويض كقوله تعالى : { إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي } (٧) وترد والمراد بها التهديد كقوله لعبده : لا تفعل اليوم شيئاً " (٨)

---

(١) عروس الأفراح ١ / ٢٧ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٥٣ .

(٣) راجع دلالة الألفاظ عند الأصوليين دراسة بيانية ناقدة ص ٦ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .

(٥) سورة فصلت ، الآية "٣٠ " .

(٦) سورة طه ، الآية " ٤٦ " .

(٧) سورة الكهف ، الآية " ٧٦ " .

(٨) التمهيد في أصول الفقه ١ / ٣٦١ .

٢ - فخر الدين الرازي المتوفي سنة ٦٠٦ هـ :-

في دراستنا لأسلوب الأمر قلنا إن الرازي أفاض في الحديث عن المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة الأمر بشكل لانكاد نظفر به عند سابقيه ، أما النهي فلم نجده يشير إلى معانيه البلاغية سوى إشارة يسيره إلى خروج النهي إلى معنى الخبر والعكس .

ولعل السبب في ذلك كما نرى هو أن النهي يقابل الأمر ويشترك معه في كثير من المسائل لذلك قصر المؤلف البحث فيما يستقل به النهي عن الأمر تفادياً للتكرار ، وهذا مانلمسه بوضوح في كتب أصول الفقه .

يقول الرازي " تجوز إقامة النهي مقام الخبر وبالعكس :

أما الأول فكقوله عليه الصلاة والسلام " لا تُنكح اليتيمة حتى تستأمر " (١) معناه لاتنكحوها إلى غاية استئمارها .

وأما الثاني فكقوله صلى الله عليه وسلم " لاتنكح المرأة المرأة ، ولا تنكح المرأة نفسها " (٢) وكما في قوله تعالى { لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ } (٣) ووجه المجاز : أن النهي يدل على عدم الفعل ، كما أن هذا الخبر يدل على عدمه فبينهما مشابهة من هذا الوجه والله أعلم " (٤)

٣ - سيف الدين علي بن محمد الآمدي المتوفي سنة ٦٣١ هـ :-

تناول الآمدي في كتابه الإحكام في أصول الأحكام النهي وأشار إلى بعض أغراضه البلاغية قائلاً : والكلام في أن النهي على أصول أصحابنا " هل له صيغة تخصه وتدل عليه ، فعلى ماسبق في الأمر أيضاً ، وأن صيغة " لاتفعل : وإن ترددت بين سبعة محامل وهي التحريم ، والكراهية ، والتحقير كقوله تعالى :

---

(١) الحديث في صحيح مسلم برواية أخرى " لاتنكح الأيم حتى تستأمر " صحيح مسلم كتاب النكاح ١٠٣٦/٢ ، انظر مسند أحمد بن حنبل ١٣٠/٢ .

(٢) لا وجود لهذا الحديث في كتب الحديث .

(٣) سورة الواقعة ، الآية " ٧٩ " .

(٤) المحصول جـ١ ق ٢ ص ٥٢ - ٥٤ .

{ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } (١) - فالتحقير في المتعلق وليس في النهي لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم كما سنوضحه في موضعه إن شاء الله .

وبيان العاقبة { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً } (٢) والدعاء كقوله " لاتكلنا إلى أنفسنا " والياس كقوله { لَاتَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ } (٣) والإرشاد كقوله { لَاتَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ } (٤) فهي حقيقة في طلب الترك واقتضائه ومجاز فيما عداه . (٥)

٤ - علي بن عبدالكافي السبكي - المتوفى سنة ٧٥٦هـ - وولده تاج الدين المتوفى سنة ٧٧١ :-

فى كتاب الإبهاج في شرح المنهاج عرض لبعض الصور البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي بقوله " وصيغة النهي عند القائلين بالصيغة ترد لسبعة محامل التحريم مثل { وَلَاتَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ } (٦) والدعاء { رَبَّنَا لَاتُزِغْ قُلُوبَنَا } (٧) والإرشاد { لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَلَكُمْ تَسُؤْكُمْ } (٨) وبيان العاقبة { وَلَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ } (٩) والتحقير { لَاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } (١٠) والياس (١١) { لَاتَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ } (١٢) .

---

(١) سورة الحجر ، الآية " ٨٨ " .

(٢) سورة ابراهيم ، الآية " ٤٢ " .

(٣) سورة التحريم ، الآية " ٧ "

(٤) سورة المائدة ، الآية " ١١٠ " .

(٥) الإحكام في أصول الأحكام ٢ / ٤٨ .

(٦) سورة الأنعام ، الآية " ١٥١ " .

(٧) سورة آل عمران ، الآية " ٨ " .

(٨) سورة المائدة ، الآية " ١٠١ " .

(٩) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٩ " .

(١٠) سورة الحجر ، الآية " ٨٨ " .

(١١) سورة التحريم ، الآية " ٧ " .

(١٢) الإبهاج في شرح المنهاج ٢ / ٦٦ ومابعدها .

٥ - علاء الدين أبو الحسن المعروف بابن اللحام المتوفى سنة ٨٠٣ هـ :

عرض ابن اللحام في كتابه المختصر في أصول الفقه لبعض المعاني البلاغية التى تستفاد من صيغة النهي بمعونة القرائن ودلالة السياق ، ونص على أن صيغة النهي وإن احتملت هذه المعاني فهي حقيقة في طلب الامتناع حيث يقول " وصيغة لاتفعل" وإن احتملت تحقيراً كقوله { لَاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } (١) وبيان العاقبة { وَلَاتَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً } (٢) والدعاء { لَاتُؤَاخِذْنَا } (٣) واليأس { لَاتَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ } (٤) والإرشاد { لَاتَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ } (٥) فهي حقيقة في طلب الامتناع " (٦)

٦ - ابن بدران الدمشقي المتوفى سنة ١٣٤٦ هـ :-

اهتم ابن بدران الدمشقي في كتابه المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ببيان المعاني البلاغية التي تستفاد من صيغة النهي بدلالة السياق ومقتضيات التراكيب حيث يقول (ترد صيغة [النهي] (٧) للتحريم نحو { لا تقتلوا } والكراهة ، " والتحقير نحو { لاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } (١) ولبيان العاقبة { وَلَاتَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً } (٢) .

وللدعاء { لَاتُؤَاخِذْنَا } (٨) وللأدب { وَلَاتَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ } (٩) وللتهديد " لا تمتثل أمري ولإباحة الترك كالنهي بعد الايجاب على رأي، وللالتماس

(١) سورة الحجر ، الآية " ٢٨ " .
(٢) سورة ابراهيم ، الآية " ٤٢ " .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .
(٤) سورة التحريم ، الآية " ٧ " .
(٥) سورة المائدة ، الآية " ١٠١ " .
(٦) المختصر في أصول الفقه " ١٠٣ " .
(٧) مابين المعقوفتين زيادة مني ففي المطبوعة قوله " الأمر " ويبدو أن هذا سهو بدليل أن المؤلف يتحدث عن المعاني التى تفيدها صيغة النهي .
(٨) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .
(٩) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٧ " .

كقولك لنظيرك " لاتفعل " وللتصبير " لاتحزن " ولإيقاع الأمن " لاتخف " وللتسوية { فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا } (١) فإن تجردت صيغة [النهي] عن ذلك فالمختار أنها للتحريم " (٢) وبهذا يتضح لنا أن للأصوليين إسهاماً كبيراً في نمو المباحث البلاغية وجهداً موفوراً مباركاً أسهم في دفع عجلة البلاغة إلى الإمام ، وإرساء قواعدها وتطورها ، وإن أخذ بعضهم عن بعض .

رابعاً : منهج علماء البلاغة والإعجاز :-

كانت مباحث البلاغة مفرقة في كتب السابقين ثم أخذت تستقل شيئاً فشيئاً حتى كتب لها الازدهار والنضج على أيدي طائفتين من العلماء - هما طائفة البلاغيين وطائفة علماء الإعجاز فأصبحت علماً مستقلاً بذاته يختص به أربابه ويهتم به رجاله .

وقد عني البلاغيون بدراسة النهي وبيان أغراضه البلاغية إهتداءً بالسياق والمقام

١ - السكاكي :-

عني السكاكي بدراسة الأساليب الطلبية وما يتولد عنها من معان ثانوية بمعونة القرائن والسياق ومايعنينا هنا إشارته إلى بعض المعاني البلاغية التي تفيدها صيغة النهي كالدعاء والالتماس والإباحة والتهديد ، يقول السكاكي « للنهي حرف واحد وهو لا الجازم في قولك « لاتفعل » والنهي محذو به حذو الأمر في أن أصل استعمال " لاتفعل " أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور فإن صادف ذلك أفاد الوجوب وإلا أفاد طلب الترك فحسب ، ثم إن استعمل على سبيل التضرع كقول المبتهل إلى الله " لا تكلني إلى نفسي " سمي دعاء ، وإن استعمل في حق المساوي الرتبة لا على سبيل الاستعلاء سمي إلتماساً ، وإن استعمل في حق المستأذن سمي إباحة ، وإن استعمل في مقام تسخط الترك سمي تهديداً " (٣) .

---

(١) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ١٠٦ ومابعدها .

(٣) مفتاح العلوم ص ١٥٢ - ١٥٣ .

٢ - القزويني :-

لم يحظ النهي بما حظي به الامر لدى الخطيب القزويني ، فلم يتوسع فيه توسعه في الأمر واكتفى بالاشارة إلى أنه قد يخرج ويستعمل في غير الكف كالتهديد وساق عليه مثالاً مصنوعاً ((وقد يستعمل في غير طلب الكف أو الترك كالتهديد كقولك لعبد لايمتثل أمرك ((لا تمتثل أمري)) (١)

أما أصحاب الشروح والحواشي فقد أضافوا في دراستهم للنهي بعض المعاني البلاغية التي أغفلها القزويني . (٢)

حيث ذكر بهاء الدين السبكي صاحب عروس الأفراح على تلخيص المفتاح عدداً من المعاني البلاغية يقول " وقد تخرج صيغة ((لا تفعل)) عن حقيقتها فتستعمل مجازاً في أحد أمور منها : الكراهة وهو كثير ، ومنها التهديد كقولك لمن لا يمتثل أمرك ((لا تمتثل أمري)) ومنها الاباحة وذلك في النهي بعد الإيجاب ، ..ومنها بيان العاقبة { ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون } (٣) أي عاقبة الظلم العذاب لا الغفلة ...ومنها الدعاء نحو { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا } (٤) ومنها الالتماس كقولك لنظيرك ((لا تفعل هذا ، ... ومنها اليأس كقوله تعالى { لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } (٥) ومنها الإرشاد كقوله تعالى { لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَلَكُمْ تَسُؤْكُمْ } (٦) ... والتسوية مثل {اصْبِرُوا أَوْ لَاتَصْبِرُوا } (٧) ومنها الإهانة مثل { إِخْسَأُواْ فِيهَا وَلَاتُكَلِّمُونِ } (٨) ومنها التمني نحو قولك لا ترحل أيها الشباب ، ومنها الامتنان نحو (ولا تاكلوا) .

---

(١) الايضاح ٢٤٤/١ وراجع المجاز في اللغة والقرآن ٤١٢/١ .

(٢) انظر شروح التلخيص ٣٢٤/٢ - ٣٢٧ والمطول وحاشية السيد على المطول ص٢٤٢ والأطول ٢٤٩/١ وتجريد البناني ٣٢/٢-٣٣ وتقرير الشمس ١٧٩/٢.

(٣) سورة ابراهيم ، الآية " ٤٢ " .

(٤) سورة آل عمران ، الآية " ٨ " .

(٥) سورة التوبة ، الآية " ٦٦ " .

(٦) سورة المائدة ، الآية " ١٠١ " .

(٧) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٨) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .

ومنها الاحتقار والتقليل كقوله تعالى { لَاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } (١) فهو احتقار للدنيا (٢).

هذا مايتصل بجهد البلاغيين وهو جهد مشكور ، أما علماء الإعجاز فقد أسهموا بنصيب وافر فى دراسة النهي والإشارة إلى أغراضه ومراميه البلاغية وبخاصة المتأخرين منهم ، أما المتقدمون من أمثال الخطابي والرماني والجرجاني فلا يكاد الباحث يعثر على إشارة - لا من قريب أو بعيد - تدل على أنهم تنبهوا إلى خروج النهي عن دلالته الأصلية إلى معان ثانوية تفهم من السياق بمعونة القرائن وأحوال التراكيب .

أما المتأخرون منهم مثل الزملكاني والزركشي والسيوطي فقد أشاروا إلى المعاني البلاغية لأسلوب النهي ، وهذا ما ستفصح عنه السطور القادمة بإذن الله .

١ - الزملكاني :-

لم يشر الزملكاني إلى معاني النهي البلاغية في كتابه البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لكنه أشار إلى خروج الخبر إلى معنى النهي حيث يقول ((ومما جاء نهياً وهو في صورة الخبر قوله تعالى { لَاتَظْلِمُونَ وَلَاتُظْلَمُونَ } (٣) إذ قد ظلموا وظلموا ، وكذا قوله تعالى { وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ } (٤) أي لاتنفقوا إلا إبتغاء وجه الله . (٥)

٢ - الزركشي :-

ضم كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي كثيراً من الفنون البلاغية واللطائف البيانية في البيان القرآني .

---

(١) سورة الحجر ، الآية " ٨٨ " .

(٢) عروس الأفراح ٢/٣٢٥ - ٣٢٧ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٩ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٢ " .

(٥) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص ٣٠٤ .

وفي وجوه المخاطبات ذكر الزركشي بعض المعاني البلاغية التي يخرج إليها النهي في القرآن الكريم منها خطاب الذم نحو قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَتَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ } (١)

وقد جعل كثير من البلاغيين والأصوليين النهي في هذه الآية لليأس (٢) ، وهو أولى بالصواب .

ومنها خطاب الإهانة نحو قوله تعالى : { قَالَ اخْسَأُواْ فِيهَا وَلاَتُكَلِّمُونِ} (٣)

ومثل لخطاب التنفير بقوله { وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } (٤)

وفي خطاب التحنن والاستعطاف بقوله تعالى { قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَتَقْنَطُواْ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ } (٥)

وفي أقسام معنى الكلام أشار الزركشي إلى خروج الخبر والاستفهام إلى معنى النهي . (٦)

٣ - السيوطي :-

أشار جلال الدين السيوطي في كثير من مؤلفاته البلاغية إلى خروج النهي عن دلالته الأصلية إلى معان ثانوية تفهم من السياق بمعونة القرائن والمقام .

فذكر وجوه الخطاب في القرآن الكريم في كل من الاتقان ومعترك الأقران

---

(١) التحريم " ٧ " والبرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٣٠ .

(٢) انظر شروح التلخيص ٢/٣٢٧ ومعترك الأقران ١/٤٤٤ والاتقان ٣/٢٤٤ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية "١٠٨" وانظر البرهان في علوم القرآن ٢/٢٣١ .

(٤) سورة الحجرات ، الآية " ١٢ " وانظر البرهان في علوم القرآن ٢ / ٢٤٩ ومابعدها .

(٥) سورة الزمر ، الآية " ٥٣ " وانظر المصدر السابق ٢ / ٢٥٠ .

(٦) انظر المصدر السابق ٢/٣٢١ ، ٢/٣٣٩ .

نعرض لما جاء منها عن طريق النهي منها خطاب الذم نحو قوله تعالى { يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم } (١) وخطاب الإهانة نحو قوله تعالى { إخسـأوا فيهـا ولا تكلمون } (٢) ولعلك تلحظ أن السيوطي في وجوه المخاطبات لم يقدم جديداً وإنما كان ناقلاً عن العلماء وبخاصة الزركشي . كما تناول الأساليب الإنشائية وأشار إلى معانيها البلاغية ، منها النهي حيث عرفه بقوله " هو طلب الكف عن فعل ، وصيغته ((لا تفعل ، وهي حقيقة في التحريم)) (٣) وأشار إلى بعض المعاني البلاغية التي تخرج إليها هذه الصيغة قائلاً ((وترد مجازاً لمعان منها :

الكراهة نحو { وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً } (٤)

والدعاء نحو { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا } (٥)

والإرشاد نحو { لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَلَكُمْ تَسُؤْكُمْ } (٦)

والتسوية نحو { فَاصْبِرُواْ أَوْ لَاتَصْبِرُواْ } (٧)

والاحتقار والتقليل نحو { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ... } (٨) الاية أي فهو قليل حقير - ويبدو أن التحقير والتقليل مستفاد من المتعلق لا من النهي ، والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم .

وبيان العاقبة نحو { وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ } (٩) أي عاقبة الجهاد الحياة لا الموت .

---

(١) التحريم " ٧ " وانظر الاتقان ١٠٠/٣ ، ومعترك الأقران ٢٣٢/١ .

(٢) المؤمنون "١٠٨" وانظر الاتقان ١٠٠/٣ ومعترك الاقران ٢٣٢/١ .

(٣) انظر الاتقان ٢٤٣/٣ ومعترك الأقران ٤٤٣/١ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية " ٣٧ " .

(٥) سورة آل عمران ، الآية " ٨ " .

(٦) سورة المائدة ، الآية " ١٠١ " .

(٧) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٨) سورة الحجر ، الآية " ٨٨ " .

(٩) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٩ " .

واليأس نحو { لَا تَعْتَذِرُواْ الْيَوْمَ } (١)

والإهانة نحو (٢) { اخْسَأُواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } (٣)

فما قدمه السيوطي في النهي لا يخرج عما ذكره البلاغيون المتأخرون ، واستقر عليه البحث في مؤلفاتهم ، فهو امتداد للمدرسة البلاغية التي نسجت على منوال السكاكي والقزويني .

---

(١) سورة التحريم ، الآية " ٧ " .

(٢) انظر الاتقان ٢٤٣/٣ ومابعدها ومعترك الأقران ٤٤٣/١ ومابعدها .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية " ١٠٨ " .

الفصل الثاني

أساليب النهي في القرآن الكريم

و

أسرارها البلاغية

النصح والإرشاد

شاع الإرشاد كمعنى بلاغي عند الأصوليين والبلاغيين على السواء (١) ، أما النصح فلم يظهر إلا لدي المعاصرين مقترناً بالإرشاد (٢) وقد عرفه بعضهم بقوله ((النصح والإرشاد هو الطلب الذي لا إلزام فيه وإنما النصيحة الخالصة)) (٣) وليس هذا التعريف جامعاً مانعاً .

وأسلوب النصح والإرشاد في القرآن الكريم جاء بأساليب متنوعة منها النهي نتناول الآن بعض شواهده :-

إبراهيم عليه السلام مع أبيه :-

أفاد النهي معنى النصح والإرشاد في القرآن الكريم على لسان ابراهيم الخليل يعظ أباه وينصحه بالابتعاد عن الشرك قال تعالى { ... يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِك فَاتَّبِعْنِي أَهْدِك صِرَاطاً سَوِيّاً يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً } (٤) .

أشار كثير من المفسرين إلى أن النهي في قوله ((لاتعبد)) للنصح والإرشاد (٥) ، والسياق يوضح أدب إبراهيم عليه السلام وتواضعه وإخلاص النصيحة لأبيه خوفاً وإشفاقاً عليه من العذاب حيث صدر هذه النصيحة بقوله { ياأبت } توسلاً إليه وإستعطافاً له ليصل به إلى طريق الهداية والإيمان ، ففي إعادة ندائه بوصف الأبوه تأكيد لإحضار الذهن ولإمحاض النصيحة ، والمراد بعبادة

---

(١) انظر عروس الأفراح ٢/٣٢٧ والإتقان ٣/٢٤٣ ومعترك الأقران ١/٤٤٢ والأحكام في أصول الأحكام ٢/٤٨ والإبهاج في شرح المنهاج ٢/٦٦ .
(٢) انظر اساليب بلاغية ص ١١٧ وعلم المعاني درويش الجندي ص ٤١ ومن بلاغة النظم العربي ٢/٩١ .
(٣) أساليب بلاغية ص ١١٢ .
(٤) سورة مريم ، الآيتين " ٤٣ - ٤٤ " .
(٥) انظر تفسير الطبري ٦٨/٨٦ والكشاف ٢/٥١١ والتفسير الكبير ٢١/٢٢٦ .

الشيطان عبادة الأصنام ،عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها لأن

الشيطان عبادة الأصنام ،عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها لأن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر ولكن الذين يتبعونه لايفطنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه ، ففي الكلام إيجاز بليغ لأن معناه لا تعبد الأصنام لأن إتخاذها من تسويل الشيطان وكفى بذلك ضلالاً .

وجملة { إن الشيطان كان للرحمن عصياً } لتعليل النهي السابق ، كما أن في إظهار اسم الشيطان في مقام الإضمار إذ لم يقل إنه كان للرحمن عصياً لزيادة التنفير من الشيطان وتقبيحاً له ، وفي التعبير بوصفه عصياً الذي هو من صيغ المبالغة مع زيادة فعل الكون ((كان)) للدلالة على أنه لايفارق عصيان ربه وأنه متمكن منه ، فمن كانت هذه حاله فهو جدير بأن لايتبع وفي هذا مزيد من التنفير والتقبيح والذم للشيطان الرجيم . (١)

لقمان وابنه :-

ورد النصح والإرشاد في القرآن على لسان لقمان ينصح ابنه ويعظه بنصيحة جامعة تشتمل على أصول الدين وعلى الآداب الرفيعة التي دعا القرآن إلى اتباعها والتمسك بها قال تعالى { وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَاتُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } (٢)

يفصح السياق عن حرص لقمان على هداية ابنه وإصلاح أمره حيث استمر في وعظه وإرشاده إلى الخير بالاقلاع عن الشرك والالتزام بمكارم الأخلاق وقد جمع له في هذه النصيحة الإرشاد إلى فعل الخير وبثه في الناس والنهي عن المنكر بجميع صوره وأشكاله (٣) ، حيث صدر هذه النصيحة بما ينبيء عن شديد الإشفاق

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١١٦/١٦ .

(٢) سورة لقمـــان، الآية " ١٣ " .

(٣) انظر التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٥ .

والترفق والاستعطاف بقوله ((يابني)) بالتصغير فهو تصغير إشفاق ومحبة لا تصغير تحقير ، لأن التحقير ينافي مقام الوعظ الذي يستلزم التذكير بكل مايرق له القلب من خير . (١)

وبعد هذا النداء ابتدأ لقمان موعظة إبنه بالاقلاع عن الشرك بقوله : { لا تشرك بالله } ثم علله بقوله : { إن الشرك لظلم عظيم } تهويلاً لأمر الشرك وتفظيعاً له لكونه ظلماً لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه ، وفي وصف الظلم بقوله ((عظيم)) لزيادة التنفير لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لانعمة له البتة . (٢)

يعقوب عليه السلام وأولاده :-

ورد النصح والإرشاد على لسان يعقوب عليه السلام يرشد أبناءه وينصحهم ويعظهم بعدم اليأس من روح الله رغبة منه في مواصلة بحثهم عن إبنيه يوسف وأخيه اللذين فقدهما ، قال تعالى { يَابَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْئَسُواْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } (٣) .

فالنهي في قوله { لاتيئسوا } مستعمل في النصح والإرشاد ، أي لاتقنطوا من فرجه وتنفيسه ، وقد أشار إلى هذا أبو السعود وتابعه الألوسي قائلاً ((وهذا إرشاد إلى بعض ما أبهم في قوله : { وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالاَتَعْلَمُونَ } (٤) ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه { إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون } لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فإن العارف لايقنط في حال من الأحوال أو تأكيداً لما يعلمونه من ذلك (٥) ، وذماً وتجهيلاً للكافرين لكون اليأس والقنوط من

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢٧٦/٤ وروح المعاني ٨٤/٢١ ووجوه المخاطبات في القرآن ص ٢٠١ .

(٢) انظر الكشاف ٢٣١/٣ وروح المعاني ٨٥/٢١ والتحرير والتنوير ١٥٥/٢١ .

(٣) سورة يوسف ، الآية " ٨٧ " .

(٤) سورة يوسف ، الآية " ٨٦ " .

(٥) أنظر تفسير أبي السعود ١٨٢/٣ وروح المعاني ٤٤/١٣ .

رحمة الله لا يصدر إلا منهم ، وهذه الجملة واقعة موقع التعليل للنهي السابق { لا تيئسوا من روح الله } .

قارون وقومه :-

ورد النصح والإرشاد في قوله تعالى خطاباً لقارون { .. إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَاتَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } (١)

توضح هذه الآيات قصة أحد المفسدين في الأرض بتطاوله على الناس وإعراضه عن الحق وعن كل صوت يحاول أن يرده عن الفساد ويلزمه الصراط المستقيم فكانت عاقبته كما ذكر القرآن أن خسف الله به وبداره الأرض .

وهذه الآيات تسوق طرفاً من النصائح والمواعظ التي خوطب بها قارون حيث وجد على الرغم من بغيه من يقدم له النصيحة والموعظة والإرشاد ، وهذه النصيحة التي يحكيها القرآن على لسان ناصحيه تتضمن منهج القرآن السوي الذي يجب أن يلتزم به ذوو اليسار من المؤمنين .

{ لا تفرح } لا تبطر ، فالفرح بالمال إذا استولى على القلب أنساه شكر المنعم به ودفعه إلى البغي على الناس والتطاول عليهم ، فالفرح بالمال في الدنيا مذموم لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول والغفلة عن ذهابها ، فهو عارية مستردة لايبقي منه إلا ما أدخره الانسان عند ربه ، ولو تذكر الغني ذلك لشعر بتبعة النعمة وعمل على أداء حقها لينجو من تبعاتها ، وينبغي أن يكون شعور المؤمن هكذا .

وجملة " إن الله لايحب الفرحين " بيان لعلة نهيه عن الفرح لأنه يحول بينه وبين محبة الله له ، ويلاحظ ما في التعبير من تأكيد اقتضاه حرص الناصحين على هدايته . { وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا } وهذه

---

(١) سورة القصص ، الآية " ٧٦ - ٧٧ " .

النصيحة هي جماع المنهج الإسلامي في إنفاق المال وسياسة النفوس ، ونلاحظ ما في التعبير من خصائص بيانية ، حيث صاغوا في نصيحتهم له ثلاثة معان أساسية أحدها تذكير قارون بأن كل مايملكه إنما هو من عندالله { أتاك الله } وثانيها أن يراقب الله في ماله ، وذكروه بأن ماينفقه مدخر له سيجده في الدار الآخرة ، وثالثها ألا يظن ، أنهم يريدون له الانصراف عن الدنيا بل يطلبون منه في صورة الأمر ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، ولما كانت الدار الآخرة هي المستقر والحيوان عبر في جانبها بقوله : { وابتغ } أي ليكن هدفك وبغيتك الآخرة ، وعبر في جانب الدنيا بقوله : { ولاتنس } أي لاتترك ترك المنسي فمن حقك أن تستمتع بما فيها ولأن ترك الدنيا كلية ليس من متطلبات الإيمان .

ثم أنظر إلى جمال هذه المقابلة اللطيفة بين الآخرة والدنيا ومافيها من ابراز لهذه المعاني المتقابلة تمكينا لها من النفس .

{ ولا تبغ الفساد في الأرض } نهي له عما كان عليه من الظلم والبغي والفساد ، ويقول الرازي ((قيل إن هذا القائل هو موسى عليه السلام وقال آخرون : بل مؤمنو قومه ، وكيف كان ذلك فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قبل به ما لم يكن عليه مزيد ، لكنه أبى أن يقبل هذه النصيحة وزاد عليه بكفر النعمة فقال { إنما أوتيته على علم عندي } (١) .

فالنهي في قوله { لاتفرح } و { لا تنس } و { لا تبغ } للنصح والإرشاد والموعظة بدلالة السياق والمقام وخصائص التراكيب .

---

(١) سورة القصص ، الآية " ٧٨ " وانظر التفسير الكبير ١٦/٢٥ ومابعدها وتفسير أبي السعود ٣١٩/٤ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧١١ ، وأسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٢٧ - ٢٢٩ وأسلوب المحاورة ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

المؤمنون :-

ورد النصح والإرشاد في كثير من النواهي القرآنية المتعلقه بالآداب والأخلاق والوصايا من ذلك قوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ } (١) .

أشار كثير من البلاغيين والأصوليين إلى أن النهي في قوله { لاتسألوا } للإرشاد(٢) فهذا نهي للمسلمين عن سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عن أمور ليست من الدين وجملة { إن تبدلكم تسؤكم } صفة لأشياء أي لاتكثروا مسألة الرسول عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها . (٣)

ومنه قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : { كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَاتُسْرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (٤)

يبدو أن النهي في قوله : { لاتسرفوا } للنصح والإرشاد والتحذير من الإسراف والتبذير حيث علله بقوله { إنه لايحب المسرفين } وفي هذا يقول بعض المفسرين ((وهذا إدماج للنهي عن الإسراف وهو نهي إرشاد وإصلاح أي لا تسرفوا في الأكل)) (٥)

---

(١) سورة المائدة ، الآية " ١٠١ " .

(٢) انظر عروس الأفراح ٣٢٧/٢ و الاتقان ٢٤٤/٣ ومعترك الأقران ٤٤٣/١ والأساليب الانشائية ص ٦٨ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ١٠٧ والابهاج في شرح المنهاج ٦٦/٢ والاحكام في أصول الأحكام ٤٨/٢ والمختصر في أصول الفقه ص ١٠٣ .

(٣) انظر الكشاف ٦٤٨/١ وتفسير أبي السعود ١٢٩/٢ والتحرير والتنوير ٦٥/٧ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية " ١٤١ " .

(٥) التحرير والتنوير ٨ / ١٢٣ .

ونظيره قوله تعالى { يَابَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَتُسْرِفُواْ إِنَّه لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (١) يقول الطاهر بن عاشور : النهي عن الاسراف نهي إرشاد لا نهي تحريم بقرينة الإباحة اللاحقة في قوله – قل من حرم زينة الله إلى قوله – والطيبات من الرزق . (٢)

وفي القرآن نواه حقيقية تكليفية تشي بالنصح والإرشاد أو التوجيه أو التحذير منها قوله تعالى : { وَلاَتَجْهَرْ بِصَلاَتِك وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً } (٣) وقوله تعالى :{ وَلاَتَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَتَشْعُرُونَ } (٤) وقوله : { لاَتَجْعَلُواْ دُعَاءَ الرَّسُولِ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً } (٥) وقوله تعالى : { وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَتَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } (٦) وغير ذلك كثير وواضح أن الإرشاد قد يكون معنى ثانوياً بجانب المعنى الحقيقي كما مثل كثير من العلماء (٧) بقول الله تعالى : { وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ .. } (٨) فالنهي في هذه الآية الكريمة نهي حقيقي تكليفي ، والإرشاد معنى ثانوي أفاده السياق كما هو واضح من نظم الآية الكريمة . والله أعلم .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية " ٣١ " .

(٢) التحرير والتنوير القسم الثاني من الجزء الثامن ص ٩٥ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية " ١١٠ " .

(٤) سورة الحجرات ، الآية " ٢ " .

(٥) سورة النور ، الآية " ٦٣ " .

(٦) سورة المائدة ، الآية " ١٢ " .

(٧) انظر عروس الأفراح ٣٢٧/٢ وأساليب بلاغية ص ١١٧ .

(٨) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٢ " .

الرجاء

الرجاء لون من الألوان البلاغية التي يفيدها أسلوب النهي في القرآن الكريم ، وقد جاءعلى ألسنة الشخصيات في سياق بعض المحاورات القرآنية التي حفل بها القرآن الكريم نعرض لبعضها فى السطور التالية :

لوط عليه السلام وقومه :-

ورد الرجاء عن طريق النهي في القرآن على لسان نبي الله لوط عليه السلام خطاباً لقومه قال تعالى : { وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ } (١) وقوله تعالى : { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ } (٢)

تبين هذه الآيات الكريمات حال الكرب والخوف الذي سيطر على لوط عليه السلام لخوفه من العار والفضيحة فراح يرجوا قومه أن لايخزوه في ضيفه مستثيراً فيهم النخوة والحياء مذكراً إياهم بتقوى الله وهو يعلم أنهم لايتقون ، ويعلم أن هذه النفوس المريضة لم تعد فيها نخوة ولاشعور إنساني يستجاش .

وفي إيثار التعبير بالفعل { فلا تفضحون } تصوير لحاله عليه السلام ، ورجاء حار أي لاتتعرضوا لهم بسوء ولاتفضحون بفضيحة ضيفي لأن من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه .

وقوله { ولا تخزون } أي لاتذلوني وتهينوني بالتعرض لمن أجرتهم بمثل هذه الفعلة الشنيعة . (٣)

---

(١) سورة الحجر ، الآيتين " ٦٧ - ٦٩ " .

(٢) سورة هود ، الآية " ٧٨ " .

(٣) راجع الكشاف ٣٩٥/٢ وتفسير أبي السعود ٢٢٠/٣ والتحرير والتنوير ٦٦/١٤ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢١٤٩ .

فالنهي في قوله [لا تفضحون ، ولاتخزون] للرجاء ويصور رغبة نفسية في المحافظة على ضيفه وعدم التعرض لهم بسوء .

مع موسى عليه السلام :-

١ - موسى في طفولته :-

أفاد النهي معنى الرجاء في الذكر الحكيم على لسان إمرأة فرعون في قوله تعالى : [وَقَالَتْ إِمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ] (١) .

تشير هذه الآية إلى مشهد من مشاهد قصة موسى عليه السلام وهو في المهد صغيراً بعد أن ألقت به أمه في اليم ، مشهد نسجته يد القدرة الآلهية حيث حمته من فرعون بالمحبة لا بالسلاح والجاه ، حمته بالحب الحاني في قلب إمرأة فرعون وتحدت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره ، وهان فرعون على الله أن يحمي هذا الطفل الضعيف على يد امرأته . (٢)

وافتتحت إمرأة فرعون خطابها بكلام جامع بليغ تسعى من خلاله إلى إثارة عاطفة الأبوة والرحمة والشفقة في قلب فرعون بقولها : [قرة عين لي ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً] فالنهي في قوله : [لا تقتلوه] للرجاء والرغبة بدلالة السياق والمقام .

٢ - موسى وهارون عليهما السلام :-

ورد الرجاء في الذكر الحكيم على لسان موسى وأخيه هارون عليهما السلام دعوة لفرعون وملئه بتوجيه من الله تعالى : [قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى] (٣)

---

(١) سورة القصص ، الآية " ٩ " .

(٢) انظر في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦٧٩ .

(٣) سورة طه ، " ٤٦-٤٧ " .

يكشف السياق في هذه الايات عن رغبة موسى وهارون عليهما السلام في إطلاق بني إسرائيل وحرصهما على تخليصهم من ظلم فرعون وجبروته حيث طلبا من فرعون ذلك برجاء بالغ على نحو ماينبيء عنه قوله تعالى { فأرسل معنا بني إسرائيل } فالأمر مستعمل في الرجاء وكذلك النهي في قوله { لاتعذبهم } للرجاء بدلالة السياق وما يقتضيه المقام من قرائن وأحوال .

ونلحظ في هذا السياق تأييد الله التام لهما بانه معهما يسمع ويرى ، وتسلية وتشريفاً لهما عليهما السلام . (١)

داود عليه السلام والخصمان :-

ورد الرجاء في قصة داود عليه السلام على لسان الملكين اللذين بعثهما الله إليه ليحكم بينهما بالعدل تعليماً وإرشاداً له عليه السلام قال تعالى : { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابِ إِذْ دَخَلُواْ عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَاتَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ } (٢)

تعرض هذه الآيات قصة الابتلاء الذي ابتلى الله به دواد عليه السلام حيث أرسل إليه ملكين على هيئة البشر ليحكم بينهم بالحق لكن النبي الكريم تعجل في الحكم وقضى لأحدهما دون أن يستمع لدعوى الآخر .

وهو دون ريب امتحان صعب لهذا النبي الكريم الذى ولاه الله أمور الناس ليقضى بينهم بموجب شرعه بالحق والعدل ويتبين الحق قبل إصدار الحكم فهو إرشاد وتعليم له عليه السلام . (٣)

وعلى هذا فالنهي في قوله { لا تشطط } للرجاء بمعونة القرائن وخصائص التراكيب.

---

(١) راجع الكشاف ٥٣٨/٢ وتفسير أبي السعود ٦٣٣/٣ .

(٢) سورة ص ، الآيتين " ٢١ - ٢٢ " .

(٣) انظر في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣٠١٨ .

المنافقون والرجاء :-

أفاد النهي معنى الرجاء في القرآن على لسان المنافقين خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَن لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } (١) .

يقرر القرآن في هذه الآية حقيقة المنافقين وما تنطوي عليه نفوسهم المريضة من جبن وكذب عظيم باختلاق الاعتذارات الواهية .

فالتعبيربقوله ((ائذن لي ولا تفتني)) يرسم صورة واضحة عن كذب المنافقين وتهافت أعذارهم وتخاذلهم عن الجهاد في سبيل الله خوفاً من الفتنة .

بمثل هذه المعاذير يعتذرون لكن القرآن رد عليهم مبيناً كذبهم موضحاً أنهم في الفتنة وقعوا ((ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين)) ففي تصدير هذه الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف إيذان بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنهم بمنجى من الفتنة زعماً منهم أن الفتنة إنما هى التخلف بغير إذن ، وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم في دركات الردى والهلاك .

وفي تنزيل الآية الكريمة بقوله { إن جهنم لمحيطة بالكافرين } وتأكيدها بإن واللام وعيد شديد لهم على مافعلوا ، كما أن في التعبير بالاحاطة كناية عن عدم الإفلات فهي محيطة لهم من كل جانب ، والمراد بالكافرين إما المنافقون ، وإما جميع الكافرين فيشمل المتحدث عنهم شمولاً أولياً لثبوت نفاقهم وكفرهم . (٢)

فالنهي في قوله { لاتفتني } كما هو مستفاد من السياق للرجاء والرغبة بمعونة القرائن والمقام .

---

(١) سورة التوبة ، الآية " ٤٩ " .

(٢) راجع الكشاف ١٩٤/٢ وتفسير أبي السعود ٥٦١/٢ وفي ظلا ل القرآن المجلد الثالث ص ١٦٦٥ ومابعدها والتحرير والتنوير ٢٢١/١٠ .

التسوية

التسوية في إصطلاح البلاغيين : تكون في مقام يتوهم فيه المخاطب رجحان أحد الطرفين . (١)

والتسوية ليست غرضاً مستقلاً بذاته وإنما هي متفرعة عن أغراض بلاغية أخرى كالاهانة والتهديد .

وأسلوب التسوية في القرآن تأدى بأساليب متنوعة كالخبر والاستفهام والأمر والنهي تعديلاً للفكر أو السلوك أو إظهاراً لحقيقة ينبغي أن تكون على ذكر من المخاطب لاتغيب عن باله ، وهي لاتبعد كثيراً عن فكرة الترغيب والترهيب بمعناها الوسيع في أسلوب الدعوة القرآنية . (٢)

وفي القرآن الكريم لم أعثر إلا على ثلاثة مواضع أفاد فيها النهي معنى التسوية نلحظ فيها تعانق الأمر مع النهي في إفادة هذا المعنى البلاغي على نحو مانوضحه في السطور القادمة بإذن الله .

من ذلك قوله تعالى في شأن المنافقين خطاباً لخاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم – تعليماً وإرشاداً له – وقد عزم – لقلبه الرحيم – أن يستغفر لرأس النفاق في المدينة حين وفاته ، فنزل الوحي معاتباً للرسول صلى الله عليه وسلم مهدداً المنافقين { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (٣)

أشار الطبري وتابعه الزمخشري إلى أن هذا الكلام خرج مخرج الأمر وتأويله الخبر (٤) ، وذكر أبو حيان وبعض المفسرين رأيين الأول أن المراد بهـــذا

---

(١) انظر الإيضاح ٢٤٣/١ الطراز ٢٨٣/٣ وشروح التلخيص ٣١٨/٢ ومابعدهـــا ؛ والمطول ص ٢٤١ والأساليب الإنشائية ص ٥٤ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٣٩ .

(٢) أنظر الأساليب الإنشائية ص ٥٥ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ٨٠ " .

(٤) تفسير الطبري ١٣٦/١٠ والكشاف ٢٠٤/٢ .

الكلام التخيير ، والثاني أنه في معنى الخبر وإن للشرط والجزاء أي إن استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم . (١)

فالآية تشير إلى كمال الغضب الآلهي على المنافقين ونهايته وإلى إغلاق منافذ الرحمة والتجاوز عنهم مهما جهد الرسول صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لهم ، أي فسواء استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم حيث أخبر عن ذلك في قوله { فلن يغفر الله لهم } حيث جيء بلن التي تدل على استغراق النفي .

وعلى هذا فالنهي مع الأمر في قوله { استغفر لهم أو لاتستغفر لهم } للتسوية كما ذكر بعض العلماء .

ومنه قوله تعالى خطاباً للمشركين { قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لَاتُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً } (٢)

تفيض هذه الآية الكريمة بالتهديد لهؤلاء المشركين وبالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم وقلة المبالاة بهم . (٣)

وقد أفاد الأمر والنهي معاً في هذا السياق معنى التسوية والتحقير وشديد الإهمال . (٤) أي فإن ايمانكم وعدم إيمانكم سواء لأن إيمانكم لايزيده كمالاً وعدم إيمانكم لايورثه نقصاً (٥) ، وجملة { إن الذين أوتوا العلم من قبله } تعليل لمعنى التسوية بين إيمانهم وعدمه ، (٦) كما أن في التعبير بقوله { إذايتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً } بياناً لأثر القرآن وصنيعه في القلوب المؤمنة

---

(١) انظر البحر المحيط ٧٦/٥ ومابعدها وحاشية الشهاب ٣٤٨/٤ وروح المعاني ١٤٧/١٠ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية " ١٠٧ " .

(٣) انظر الكشاف ٤٦٩/٢ والتفسير الكبير ٦٩/٢١ والبحرالمحيط ٨٨/٦ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٣٢/١٥ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص٨٨ والأساليب الإنشائية ص ٥٥ .

(٥) ينظر تفسير أبي السعود ٤٨٨/٣ وروح المعاني ١٨٩/١٥ .

(٦) التحرير والتنوير ٢٣٣/١٥ .

العارفـــة بطبيعته وسمو بلاغته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله ، حيث أفصح السياق عن هذا التأثير بأنهم يخرون للأذقان سجداً أي على الأذقان ، ((ففي ذكر الاذقان دلالة على تمكينهم الوجوه كلها من الأرض رغبة في السجود لما فيه من استحضار الخضوع والخشوع لله تعالى)) (١).

ومنه قوله تعالى خطاباً للكفار في نار جهنم { اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَاتَصْبِرُوا إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ } (٢) .

أشار كثير من المفسرين إلى أن الأمر والنهي في قوله { اصبروا أو لاتصبروا } للتسوية أي سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه فكلاهما لايخففان عنهم شيئاً من العذاب . (٣) ((وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة من أن يعلم أن الصبر وعدمه سواء فالعذاب واقع ماله من دافع وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع ، والبقاء فيه مقرر سواء صبر عليه أم هلع ، والعلة أنه جزاء عـلى مـا كـان مـــن عمل)) (٤) { إنما تجرون ماكنتم تعملون } .

فالسياق ينبض مع التسوية بالتهديد الشديد لهؤلاء المشركين ، حيث تعانق الأمران ((اصلوها ، اصبروا)) لإفادة التهديد والتقريع والوعيد الشديد .

---

(١) في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٥٤ .

(٢) سورة الطور ، الآية " ١٦ " .

(٣) أنظر الطبري ١٤/٢٧ والكشاف ٢٣/٤ والبحر المحيط ١٤٧/٨ وتفسير أبي السعود ٢٠٩/٥ وحاشية الشهاب ١٠٣/٨ والتحرير والتنوير ٤٤/٢٧ والإيضاح ص ٢٤٣ وشروح التلخيص ٣١٨/٢ والإتقان ٢٤٤/٣ ومعترك الأقران ٢٤٣/١ والطراز ٢٨٣/٣ والأساليب الإنشائية ص ٥٥ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٣٩ ومعجم المصطلحات البلاغية ص ٣١٩ والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ١٠٦ .

(٤) في ظلال القرآن المجلد السادس ص ٣٣٩٦ .

الدعـــاء

من المعاني الثانية التي يفيدها النهي في القرآن الكريم الدعاء حيث جاء على ألسنة المخلوقين سواء أكانوا ملائكة أم أنبياءً أم مؤمنين .

والدعاء في القرآن يكون بالخير وهذا هو الغالب في البيان القرآني ، ويكون بالشر ولم يرد إلا على ألسنة الأنبياء لينتقم الله من أقوامهم من ذلك قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام { وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَاتَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاتَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً } (١) دعا نوح عليه السلام في هذه الآيات الكريمات على قومه بالهلاك والدمار والاستئصال ، وهو ينم عن كره لهؤلاء الضالين المضلين الماكرين ، فالنهي في قوله { رب لاتذر ، وقوله { لاتزد الظالمين إلا تباراً } للدعاء عليهم ، ونلمح فى هذا الدعاء ايثار نوح عليه السلام التعبير بالفعل { تذر } لخفته وسرعته على الفعل ((تترك)) لأنه يصور ضيقه الشديد بهؤلاء الضالين حيث طلب من الله أن يستأصل شأفتهم ويجهز عليهم إجهازاً كاملاً لايبقي منهم بقية لقلة الاعتداد ولذا آثر التعبير بقوله { دياراً } تاكيداً لهذا المعنى وإلحاحاً في تدميرهم وإهلاكهم جميعاً في سرعة خاطفة .

وتتنوع أساليب الدعاء بعد النهي وتتفاوت في المقامات تساوقاً مع مستوى الضر والحاجة حيث نجد المضطر يخلص في دعائه وهذا ما أكده الحق سبحانه وتعالى بقوله { أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ } (٢) ففي موقف الضر والحاجة يكون الإخلاص في الدعاء وتكون العبارة معبرة عن صاحبها موحية بمشاعره وخلجاته النفسية .

---

(١) سورة نوح ، الآيتين " ٢٦ – ٢٨ " .

(٢) سورة النمل ، الآية " ٦٢ " .

من ذلك قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام { وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاتَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ } (١) ففي هذه الكلمات القلائل - التي دعا بها زكريا ربه - تعبير قوي عن شدة حاجته للولد والذرية لكبر سنه حيث يكون الإنسان في هذه السن أحوج مايكون إلى ولد يعوله ويرعاه ، وهذا مانلمحه من خلال ايثار التعبير بقوله { لاتذرني فرداً } حيث سأل ربه أن يرزقه ولداً يرثه ولايدعه وحيداً بلا وارث ، ثم إنه عليه السلام رد أمره إلى الله مستسلماً فقال : {وأنت خير الوارثين } أي إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث.(٢)

ومن دعاء الأنبياء أيضاً عن طريق النهي دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام في معرض دعائه لأبيه قال تعالى : { وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلاتُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } (٣) .

وعلى لسان موسى وهارون عليهماالسلام قال تعالى : { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } (٤) .

وعلى لسان الرسول صلى الله عليه وسلم { رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (٥) .

وكما ورد على ألسنة الأنبياء ورد على ألسنة المؤمنين من ذلك قوله تعالى: { رَبَّنَا لاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } (٦) وقوله تعالى : { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلاتَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } (٧)

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية " ٨٩ " .

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٥٨٢ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيتين " ٨٦ - ٨٧ " .

(٤) سورة يونس ، الآية " ٨٨ " .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية " ٩٤ " .

(٦) سورة آل عمران ، الآية " ٨ " .

(٧) سورة الحشر ، الآية " ١٠ " .

وقوله تعالى : { رَبَّنَا وَآتِنَا مَاوَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاتُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ } (١) وقوله تعالى : { لايُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَاكَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَااكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاتُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاتَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاتُحَمِّلْنَا مَالاطَاقَةَ لَنَا بِهِ ..} (٢)

ولننظر إلى جمال التعبير بقوله : { لها ماكسبت وعليها ماالكتسبت } ومايدل عليه من معان ثرة حيث عبر في جانب الخير بالكسب وفي جانب الشر بالاكتساب ، يقول الزمخشري ((فإن قلت : لم خص الخير بالكسب والشر بالأكتساب)) ؟ قلت في الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمارة به كانت في تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بمالا دلالة فيه على الاعتمال : أي لاتؤاخذنا بالنسيان والخطأ إن فرط منا . فإن قلت : النسيان والخطأ متجاوز عنهما ، فما معني الدعاء بترك المؤاخذه بهما ؟ قلت ذكر النسيان والخطأ والمراد بهما ماهما مسببان عنه من التفريط والإغفال ، ألا ترى إلى قوله { وما أنسانيه إلا الشيطان } والشيطان لايقدر على فعل النسيان وإنما يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذي منه النسيان ، ولأنهم كانوا متقين الله حق تقاته فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به ، كأنه قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان ، ويجوز أن يدعو الإنسان عما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه . (٣) ونقض ابن المنير رأي الزمخشري – الذي ذهب إليه بأن النسيان والخطأ متجاوز عنهما – قائلاً : ولا ورود لهذا السؤال على قواعد أهل السنة لأنا نقول : إنما ارتفعت المؤاخذة بهذين بالسمع كقوله عليه الصلاة والسلام { رفع عن أمتي الخطأ والنسيان } وإذا كان كذلك فلعل

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ١٩٤ " .
(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٨٦ " .
(٣) الانتصاف فيماتضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف ٤٠٨/١ .

رفع المؤاخذة بهما كان إجابة لهذه الدعوة ((١)

والإصر : العبء الذي يأصر حامله أي يحبسه مكانه لايستقل به لثقله والمراد به التكاليف الشاقة ، { ولاتحملنا مالا طاقة لنا به } من العقوبات النازلة بمن قبلنا ، طلبوا الإعفاء عن التكليفات الشاقة التى كلفها من قبلهم ، ثم عما نزل عليهم من العقوبات على تفريطهم في المحافظة عليها ، وقيل المراد به الشاق الذي لايكاد يستطاع من التكاليف . (٢)

ويضيف بعض الباحثين قائلاً : ونزيد أن الإصر ثقل من الذنوب فوق كاهل المذنب ينوء بها ، وفي التعبير تصوير وتشخيص ، فإذا ما دعا ربه كان في الدعاء روح وريحان وتخلص من الإصر الثقيل الذي كان فيه هلاك السابقين من المشركين ..

ومن ثم شرح ذلك بعد إبهامه بقوله { ولاتحملنا مالا طاقة لنا به } وتكرار لفظ { ربنا } مضافاً إلى الداعين لإبراز مزيد الضراعة إلى الله ، وفيه إلحاح في الرجاء لأن حمل الذنوب ثقل وعناء ، وفيه ذلك الرباط الروحي الذي يربط بين قدرتين قدرة عاجزة وأخرى قادرة هي قدرة العبد والسيد أو قل ، البشر والله ، فإذا أوشكت الأولى أن تغرق في الخضم هرعت إلى الثانية حيث القدرة القادرة والسيادة المطلقة والألوهية في الله . (٣)

فأساليب النهي في هذه الآية الكريمة بل السياق كله ينبض بالدعاء يجسد بجرسه الخفيف وألفاظه الموحية وتراكيبه المصورة الضعف الإنساني .

كما ورد الدعاء على ألسنة أهل الأعراف يوم القيامة قال تعالى { وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن

---

(١) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف ٤٠٨/١ .

(٢) الكشاف ٤٠٨/١ ومابعدها .

(٣) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ٣٨١ ومابعدها .

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (١) .

تأتي هاتان الآيتان لترسم صورة واضحة المعالم لما أعده الله للمؤمنين من فضل وتكريم في يوم القيامة ، وهي صورة زاخرة بالحركة والمشاهد والحوار والإيحاء وتصوير المشاعر ، فهي تصور مشهد أصحاب الجنة وقد إطمأن بهم المقام فيها ثم تتبعه بمشهد آخر لأصحاب النار ، ثم ترسم بين المشهدين مشهداً ثالثاً لأصحاب الأعراف الذين قصرت بهم أعمالهم فلم يدخلوا الجنة وتقدمت بهم عن أن يكونوا من أهل النار ، ثم تحكي مابين الثلاثة من حوار موح ، وتصور خلجات نفوسهم ومشاعرهم ، وتعرض ذلك كله فيما يناسبه من صور البيان وفنون البلاغة(٢) ، ويكفينا في هذا الموضع أن نتوقف عند أصحاب الأعراف وخاصة دعاءهم الذي يجسد خوفهم وهلعهم الشديد من النار التي يعذب فيها المجرمون .

{ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين } فابصارهم معلقة بالجنة وأصحابها يتحامون الالتفات إلى النار وأهلها وهذا مايوحي به التعبير بقوله { وهم يطمعون } وقوله { إذا صرفت أبصارهم } أي صرفاً دون إرادة منهم إلى أهل النار فزعوا إلى رحمة الله واستعاذوا بالله أن يكون مصيرهم مصير هؤلاء { ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين } أي في النار وفي وصفهم بالظلم دون ماهم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذى هو الموجب للدعاء إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفي العذاب فقط بل مع مايوجبه ويؤدي إليه من الظلم . (٣)

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتين " ٤٦ – ٤٧ " .
(٢) أنظر أسلوب الدعوة القرآنية ص ١٣٩ .
(٣) انظر الكشاف ٨١/٢ وتفسير أبي السعود ٢٤٦/٢ وفي ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٢٩٣ وأسلوب الدعوة القرآنية ص ١٤٤ .

الحث والرغبة في الإتصاف بصفة معينة :

أفاد النهي في القرآن الكريم الحث والرغبة في الاتصاف بصفة معينة في قوله تعالى : { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاتَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } (١) .

وضح السياق في هذه الآية حرص إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ورغبتهما في إتباع ابنائهما للإسلام ، فالنهي في قوله { لاتموتن } للحث والرغبة في الثبات على الاسلام كما ذكر كثير من المفسرين .

يقول الطبري ((لاتفارقوا هذا الدين وهو الاسلام أيام حياتكم حتى لاتأتيكم مناياكم وأنتم على غير الاسلام لأن أحداً لايدري متى تأتيه المنية)) (٢) وقد أخذ الزمخشري هذا الكلام وأضاف إليه وصاغه بدقة فقال ((معناه : فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الاسلام ، فالنهي في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا كقولك : لاتصل إلا وأنت خاشع . فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في حالة صلاته ، ... لإظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لاخير فيه وأنه ليس بموت السعداء ، وأن من حق هذا الموت أن لايحل فيهم ، وتقول في الأمر أيضاً : مت وأنت شهيد وليس مرادك الأمر بالموت ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات ، وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميتته وإظهاراً لفضلها على غيرها وأنها حقيقة بأن يحث عليها (٣) . وقد تابع الزمخشري كثير من المفسرين .

ونلمح في التعبير بقوله ((ووصى)) رغبة إبراهيم عليه السلام وحرصه الشديد على إسلام ابنائه حيث رغبهم فيه كما ذكر الرازي بأمور منها : أنه لم يقل

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٣٢ " .

(٢) الطبري ١ / ٤٣٨ .

(٣) انظر الكشاف ٣١٣/١ والبحر المحيط ٣٩٩/١ وتفسير أبي السعود ٢٦٤/١ وحاشية الشهاب ٢٤١/٢ والتحرير والتنوير ٧٢٩/١ وراجع الأساليب الإنشائيةص ٧٣ ومابعدها .

سبحانه وأمر ابراهيم بل قال وصاهم ، فلفظ الوصية أوكد من الأمر لأن الوصية عند الخوف من الموت وفي ذلك الوقت يكون إحتياط الانسان أشد وأتم ، فإذا عرف أنه عليه السلام في ذلك الوقت مهتماً بهذا الأمر متشدداً فيه كان القول إلى قبوله أقرب ، ثم إنه خصص بنيه بالوصية لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم فلما خصهم بذلك علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيرهم ، ثم أنه عمم بهذه الوصية جميع بنيه ولم يخص أحداً منهم بها وذلك يدل على شدة الاهتمام ، كما أنه عليه السلام أطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان ومكان ، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين شدة اهتمام بهذا الأمر ولذا لم يمزج بهذه الوصية وصية أخرى . (١)

ونظير قوله تعالى خطاباً مباشراً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَاتَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } (٢)

فلفظ النهي في قوله { لاتموتن } واقع على الموت والمقصود الأمر بالاقامة على الإسلام والثبات عليه } (٣) .

وبالموازنة بين هذه الآية والآية السابقة نحس بالفارق بين الأمم ، وأقداراً من الاختلاف بين المتكلم إبراهيم ويعقوب عليهما السلام ، ورب العزة والجلال فقد خاطب بهذه الآية الأمة المحمدية وقد صدرت بالنداء والتنبيه والوصف لأي ، والوسم بالإيمان ، وهذا الاختصاص بالتكريم يناسب الأمر بالتقوى الخاصة ، تكريم على قدر التكليف والوفاء به . (٤)

---

(١) التفسير الكبير ٤ / ٨٠ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية " ١٠٢ " .
(٣) التفسير الكبير ١٧٧/٨ .
(٤) الأساليب الإنشائية ص ٧٣ .

الإلتمـاس :-

تنبض بعض أساليب الحوار القرآني الواردة على ألسنة الأنداد والنظراء بالالتماس ومايأتلف به من معان أخر كالتحنن والاستعطاف والترقيق ، ولذا لم يأت هذا الغرض مستقلاً .

والالتماس غرض من أغراض النهي البلاغية في البيان القرآني .

هارون عليه السلام :

أفاد النهي فى القرآن الكريم وبخاصة في قصة موسى عليه السلام معنى الالتماس من ذلك قوله تعالى على لسان هارون خطاباً لأخيه موسى بعد رجوعه من الميقات { قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي }(١)

لما رأى هارون عليه السلام فى وجه أخيه الغضب والحدة لعبادة اليهود – أخزاهم الله – عجل الذهب سلك في خطابه مسلك الاستعطاف والتحنن والترقيق لإزالة ثورة الغضب عن نفس موسى عليه السلام فابتدر أخاه بالنداء ((يا ابن أم)) وخص الأم بالإضافة إستعطافاً لحقها وترقيقاً لقلبه وليس لما قيل بأنه كان أخاه لأمه (٢) ، فإن الجمهور كما ذكر أبو السعود على أنهما كانا شقيقين . (٣)

وعلى هذا يكون ذكر الأم هنا أدق وأبلغ في تحصيل المراد وهو الحنو والعطف (٤) ، وأضاف الطاهر بن عاشور قائلاً " وعدل عن ((يا أخي)) إلى " ابن أم" لأن ذكر الأم تذكير بأقوى أواصر الأخوة وهي أصرة الولادة من بطن واحد والرضاع من لبان واحد " (٥)

---

(١) سورة طه ، الآية " ٩٤ " .
(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٠٩ .
(٣) انظر تفسير أبي السعود ٣/٦٦١ .
(٤) راجع وجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٢٠٧ .
(٥) التحرير والتنوير ١٦ / ٢٩٢ .

فالنهي في قوله : { لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي } للالتماس كما هو واضح من السياق . (١)

ونظيره قوله تعالى على لسان هارون عليه السلام { .. وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } (٢)

في هذه الآية الكريمة تعانق نهيان لإفادة معنى الالتماس والترقيق هما قوله ((لا تشمت ، وقوله لاتجعلني)) .

والسياق يشي بمعاني التحنن والاستعطاف والترقيق والاعتذار حيث بدأ هارون عليه السلام خطابه بقوله ((ابن أم)) لإستمالة أخيه وإستعطافه وترقيق قلبه عليه ، وفي حذف حرف النداء إظهار لما صاحب هارون من الرعب والخوف والاضطراب لما رأى حال أخيه . (٣)

وفي التعبير بقوله ((إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني)) دليل على أنه عارضهم معارضة شديدة على عبادتهم العجل ، وأنه لم يأل جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار طاقته من بذل القوة في مضادتهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه)) (٤)

موسى والخضر :

ورد النهي مراداً به الالتماس في خطاب موسى عليه السلام للخضر عليه السلام فى قوله تعالى : { قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً }(٥) اعتذر موسى عليه السلام بالنسيان بقوله { لاتؤاخذني بما نسيت }

---

(١) انظر أساليب بلاغية ص ١١٧ وعلم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ٤١ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية " ١٥٠ " .

(٣) التحرير والتنوير ٩ / ١١٦ .

(٤) انظر الكشاف ٢ / ١١٩ .

(٥) سورة الكهف ، الآية " ٧٣ " .

حيث أراد أنه نسي وصيته ولامؤاخذة على الناسي ، أو أنه أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان ليتقبل عذره ، وهو من معاريض الكلام التي يتقي بها الكذب مع التوصل إلى الغرض كما ذكر الزمخشري)) (١) .

فالنهي في قوله ((لا تؤاخذني ، ولا ترهقني)) مستعمل في الالتماس والاعتذار والاستعطاف كما هو واضح من نظم الآية الكريمة .

ومنه قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : { قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً } (٢)

النهي في قوله ((لا تصاحبني)) يفيد معني الالتماس والاعتذار كما يبدو من السياق بمعونة القرائن وأحوال التراكيب .

ونلحظ في الآية إنصاف موسى لصاحبه حيث جعل له العذر في ترك مصاحبته تجنباً لإحراجه وهذا ماينبيء عنه قوله تعالى : { فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً } أي لاتقاربني وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني فى ذلك أو لا تكن صاحبي أو لاتجعلني صاحبك . (٣)

أصحاب الكهف :

في سياق الحوار الذي دار بين أصحاب الكهف جاءت أساليب الطلب -ومنها النهي - تفيد معني الالتماس فى قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُواْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُواْ أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَايُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً } . (٤)

---

(١) انظر الكشاف ٤٩٣/٢ والتفسير الكبير ١٥٥/٢١ .
(٢) سورة الكهف ، الآية " ٧٦ " .
(٣) انظر الكشاف ٤٩٤/٢ والتحرير والتنوير ٦/١٦ .
(٤) سورة الكهف ، الآية " ١٩ " .

تفيد أساليب الأمر والنهي في هذا السياق القرآني معنى الالتماس والنصح والتشاور حيث أشار بعضهم بإرسال أحدهم إلى المدينة ليبتاع لهم طعاماً يقيمون به أودهم ، وأوصوه بتوخي الحرص وأخذ الحيطة والحذر حتى لاينكشف أمرهم فتزهق أرواحهم . (١)

والملح في نصيحتهم له ((وليتلطف ولايشعرن بكم أحداً)) الخوف والوجل الشديد .

---

(١) راجع الكشاف ٤٧٦/٢ ومابعدها وتفسير أبي السعود ٥٠٩/٣ والتحرير والتنوير ٢٨٤/١٥ ومابعدها والتصوير الفني في القرآن ص ١٩٢ - ١٩٣ .

التسكين والطمأنة والتسلية :-

التسكين كغرض بلاغي وجد عند الأصوليين (١) ، لم أطلع عليه عند غيرهم فيما أعلم . وهو قريب مما ذكره كثير من علماء التفسير حيث ترددت في كتب المفسرين ألفاظ كثيرة تقترب في الدلالة من التسكين كالتسلية والتسرية والتطمين والإيناس والتعزية من ذلك قولهم عند تفسير قوله تعالى { وَلَا تَهِنُوا وَلَاتَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } (٢) يقول الطبري : ((وهذه تعزية لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد)) (٣) ويقول الزمخشري ((ولاتهنوا ولاتحزنوا)) تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية من قلوبهم (٤) .

ويقول الطاهر بن عاشور في تفسير قوله تعالى :{ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّاتَخَافُوا وَلَاتَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ..} (٥) ((النهي كناية عن التأمين من جانب الله تعالى لأنهم إذا تحققوا الأمن زال خوفهم ، وهذا تطمين من الملائكة لأنفس المؤمنين)) .

وأطلق بعض المعاصرين على هذا المصطلح اسم الإيناس (٦) ، لكنني آثرت في هذا المبحث تطبيق مصطلح الأصوليين لدقته وعمقه .

وبإنعام النظر في أساليب النهي التي أفادت معنى التسكين والطمأنة في القرآن الكريم نجدها تتفاوت من حيث المتكلم والمخاطب حيث جاءت من قبل الحق

---

(١) انظر التمهيد في أصول الفقه ١ / ٣٦١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية " ١٣٩ " .

(٣) تفسير الطبري ٤ / ٦٦ .

(٤) انظر الكشاف ٤٦٥/١ وتفسير أبي السعود ٥٦١/١ ومابعدها .

(٥) سورة فصلت ، الآية "٣٠" وانظر التحرير والتنوير ٢٨٥/٢٤ .

(٦) بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩٢ والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ١٠٨ .

سبحانه - إما وحياً أو إلهاماً - خطاباً لرسله عليهم السلام أو من يتصل بهم بقرابة ونسب كأم موسى ومريم عليها السلام ، أو جاءت على ألسنة الملائكة أو الأنبياء عليهم السلام على نحو ماتفصح عنه الصفحات القادمة بعون الله وتوفيقه :-

١ - من قبل الحق سبحانه :-

نوح عليه السلام :

أفاد النهي معنى الطمأنة والتسكين في القرآن في قوله تعالى خطاباً لنوح عليه السلام : { وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } (١)

يخبر الحق سبحانه في هذه الآية نوحاً عليه السلام بأن قومه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ، وفي هذا تيئيس له عليه السلام من إيمانهم وإعلام لكونه مستحيلاً لايصح توقعه ، فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت أما البقية الباقية فليس لديها استعداد أو قبول ، فلم يعد للدعوة جدوى أو فائدة .

ثم فرع على هذا بقوله ((لاتبتئس بما كانوا يفعلون)) أي لاتحزن حزن يائس مستكن ولا تغتم بما كانوا يفعلونه من التكذيب والاستهزاء والإيذاء والمعاداة في هذه المدة الطويلة فقد حان وقت الانتقام لك منهم)) (٢)

فالنهي في قوله ((لاتبتئس)) للطمأنة والتسكين والتسلية كما هو واضح من السياق .

مع موسى عليه السلام :-

موسى في طفولته :

ورد النهي مراداً به الطمأنة والتسكين في قوله تعالى خطاباً لأم موسى عليه السلام { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ

---

(١) سورة هود ، الآية " ٣٦ " .

(٢) انظر الكشاف ٢٦٨/٢ والتفسير الكبير ٢٣٠/١٧ وتفسير أبي السعود ٤٠/٣ والتحرير والتنوير ٦٥/١٢ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ١٨٧٦ .

فِي الْيَمِّ وَلاتَخَافِي وَلاتَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } . (١)

تصور هذه الآية الكريمة حيرة الأم وخوفها على ولدها من الخطر المحدق به وهي عاجزة عن حمايته ، وسرعان ماتتدخل يد القدرة فتزيل عنها الخوف وتلقي في روعها عن طريق الإلهام كيف تعمل وتتصرف ((فإذا خفت عليه فالقيه في اليم ولاتخافي ولاتحزني)) أي لاتخافي عليه من الهلاك غرقاً ولاتحزني على فراقه (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) فهذه الجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن زيادة في الطمأنة والتسكين والتثبيت ، وإيثار الجملة وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أي إنا فاعلون لرده وجعله من المرسلين فهذه بشارة ووعد من الله ومن أصدق من الله قيلا . (٢)

فالنهي في قوله { لا تخافي ولاتحزني } للطمأنة والتسكين (٣) بدلالة السياق والمقام .

ونظيره قوله تعالى خطاباً لمريم عليها السلام { فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً } (٤)

موسى وهارون عليهما السلام :

أفاد النهي معنى التسكين والطمأنة في قوله تعالى خطاباً لموسى وأخيه هارون عليهما السلام { قَالَ لاتَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } (٥)

---

(١) سورة القصص ، الآية " ٧ " .

(٢) راجع الكشاف ١٦٥/٣ وتفسير أبي السعود ٢٩٣/٤ والتحرير والتنوير ٧٤/٢٠ ومابعدها وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦٧٨ ومابعدها .

(٣) انظر الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩٢ .

(٤) سورة مريم ، الآية " ٢٤ " .

(٥) سورة طه الآية " ٤٦ " .

في هذه الآية وعد من الله بالتأييد لهما وطمأنة وتسكين لهما ونفي لأدنى خوف فالنهي في قوله { لا تخافا } للطمأنة والتسكين (١) ، وجملة { إنني معكما } تعليل للنهي وتسلية لهما ، والمراد بالمعية كما ذكر المفسرون كمال الحفظ والعناية كما ينبىء عنه قوله تعالى { أسمع وأرى } أي مايجري بينكما وبينه من قول وفعل فافعل مايوجبه حفظي ونصرتي لكما (٢) ، وفي هذا مطلق التأييد التام لهما من الله تعالى كما هو واضح من نظم الآية الكريمة .

ومنه قوله تعالى خطاباً لموسى عليه السلام { يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَاتَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ } (٣) لما رأى موسى عليه السلام عصاه تهتز كأنها جان ولى مدبراً من شدة الخوف الذي ملك عليه جميع أعضائه لكن الله سبحانه وتعالى يطمئنه ويزيل عنه الخوف والهم بقوله { ياموسى أقبل ولاتخف } فالأمر والنهي في هذه الآية للطمأنة والتسكين بدليل قوله { إنك من الآمنين } فهذا التعبير يدل على زيادة الأمن والطمأنينة حيث جاء مؤكداً بإن وجعله { من الآمنين } وهو أشد في تحقيق الأمن من أن يقال { إنك آمن } (٤) ودليل على كمال العناية الألهية به وزيادة تشريف له عليه السلام .

٢- على ألسنة الملائكة :

ورد النهي مراداً به الطمأنة والتسكين في القرآن الكريم على ألسنة الملائكة خطاباً للأنبياء عليهم السلام من ذلك قوله تعالى خطاباً لابراهيم الخليل عليه السلام { وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَاتَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ } (٥)

---

(١) أنظر التمهيد في أصول الفقه ١ / ٣٦١ .
(٢) أنظر الكشاف ٢/٥٣٩ وتفسير أبي السعود ٣/٦٣٣ .
(٣) سورة القصص ، الآية " ٣١ " .
(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٠ / ١١٣ .
(٥) سورة الحجر ، الآيتين " ٥١ - ٥٣ " .

تحكي هذه الآيات الكريمات قصة ابراهيم مع الملائكة عليهم السلام ومادار بينه وبينهم من حوار عندما رأى أيديهم لاتصل إلى الطعام أوجس منهم خيفة حيث صرح لهم عن ذلك بقوله : { قال إنا منكم وجلون } فجاء نهيهم له عن الوجل والخوف تسكيناً لفؤاده وتطميناً له عليه السلام { قالوا لاتوجل } أما جملة { إنا نبشرك بغلام عليم } فهي استئناف لتعليل النهي عن الوجل فإن المبشر به لايكاد يحوم حول ساحته خوف ولاحزن كيف لا وهو بشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زماناً طويلاً } (١) .

ونظيره قوله تعالى خطاباً لإبراهيم عليه السلام { فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَاتَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ } (٢) وقوله تعالى { قَالُوا لَاتَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ } (٣) فالنهي في الآيتين الكريمتين للطمأنة والتسكين .

ومنه قوله خطاباً للوط عليه السلام { وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَاتَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } (٤)

توضح هذه الآية حال الكرب والخوف الشديد الذي سيطر على لوط عليه السلام عندما جاءته الملائكة في صورة البشر فخاف عليهم وهذا مايكشف عنه التعبير بقوله { سيء بهم وضاق بهم ذرعاً }، وفي هذا التعبير كناية عن عجزه عليه السلام عن المحافظة عليهم وتدبير أمرهم .

ثم يمضي السياق يبين ما قالته الرسل لما رأت لوطاً وما عليه حاله من

---

(١) انظر الكشاف ٣٩٢/٢ وتفسير أبي السعود ٣١٥/٣ والتحرير والتنوير ٥٨/١٤ ومابعدها

(٢) سورة الذاريات ، الآية " ٢٨ " .

(٣) سورة هود ، الآية " ٧٠ " .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية " ٣٣ " .

خوف وكرب شديد حيث بادروه بالتطمين والتسكين وكشفوا له عن حقيقتهم وأخبروه بمهمتهم بأنهم منزلون العذاب على قومه (١)

فالنهي في قوله { لاتخف ولاتحزن } للطمأنة والتسكين وحول هذا المعنى يقول الطاهر ابن عاشور { وقدموا تامينه قبل إعلامه بأنهم منزلون العذاب على أهل القرية تعجيلاً بتطمينه } (٢)

ومنه قوله تعالى على لسان الخصمين خطاباً لداود عليه السلام { إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ..} (٣) فالنهي في قوله { لاتخف } للتسكين والطمأنة كما هو واضح من السياق .

٣ - على ألسنة الأنبياء :

الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه :

أفاد النهي معنى الطمأنة والتسكين والائتناس في قوله تعالى على لسان المصطفى خطاباً للصديق وهما في الغار { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } (٤)

((تبين هذه الآية الكريمة صورة نفسية ترسم خطوطها تلك الكلمات متناسقة متآلفة صورة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يرى قوة الكفر تحيط بهما في الغار وليس معهما جيش يذود عنهما هذا العدد المتحفز لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطبيعي أن يتناوشه القلق والخوف على صاحبه لا على نفسه حيث يبلغ فيه السمو البشري أقصاه ، وبجواره رسول الله يحس بكل اهتزازة

---

(١) انظر الكشاف ٢٠٥/٣ والتفسير الكبير ٦٢/٢٥ ومابعدها وتفسير أبي السعود ٣٣٧/٤ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٧٣٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٥/٢٠ .

(٣) سورة ص ، الآية " ٢٢ " .

(٤) سورة التوبة ، الآية " ٤٠ " .

يهتز بها لمواقع أقدام الكفار وبكل نبضة من قلبه الكبير فيبدد ذلك كله بكلمتين أثنتين (١) يطمئن بهما فؤاده ويسكنه ويخبره بتأييد الله لهما ((لاتحزن إن الله معنا)) فالنهي في قوله { لا تحزن } للطمأنة والتسكين والتثبيت ، ونلحظ مافي التعبير بقوله { إن الله معنا } من التأييد والعون والعصمة والعناية الدائمة التي لاتحوم حول صاحبها شائبة من الحزن أو المكروه . (٢)

يوسف عليه السلام وأخوه :-

ورد النهي مراداً به الطمأنة والتسكين في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام خطاباً لأخيه { وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (٣)

يبدو أن النهي في قوله { لاتبتئس } مستعمل فى الطمأنة والتسكين وقلة المبالاة أي لاتبتئس بما كانوا يفعلونه بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير ، أو لاتحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى . (٤)

٤ - المؤمنون والطمأنة والتسكين :

جاء التسكين والطمأنة فى القرآن عن طريق النهي خطاباً للمؤمنين من ذلك قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } (٥)

---

(١) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ٣٨٢ .

(٢) أنظر الكشاف ١٩٠/٢ وتفسير أبي السعود ٥٥٢/٢ والتحرير والتنوير ٢٠٣/١٠ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩٢ .

(٣) سورة يوسف ، الآية " ٦٩ " .

(٤) أنظر الكشاف ٣٣٣/٢ وتفسير أبي السعود ١٧٠/٢ .

(٥) سورة فصلت ، الآية " ٣٠ " .

في هذه الآية الكريمة بيان للتكريم البالغ الذي حظي به المؤمنون في الدنيا حيث تتنزل عليهم الملائكة بالطمأنة والتسكين ونفي الخوف والحزن عن أنفسهم ، وليس هذا فحسب بل بالبشارة بالجنة على نحوماينبيء عنه التعبير بقوله : { ابشروا بالجنة } .

وفي وصف الجنة بقوله { التي كنتم توعدون } تذكير لهم بأعمالهم التي وعدوا عليها بالجنة وتعجيل لهم بمسرة الفوز برضى الله وتحقيق وعده أي التي توعدونها في الدنيا . (١)

ونظيره قوله تعالى تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عقب ما أصابهم يوم أحد من قتل وجرح { وَلَاتَهِنُوا وَلَاتَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } (٢) .

ينبض النهي في قوله { ولاتهنوا ولاتحزنوا } بمعاني الطمأنة والتسكين والتشجيع للمؤمنين والتحريض على الجهاد يعني لاتضعفوا لما أصابكم ولا تبالوا به ولاتحزنوا على من قتل منكم وجرح فأنتم الأعلون . (٣) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٨٥ وانظر التمهيد في أصول الفقه ١/٣٦١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية " ١٣٩ " .

(٣) راجع الكشاف ١/٤٦٥ وتفسير أبي السعود ١/٥٦١ ومابعدها .

بيان العاقبة :

يبدو أن المراد ببيان العاقبة في الذكر الحكيم أن هناك أمراً ظاهراً يقابله أمر آخر هو المقصود والمطلوب كما في قول الحق تبارك وتعالى { وَلَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } (١) فالمراد بيان أن { عاقبة الجهاد الحياة لا الموت } (٢) ومثله قوله تعالى { وَلَاتَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. } (٣) يقول السبكي { أي عاقبة الظلم العذاب لا الغفلة } (٤) .

وظاهرة النهي عن الحسبان لها شأنها في القرآن الكريم تقويماً وتغييراً للمفاهيم أو تعديلاً لها بما يتفق والقرآن سواء أفاد الأسلوب مدحاً وتكريماً أم ذماً وتوبيخاً .

والنهي عن الحسبان ورد فى القرآن في تسع آيات نلحظ فيها نفي المفعول الثاني عن الأول وإثبات مقابله في مقام مسيطر يبدأ بالنفي وينتهي بالإثبات كما في الآيات السابقة . (٥)

ثم إن الأحداث المثبتة بعد النهي قد تكون موضع غفلة من البشر وبخاصة أن أكثرها غيبي يتعلق بالجزاءات الخاصة تكريماً أو نكالاً ، أو يتعلق بالبعث وقوة الكفر في نظر المسلمين وقد اهتمت بها السياقات لتكون على ذكر من المؤمن أبداً ، وهذا من أسباب تكرار الفعل { ولاتحسبن } في سياق واحد مع مانبهوا إلى مايظن أنه طول في السياق بسبب فاصل بين المفعول الأول والمفعول الثاني موطن الفائدة ونظن كما يقول الدكتور صباح دراز - أنه أشمل من ذلك صياغة ومدلولاً وترسيخاً وايقاعاً . (٦) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٩ " .
(٢) الاتقان ٣/٢٤٤ ومعترك الأقران ١/٤٤٤ .
(٣) سورة إبراهيم ، الآية " ٤٢ " .
(٤) عروس الأفراح ٢ / ٣٢٦ .
(٥) الأساليب الإنشائية ص ٦٩ .
(٦) الأساليب الإنشائية ص ٧٠ ومابعدها .

والحسبان في بعض المعاجم بمعنى الظن (١) ، وفرق بينهما الراغب قائلاً بأن{ الحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الأصابع ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك ، أما الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر . (٢) .

وقبل أن نعرج على أساليب النهي عن الحسبان فى القرآن الكريم أود أن أشير إلى أن أكثرها جاءت في مواطن التهديد والوعيد والترهيب على سبيل التعريض ، وأقلها فى مواطن التكريم والترغيب .

وقيل إن الخطاب في جميعها للنبي صلى الله عليه وسلام إرشاداً وتعليماً وأمراً بالتبليغ (٣) ، والآن نكتفي بسوق بعض النماذج وتحليلها :-

قال تعالى : { وَلَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } (٤) .

في هذه الآية الكريمة يخبر الحق سبحانه وتعالى عن الشهداء أنهم في الجنة يرزقون ، ففيها رد كما قال الرازي على المثبطين الذين قالوا إن الجهاد يفضي إلى القتل ، حيث أبطله الرازي وبين أنه باطل لأن القتل إنما يحصل بقضاء الله وقدره فالآجال بيد الله ، ثم إن القتل في سبيل الله أجل من الحياة لأنه مفض إلى نوع جليل من الحياة والقربة والكرامة وأفضل أنواع الرزق وأعلى مراتب الفرح والسرور . (٥)

والخطاب في قوله { ولاتحسبن } للرسول صلى الله عليه وسلم وقرىء

---

(١) انظر مقاييس اللغة ٢/٥٩ والصحاح ١/١١١ واللسان ٢/٨٦٦ ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ١/٢٦٥ .

(٢) المفردات ص ١١٧ ومابعدها .

(٣) الأساليب الإنشائية ص ٧٠ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٩ " .

(٥) التفسير الكبير ٩ / ٩٠ .

{ ولايحسبن } أي لايحسبن حاسب أو أحد على التعميم في الفاعل تأكيداً للحدث وإشهاراً له لأنه حقيقة أخروية . (١) .

فهذه الآية تكشف صورة الشهداء الذين ارتفعوا فوق شهواتهم وغالبوا هوى الشيطان وحققوا صورة النموذج الحي ، لاتحسبنهم أمواتاً بل أحياء ، فوراء هذا النهي بيان العاقبة والفضل والتكريم لهؤلاء الشهداء ، وفيه أن القتل في سبيل الله شرف خالد لايجيء إلا من فئة أخلصوا الإيمان لايفرطون في كرامتهم ويأبون الذل والضيم ، وفيه أن الدين مثل عاليه بعيدة عن صفات الهوى والغرض ، قائمة على أسس سليمة قويمة من الأخلاق نظيفة من دنس الشرك تعلو فوق الشبهات ، ومن ثم فهؤلاء الشهداء أحياء لم يموتوا وإن كانوا غير موجودين بأجسامهم فوق الأرض ، وفي متناول البصر ، هي حياة على كل حال لاندرك كنهها ولانحيط علماً بحقيقتها (٢) ، فهي حياة خاصة بهم تختلف عن الحياة المتعارف عليها في هذا العالم (٣) ، وفي هذا مزيد من التكريم والحظوة لهؤلاء الشهداء .

ومنه قوله تعالى : { وَلاتَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ } (٤) .

توضح هذه الآية الكريمة قدرة الله سبحانه وواسع علمه فهو عالم بما يفعل الظالمون لايخفى عليه منه شيء .

والخطاب في هذه الآية موجه للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد تثبيته على ماكان عليه من عدم حسبانه عز وجل غافلاً ، أو أن المراد بالنهي عن حسبانه غافلاً الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون لايخفى عليه منه شيء وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد .

---

(١) الأساليب الإنشائية ص ٧٠ .

(٢) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ٣٨٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٤ / ١٦٥ .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية " ٤٢ " .

ففيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد له أكيد ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستعجل عذابهم أو يتوهم إهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بإمهاله ، وقيل معناه لاتحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيراً وقطميراً (١) .

فالنهي في قوله { ولاتحسبن الله غافلاً } لبيان العاقبة أي عاقبة الظلم العذاب لا الغفلة . (٢)

وقد دار بين العلماء جدل كبير حول بعض أساليب النهي عن الحسبان كما في قوله تعالى : { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ } (٣)

اختلف العلماء في تعيين من نزلت فيه هذه الآية فقال ابن عباس : في اليهود والنصارى والمنافقين ، وقال عطاء في قريظه والنضير ، وقال مقاتل : في مشركي مكة ، وقال الزجاج في قوم أعلم الله نبيه أنهم لايؤمنون أبداً وليست في كل كافر إذ آمن بعضهم ، وقال مكي هذا هو الصحيح من المعاني . (٤)

ولاشك أن بقاء المتخلفين عن الجهاد كما يقول الرازي ((ليس خيراً من قتل أولئك الذين قتلوا في أحد لأن هذا البقاء صار وسيلة الخزي في الدنيا والعقاب الدائم في القيامة ، وقتل الشهداء صار وسيلة إلى الثناء في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة)) (٥) .

وقد أول المعتزلة اللام في قوله ((ليزدادوا)) على أنها لام العاقبة إثباتاً

---

(١) أنظر الكشاف ٢/٣٨٢ وتفسير أبي السعود ٣/٢٧٤ .
(٢) انظر عروس الأفراح ٢/٣٢٦ وأساليب بلاغية ص ١١٨ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٧٨ " .
(٤) انظر البحر المحيط ٣/١٢٤ والأساليب الإنشائية ص ٧٢ .
(٥) التفسير الكبير ٩ / ١٠٩ .

للغرض والباعث والحكمة ، وقد رده الرازي وأبوحيان وغيرهما بأنه عدول عن الظاهر والصواب أن اللام للتعليل أو لام الإرادة كما يسميها أبو السعود (١) .

والغرض البلاغي المراد في هذه الآية نهي الكافرين عن السرور بإملاء الله لهم وبقائهم وتحسيرهم ببيان أن ذلك شر محض وإستدراج وكيد يحيق بهم ضرره ، استكثاراً من الإثم وإستحقاقاً لمهين العذاب والخزي في الآخرة .

وقرىء { ولاتحسبن } تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وإظهاراً لعاقبة الكفر وبياناً لعجزهم ، وقيل الخطاب للعموم قصداً إلى إشاعة فظاعة حالهم . (٢) .

موازنة بين سياقين :-

ولما نجنيه من وراء عقد الموزانات بين الآيات المتشابهات في القرآن من أسرار ولطائف بيانية تكشف عن جانب من جوانب إعجاز القرآن في إحكام نظمه ورصفه آثرت عقد موازنة بين سياقين مختلفين :-

قال تعالى : { وَلَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ } (٣)

وقوله تعالى : { وَلَاتَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَّاتَشْعُرُونَ } (٤)

والنهي في هاتين الآيتين لبيان العاقبة . (٥) .

ونلحظ كما لحظ الدكتور صباح دراز من خلال هذه الموازنة مايلي :-

١ - جاء الفعل ((تقولوا)) هنا لأن المشركين كانوا يقولون إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقتلون أنفسهم ويخسرون حياتهم ، فقال الله : { وَلَا تَقُولُواْ

(١) انظر التفسير الكبير ١١٢/٩ والبحرالمحيط ١٢٤/٣ وتفسير أبي السعود ٦٠٧/١ .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٦٠٥/١ والأساليب الإنشائية ص ٧٣ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٦٩" .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ١٥٤ " .

(٥) عروس الأفراح ٣٢٦/٢ والاتقان ٢٤٤/٣ ومعترك الأقران ٤٤٤/١ وأساليب بلاغية ص ١١٨ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ .

كما قال المشركون إنهم يذهبون إلى الفناء ولاينشرون ، ولكن اعلموا أنهم أحياء ، وقال الاصم لاتسموهم بالموتى وقولوا لهم الشهداء الأحياء . (١)

٢ - لما كانت آية البقرة تنهاهم عن التشبه بالكفار فى القول كان الأسلوب قوياً تصحيحاً للعقيدة ، ووزناً للألفاظ بميزان دقيق قبل النطق بها ، ثم جاء التذييل مقرراً عاتباً { ولكن لاتشعرون } .

دل على العتاب صياغة الفعل ((يقتل)) تصويراً حالياً إستحضاراً للمشهد ، فهذا الذي يسفك دمه وتزهق روحه في سبيل الله لايكون إلا حياً ، أما آية آل عمران فجاءت في شهداء أحد وإن كانت عامة ، ولذا رق الأسلوب وفاح رحمة وحناناً ، فليس النهي عما يدور في الأفواه ويتلفظ به اللسان بل عن الحسبان والخاطر يطوف بالقلب نهياً عن الظن ، والقول من باب أولى .

كما أن الفعل ((قتلوا)) حقق الاستشهاد وأكد النهي وهذا ناسب التكريم الخاص لهؤلاء الشهداء وتعديد ألوان رائعة منه تثبت الحياة مضاعفة { عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون } ترغيباً في الجهاد المخلص رفعاً لكلمة الله في الأرض رب الأولى والآخرة . (٢) .

---

(١) التفسير الكبير ١٦١/٤ .

(٢) الأساليب الإنشائية ص ٧١ ومابعدها .

الإلهـاب والتهييـج

أسلوب الإلهاب والتهييج ورد في القرآن بأساليب متنوعة اتخذت وسائط لإبرازه كالأمر والنهي والقسم والشرط .

والإلهاب والتهييج في إصطلاح البلاغيين كما ذكر العلوي ((مقولان على كل كلام دال على الحث على الفعل لمن لايتصور منه تركه وعلى ترك الفعل لمن لايتصور منه فعله ، ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممن هذه حالة على جهة الإلهاب والتهييج له على الفعل أو الكف لاغير)) ويضيف قائلاً ((فهذان نوعان من الكلام يردان في الكلام الفصيح والخطب البالغة ولولا موقعهما في البلاغة أحسن موقع لما وردا في كتاب الله الذي أعجز الثقلين الإتيان بمثله أو بأقصر سورة من سوره)) (١) .

وحين ننعم النظر في أساليب النهي التي أفادت الإلهاب والتهييج نجدها تختلف باختلاف المخاطب ، ونلحظ أن أكثرها جاءت خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم والمرادة أمته فى أكثرها ، لأن من وراء هذه الأساليب غاية عظمى إذ هي مظهر من مظاهر الألوهية تتجلى فى خطاب البشرية المربوبة في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره من الرسل السابقين عليهم السلام وهم صفوة الخلق وأقربهم إليه تعالى (٢) .

والواضح أن الألوهية تتجلى في هذه الأساليب وفي كثير من أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم .

ونعرج الآن على بعض أساليب النهي التي أفادت الإلهاب والتهييج في الذكر الحكيم ليقاس بعد النظير على نظيره :

مع الرسول صلى الله عليه وسلم :

أكثر أساليب النهي التي أفادت الإلهاب والتهييج جاءت خطاباً لخاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم وهي كثيرة تند عن الحصر نكتفي بإزجاء بعض

---

(١) الطراز ٣ / ١٦٥ - ١٦٧ .

(٢) انظر من أسرار التعبير القرآني ص٨ ومابعدها ودلالات التراكيب ص٢٥٣ .

النماذج وتحليلها ليقاس بعد ذلك المثيل على مثيله .

ولعل من أقوى أساليب النهي التي يظهر فيها بوضوح معنى الإلهاب والتهييج أساليب النهي عن الكون التي سنفصل القول فيها في موضع لاحق بإذن الله ، يهمنا منها ماخوطب بها الرسول صلى الله عليه وسلم نحو قوله تعالى : {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (١) وقوله تعالى : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ } (٢) فالخطاب موجه للنبى صلى الله عليه وسلم أي دم على يقينك وعلى ما أنت عليه من ترك الإمتراء ، فنهيه عن الإمتراء وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ممترياً من باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة وأن يكون لطفاً لغيره . (٣) .

ومنه قوله تعالى : { وَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (٤) .

يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية ((أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله ، ويجوز أن يكون على طريق التهييج والإلهاب كقوله : {..فَلَاتَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ وَلَايَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ } (٥) - ولزيادة التثبيت والعصمة له عليه السلام)) (٦)

---

(١) سورة يونس ، الآية " ١٠٥ " .

(٢) سورة آل عمران ، الآيتين " ٥٩ - ٦٠ " .

(٣) انظر الكشاف ٤٣٢/١ والتفسير الكبير ٨٦/٨ والبحر المحيط ٤٧٩/٢ وتفسير أبي السعود ٤٩٦/١ .

(٤) سورة يونس ، الآية " ٩٥ " .

(٥) سورة القصص ، الآيتين " ٨٦ - ٨٧ " .

(٦) الكشاف ٢ / ٢٥٣ .

ومن أساليب النهي التي أفادت معنى الإلهاب والتهييج قوله تعالى خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم { وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ... } (١) .

ففي توجيه النهي في قوله { لايصدنك عن آيات الله } كناية عن نهيه أن يتقبل منهم مافيه صد عن آيات الإله وحاشاه صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فالنهي كما ذكر بعض المفسرين للإلهاب والتهييج ولإثارة غضبه صلى الله عليه وسلم عليهم وتقوية شدته معهم ، والتقييد في قوله { بعد إذ أنزلت إليك } لتعليل النهي أي لايجوز أن يصدوك عن آيات الله بعد إذ أنزلها إليك فإنه ماأنزلها إلا للأخذ بها ودوام تلاوتها والعمل بموجبها فلو فرض أن يصدوك عنها لأصبح إنزالها إليك عبثاً ولذهب المقصود منها . (٢)

ومنه قوله تعالى : { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } (٣) .

يقول الزمخشري ((فإن قلت كيف جاز أن يغتر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك حتى ينهى عن الاغترار به ؟ قلت فيه وجهان أحدهما أن مدره القوم ومتقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً فكأنه قيل لايغرنك ، الثاني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غير مغرور بحالهم فاكد عليه وثبت على إلتزامه كقوله : ولاتكن من الكافرين - ولاتكونن من المشركين - ولا تطع المكذبين ... وقد جعل النهي في الظاهر للتقلب وهو في المعنى للمخاطب ، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب لأن التقلب لو غره لأغتر به فمنع السبب ليمتنع المسبب)) (٤) فالنهي للإلهاب والتهييج كما هو واضح من السياق .

---

(١) سورة القصص ، الآية " ٨٧ " .

(٢) انظر الكشاف ١٩٤/٣ وتفسير أبي السعود ٢٢٣/٤ والتحرير والتنوير ١٩٥/٢٠ ومابعدها .

(٣) سورة آل عمران ، الآيتين " ١٩٦ - ١٩٧ " .

(٤) الكشاف ٤٩٠/١ .

ومنه قوله : { وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً } (١) .

افتتحت هذه الآية الكريمة بهذا النهي الذي يفيد الدوام والإلهاب والتهييج لأنه صلى الله عليه وسلم لايتصور منه وقوع ذلك حتى ينهى عن طاعتهم ، فهو نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة واستعمال لين الجانب في التبليغ والمسامحة في الإنذار كنى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغة في الزجر والتنفير عنه بنظمه في سلكها وتصويره بصورتها ، ومن حمل النهي عن التهييج والإلهاب كما يقول أبو السعود فقد أبعد عن التحقيق بمراحل . (٢)

ونظيره قوله تعالى { فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ } (٣) فنهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن طاعة المكذبين للإلهاب والتهييج والثبات والتصميم على معاصاتهم أي دم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم وتصلب في ذلك . (٤)

ومنه قوله تعالى { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } . (٥)

لاشك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بطبيعة الرسالة التي بعث من أجلها داع إلى الله ومبلغ عنه ، فالنهي في هذه الآية للإلهاب والتهييج والثبات على تبليغ الرسالة ، وحول هذا المعني يقول أبو السعود ((وهذا وما قبله للتهييج والإلهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه السلام لهم وإظهار أن المنهي

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية " ٤٨ " .
(٢) انظر الكشاف ٣/٢٦٦ وتفسير أبي السعود ٤/٤٢٤ ومن أسرار التعبير القرآني ص ٨ .
(٣) سورة القلم ، الآية " ٨ " .
(٤) انظر تفسير أبي السعود ٥ / ٣٧١ .
(٥) سورة القصص ، الآية " ٨٨ " .

عنه في القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لايمكن صدوره عنه أصلاً . (١)

وفي القرآن الكريم نواه حقيقية خوطب بها الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت تفيض بالإلهاب والتهييج والتسلية والتأييد له نحو قوله تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلايَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لايُوقِنُونَ } (٢) . وقوله تعالى : { وَلايَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً ... } (٣) .

وأحب أن أنبه إلى أن قضية التسلية والتسرية للنبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة أعتى المشركين عولجت في القرآن بأساليب متنوعة وبصيغ عديدة من صيغ النهي كما في الآيات السابقة ومنها قوله تعالى : { أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } (٤) وقوله تعالى : { وَاصْبِرْ وَمَاصَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَاتَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } (٥) .

مع الأنبياء عليهم السلام :-

أفاد النهي في القرآن الكريم مع الإلهاب والتهييج الدوام والاستمرار كما في بعض خطابات الأنبياء عليهم السلام من ذلك قوله تعالى خطاباً لموسى عليه السلام { وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ إِنَّنِيٓ أَنَا اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِيٓ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَايَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّايُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ } (٦)

---

(١) تفسير أبي السعود ٣٢٣/٤ وراجع الكشاف ١٩٤/٣ والبلاغة في تفسير أبي السعود ص ٢٠٧ ومابعدها .

(٢) سورة الروم ، الآية " ٦٠ " .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٧٦ " .

(٤) سورة فاطر ، الآية " ٨ " .

(٥) سورة النحل ، الآية " ١٢٧ " .

(٦) سورة طه الآيتين " ١٣ - ١٦ " .

فالنهي في قوله : { لايصدنك } بحسب الظاهر نهي للكافر عن صد موسى عليه السلام عن الساعة ، لكنه في الحقيقة نهي له عليه السلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وأكده ، فإن النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤدية إليه نهي عنه بالطريق البرهاني وإبطال للسببية من أصلها ، فالنهي في قوله { لايصدنك } للإلهاب والتهييج . (١)

ولعل السر من تقديم الجار والمجرور ((عنها)) على قوله { من لايؤمن بها } للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر فإن ماحقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فيتمكن عند وروده فضل تمكن ، ولأن في المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم .

ومنه قوله تعالى خطاباً لموسى وأخيه هارون عليهما السلام { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَاتَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ } (٢) .

بعد أن بشر الله سبحانه موسى وأخاه بإجابة الدعوة (أمرهما بالاستقامة على الدعوة والرسالة ونهاهما عن إتباع سبيل الجاهلين ، وناهيك باستقامة النبوة، فالأمر بالاستقامة مستعمل في الدوام عليها لذلك أعقب حثهما على الاستقامة بالنهي عن اتباع طريق الذين لايعلمون ، وإن كان ذلك مشمولاً للاستقامة تنبيهاً على توخي السلامة من العدول عن طريق الحق اهتماماً بالتحذير من الفساد) (٣) .

ومنه قوله تعالى خطاباً لداود عليه السلام { يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. } (٤)

فالأمر في قوله { فاحكم بين الناس بالحق } أمر بالديمومة وتنبيه لغيره ممن ولي أمور الناس كما أن النهي في قوله { ولاتتبع الهوى } للإلهاب والتهييج

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٦٢٠/٣ ومابعدها .

(٢) سورة يونس ، الآية "٨٩" .

(٣) انظر الكشاف ٢٥١/٢ والتفسيرالكبير ١٥٩/١٧ والتحرير والتنوير ٢٧٣/١١ .

(٤) سورة ص ، الآية " ٢٦ " .

فحاشاه عليه السلام عن اتباع الهوى وبخاصة في أمور الدين والدنيا .

وقد عد بعض الباحثين النهي في قوله تعالى خطاباً لنوح عليه السلام : {قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّيَ أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } (١) بأنه للإلهاب والتهييج . (٢) .

وهذا الرأى الذى أخذ به هذا الباحث يأباه نظم الآية الكريمة ، والصواب أن النهي في قوله { فلا تسالن } نهي حقيقي فيه زجر وعتاب شديد لنوح عليه السلام كما ذكر بعض المفسرين . (٣)

مع المؤمنين :-

ورد النهي في القرآن الكريم مراداً منه الإلهاب والتهييج خطاباً للمؤمنين نحو قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَءَامَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } (٤) .

فالنهي في قوله { لاتهلكم } نهي حقيقي فيه إلهاب وتهييج وحث وتنفير أي لايشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكره عز وجل عن الصلاة وسائر العبادات ، فالمراد نهيهم عن التلهي بها وتوجيه النهي إليها للمبالغة والتنفير منها ، ((ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون)) حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني (٥) .

ويظهر معنى الإلهاب والتهييج في كثير من أساليب النهي عن الكون (٦)

---

(١) سورة هود ، الآية " ٤٦ " .
(٢) انظر وجوه المخاطبات في القرآن الكريم ص ٢٨٨ .
(٣) راجع الكشاف ٢/٢٧٣ والتفسير الكبير ١٨/٤ وتفسير أبي السعود ٣/٥١ والتحرير والتنوير ١٢/٨٤ .
(٤) سورة المنافقون ، الآية " ٩ " .
(٥) انظر الكشاف ٤/١١١ وتفسير أبي السعود ٥ / ٣٣٥ .
(٦) ينظر المعجم المفهرس ص ٦٣٩ .

التي خوطب بها المؤمنون تحذيراً لهم من التشبه بالضالين من الأمم السابقة ومن المشركين والمنافقين كما في قوله { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاتَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا.. } (١) وقوله تعالى : { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ كَانُوا شِيَعاً .. } (٢) .

فالنهي في قوله : { لا تكونوا من المشركين } نهي حقيقي فيه إلهاب وتهييج وتنفير من الشرك فهو توكيد للأمر بالتقوى وإقامة الصلاة وفيه إيحاء بأن في التقوى والصلاة لله وحده الوسيلة والغاية دون هذا التفرق الغريب بين المشركين الذين تنوعت عقائدهم من شرك وكفر وإلحاد ، فهذا التعبير أقوى من قولنا {لاتشركوا } (٣) .

وقد أشرت فيما مضى إلى أن أسلوب الإلهاب والتهييج فى القرآن جاء بأساليب متنوعة حيث جاء عن طريق الأمر كما في قوله تعالى : { فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً } (٤) وعن طريق النهي كما سبق تفصيله .

وقد يجتمع الأمر والنهي في السياق الواحد مع تقديم أحدهما على الآخر ولكل أسراره وخصوص سياقه فمما تقدم فيه الأمر على النهي قوله تعالى : { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } (٥) وتارة يتقدم النهي على الأمر كما في قوله تعالى : { فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً } (٦) وقوله تعالى { وَلَاتُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ .. } (٧) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ١٥٦ " .
(٢) سورة الروم ، الآية " ٣١ " .
(٣) الأساليب الإنشائية ص ٩٤ .
(٤) سورة الزمر ، الآية " ٢ " .
(٥) سورة الجاثية ، الآية " ١٨ " .
(٦) سورة الفرقان ، الآية " ٥٢ " .
(٧) سورة الأحزاب ، الآية " ٤٨ " .

وقد يجتمع في السياق الواحد طريق الأمر والنهي والشرط كما في قوله تعالى : { وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَالَايَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ } (١)

فهذه الآية الكريمة نظمت نظماً فريداً حيث أمره الله بإقامة وجهه للدين حنيفاً ، فاللام في قوله { للدين } للعلة أي محض وجهك للدين لاتجعل لغير الدين شريكاً في توجهك . ففي هذا التعبير لطيفة عن توجيه نفسه بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمة وإصلاحها ، ثم عطف عليه النهي بقوله { ولا تكونن من المشركين } توكيداً لمعنى الأمر قبله حيث جاء مؤكداً بنون التوكيد للمبالغة في النهي عنه اعتناءً بالتبروء من الشرك ، وإيثار التعبير بقوله { من المشركين } مع أنه أبلغ من قولنا { لاتكن مشركاً } لما فيه من التبروء من طائفة الشرك ، ويلاحظ أن النهي الثاني المعطوف السابق جاء خالياً من التوكيد لأن النهي لما اقترن بما يوميء إلى التعليل كان فيه غنية عن تأكيده لأن الموصول في قوله { مالاينفعك ولا يضرك } يوميء إلى وجه النهي بدعائك ، إذ دعاء أمثالها لا يقصده العاقل .

كما أن تفريع الشرط ((فإن فعلت)) على النهيين السابقين للإشارة إلى أنه لا معذرة لمن يأتي مانهي عنه بعد أن أكد نهيه وبينت علته فمن فعله فقد ظلم نفسه واعتدى على حق ربه . (٢) .

ولهذه القضية أعني توالي الأساليب موطنها من البحث بإذن الله وتوفيقه.

---

(١) سورة يونس ، الآيتين " ١٠٥ - ١٠٦ " وانظر وجوه المخاطبات في القرآن ص ٢٩٢ - ٢٩٤ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ٣٠٣/١١ ومابعدها ووجوه المخاطبات في القرآن ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

التهديد والوعيد :

تنوعت طرائق القرآن للتأثير في النفس الإنسانية فتارة يعمد إلى أسلوب الترغيب وتارة أخرى إلى أسلوب الترهيب والتهديد ، وطبعي أن أسلوب التهديد من أقوى هذه الأساليب التي سلكها القرآن للوصول إلى منافذ التأثير في النفس الإنسانية لما ركب فيها من غريزة الخوف التي تدفع الإنسان إلى توقي الخطر والبعد عما يعرضه له . (١)

وقد تأدى أسلوب التهديد في القرآن الكريم بأساليب عديدة كالأمر والنهي والخبر والاستفهام وغيرها .

وفي هذا الموضع نتناول أساليب النهي التي أفادت التهديد والوعيد في القرآن على نحو نرجو فيه التوفيق والعون من الله تعالى :

التهديد من قبل الحق سبحانه وتعالى :

تفيد بعض أساليب النهي فى الذكر الحكيم معنى التهديد والوعيد - وهو تهديد غير مباشر - من ذلك قوله تعالى خطاباً لنوح عليه السلام وتهديداً ووعيداً للضالين من قومه { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ } (٢)

السياق يدل على نهاية الغضب وشدته ، وعلى التهديد المرعد الذى نلحظه من خلال التعبير بالنهي ووصفهم بالظالمين والحكم عليهم بالموت غرقاً . (٣)

---

(١) راجع أسلوب الدعوة القرآنية ص ١١١ .

(٢) سورة هود ، الآية " ٣٧ " .

(٣) راجع الكشاف ٢٦٨/٢ ودلائل الاعجاز تحقيق محمود شاكر ص ٢١٧ وخصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ص ٥٣ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩٢ .

على ألسنة الأنبياء عليهم السلام :

خرجت بعض أساليب النهي في القرآن التي جاءت على ألسنة الأنبياء عليهم السلام إلى معنى التهديد والوعيد من ذلك قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام مهدداً قومه بالهلاك إن أصابوا الناقة بسوء { وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَاتَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (١) .

في هذه الآية الكريمة أخبر صالح عليه السلام قومه بنزول آية بينة تؤكد لهم صدقه وتجلي ماران على قلوبهم من كفر وضلال لكنهم تمادوا في غيهم وضلالهم ، فأمرهم بترك الناقة تأكل من أرض الله وهددهم بعدم التعرض لها بسوء.

ونلحظ من إضافة الناقة إلى لفظ الجلالة { ناقة الله } التشريف والتعظيم والتخصيص لها نحو بيت الله وروح الله ، لمجيئها من جهته تعالى بلا أسباب معهودة ووسائط معتادة لذلك كانت آية خارقة للعادة ، ثم أعقب ذلك بنهيهم عن مسها بسوء وهذا كما يقول أبو حيان ((تنبيه بالأدنى على الأعلى إذا كان قد نهاهم عن مسها بسوء إكراماً لآية الله فنهيه عن نحرها ومنعها عن الماء والكلأ أولى . ففي التعبير بالنهي في قوله { ولاتمسوها بسوء } تهديد ووعيد شديد لمن مسها بسوء وبالعذاب الأليم الذي أعده الله لهم يوم القيامة ، كما أن في تنكير السوء مبالغة في النهي أي لاتتعرضوا لها بشيء مما يسؤها أصلاً ولا تطردوها ولاتريبوها إكراماً لآية الله)) (٢)

ومنه قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام تهديداً لإخوته بأن يأتوه

---

(١) سورة الأعراف ، الآية " ٧٣ " .

(٢) انظر الكشاف ٨٩/٢ ومابعدها والبحر المحيط والنهر الماد من البحر ٣٢٨/٤ وتفسير أبي السعود ٣٦٣/٢ والتحرير والتنوير ٢١٨/٨ .

باخ لهم من أبيهم { وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيَ أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ. فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ}(١).

يكشف السياق عن فطنة يوسف عليه السلام وذكائه فقد جمع في قوله لهم بين الترغيب والترهيب والتهديد ، فالترغيب في قوله ((ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين)) أما الترهيب والتهديد ففي قوله ((فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولاتقربون)) حيث توعدهم عليه السلام وهددهم بهذا القول ، ففي التعبير بقوله ((فلا كيل لكم عندي ولاتقربون)) كناية عن حرمانهم من الميرة التي يمتارون بها عن المجاعة والقحط . (٢)

ومنه قوله تعالى على لسان موسى : { قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ } (٣)

خاطب موسى عليه السلام السحرة خطاب محذر وندبهم إلى قول الحق وترك الاستمساك بالكذب فيهلكهم الله بعذاب عظيم .

والسياق يوضح إخلاص موسى عليه السلام في النصيحة لهم حيث قدم قبل كل شيء الوعيد والتهديد علهم يثوبون إلى الحق فقال { ويلكم لاتفتروا على الله كذباً } فالنهي عن الافتراء على الله بالكذب للتهديد والوعيد كما هو واضح من الآية الكريمة .

وذكر الرازي نقلاً عن الزجاج أنه يجوز نصب { ويلكم } على إضمار فعل التقدير إلزموا ويلكم ، أو على إضمار حرف النداء كقوله تعالى : { يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ } (٤) .

---

(١) سورة يوسف ، الآيتين " ٥٩ - ٦٠ " .

(٢) انظر التفسير الكبير ١٧١/١٨ والبحر المحيط ٣٢١/٥ .

(٣) سورة طه ، الآية " ٦١ " .

(٤) سورة هود ، الآية "٧٢" وراجع التفسير الكبير ٧٣/٢٢ والبحر المحيط ٢٥٤/٦ والتحرير والتنوير ٤٤٩/١٦ ووجوه الخطاب في القرآن الكريم ص ٤٦٩ .

ومنه قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام فى رسالة بعث بها إلى ملكة سبأ قال تعالى : { قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } (١) .

حذر سليمان عليه السلام في رسالته التي بعثها إلى ملكة سبأ من التطاول عليه وأمرها بالانقياد والطاعة له وبإخلاص العبادة لله وحده ، فالنهي في قوله { ألا تعلوا علي } مستعمل في التهديد ولذلك أتبعته ملكة سبأ بقولها {يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي } (٢) .

المؤمنون والتهديد :-

ورد التهديد للمؤمنين في القرآن الكريم عن طريق النهي ، ونلحظ فيها تقييد النهي بالشرط للتحذير من إرتكاب مايخالف أصلاً من أصول الإيمان من ذلك قوله تعالى خطاباً للمؤمنين { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَاتُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَاتَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ...} (٣) .

بعد أن بين الله تعالى في هذه الآية بعض أحكام الطلاق والرجعة أردفه بالتحذير والتهديد الشديد من اتخاذ أيات الله هزوا وسخرية ، فهذا التعبير يستثير في نفس المؤمن شعور الحياء من الله إذ كيف يتفق الإيمان مع الاستهزاء بآيات الله وأحكامه ؟

فالنهي في قوله تعالى : { وَلَاتَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ } كما نص عليه الرازي للتهديد ، لأن التهديد إذا ذكر بعد التكاليف كان ذلك التهديد على تركها لاعلى شيء أخر غيرها . (٤)

---

(١) سورة النمل ، الآيتين " ٢٩ - ٣١ " .

(٢) سورة النمل ، الآية "٣٢" وانظر التحرير والتنوير ٢٦٢/١٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٣١ " .

(٤) التفسير الكبير١١٩/٦ وراجع أسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٧٦ ومابعدها .

بين النهي عن القرب والإعتداء في القرآن الكريم :

للكشف عن أسرار النهي عن القرب والاعتداء في القرآن الكريم ولطائفه البيانية يستلزم منا إحصاء الآيات التي ورد فيها النهي عن القرب وكذلك الحال بالنسبة للنهي عن الاعتداء .

فقد جاء النهي عن القرب في القرآن الكريم في إحدى عشرة آية (١) ؛ نلاحظ فيها اختلاف المخاطب كما يتضح من التقسيم الآتي :-

١ - آدم وزوجه :-

خاطب الله سبحانه في آيتين منها آدم وزوجه ونهاهما عن قرب الشجرة قال تعالى : { وَلَاتَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } (٢) وقد أشار البيضاوي والشهاب إلى ما في الصياغة من خصائص تفيد المبالغة في النهي منها تعليق النهي بالقرب الذي هو من مقدمات التناول مبالغة في تحريمه ووجوب الاجتناب عنه وتنبيهاً على أن القرب من الشيء يورث داعية وميلاً يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع ومنها أنه رتب العصيان على القرب مع كونه مرتباً على الأكل ، ومنها أن الظاهر أن يقال ((فتأثما)) فعبر بالظلم الذي يطلق على الكبائر ، ولم يكتف بأن يقول ((ظالمين)) بل قال { من الظالمين } لكونه أبلغ حيث جعلهم منتسبين إلى قوم ظالمين . (٣) .

---

(١) راجع المعجم المفهرس ص.٥٤ ودراسات لأسلوب القرآن للشيخ محمد عضيمة القسم الأول حـ٢ ص٥٢٢ .

(٢) الآية في البقرة " ٣٥ " والأعراف " ١٩ " .

(٣) انظر تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب ١٣٦/٢ والأساليب الإنشائية ص٨٨ .

٢ - مال اليتيم :-

ومنها آيتان نهى فيهما سبحانه وتعالى عن قرب مال اليتيم قال تعالى : {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } (١)

٣ - الكبائر :-

ورد النهي عن القرب في القرآن تحذيراً من إرتكاب بعض الكبائر كالزنا والفواحش مبالغة في التنفير منها قال تعالى : { وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا } (٢) وقوله تعالى : { وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ }(٣) .

٤ - يوسف وأخوته :-

ورد النهي عن القرب في القرآن الكريم على لسان يوسف عليه السلام مهدداً لإخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم قال تعالى : { فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ } (٤) .

٥ - المشركون والمسجد الحرام :-

نهى الله سبحانه وتعالى المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام لنجاستهم قال تعالى : { فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ...} (٥) والنهي في هذه الآية بحسب الظاهر للمشركين وفي الباطن للمؤمنين فهو كناية عن نهي المؤمنين عن تمكينهم من ذلك كما ذكر الشهاب . (٦)

---

(١) الآية في سورة الأنعام "١٥٢" والإسراء "٣٤" .

(٢) سورة الإسراء ، الآية " ١٣٢ " .

(٣) سورة الأنعام ، الآية " ١٥١ " .

(٤) سورة يوسف ، الآية " ٦٠ " .

(٥) سورة التوبة ، الآية " ٢٨ " .

(٦) حاشية الشهاب ٣١٦/٤ وانظر الأساليب الإنشائية ص ٨٦ - ٨٨ .

٦ - الحــدود :-

كانت خاتمة المطاف مع آية هدد الله سبحانه وتعالى وتوعد فيها من تسول له نفسه الاقتراب من حدود الله قال تعالى : { وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا } (١) .

أما النهي عن الاعتداء في القرآن فلم يرد إلا في ثلاثة مواضع وهي على النحو التالي : قال تعالى { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَاتَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (٢) حيث نهاهم سبحانه وتعالى عن الاعتداء بابتداء القتال أو عن قتال النساء والشيوخ والصبان الذين لهم عهد وميثاق .

ومنها قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَءَامَنُوا لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَاتَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (٣) أي لاتعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ماحرم عليكم أو لاتسرفوا في تناول الطيبات أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلماً ، فالنهي عن الاعتداء يدخل تحته النهي عن تحريمها دخولاً أولياً لوروده عقبه . (٤)

وثالثها قوله تعالى تهديداً ووعيداً للمعتدين على حدود الله { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَاتَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (٥)

ولنعد الآن بعد هذا العرض الشامل لأساليب النهي عن القرب والأعتداء في الذكر الحكيم إلى كشف بعض الأسرار واللطائف البيانية من خلال الموازنة بين سياقين مختلفين : -

جاء من المتشابه فيما يتعلق بالحدود قوله تعالى :{ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٨٧ " .
(٢) سورة البقرة ، الآية " ١٩٠ " .
(٣) سورة المائدة ، الآية " ٨٧ " .
(٤) راجع الكشاف ١ / ٦٤٠ .
(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٩ " .

عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } (١) .

كما جاء بعد أحكام الطلاق والعدة والرجعة قوله تعالى : { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (٢)

ليس من شك في أن النهي عن القرب أبلغ من النهي عن الأعتداء ، فقد أجمع العلماء كالرازي وأبي حيان وأبي السعود والإسكافي والكرماني على أن ما كان من الحدود نهياً كان النهي عن قربانه أبلغ كآية الاعتكاف التي ختمت بقولـه : { تلك حدود الله فلا تقربوها } وما كان منها أمراً نهي عن مجاوزته وهو معنى الاعتداء في آية الطلاق حيث بينت الآية عدد الطلاق{ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} (٣) بخلاف ماكان عليه العرب في الجاهلية من المراجعة بعد الطلاق من غير عدد متناسب أن ينهى عن التعدي .

ونلحظ في أية الطلاق أنها بالغت في التهديد بتكرار الاسم الجليل ووضعه موضع الضمير لتربية المهابة وإثارة الروعة والتخويف من إنتهاك حدود الله ، كما أن في تعقيب النهي بأسلوب الشرط { وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } مع مافيه من ترتب وتسبب ولزوم بين الجزاء والشرط مبالغة في التهديد ، وكذلك التعبير باسم الإشارة للبعيد { أولئك } ابعاداً وذماً وضمير الفعل والظالمون بهذا الوصف الخاص على سبيل الحصر بتعريف الطرفين وتأكيده بضمير الفصل كل ذلك بلوغاً بالتهديد والتنفير إلى أقصى مدى ، ثم مافي التعبير من

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ١٨٧ " .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٩ " .

(٣) سورةالبقرة ، الآية " ٢ ٢٩ " .

تصوير يجعل تلك الأحكام حدوداً قائمة محسه يجب الوقوف عندها وعدم تجاوزها لأن النفس آنس بما يأتيها عن طريق الحواس . (١)

وثمت أمر آخر هو " أن تشريعات الطلاق والعدة والرجعة كلها حدود لايمكن النهي عنها لأنها حلول لمشكلات اجتماعية وإنما ينهي عن تجاوزها رفضاً ومخالفة وتجاوزاً ، تساهلاً في التكاليف ومايترتب عليه عند تجاوزها من تفكك للأسرة التي كشف القرآن عنايته باستقرارها على هدى من الله ، فهذا بعض من أسرار التعبير بالاعتداء دون القربان والله أعلم . (٢)

المشركون والتهديد :-

سلك القرآن في تهديد المشركين طرقاً شتى ومن بينها النهي للوصول إلى إقناعهم بأن الدين حق ، وإلى تقرير بعض الحقائق الكبري كالوحدانية والبعث والنشور على نحو ما نوضحه في السطور القادمة بعون الله :

النهي عن اتخاذ الأنداد من دون الله :-

هدد الله سبحانه المشركين عن اتخاذ الأنداد من دونه لتأكيد هيمنته ووحدانيته وتفرده بالألوهية وتوعدهم بالهلاك والعذاب لعلمهم أن هذه الأنداد حجارة لا تضر ولاتنفع فلا يصح جعلها أنداداً له تعالى قال عز وجل { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (٣) .

---

(١) راجع في الآيتين التفسير الكبير ١٢٤/٥ ، ١١١/٦ والبحر المحيط ٥٤/٢ وتفسير أبي السعود ٣١٨/١ وحاشية الشهاب ٢٨٣/٢ ودرة التنزيل للإسكافي ص ٥٤ ومابعدها والبرهان في متشابه القرآن للكرماني ص ٣٩ وظلال القرآن المجلد الأول ص ٢٤٣ ودراسات لأسلوب القرآن القسم الأول جـ٢ ص ٥٢٢ .

(٢) الأساليب الإنشائية ص ٨٩ ومابعدها .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٢"

السياق يلهج بمعاني التهديد والتهكم والتوبيخ حيث هددهم في هذه الآية وتهكم بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أنداداً ، وجيء بالأنداد على صيغة الجمع موافقة للواقع لإنهم لم يتخذوا له تعالى نداً واحداً بل أنداداً كثيرة فجاء النهي على ماكانوا اتخذوه في الواقع ثم أعقب هذا النهي بالتقييد بقوله { وأنتم تعلمون } تهكماً بهم وتوبيخاً لهم وزجراً لهم عن عبادة الأوثان من دون الله ، ومفعول تعلمون متروك كأنه قيل وأنتم من أهل العلم والمعرفة بدقائق الأمور ، أو وأنتم تعلمون بطلان ذلك ، أو تعلمون أنه لايماثله شيء أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت أو تعلمون أنها لاتفعل أفعاله سبحانه وتعالى . (١)

النهي عن ضرب الأمثال :-

جاء التهديد في سياق النهي الذي خاطب الله به المشركين في قوله تعالى : { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَالَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلايَسْتَطِيعُونَ، فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ } (٢)

النهي في قوله : { فلا تضربوا لله الأمثال } خطاب تهديد ووعيد من الله للمشركين أي لاتشركوا بالله شيئاً ، والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأن من الشئون فإن ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أي لاتشبهوا بشأنه تعالى شأناً من الشئون ولاتمثلوا له الأمثال وفي هذا تهديد عظيم وتحذير لهم شديد من مغبة ضرب المثل ، وتعقيب التهديد بقوله { إن الله يعلم } لتعليل النهي السابق زيادة في التهديد والوعيد

---

(١) راجع الكشاف ٢٣٦/١ - ٢٣٨ والتفسير الكبير ١٢٢/٢ والبحر المحيط ٩٩/١ وتفسير أبي السعود ١ / ١٠٩ والتحرير والتنوير ٣٣٤/١ وأسرار التنزيل للشيخ محمد الخضر حسين ص ٤٠ .

(٢) سورة النحل ، الآيتين " ٧٣ ، ٧٤ " .

وتنبيهاً على جهلهم وضلالهم أي أنه تعالى يعلم كنه ماتفعلون وعظمه فهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم لأن العقاب على مقدار الإثم ، أو إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم تعلمون ذلك فتقعون في مهاوي الردى والهلاك . (١)

المشركون وإستعجال العذاب والقيامة :

عرض القرآن الكريم في بعض سوره لتطاول المشركين وتبجحهم منها إستعجالهم العذاب والقيامة تحدياً منهم وتكذيباً للرسول صلى الله عليه وسلم من نحو قوله تعالى بطريق الأمر : { فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } (٢) وعن طريق الاستفهام كما في قوله تعالى : { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } (٣) فتهدد الله المشركين وتوعدهم ونهاهم عن إستعجال القيامة في قوله تعالى : { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } (٤) .

صدرت هذه الآية الكريمة التى جاءت خطاباً للمشركين بالتهديد والوعيد حيث عبر بالماضي (أتى) عن المضارع (يأتي) لتحقق وقوعه ونفي أدنى ريب فيه حتى لكأنه وقع بالفعل فأخبر عنه إخبار الواقع لا المتوقع كما نص عليه العلماء .

كما أن في التعبير عنه بأمر الله إبهاماً يفيد التهويل والتفخيم والتعظيم لهذا الأمر لإضافته لمن لايعظم عليه شيء في السموات والأرض .

---

(١) انظر الكشاف ٤٢٠/٢ وبهامشه الانتصاف فيما تضمنه الكشاف ، والبحر المحيط ٥١٧/٥ وتفسير أبي السعود ٣٨٣/٣ ومابعدها والتحرير والتنوير ٢٢٢/١٤ ومابعدها .

(٢) سورة الأنفال ، الآية " ٣٢ " .

(٣) سورة يونس ، الآية " ٤٨ " وتكررت الآية في بعض السور .

(٤) سورة النحل ، الآية " ١ " .

ثم تبرأ الله عز وجل عن أن يكون له شريك بقوله { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } يقول الزمخشري ((فإن قلت كيف اتصل هذا بإستعجالهم ؟ قلت : لأن إستعجالهم إستهزاء وتكذيب وذلك من الشرك)) .

فالنهي في قوله { فلا تستعجلوه } للتهديد والوعيد ، وذهب الطاهر بن عاشور إلى أنه للتسوية قائلاً ((والمراد من النهي هنا دقيق لم يذكروه في موارد صيغ الأمر ، ويجدر أن يكون للتسوية كما ترد صيغة الأمر للتسوية ، أي لا جدوى في استعجاله لأنه لايعجل قبل وقته المؤجل له)) .

فما ذهب إليه الطاهر بن عاشور بعيد يأباه السياق ، والصواب أنه للتهديد والوعيد كما هو واضح من نظم الآية الكريمة . (١)

(١) راجع في الآية الكشاف ٤٠٠/٢ والتفسير الكبير ٢٢٣/١٩ والبحر المحيط ٤٧٢/٥ وتفسير أبي السعود ٣٣٢/٣ والتحرير والتنوير ٩٧/١٤ والإيضاح ١٦٤/١ وبغية الإيضاح ١٦٢/١ . ومن أسرار النظم في القرآن والحديث للدكتور عبدالعظيم المطعني ص ٢٢ .

التحـــدي :

تفيد بعض صيغ النهي في الذكر الحكيم معنى التحدي وماينضم معه من معان ثانوية كالتهكم والتوبيخ والاستخفاف وقلة المبالاة ، وقد جاء على ألسنة الأنبياء عليهم السلام تحدياً لأقوامهم وتكذيباً لهم من ذلك قوله تعالى آمراً نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يتحدى المشركين الذين اتخذوا من دونه آلهة وأرباباً { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ } (١)

يأمر الله نبيه الكريم في هذه الآية أن يتحدى المشركين ، وان يدعوا آلهتهم العاجزة التي لاتستطيع دفع ضر أو جلب نفع ، على نحو ماينبيء عنه قوله تعالى : قل ادعوا شركاءكم ، فاستعينوا بهم في عداوتي فلا مبالاة بكم ولا بشركائكم فاصنعوا ماتشاؤون " ثم كيدون " جميعاً أنتم وآلهتكم وبالغوا في ترتيب ماتقدرون عليه من مبادىء الكيد والمكر { فلا تنظرون } أي فلا تؤخروني ولاتمهلوني ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد فإني لا أبالي بكم ، ولايقول هذا إلا واثق بعصمة الله له وقد قالها الرسول صلى الله عليه وسلم في لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذي يرتكن إليه ويحتمي به من كيدهم جميعاً ((٢)

فالنهي في قوله { لاتنظرون } للتحدي والتبكيت وإلقام الحجر كما ذكر المفسرون .

ونظيره قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ

---

(١) سورة الأعراف ، الآية " ١٩٥ " .

(٢) انظر الكشاف ١٣٨/٢ والبحر المحيط ٤٤٥/٤ وتفسير أبي السعود ٤٤٥/٢ وروح المعاني ١٤٥/٩ والتحرير والتنوير ٢٢٣/٩ وفي ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٤١٥ .

فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَايَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ }. (١)

تبين هذه الآية الكريمة هذا التحدي الصريح الذى تحدى به نوح عليه السلام قومه بعد أن أنذرهم وذكرهم طويلاً بآيات الله البينات لكنهم كذبوه وما آمن معه إلا قليل .

فالتعبير بقوله { فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولاتنظرون } .

تحد صريح وتهكم لاذع وتوبيخ مرير ، أي فاجمعوا ماتريدون من إهلاكي واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي ولاتمهلوني ، وإنما قال ذلك إظهاراً لقلة مبالاته بهم وثقته بما وعده ربه من كلاءته وعصمته إياه وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً وهذا التحدي الذي قذف به نوح وجوه قومه ليس غروراً أو تهوراً أو انتحاراً إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبري للقوى الهزيلة الضعيفة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان . (٢)

ومنه قوله تعالى على لسان هود عليه السلام تحدياً لقومه وتهكماً بهم غير مبال بهم وبآلهتهم { ... قال إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لاتنظرون }. (٣)

فالنهي في قوله { لاتنظرون } للتحدي كما هو واضح من السياق بمعونة القرائن وأحوال التراكيب .

---

(١) سورة يونس ، الآية " ٧١ " .

(٢) انظر الكشاف ٢٤٥/٢ وتفسير أبي السعود ٦٩٢/٢ والتحرير والتنوير ٢٣٩/١١ وظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٨١١ .

(٣) سورة هود ، الآيتين " ٥٤ - ٥٥ " وراجع الكشاف ٢٧٦/٢ والتفسير الكبير ١٤/١٨ وتفسير أبي السعود ٣ / ٥٩ وروح المعاني ٨٣/١٢ والتحرير والتنوير ١٠٠/١٢ .

الإهانـــة

لأسلوب الإهانة في البيان القرآني طرق عديدة جاء عن طريقها منها الأمر والنهي والإستفهام وفي هذا الموضع نتناول أساليب الإهانة التى وردت عن طريق النهي وهي على قلتها ترتبط بها بعض المعاني الثانوية كالتهكم والتبكيت والتوبيخ ، ونلاحظ تعانق الأمر مع النهي في إفادة الإهانة ، كما أنها قد تكون لوناً من ألوان التعذيب الذي يصبه الله على المشركين يوم القيامه .

من ذلك قوله تعالى خطاباً للمعذبين { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَاتُكَلِّمُونِ } (١)

تصور هذه الآيات مشهداً من مشاهد الآخرة يتجلى فيه الضيق والنفار بهؤلاء المشركين حيث قال لهم { اخسأوا فيها } أي ذلوا وانزجروا كما تنزجـر الكلاب (٢) ، فهى زجر وشتم وتأكيد بأنهم خاسئون ، ومعناه عدم إستجابة طلبهم ، ثم نهاهم الله عن خطابه بقوله { ولاتكلمون } في رفع العذاب وتخفيفه والمقصود تيئيسهم من النجاة مما هم فيه (٣) ، حيث تجاوزوا حدهم وأساؤا أدبهم فلم يكن مأذوناً لهم إلا بالاجابة على قدر السؤال ، بل لعله سؤال لايطلب عليه جواب ، فهم يزجرون زجراً قاسياً عنيفاً . (٤) .

فالنهي في قوله { لاتكلمون } للإهانة كما ذكر كثير من البلاغيين (٥) ، ويتضح لنا في هذه الآية الكريمة سمو البيان القرآني حيث تعانق الأمر والنهي

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيتين " ١٠٧ - ١٠٨ " .
(٢) انظر الكشاف ٤٤/٣ والتفسير الكبير ١٢٦/٢٣ والبحر المحيط ٤٢٣/٦ وتفسير أبي السعود ٨٦/٤ .
(٣) أنظر التحرير والتنوير ١٨ / ١٢٩ .
(٤) مشاهد القيامه في القرآن ص ٢٠١ .
(٥) انظر عروس الأفراح ٣٢٧/٢ والبرهان ١٠٠/٢، ٣٢١/٢ والاتقان ٢٤٤/٣ ومعترك الأقران ٤٤٤/١ ودلالات التراكيب ص ٢٥٧ .

{ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } في إبراز هذا المعنى وتأكيده في قوة وعنف شديدين ، فكان التعبير بهما لطمة قاسية وإهانة مريرة لهؤلاء المشركين .

ومن أساليب النهي التي أفادت معنى الإهانة والتبكيت والتوبيخ قوله تعالى خطاباً للمشركين في الآخرة في سياق محاورة بينت السبب الذي دفع المشركين إلى الجحيم وهو منع الخير في إهانة محقرة ونبذ وإلقاء في النار كشيء تافه حقير قال تعالى { قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } (١) .

نلاحظ في هذا السياق محاولة القرين حيث يسعى جاهداً ليبرىء نفسه من تهمة إغوائه حيث صرح بذلك في قوله { ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد } .

ويكشف السياق عن الإهانة والتبكيت لهذا الضال وقرينه من خلال التعبير بقوله { لاتختصموا لدي } فما هذا يوم الخصام والجدال إنما هو يوم الحساب والجزاء فلا فائدة من ذلك ، ولعلمه سبحانه باستوائهما في الكفر الذي يستحقان عليه العذاب الأليم .

وفي التعبير بقوله { وقد قدمت إليكم بالوعيد } تيئيس لهم من النجاة من هذا العذاب أي لاتطمعوا في أن تدافعكم في البقاء التبعة ينجيكم من العقاب بعد حال إنذاركم بالوعيد في حياتكم فما أكترثتم به فلا تلوموا إلا أنفسكم .

ومايبدل القول لدي { فلا تبديل ولا تعديل فيما حوته السجلات } { وما أنا بظلام للعبيد } إنما يجزى كل أمرىء بما أسلفت يداه ، والتعبير عنه بالظلم لبيان

---

(١) سورة ق ، الآيتين " ٢٧ – ٢٩) .

كمال نزاهته تعالى عن الظلم ، وصيغه المبالغة لتأكيد هذا المعنى ونفي أدنى ظلم تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً . (١)

---

(١) أنظر الكشاف ٩/٤ وتفسير أبي السعود ١٩١/٥ وروح المعاني ١٨٦/٢٦ ومابعدها ومشاهد القيامه ص ٩٠ .

التيئيـــس :-

تأدى التيئيس في القرآن الكريم بأساليب عديدة ، وقد جاءت متفاوتة متباينة من حيث الزمن في الدنيا أو الآخرة .

أولاً : في الدنيا :

أفاد النهي معنى التيئيس في القرآن في قوله تعالى خطاباً للمنافقين في الدنيا وقد تخلفوا عن الخروج للجهاد { لَاتَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَّعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } (١)

تنبض هذه الآية الكريمة بالتيئيس والتهكم والتوبيخ والتهديد لهؤلاء المنافقين حيث لم يعبأ سبحانه باعتذاراتهم الفارغة لكذبهم ، وصرح بكفرهم نتيجة استهزائهم بالله وآياته ورسوله .

فجملة { لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم } من جملة القول الذي أمر الله رسوله أن يقول لهم ، وهي إرتقاء في توبيخهم ، أي لاتشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لاتنفعكم بعد ظهور سركم . (٢) فالنهي مستعمل في التيئيس من التوبة (٣)

ونظيره قوله تعالى { يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَّاتَعْتَذِرُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكُمْ ...} (٤)

ثانياً : في الآخرة :-

قوى التيئيس في الآخرة لأنه لاسبيل إلى الرجوع إلى الدنيا للتوبة ، من

---

(١) سورة التوبة ، الآية " ٦٦ " .

(٢) انظر الكشاف ٢٠٠/٢ وتفسير أبي السعود ٥٧٢/٢ والتحريروالتنوير ٢٥١/١٠

(٣) انظر عروس الأفراح ٣٢٧/٢ والاتقان ٢٤٤/٣ والأساليب الإنشائية ص ٦٩ وأساليب بلاغية ص ١١٨ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ .

(٤) سورة التوبة ، الآية " ٩٤ " وراجع بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآنـي ص٩١

ذلك قوله تعالى تيئيساً للمعذبين فى النار في الآخرة { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (١)

تصور هذه الآية الكريمة مشهداً من مشاهد الآخرة ، مشهد الكافرين وهم يجبهون بهذا التيئيس والتهكم اللاذع حيث يقال لهم عند دخولهم النار **{ لاتعتذروا لأنه لا عذر لكم أو لأنه لاينفعكم الاعتذار في هذا اليوم ، فهذا يوم الجزاء والعقاب على ماكان من عمل ، وقد عملتم ماتجزون عليه بهذه النار }** (٢)

فالنهي في قوله { لاتعتذروا } للتيئيس . (٣)

ومنه قوله تعالى خطاباً للمعذبين { لَاتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً } (٤) .

توضح هذه الآية حال الكرب واليأس الذي وصل إليه المشركون مما حل بهم من العذاب الشديد حيث يضرعون إلى الله سبحانه في أن يخرجهم من النار أو أن يهلكهم لكنهم يجابون بهذا التهكم الساخر والتيئيس القاسي **{ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً }** فهلاك واحد لايجدي شيئاً ولايكفي ، ووصف الثبور بالكثير إما لكثرة ندائه بالتكرير وهو كناية عن عدم حصول الثبور لأن إنتهاء النداء يكون بحضور المنادى ، أو يأس يقتضي تكرير التمني والتحسر (٥)

(١) سورة التحريم ، الآية " ٧ " .
(٢) انظر الكشاف ١٢٩/٤ وتفسير أبي السعود ٣٥٣/٥ وظلال القرآن المجلد السادس ص٣٦١٨ .
(٣) انظر معترك الأقران ٤٤٤/١ ودلالات التراكيب ص ٢٥٧ والأساليب الإنشائية ص٦٩ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ .
(٤) سورة الفرقان ، الآية " ١٤ " .
(٥) انظر في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٥٥٤ والتصوير الفني ص ٧٤ والتحرير والتنوير ٣٣٤/١٨ .

ومنه قوله تعالى : { حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ لَاتَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِّنَّا لَاتُنْصَرُونَ } (١)

تبدأ هاتان الآيتان بتصوير حالة المعذبين إذا نزل بهم العذاب حيث ترتفع أصواتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ماهم عليه فيقال لهم على وجه التبكيت والتيئيس والإقناط { لاتجأروا اليوم } فإن الجؤار غير نافع لكم ولايدفع عنكم مايريد الله إنزاله بكم ، وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار } (٢) .

ويبدو أن أخذ المترفين – كما تشير الآية – تهديد دنيوى وليس واقعاً أخروياً بدليل قوله تعالى : { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً } (٣)

ومن المعاني القوية القريبة من التيئيس التبكيت وماينضم معه من معان أخر كالتهكم والتوبيخ والتأنيب مع مابينها من تقارب في الدلالة .

من ذلك قوله تعالى { فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ لَاتَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ } (٤)

هذه الآيات توضح سيطرة الخوف والهلع الشديد على نفوس هؤلاء المعذبين حين رأوا عذاب الله قد حل بهم ، فنراهم يركضون ظناً منهم أن هذا الركض ينجيهم من عذاب الله وعقابه ، عندها يتلقون التبكيت الأ ليم والتهكم المرير {لاتركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون } وما عاد هنالك

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيتين " ٦٤ – ٦٥ " .

(٢) انظر الكشاف ٣٦/٣ والتفسير الكبير ١١/٢٣ وتفسير أبي السعود ٧٤/٤ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية " ١٦ " .

(٤) سورة الأنبياء ، ١١ــ " ١٣ " .

مجال لسؤال ولا لجواب إنما هو التهكم والاستهزاء والتبكيت (١) .

ومنه قوله تعالى : { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } (٢) .

بين الحق سبحانه في هذه الآية كذب المنافقين ، وافتضاح أمرهم حيث أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم { لاتقسموا طاعة معروفة .. } رداً عليهم وزجراً وتبكيتاً لهم عن التفوه بها وإظهاراً لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها (٣) .

أما قوله { إن الله خبير بما تعملون } فهو تعليل للنهي وللحكم بأن طاعتهم طاعة نفاقية ، وباطنهم خلاف ظاهرهم ، أي إن الله يعلم ما في ضمائركم ولايخفى عليه شيء من سرائركم وأنه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم . (٤)

ومنه قوله تعالى : { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٥)

في هذه الآية الكريمة إرشاد وتعليم لهؤلاء الأعراب مشوب بالتأنيب والتوبيخ والتبكيت ، حيث منوا على الرسول صلى الله عليه وسلم إسلامهم ، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم بقوله : { لاتمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم .... } توبيخاً وتبكيتاً لهم .

وفي سياق النظم الكريم من اللطف مالايخفى ، فإنهم لما وسموا ما صدر عنهم إيماناً ومنوا به ، نفى كونه إيماناً وسماه إسلاماً ، قيل يمنون عليك بما هو في

---

(١) انظر الكشاف ٥٦٥/٢ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٣٧١ .

(٢) سورة النور ، الآية " ٥٣ " .

(٣) انظر تفسير أبي السعود ١٣٧/٤ ومابعدها .

(٤) انظر الكشاف ٧٣/٣ والتفسير الكبير ٢٣/٢٤ والبحرالمحيط ٤٦٨/٦ وحاشية الشهاب ٣٩٦/٦ وتفسير أبي السعود ١٣٨/٤ وروح المعاني ١٩٩/١٨ ومابعدها وتفسير سورة النور للمودودي ص ٢١٢ .

(٥) سورة الحجرات ، الآية " ١٧ " .

الحقيقة إسلام وليس بجدير بالمن بل لو صح إدعاؤهم للإيمان فلله المنة عليهم بالهداية لا لهم (١)

وقد ضمت هذه الآية كثيراً من اللطائف والصور البلاغية منها إيثار التعبير بالفعل المضارع { يمنون عليك } لإستحضار حالة منهم مع العلم بأن منهم قد حصل فيما مضى ، كما أن في إضافة الإسلام إليهم { إسلامكم } وإيراد الإيمان مطلقاً بياناً للتفاوت بين إسلامهم وبين الإيمان بحيث لايخفى على المتأمل .

كما أنه عبر بالمضارع ((بل الله يمن عليكم)) للإيذان بأنه سيمن عليهم بالإيمان .

وفي التعبير بقوله { إن كنتم صادقين } بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه تقديره إن كنتم صادقين في إدعائكم الإيمان فلله المنة عليكم وفي هذا مزيد من التاكيد . (٢)

ومنه قوله تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } (٣) .

بعد أن علمت قريش وأيقنت أن للقرآن تاثيراً كبيراً على النفوس بادرت بتدبير أمر يمنع الناس عن استماع القرآن فأوصى بعضهم بعضاً برفع أصواتهم وباللغو واللغط بالباطل وبالتصغير والمكاءكي يشوشوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ، على نحو ماهو مفصل في أسباب النزول . (٤)

---

(١) أنظر الكشاف ٥٧١/٣ ومابعدها وتفسير أبي السعود ١٨٢/٥ .

(٢) انظر الكشاف ٥٧٢/٣ وتفسير أبي السعود ١٨٢/٥ والتحرير والتنوير ٢٧٠/٢٦ .

(٣) سورة فصلت ، الآية " ٢٦ " .

(٤) أنظر الطبري ٧٠/٢٤ والكشاف ٥٤٢/٣ والتفسير الكبير ١٢٠/٢٧ وتفسير أبي السعود ٤٤/٥ .

وصنيعهم هذا كان دلالة على الحقد والكراهية للقرآن الكريم وللرسول صلى الله عليه وسلم .

وذكر بعض المعاصرين وكأنه إجتهاد منه أن قولهم { لاتسمعوا لهذا القرآن } تحذير واستهزاء بالقرآن . (١) . وهذا رأى قريب جداً .

واسم الإشارة مستعمل في التحقير ، وتسميتهم إياه بالقرآن حكاية لما يجري على ألسنة المسلمين من تسميته بذلك . (٢)

فهذه كلمة يوصى بها الكبراء من قريش أنفسهم ويغرون بها العامة ، وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم وفي نفوس العامة ، { والغوا فيه لعلكم تغلبون } وهي مهاترة لاتليق لكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة ينتهي إلي المهاترة والإستهزاء . (٣) .

---

(١) التحخرير والتنوير ٢٤ / ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق الموضع نفسه .

(٣) في ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٣١٢٠ والتصوير الفني ص ٢٦ .

التهويل والتفظيع :-

من معاني النهي البلاغية في الذكر الحكيم التهويل والتفظيع نحو قوله تعالى :{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ } (١) .

نوضح هذه الآية الكريمة حال الكفار وما آل إليه أمرهم من النكال والعذاب ، وفي قراءة " لا تسأل " على صيغة النهي تعظيم لما وقع فيه الكفار من العذاب كما تقول كيف فلان سائلاً عن الواقع في بلية ؟ ، وإيذان بكمال شدة عقوبتهم وتهويل لها كأنها لفظاعتها لايقدر المخبر على إجرائها في لسانه أو لايستطيع السامع أن يسمع خبرها لإيحاشه وإضجاره . (٢)

وفي التعبير عنهم بأنهم أصحاب الجحيم دون الكفر أو التكذيب ونحوهما وعيد شديد وإيذان بأنهم مطبوع عليهم لايرجى منهم الإيمان قطعاً .

وقيل إن هذه الآية نزلت في نهيه صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه في الآخرة كما ذهب إلى ذلك الزمخشري والبيضاوي (٣) ، ورده أبو السعود وبين أن حمل النهي على أنه نهي للنبي صلى اله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه مما لايساعده النظم الكريم . (٤)

ومنه قوله تعالى : { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ } (٥) .

في هذه الآية بيان لأحكام فترة مابعد الطلاق ، وإرشاد للمؤمنين لاتباع أحكام الله ، وتحذير شديد عن التضييق على النساء بمنعهن من الزواج .

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ١١٩ " .

(٢) انظر الكشاف ٣٠٨/١ وتفسير أبي السعود ٢٤٧/١ وراجع التفسير الكبير ٣٣/٤ والبحر المحيط ٣٦٨/١ ودلالات التراكيب ص ٢٦١ .

(٣) الكشاف ٣٠٨/١ وتفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٢٣١/٢ .

(٤) أنظر تفسير أبي السعود ٢٤٧/١ والبلاغة في تفسير أبي السعود ص ٢٠٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٢٣٢ " .

والسياق يزخر بصور بلاغية عديدة ، وبألوان من التأثير النفسي ليلمس التشريع القلوب ولتستجيب له النفوس ، وهذا من جلال القرآن وجماله أن يكون قاهر البلاغة حتي في آيات التشريع .

وطبعي أن النهي في قوله { لاتعضلوهن } نهي حقيقي ، فيه كما يقول أبوالسعود { تهويل لأمر العضل وتحذير منه وإيذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمة وسراية الغائلة (١)

والتعبير بقوله { لا تعضلوهن } يوحي بجرسه وصوته الغليظ بهذا التهويل والتفظيع الشديد .

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٥٦/١ وراجع روح المعاني ١٤٥/٢ .

متفرقـات :-

هناك بعض الأغراض البلاغية التي يفيدها النهي في البيان القرآني ، وقد جاءت في أساليب قليلة : منها :-

١- الكراهيـة :-

نص السيوطي (١) على إفادة النهي للكراهية في قوله تعالى { وَلاتَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً } (٢) فالنهي في قولـه : {لاتمش} للكراهة ، وقوله { في الأرض } تقييد لزيادة التقرير والاشعار بأن المشي عليها مما لايليق به المرح ، والجملة الخبرية { إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً } ((تعليل للنهي وتهكم بالمختال وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض والجبال وتكبر عليهما ، فليس أكثر قوة ولا أكبر ولا أشد منهما تعريضاً بما عليه المختال من رفع رأسه ومشيه على صدور قدميه والفناء يدب فيه)) (٣) .

٢- ومن معاني النهي البلاغية الاحتقار والتقليل كما في قوله تعالى خطاباً لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم { لاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ }. (٤)

أشار كثير من الأصوليين والبلاغيين إلى أن النهي في قوله { لاتمدن عينيك

---

(١) انظر الاتقان ٢٤٤/٣ ومعترك الأقران ٤٤٣/١ وراجع عروس الأفراح ٣٢٥/٢ .
(٢) سورة الإسراء ، الآية " ٣٧ " .
(٣) انظر تفسير أبي السعود ٤٤٩/٣ والاساليب الإنشائية ص ٦٨ وفي البلاغة القرآنية للدكتور صباح دراز ص ١٣٦ وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص ٤٨٨ .
(٤) سورة الحجر ، الآية " ٨٨ " .

للاحتقار والتقليل أي فهو قليل حقير ، (١) والتحقير هنا في المتعلق وليس في النهي لأن الخطاب موجه للنبى صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا يقول الزمخشري {فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله ؟ قلت : يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أوتيت النعمة العظمى التى كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة وهى القرآن العظيم ، فعليك أن تستغني به ولاتمدن عينيك إلى متاع الدنيا}(٢) .

٣ - ومن أغراض النهي البلاغية في القرآن الكريم الإباحة كما في قوله تعالى في معرض نصيحة قارون { إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاتَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لايُحِبُّ الفَرِحِينَ ، وابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاتَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاتَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ } . (٣)

ذهب بعض المفسرين إلى أن النهي في قوله { لاتنس نصيبك } مستعمل في الإباحة والنسيان كناية عن الترك . (٤) .

٤ - ومَعاني النهي البلاغية فى الذكر الحكيم الدوام وقد أشرت في مبحث الإلهاب والتهييج إلى بعض صوره في القرآن ومنها ايضاً قوله تعالى { كَلَّا لاتُطِعْهُ واسْجُدْ وَاقْتَرِب } (٥) .

اختتمت سورة العلق بالردع والزجر لأبي جهل بقوله تعالى { كلا } ثم تلاها النهي للنبي صلى الله عليه وسلم (لا تطعه) أي اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله - فلا تطع المكذبين - { واسجد } ودم على سجودك يريد الصلاة

---

(١) انظر الإحكام في أصول الأحكام ٤٨/٢ والابهاج فى شرح المنهاج ٦٧/٢ والمختصر في أصول الفقه ص١٠٣ والمدخل الى المذهب الامام أحمد ص ١٠٦ وعروس الأفراح ٣٢٥/٢ والاتقان ٢٤٤/٣ ومعترك الأقران ٤٤٤/١ وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص ٤٨٩ .

(٢) الكشاف ٣٩٧/٢ .

(٣) سورة القصص ، ٧٦-٧٧ .

(٤) انظر التفسير الكبير ١٦/٢٥ والتحرير والتنوير ١٧٩/٢٠ .

(٥) سورة العلق ، الآية " ١٩ " .

{واقترب} أي تقرب إلى ربك بالصلاة وازدد منها } (١)

ومنه قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاتَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ .. } (٢) فالمؤمنون لايتصور منهم الخيانة فالنهي في قوله { لاتخونوا} للدوام (٣) ، أي داموا على عدم خيانة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ...} (٤) فالنهي في قوله { لاتبطلوا } للدوام والاستمرار لأن المؤمنين لايتصور منهم المن والاذى ، وقد نص الرازي على ذلك قائلاً { وقوله } { لاتبطلوا أعمالكم } يحتمل وجوهاً { أحدها } داموا على ما أنتم عليه ولاتشركوا فتبطل أعمالكم ... (٥)

وهذه الاية الكريمة بنيت بناء محكماً واتخذت أسلوباً بليغاً في التاثير قوياً في الدلالة فهي أولاً تتوجه بالخطاب إلى المؤمنين وفي ذلك مبالغة في إيجاب العمل بمقتضى النهي بتذكيرهم بالإيمان الذي يقتضي الطاعة والاستسلام ، وهي ثانياً تنص على صراحة على أن المن والأذى يبطلان ثواب الصدقة ويمحوان أثرها .

ولاتقف الآية عند هذا الحد بل تتبعه بتشبيه أثر المن والأذى في هذا الإبطال بأثر الرياء وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر زيادة في التنفير والتبشيع (٦) .

---

(١) انظر الكشاف ٢٧٢/٤ وراجع التفسير الكبير ٢٦/٣٢ والبحر المحيط ٤٩٥/٨ وتفسير أبي السعود ٥٥٦/٥ والتحرير والتنوير ٤٥٣/٣٠ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية " ٢٧ " .

(٣) انظر بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٩١ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٦٤ " .

(٥) التفسير الكبير ٢٨ / ٧٢ .

(٦) أسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٠١ .

٥ - ومن معاني النهي البلاغية في القرآن التفويض كما في قوله تعالى : { قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَاتَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً } . (١)

أشار بعض الأصوليين إلى أن النهي في قوله { فلا تسألني } للتفويض . (٢)

٦ - ومن أغراض النهي البلاغية في القرآن المشورة كما في قوله تعالى على لسان أخوة يوسف عليه السلام { اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَاتَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } (٣) .

نلمس من خلال هذا السياق سيطرة الحق الدفين الذي سيطر على أخوة يوسف ودفعهم إلى أن يصنعوا به ماتحكيه هذه الآيات حيث تشاوروا فيما بينهم في قتله أو نفيه لكن السياق يبين ما أشار به أحدهم قائلاً { لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين } أي إن كنتم على أن تفعلوا مايحصل به غرضكم فهذا هو الرأي (٤) فالنهي في قوله { لاتقتلوه } مستعمل في المشورة كما هو واضح من السياق والمقام .

٧ - ومن أغراض النهي البلاغية التحنن والتلطف والتحبيب كما في قوله تعالى {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }. (٥)

أورد الزركشي وتابعه السيوطي هذه الآية في خطاب التحنن والاستعطاف (٦) والخطاب في هذه الآية تضمن من المعاني مايفيض بالرحمة والترفق والاستعطاف والاشفاق منه تعالى على عباده ترغيباً لهم في الإقبال عليه

---

(١) سورة الكهف ، الآية " ٧٠ " .

(٢) انظر التمهيد في أصول الفقه ٣٦١/١ .

(٣) سورة يوسف ، الآيتين " ٩ - ١٠ " .

(٤) الكشاف ٣٠٥/٢ وراجع التفسيرالكبير٩٧/١٨ومابعدهاوالحبرالمحيط ١٥٨/٥ .

(٥) سورة الزمر ، الآية " ٥٣ " .

(٦) انظر البرهان ٢٥٠/٢ والاتقان ١٠٤/٣ ومعترك الأقران ٢٣٧/١ .

والانابة إليه ترهيباً من التفريط بالتولي والاعراض عنه (١) .

فالسياق كله مشعر بهذه المعاني حيث صدرت الآية بالنداء { ياعبادي } وأضافهم إليه لأن شرف الإضافة كما ذكر الرازي يفيد الأمن من العذاب ، (٢) وفي هذا مزيد من العناية والتكريم " كما أنه تعالى سمي المذنب بالعبد والعبودية مفسره بالحاجة والذلة والمسكنة ، والمناسب بالرحيم الكريم افاضة الخير والرحمة على المحتاج المسكين ، وفيه التفات من الخطاب { يا عبادي } إلى الغيبة { أسرفوا } ولعل سره أن العبودية شرف توجب مخاطبة المدعويين بها ، أما الإسراف فمبعد عن ساحات الرحمة وفي ذلك إشارة إلى بعد المسرف عن شرف الخطاب حتى يحقق معنى العبودية بالطاعة والانقياد لله تعالى . (٣)

ثم إنه قال { لاتقنطوا من رحمة الله ، حيث نهاهم عن القنوط ، كما إنه تعالى قال أولاً { ياعبادي } ولم يقل { لا تقنطوا من رحمتي } بل { لاتقنطوا من رحمة الله } لأن قولنا الله أعظم أسماء الله وأجلها فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل (٤) ، وحيث كان القصد إلى مزيد المبالغة في الوعد بالرحمة أعيد ذكر الاسم الأعظم وأكدت الجملة بإن المفيدة لأعظم وجوه التاكيد ثم أردف بلفظ دال على التوكيد فقال { جميعاً } وهذا أيضا مـــن المؤكدات ، ثم إنه تعالى وصف نفسه بكونه غفوراً رحيماً للمبالغة في الغفران والرحمة ، فكان قوله { إنه هو الغفور } إشارة إلى إزالة موجبات العقاب ، وقوله { الرحيم } إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة والثواب .

كما أن التعبير بقوله : { إنه هو الغفور الرحيم } يفيـد الحصر ومعناه أنـــه

---

(١) وجوه المخاطبات في القرآن الكريم ص ١٨٦ .
(٢) التفسير الكبير ٢٧ / ٥ .
(٣) السابق نفس الموضع ووجوه المخاطبات ص ١٨٦ .
(٤) التفسير الكبير ٢٧ / ٥ .

لا غفور ولا رحيـم إلا هـو وذلك يفيد الكمال في وصفه سبحانه بالغفران والرحمة . (١)

٨ - ومن معاني النهي البلاغية في القرآن الكريم التوبيخ والتنديم كما في قوله تعالى من محاورة إبليس اللعين لأتباعه يوم القيامة { ... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ..} (٢)

في هذه الآية الكريمة توالى النهي والأمر لإفادة معني التوبيخ والتنديم في قوله { فلا تلوموني ولوموا أنفسكم } .

---

(١) السابق نفس الموضع وينظر وجوه المخاطبات ص ١٨٧ ومابعدها .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية " ٢٢ " .

تبادل الأساليب وأسرارها البلاغية :-

هذه قضية واسعة تخص عدداً من الأساليب من ذلك خروج الاستفهام إلى معنى الأمر ، وخروج الأمر عن دلالته الأصلية إلى معنى الخبر أو العكس أي خروج الخبر إلى معنى الأمر أو الطلب ، وخروج الخبر والاستفهام إلى معنى النهي .

١ - الأمر بمعنى الخبر :-

أفاد الأمر في مواضع عديدة في البيان القرآني معنى الخبر ، ولعل السر البلاغي من وراء التعبير بالأمر عن الخبر للدلالة على أنه حتم واجب لايكون غيره كما ذكر الزمخشري وتابعه كثير من العلماء (١) عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. (٢)

معناه فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً ، فهو أمر مستعمل في معنى الخبر.

ومنه قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَايُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾(٣) .

يقول الزمخشري((أي مد له الرحمن : يعنى أمهله وأملى له في العمر ، فأخرج على لفظ الأمر إيذاناً بوجوب ذلك ، وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل لتقطع معاذير الضال)) (٤) .

---

(١) الكشاف ٢/٢٠٥ وانظر التفسير الكبير ١٦/١٥٣ والبحرالمحيط ٥/٨٠ وأبا السعود ٢/٥٨٥ وحاشية الشهاب ٤/٣٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية " ٨٢ " .

(٣) سورة مريم ، الآية " ٧٥ " .

(٤) الكشاف ٢/٥٢١ وانظر التفسير الكبير ٢١/٢٤٨ والبحرالمحيط ٦/٢١٢ وغرائب القرآن على هامش تفسير الطبري ١٦/٦٨ وأبا السعود ٣/٦٠٠ وحاشية الشهاب ٦/١٧٧ وروح المعاني ١٦/١٢٦ .

ومنه قوله تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَاهُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّنْ شَيءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } (١)

يقول أبو حيان نقلاً عن إبن عطية " وقال ابن عطيه وقوله { لنحمل } أخبر أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالنقل لكنهم أخرجوه في صيغة الأمر لأنها أوجب وأشد تأكيداً في نفس السامع من المجازاة " (٢)

٢ - الخبر بمعنى الأمر :-

نص المفسرون والبلاغيون (٣) على أن الخبر يخرج إلى أغراض بلاغية كثيرة تفهم من السياق وقرائن الأحوال ، من بينها الأمر نحو قوله تعالى : {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ } (٤)

والسر البلاغي من وراء إيثار التعبير بالخبر عن الأمر أن المأمور كما يقول الزمخشري : ((كأنه سورع إلى الامتثال فهو يخبر عنه)) (٥) .

ويقول في تفسير الاية السابقة((وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجوداً ، ونحوه قولهم في الدعاء رحمك الله ، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها)) (٦)

ويقول في موضع آخر : ((وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية " ١٢ " .

(٢) البحر المحيط ١٤٣/٧ وراجع التحرير والتنوير ٢١٩/٢٠ - ٢٢١ .

(٣) انظر الكشاف ٣٦٥/١ والتفسير الكبير ٩٢/٦ والبحرالمحيط ١٨٥/٢ والأمالي الشجرية ٢٧٠/١ وأساليب بلاغية ص ١٠٥ والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٤) سورة البقرة ، الآية { ٢٢٨ " .

(٥) الكشاف ١ / ٢٩٣ وانظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٠٩.

(٦) الكشاف ١/ ٣٦٥ .

إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كائنه يوجد فهو يخبر عنه } (١) .

ولابن قيم الجوزية (٢) رأى مختلف حيث يقول : ((وفيه طريقة أخرى وهي أفقه معنى من هذه ، وهو أن هذا إخبار محض عن وجوب ذلك واستقرار حسنه في العقل والشريعة والفطرة)) (٣) .

وذكر علماء البلاغة المتأخرون أسراراً عديدة لخروج الخبر إلى معنى الطلب { الأمر } لاتخرج عما ذكره الزمخشري وغيره ، تتلخص فيما يلي :-

١ - قصد التفاؤل بالوقوع نحو وفقك الله للتقوى فعبر بلفظ الماضي تفاؤلاً لوقوعه .

٢ - إظهار الحرص في وقوعه : فالطالب إذا عظمت رغبته في شيء يكثر تصوره إياه فربما يخيل إليه حاصلاً نحو رزقني الله لقاءك .

٣ - الاحتراز عن صورة الأمر كقول العبد للمولى إذا حول عنه وجهه : ينظر المولى إلي ساعة .

٤ - حمل المخاطب على المطلوب بأن يكون المخاطب ممن لايحب أن يكذب الطالب أي ينسب إليه الكذب ، كقولك لصاحبك الذي لايحب تكذيبك { تأتيني غدا } مقام

---

(١) المصدر السابق ٢/٣٢٥ وانظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص٣٠٩

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي الحنبلي المعروف بان قيم الجوزية فقيه ، أصولي ، مفسر ، نحوي ، محدث ، ولد بدمشق وتفقه وأفتى ، ولازم ابن تيمية وسجن معه في قلعة دمشق وتوفي سنة ٧٥١ ودفن بسفح قاسيون بدمشق من مؤلفاته روضة المحبين وزاد المعاد ، وإعلام الموقعين عن رب العالمين . انظر ترجمته الأعلام ٦/٢٨٠ ومابعدها ومعجم المؤلفين ٩/١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) بدائع الفوائد ١/١٠٣ ومابعدها .

ائتني تحمله بألطف وجه على الإتيان لإنه إن لم يأتك غداً صرت كاذباً من حيث الظاهر لكون كلامك في صورة الخبر)) (١) .

وإفادة الخبر لمعنى الأمر في النظم القرآني جاء في معارض التشريع وفي خطاب الله لإنبيائه عليهم السلام ، وغير ذلك مما نوضحه في السطور القادمة بعون الله ومشيئته .

أ ـ في التشريع :

أفاد الخبر في كثير من الأمور التشريعية الأمر نحو قوله تعالى في شأن المطلقات { وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ } (٢) وقوله تعالى : {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة } (٣) أي ليرضعن أولادهن فهو خبر في معني الأمر .

وقوله تعالى { فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى } (٤) فقوله { فسترضع } خبر في معنى الأمر أي فلترضع له أخرى . (٥)

ومنه قوله تعالى في أحكام الحج { فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ .. } (٦) .

---

(١) انظر مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور ص ٣٢٤ والايضاح ٢٤٥/١ . وشروح التلخيص ٣٣٨/٢ - ٢٤٠ وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص٢٠٥ ومابعدها .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٨ " .

(٣) سورة البقرة ، الآية "٢٣٣" وانظر الكشاف ٣٦٩/١

(٤) سورة الطلاق ، الاية " ٦ " .

(٥) البحر المحيط ٢٨٥/٧ ٩.

(٦) سورة البقرة ، الآية " ١٩٦ " .

ومثله قوله تعالى { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } (١) .

ومنه قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (٢) .

يقول الزمخشري { فقوله ((تؤمنون)) خبر في معنى الأمر ولهذا أجيب بقوله " يغفر لكم " وتدل عليه قراءة ابن مسعود " آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا " فإن قلت لم جيء به على لفظ الخبر ؟ قلت للإيذان بوجوب الامتثال وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين (٣)

ب – على لسان يوسف عليه السلام :

ورد الخبر مراداً به الأمر في قصة يوسف عليه السلام في قوله تعالى :{ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ } (٤)

يقول الزمخشري : { تزرعون } خبر في معنى الأمر ، .. وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه } (٥) .

جـ – في خطاب الله لزكريا عليه السلام :–

قال تعالى : { يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً } (٦) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٩٧" وانظر الاساليب الانشائية ص ١٠٣ .

(٢) سورة الصف ، الآيتين " ١٠ – ١١ " .

(٣) الكشاف ٩٩/٤ ومابعدها .

(٤) سورة يوسف ، الآية " ٤٧ " .

(٥) الكشاف ٢ / ٣٢٥ .

(٦) سورة مريم ، الآية " ٧ " .

فقوله " اسمه يحيى " بمعنى سمه يحيى ، فهذا الكلام خبر مستعمل في الأمر ، (١) فهذه بشرى من الله لعبده زكريا عليه السلام وإجابة لدعائه ، كما أن في تعيين اسمه عليه السلام تأكيداً للوعد وتشريفاً له عليه السلام ، وقد أكد الحق سبحانه وتعالى ذلك بقوله { لم نجعل له من قبل سمياً } أي لم نجعل له شريكاً في الاسم حيث لم يسم أحد قبله بيحيى وفي هذا مزيد من التشريف والتفخيم له عليه السلام مالايخفى ، وقيل إن المراد بقوله { سميا } أي شبيهاً في الفضل والكمال كما في قوله تعالى { رب السموات والأرض ومابينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا } (٢) والأول أقرب .

د - المنافقــون :-

قال تعالى تهكماً وسخرية بالمنافقين { يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَاتَحْذَرُونَ } (٣)

فقوله " يحذر " خبر مستعمل في الأمر أي ليحذر المنافقون ويدل عليه " إن الله مخرج ماتحذرون " (٤)

وإضافة إلى ماسبق ذكره من الأساليب الخبرية التى أفادت الأمر في القرآن الكريم فقد وردت في القرآن الكريم أساليب خبرية في اللفظ أمراً في المعنى من مثل أمر ، ويأمر ، وقضى ، وكتب ، وأحل لكم وغير ذلك ، وقد تنبه القدماء إلى ذلك . (٥)

---

(١) التحرير والتنوير ١٦ / ٦٩ .

(٢) سورة مريم ، الآية "٦٥" وأنظر تفسير أبي السعود ٣/٥٦٩ .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ٦٤ " .

(٤) انظر البحر المحيط ٥/٦٦ والتحرير والتنوير ١٠/٢٤٨ .

(٥) راجع البرهان ٢/٨ ومابعدها والاتقان ٤/٣٥ - ٣٧ ومعترك الأقران ١/٢٤ - ٢٧

فمن شواهده قوله تعالى : { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً .. } (١) .

وقوله { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٢) ، وقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً } (٣)

وقد ألمح أبو السعود إلى بلاغة هذا النوع بقوله : ((ففي تصدير الكلام بكلمة التحقيق وإظهار الاسم الجليل وإيراد الأمر على صورة الإخبار من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال والدلالة على الاعتناء بشأنه مالا مزيد عليه)) (٤)

على الرغم من أن الإخبار عن الإنشاء يخرجه عن طبيعة الأساليب الإنشائية تنبض هذه الأساليب بالطلب - أي بالأمر والنهي - وواضح فيها معنى الالزام . فقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ... } (٥) ولما لها من سر بلاغي ترقى فوق قولنا مثلاً ((أدوا الأمانات)) .

٢ - الاستفهام بمعنى الأمر :-

أشار كثير من المفسرين والبلاغيين وبعض النحاة (٦) ، إلى خروج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معني الأمر من ذلك قوله تعالى : { وَقُل لِّلَّذِينَ

---

(١) سورة الإسراء ، الآية " ٢٣ " .
(٢) سورة النحل ، الآية " ٩٠ " .
(٣) سورة النساء ، الآية " ٥٨ " .
(٤) تفسير أبي السعود ٧٢١/١ وراجع روح المعاني ٦٤/٥ حيث نقل الألوسي كلام أبي السعود حرفياً .
(٥) سورة النساء ، الآية " ٥٨ " .
(٦) انظر الكشاف ٤١٩/١والتفسير الكبير ٢٣٠/٧ والبحرالمحيط ٤١٣/٢ والأمالي الشجرية ٢٦٤/١ - ٢٦٥ والايضاح ٢٣٥/١ وشروح التلخيص ٢٩٣/٢ وبغية الايضاح ٤٥/٢ وأساليب بلاغية ص ١٢٤ والتفسير البلاغي للاستفهام ص ١٣١ ومابعدها ومن بلاغة النظم العربي ١١٣/٢ .

أُوتُوا الْكِتَابَ والأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا .. } (١)

وقوله تعالى : { فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } (٢)

وقوله تعالى : { فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ } (٣)

وقد حصر بعض الدارسين - في رسالة قيمة عن الاستفهام القرآني - أساليب الاستفهام التي أفادت معنى الأمر في القرآن الكريم منبهاً على أن هذه الأساليب وإن أفادت الأمر فهى متضمنة لبعض المعاني البلاغية الأخرى التي تستفاد من السياق كالتعجيز والتهكم والتشويق وغير ذلك . (٤)

والسر البلاغي من وراء التعبير بالاستفهام عن الأمر أن الاستفهام ((يعطي لوناً من الإثارة والتشويق وسياسة النفوس والتأثير فيها ، وإشراكها في عملية الاقتناع ، ولذا كانت له مقاماته الخاصة المثيرة للوجدان والانفعال هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يمثل قمة الطلب إن صح التعبير)).(٥)

والآن نكتفي بذكر بعض الشواهد وتحليلها :

من ذلك قوله تعالى في الدعوة إلى الاسلام : {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ والأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } (٦)

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ٢٠ " .

(٢) سورة المائدة ، الآية " ٩١ " .

(٣) سورة القمر ، الآية " ٤٠ " .

(٤) أنظر أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٥) الاساليب الانشائية وأسرارها البلاغية ص ٢٦٤ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية " ٢٠ " .

أشار كثير من المفسرين إلى أن الاستفهام في قوله : { أأسلمتم } يفيد الأمـر . (١)

ومن ذلك ماذكره الرازي ((فهو استفهام في معرض التقرير والمقصود منه الأمر ، قال النحويون : إنما جاء بالأمر في صورة الاستفهام لأنه بمنزلته في طلب الفعل والاستدعاء إليه ، إلا أن في التعبير عن معنى الأمر بلفظ الاستفهام فائدة زائدة ، وهي التعبير بكون المخاطب معانداً بعيداً عن الانصاف ، لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة لم يتوقف بل في الحال يقبل ، ومع أن الأمام الرازي كأبي حيان وأبي السعود وغيرهما نقل عن الكشاف تحليله البلاغي فقد انفرد بفكرة الانصاف والعناد وظهور الحجة ، بيد أن هذه القاعدة ليست مطردة لإن كثيراً من الأساليب جاءت خالية من عناد المخاطب ، وتفيد ألواناً من المعاني البلاغية . (٢)

ومنه قوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً } (٣)

الخطاب في هذه الآية الكريمة للرسول صلى الله عليه وسلم تسلية عن إعراض قومه عن الإسلام ، ولذلك عقب بقوله { أتصبرون } وهو استفهام مستعمل في الحث والأمر كقوله ((فهل أنتم منتهون)) .

وموقع ((وكان ربك بصيراً)) موقع الحث على الصبر المأمور به أي هو عليم بالصابرين ، وإيذان بأن الله لايضيع جزاء الرسول صلى الله عليه وسلم على مايلاقيه من قومه وأنه ناصره عليهم لا محالة . (٤)

ومنه قول المؤمن في الجنة لمن معه عن قرينه الذي كان ينكر البعث فـي

---

(١) انظر الكشاف ٤١٩/١ والتفسير الكبير ٢٣٠/٧ والبحر المحيط ٤١٣/٢ وأبا السعود ٤٥٦/١ والفتوحات الإلهية ٢٥٣/١ والتحرير والتنوير ٢٠٢/٣ .

(٢) التفسير الكبير ٢٣٠/٧ وانظر الأساليب الإنشائية ص ٢٦٤ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية " ٢٠ " .

(٤) التحرير والتنوير ١٨ / ٣٤٥ .

الدنيا قال تعالى : { قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ. أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ. قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ } (١) فالاستفهام في قوله ((هل أنتم مطلعون)) يفيد مع الأمر التشويق (٢) بمعني اطلعوا . أي إن كنتم تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتهم .

وفهم الرازي من صياغة الفعل أنه " تكلف أمراً اطلع معه لأنه لو كان مطلعاً بلا تكلف لم يكن إلى إطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم إنه ذهب إلى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها إلى النار " ولهذا قدر الزمخشري في قراءة { مطلعون } بكسر النون قبله مفعولاً أي مطلعون إياي . (٣)

فما ذهب إليه الرازي كما يقول بعض الباحثين (٤) بعيد جداً لأنه ليس هناك تكلف ولا حجاب يحجز الرؤية والصوت بين الجنة والنار حيث ذكر بعض المفسرين أن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار . (٥)

((ثم إن القراءات في { مطلعون }(٦) تدل على أن صياغة الخبر ملائمة لمعنى الاستفهام وهو إثارة التشويق والأمر بلطف وتودد)) (٧) .

ومنه قوله تعالى على لسان الضعفاء من المعذبين في النار { وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ } (٨) فالاستفهام في قوله : { فهل أنتم مغنون عنا } للأمر

---

(١) سورة الصافات ، الآية " ٥١ - ٥٥ " .
(٢) انظر أساليب الاستفهام ص ٢٣٢ .
(٣) انظر الكشاف ٣٤١/٣ والتفسير الكبير ١٣٩/٢٦ وتفسير أبي السعود ٥٣٥/٤ ومابعدها .
(٤) انظر الأساليب الانشائية ص ٢٦٥ .
(٥) انظر البحر المحيط ٣٦١/٧ وتفسير أبي السعود ٥٣٦/٤ .
(٦) انظر البحر المحيط الموضع السابق وكتاب السبعة لابن مجاهد ص٥٤٨.
(٧) الأساليب الانشائية ص ٢٦٥ .
(٨) سورة إبراهيم ، الآية " ٢١ " .

أي اغنوا عنا شيئاً من العذاب على سبيل التعجيز والتحدي والتهكم والتوبيخ }(١)

ومنه قوله تعالى لآل داود عليه السلام : { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُون } (٢) بمعنى أشكروا فهو أمر تودد وامتنان لعباد الله المؤمنين .

ومن أساليب الاستفهام التى أفادت الأمر في القرآن أساليب {أرأيت } (٣) سواء جاء بعدها الشرط أو المفعول به فهي بمعني أخبرني من ذلك قوله تعالى : {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ } (٤) وقوله تعالى : { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى.وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى } (٥) .

((ومما يتضمن معنى الأمر من أساليب الاستفهام في البيان القرآني ما أفاد إنكار الواقع في النفي - (٦) وهذا إصطلاح خاص بأبي السعود أفاد منه صاحب أساليب الإستفهام - وبخاصة على ألسنة الأنبياء عليهم في الدعوة إلى الله من ذلك قوله تعالى :{ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ } (٧) أي اتقوا الله ونظائرها

---

(١) أساليب الاستفهام ص ٢٣٢ .

(٢) سورة الأنبياء "٨٠" وانظر الأساليب الإنشائية ص ٢٦٥ .

(٣) راجع المعجم المفهرس ص ٢٨١ ومابعدها وأساليب الاستفهام ص٢٣٢ والتفسير البلاغي للأستفهام ص ٦٤ ومابعدها . .

(٤) سورة الملك ، الآية " ٣٠ " وأساليب الاستفهام ص ٢٣٢ .

(٥) سورة النجم ، الآية " ٣٣ - ٣٤ " .

(٦) المقصود بإنكار الواقع في النفي بمعنى أن المخاطبين قد تركوا فعلاً ماكان ينبغي أن يتركوه ، فترك الفعل قد وقع منهم ، وهذا معنى إنكار الواقع في النفي ، وهذه الأساليب تفيد التوبيخ على هذا الترك ، وتفيد أيضاً طلب هذا الفعل المتروك " أنظر أساليب الاستفهام ص ٥٣ .

(٧) الشعراء ، الآية "١٠٦" وانظر معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم ص ٢٧ ومابعدها .

مما جاء على لسان ابراهيم عليه السلام مخاطباً الأصنام أو ضيفيه من الملائكة قال تعالى : { فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ } (١) بمعنى كلوا ، فابراهيم عليه السلام يعلم أنها جماد ولكنه طلب منها أن تأكل سخرية بها واستخفافاً .

ومنها قوله تعالى :{ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ } (٢) أي استمعوا .

وقوله تعالى :{ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } (٣) .

فالاستفهام في قوله { أفلا تعقلون } يفيد الأمر أي اعقلوا .

((ومن إنكار الواقع في النفي الذي دل على الأمر ما جاء في أساليب "مالك" وفروعه كقوله تعالى{ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} (٤) وقوله تعالى { مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ} (٥) فالاستفهام " بما " انكار لعدم الإيمان وأمر به ، وإنكار لعدم الأمن وأمر به " (٦)

وبهذا يتضح لنا أن كثيراً من أساليب الإستفهام تفيد الأمر بمعونة السياق والمقام وتزيد عن الأمر بالتأثير وإثارة النفوس وهز المشاعر .

٤ - الخبر بمعنى النهي :-

يعبر بالخبر عن الأمر في القرآن الكريم حيث يقتضي المقام اعتناء بالمنهي عنه والسر في التعبير بالخبر عن النهي كما يقول الزمخشري وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الامتثال فهو يخبر عنه . (٧)

---

(١) الصافات " ٩١ " وانظر أساليب الإستفهام ص ٥٣ .
(٢) سورة الشعراء ، الآية " ٢٥ " .
(٣) سورة البقرة ، الآية " ٤٤ " .
(٤) سورة الحديد ، الآية " ٨ " .
(٥) سورة يوسف ، الآية " ١١ " .
(٦) أساليب الاستفهام في القرآن الكريم ص ٢٣٣ .
(٧) الكشاف ٢ / ٢٩٣ .

وشواهده في الذكر الحكيم كثيرة نكتفي بالإشارة إلى بعضها من ذلك قوله تعالى :{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَاتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ...}(١)

فقوله " لاتعبدون " خبر في معنى النهي ويؤيده قراءة عبدالله بن مسعود وأبي ((لاتعبدوا)) بالجزم .

ومنه قوله تعالى :{ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } (٢)

أي لاتستغفروا لهم فهو خبر أفاد معنى النهي .

ومنه قوله تعالى : { أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ } (٣) معناه لايلهكم التكاثر كما قال تعالى في آية أخري { لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ . (٤)

ومنه قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ } (٥) أي لا تطيعوهم . (٦)

وقد توقف العلماء حول بعض أساليب النفي المنفية هل هي نفي مطلقاً أو دالة على النهي بمعنى أن النفي أفاد النهي نحو قوله { لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ } (٧)

وإضافة إلى هذا ففي القرآن الكريم أساليب خبرية في اللفظ إنشائية في المعني - أعني تفيد النهي من مثل نهى وينهى وحرم ولايحل لكم ، إلى آخره ، وقد تنبه القدماء إلى ذلك . (٨)

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٨٣ " .
(٢) سورة التوبة ، الآية " ١١٣ " .
(٣) سورة التكاثر ، الآية " ١ " .
(٤) سورة المنافقون ، الآية " ٩ " .
(٥) سورة آل عمران ، الآية " ١٤٩ " .
(٦) الأماتلى الشجرية ٢٧٢/١ .
(٧) الواقعة " ٧٩ " وراجع الكشاف ٥٩/٤ والتفسير الكبير ١٩٤/٢٩ والبحر المحيط ٢١٤/٨ وتفسير أبي السعود ٢٦٧/٥ والأساليب الإنشائية ص١٠٤ ومابعدها .
(٨) راجع البرهان ٨/٢ والاتقان ٣٦/٤ .

من ذلك قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ... } (١)

وقوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ... } (٢) .

٥ - الإستفهام بمعنى النهي : -

أفاد الاستفهام معنى النهي فى القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : {أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ } (٣) بدليل قوله { فلا تخشوهم } ومنه قوله تعالى : { مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } (٤) أي لاتغتر . وقوله تعالى : { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ } (٥) أي لا تهلكنا (٦) .

---

(١) سورة النحل ، الآية " ٩٠ " .

(٢) سورة المائدة ، الآية " ٣ " .

(٣) سورة التوبة ، الآية " ١٣ " .

(٤) سورة الإنفطار ، الآية " ٦ " .

(٥) سورة الأعراف ، الآية " ١٥٥ " .

(٦) انظر البرهان ٢/٣٣٩ والاتقان ٣/٢٣٨ وأساليب بلاغية ص ١٢٤ .

الفصل الثالث

بين النفي والنهي

في

القرآن الكريم

من الأمور المسلم بها لدى علماء العربية أن النهي فرع من النفي ، كما أن للنفي أدواته الموضوعة له الخاصة به ، ولذا لا أريد أن أتحدث هنا بالتفصيل عن أوجه الشبه والاختلاف بين النفي والنهي في القرآن وإنما لهذه القضية دراسة أخرى نفصل القول فيها في القريب العاجل بإذن الله وتوفيقه .

وإنما أتناول بعض القضايا منها دخول النفي أو النهي على القيد أو المقيد في القرآن الكريم ، فقد يدخل النفي أو النهي على جملة فينفي أحد جزأيها أو هما معاً ، أو بعبارة أخرى ينصب النفي أو النهي على القيد أو المقيد أو هما معاً والحاكم في ذلك دلالة السياق والمقام وقرائن الأحوال وخصائص التراكيب . (١)

فالسياق وحده هو الذي يحدد هل النفي أو النهي انصب على القيد أم القيد والمقيد معاً ؟

ولنشرع الآن في تفصيل هذه القضية وإيراد بعض الشواهد وتحليلها :-

١ - إنصباب النفي أو النهي على القيد :-

قال تعالى { لَاتَقْرَبُواْ الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى } (٢)

النهي في هذه الآية ليس نهياً عن الصلاة لأن الصلاة لاينهى عنها ، وإنما نهى الله عن قربانها في حالة السكر لذهاب العقل ، فالنهي منصب على القيد دون المقيد .

ومنه قوله تعالى : { لَاتَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً } (٣)

فالنهي منصب على القيد ((مرحاً)) وليس على المشي مطلقاً بل مقيداً

---

(١) راجع الأساليب الإنشائية ص ٧٤ والنبأ العظيم ص ١٣٢ .

(٢) سورة النساء ، الآية " ٤٣ " .

(٣) سورة الإسراء ، الآية " ٣٧ " .

بالمرح والاختيال ، كما أن التعبير بقوله { في الأرض } لزيادة التقرير والإشعار بإن المشي عليها مما لايليق به المرح والتكبر . (١)

ويجوز أن يتوجه النهي إلى المقيد فيكون النهي عن صورة من صور المشي أي لاتمش مشياً مارحاً ، وهذا بعيد جداً كما ترى وإنما السياق يدل على توجه النهي إلى القيد .

ومنه في النفي قوله تعالى : { قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَاتَعْبُدُونَ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ } (٢)

لا أريد أن أطيل الوقوف عند هذه الآية لاستخراج لطائفها البيانية فقد كفانا مؤونة ذلك العلماء قديماً وحديثاً . (٣)

فالنفي في هذه السورة الكريمة منصب على القيد دون المقيد ، فالنفي ليس نفياً للعبادة على إطلاقها بل مقيد بالمفعول إتماماً للفائدة . (٤)

٢ – انصباب النفي أو النهي على القيد والمقيد معاً :–

في القرآن الكريم أمثلة كثيرة توجه فيها النفي أو النهي إلى القيد والمقيد معاً من ذلك قوله تعالى { لاَتَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } (٥)

الخطاب في هذه الاية موجه للفقراء ، وقال تعالى خطاباً للاغنياء {ولاتقتلوا

---

(١) أنظر تفسير أبي السعود ٣/٤٤٩ .

(٢)-سورة الكافرون ، الآية " من ١ – ٦ " .

(٣) راجع نتائج الفكر في النحو للسهيلي تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا ص ١٨٣ ومابعدها . والتفسير القيم لابن القيم ص ٥٢٥ : ص ٥٢٩ . والأساليب الإنشائية ص ٧٥ ومابعدها .

(٤) الأساليب الإنشائية ص ٧٥ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية " ١٥١ " .

أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ } (١) .

فالنهي في هاتين الآيتين الكريمتين منصب على القيد والمقيد معاً فهو نهي عن القتل مطلقاً ، فلا يجوز هنا أن يتوجه النهي إلى القيد وإلا لكان المعنى النهي من قتل الأولاد بسبب الفقر وجواز قتلهم بغير هذا السبب وهذا فاسد قاطعاً لا يدل عليه السياق ، بل النهي منصب على القيد والمقيد معاً .

وذكر هذا القيد وصفاً لما كانوا عليه ، ولأنه كان العلة في قتل الأولاد عندهم ذماً وتبشيعاً وتشنيعاً وعدم ثقة في الرزاق المتين ، ولذا كان التعقيب في كلتا الآيتين مناسباً لسياقه وغرضه مقرراً لسبب النهي { نحن نرزقكم وإياهم } { نحن نرزقهم وإياكم } حيث بدأ في الآية الأولى بقوله { نحن نرزقكم } خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق على الخلاق الرزاق ثم عطف عليهم الأولاد ، أما في الآية الثانية فظاهر التركيب أنهم موسرون وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه فبدىء فيها بقوله { نحن نرزقهم } إخباراً بتكفله تعالى برزقهم فلستم أنتم رازقيهم فعطف عليهم الآباء . (٢)

ومنه قوله تعالى : { يَاأَيُّهَاالَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (٣)

النهي منصب على القيد والمقيد معاً ، فهو نهي عن أكل الربا مطلقاً لأنه محرم بقوله تعالى : { وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا } (٤) وذكر القيد { أضعافاً مضاعفة } ((وصفاً للحال الشنعاء التى كانوا يوقعون الربا عليها وفيه توبيخ لهم لتضعيفه ، فهذا الوصف ليس قيداً في النهي إذ ما لايقع أضعافاً مضاعفة مساو في التحريم لما كان أضعافاً مضاعفة)) (٥) .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية " ٣١ " .

(٢) انظر البحر المحيط ٢٥١/٤ ومابعدها والبرهان في توجيه متشابه القرآن ص٦٩ ومعترك الأقران ٩٣/١ . والأساليب الإنشائية ص ٨٣ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٣٠ " .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٥ ".

(٥) انظر الكشاف ٤٦٣/١ البحر المحيط ٥٤/٣ .

ويضيف الدكتو صباح دراز قائلاً ((وخص الأكل مراداً به المعاملة والانتفاع لأن الأكل غالب في الانتفاع به وهو المقصود الأعظم من المال وأكبر الدوافع للضرب في الأرض والارتزاق وطلب العيش والسعي ، وفعل الأكل حين يأتي منهياً عنه في القرآن فهو كناية مصورة للشراهة والالتهام غالباً)) (١)

ومنه قوله تعالى خطاباً لليهود { وَآمِنُواْ بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلاَتَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } (٢)

فالنهي في هذه الآية توجه إلى القيد والمقيد معاً والمعنى لا تكفروا به ، والآية تدعوهم إلى الإيمان بالقرآن الذي ذكر كنايته { بما أنزلت } لتكون دعوى بدليلها أي لأني أنزلته فإذا كانت التوراة منزلة فالقرآن مثلها ، وهو لا يناقضها بل نزل { مصدقاً لما معكم } أما النهي في قوله { ولا تكونوا أول كافر به } فقد دل على أمر من مفهوم السياق أي كونوا أول مؤمن به تعريضاً بسوء تقديرهم وهذا ماصرح به الزمخشري بقوله ((وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به لمعرفتهم به وبصفته ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحي إليه والمستفتحين على الذين كفروا به وكانوا يعدون أتباعه أول الناس كلهم ، فلما بعث كان أمرهم على العكس)) (٣) .

ويضيف أبو حيان قائلاً ((وخص الأولية بالذكر لأنها أفحش لما فيها من إبتداء الكفر وبخاصة إذا كانوا موقنين)) (٤) .

ومنه قوله تعالى وصفاً للفقراء المتعففين الذين لايبدون فاقتهم لا بلسان الحال ولا المقال تعففاً وتجملاً { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

---

(١) الأساليب الإنشائية ص ٨٣ ومابعدها .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ٤١ " .

(٣) الكشاف ١ / ٢٧٦ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٧٧ وراجع الأساليب الإنشائية ص ٨٤ .

لَايَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُم الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِن التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً } (١)

النفي في هذه الآية الكريمة منصب على القيد والمقيد معاً فهو نفي للسؤال والإلحاف ، وقد نص على ذلك جمهور البلاغيين (٢) ، ويجوز أن يكون النفي منصباً على القيد فيكون المعنى على هذا ثبوت سؤالهم ونفي الإلحاف أي وإن وقع منهم سؤال فإنما يكون بتلطف وتستر لا بإلحاح (٣) ، ويجوز أن يكون منصباً على المقيد أي نفى عنهم السؤال مطلقاً سواء كان بإلحاف أو غير إلحاف ، لكنني أرجح كما رجح الرازي وجمهور البلاغيين أن يكون النفي منصباً على القيد والمقيد معاً أي نفى عنهم السؤال والإلحاف جميعاً . (٤)

وانتقد أبو حيان تنظير العلماء هذه الآية ونظائرها ببيت أمرىء القيس(٥)

على لاحب لا يهتدى بمناره ... إذا سافه العود النباطي جرجرا

ولحظ أن الشبه في مطلق إنتفاء الشيئين لأنه يلزم من نفي المنار نفي الهداية التي هي بعض لوازمه أي لامنار ولا إهتداء ، ولا يلزم من نفي الإلحاف نفي السؤال مطلقاً بل يلزم من نفي السؤال نفي الإلحاف إذ نفي العام يدل على نفـــي

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٧٣ " .

(٢) أنظر بديع القرآن ص ١٥٢ وتحرير التحبير ص ٣٧٧ والاتقان ٣/٢٣٠ ومعترك الأقران ٤٢٧/١ والأساليب الإنشائية ص ٩٥ .

(٣) أنظر البحر المحيط ٢/ ٣٢٩ والكشاف ٣٩٨/١ .

(٤) أنظر الكشاف ٣٩٨/١ والتفسير الكبير ٨٨/٧ وتفسير أبي السعود ٤١١/١ وبديع القرآن ص ١٥٢ وتحرير التحبير ص ٣٧٧ والاتقان ٣/٢٣٠ ومعترك الأقران ٤٢٧/١ .

(٥) ديوان إمرىء القيس ص ٦٦ والبيت في الأمالي الشجرية ١٩٢/١ والخصائص ١٦٥/٣ وخزانة الأدب تحقيق عبدالسلام هارون ١٩٣/١٠ ، ٢٥٨/١٠ .

الخاص ، فالتشابه التام بينهما بعيد وغير صواب كما نص على ذلك أبو حيان (١)

ويضيف الدكتور صباح دراز قائلاً ((ويبقى أن نقول إن بين الهداية والمنار عموماً وخصوصاً ولا يلزم من نفي أحدهما نفي الآخر)) (٢)

ومنه قوله تعالى : { مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ } (٣) فالنفي انصب على الموصوف وصفته أي لاشفيع فيطاع إذ ليس للكافر شفاعة كقول بعض العرب (٤) : لا ترى الضب بها ينجحر (٥)

ومنه قوله تعالى { فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } (٦) يقول أبوحيان ((ليس المعنى أنهم يشفع لهم فلا تنفع شفاعة من يشفع لهم وإنما المعنى نفي الشفاعة فانتفى النفع أي لا شفاعة شافعين لهم فتنفعهم من باب على لاحب لايهتدى بمناره ، أي لا منار له فيهتدى به ، وتخصيصهم بانتفاء شفاعة الشافعين يدل على أنه قد تكون شفاعات ينتفع بها ، ووردت أحاديث في صحة ذلك . (٧)

الصفة للتأكيد لا للتقييد :-

يقول السيوطي نقلاً عن السابقين ((هو أن تنفي الشيء مقيداً والمراد نفيه مطلقاً مبالغة في النهي وتأكيداً له ومنه قوله تعالى : { وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٣٠ .
(٢) الأساليب الإنشائية ص ٩٦ .
(٣) سورة غافر ، الآية " ١٨ " .
(٤) انظر التفسير الكبير ٥١/٢٧ ومابعدها والبحر المحيط ٤٥٧/٧ والأساليب الإنشائية ص ٩٦ .
(٥) هذا عجز بيت وصدره :لاتفزع الأرنب أهوالها "نسبه ابن الأنباري في شرح المفضليات إلى عمرو بن أحمر انظر خزانة الأدب ١٩٣/١٠ والبيت في الخصائص ١٦٥/٣ والأمالي الشجرية ١٩٢/١ والمثل السائر ٢٤٨/٢ والخزانة ١٩٢/١٠ .
(٦) سورة المدثر ، الآية " ٤٨ " .
(٧) البحر المحيط ٣٨٠/٨ وراجع الاتقان ٣٢٠/٣ ومابعدها ومعترك الأقران ٤٢٧/١.

آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ } (١) فليس ثم إله مع الله بل المراد نفي الإله الباطل على أبلغ وجه لأن الوصف مؤكد لامقيد كقوله { يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ } (٢) ومنه قوله تعالى : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } . (٣) في هذه الآية تسلط النفي على الإنزال والمقصود نفي السلطان ، أي آلهة لا سلطان في إشراكها ، فالبرهان الحق والسلطان الأبلج طريقه تبيين الله ، والآلهة الباطلة مستحيل أن يكون لها دليل أو برهان ، فالمراد نفى السلطان والنزول معاً مبالغة فــي نفــي الشريك بنفي لازمه بالطريق البرهاني كما نص عليه الشهاب (٤)

ومنه قوله تعالى : { وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ } (٥)فإن قتلهم النبيين لايكون إلا بغير حق ، ومثله قوله تعالى : { رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ترونها } (٦) { فإنها لا عمد لها أصلاً } (٧)

نفي الشيء لنفي ثمرته :-

يقول السيوطي ((قد ينفى الشيء أصلاً لعدم كمال وصفه أو إنتفــاء ثمرته)) (٨) ، وذلك أن الشيء إذا فقد ثمرته كان نفيه أولى من إثباته ، بيد أنه قد يثبت الفعل ثم ينفيه في سياق واحد ، والإثبات هنا لصورة الفعل فحسب وشكله

---

(١) المؤمنون " ١١٧ " وانظر البرهان ٤٣٠/٢ والاتقان ٢٣١/٣ ومعترك الأقران ٤٢٧/١ .

(٢) الأنعام " ٣٨ " وانظر البحر المحيط ٤٢٥/٦ وحاشية الشهاب ٣٥٠/٦ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية " ١٥١ " .

(٤) راجع الكشاف ٤٧٠/١ والبحر المحيط ٧٧/٣ وحاشية الشهاب ١٦٥/٣ والاساليب الإنشائية ص ٩٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ١ " .

(٦) سورة الرعد ، الآية " ٢ " .

(٧) انظر البرهان ٤٣٠/٢ ومابعدها والاتقان ٢٣١/٣ ومعترك الأقران ٤٢٧/١ .

(٨) أنظر الاتقان ٢٣١/٣ ومعترك الأقران ٤٢٧/١ .

دون فحواه كقوله تعالى في صفة أهل النار { لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ } (١) نفى عنه الموت لأنه ليس بموت صريح .

ومنه قوله تعالى { وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ } (٢) .

يقول الزمخشري : ((فإن قلت كيف أثبت لهم الأيمان في قوله { وإن نكثوا أيمانهم } ثم نفاها عنهم ؟ قلت : أراد أيمانهم التى أظهروها ثم قال لا أيمان لهم على الحقيقة ، وأيمانهم ليست بأيمان)) (٣) وعلى هذا ((فقد أثبت لهم أيماناً نفاها عنهم على وجه التأكيد لأنهم نقضوها نقضاً بعد توثيقها وتأكيدها ، وتأمل موقع " من " الدالة على تثبيت العهد والإقامة عليه زمناً ، ومن ثم يكون هذا النقض أدخل في باب الإجرام والقبح)) (٤)

ومنه قوله تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَاشَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } (٥) في هذه الآية الكريمة أثبت لهم العلم أولاً ثم نفاه عنهم بقوله { لو كانوا يعلمون } على وجه التوكيد .

ومنه قوله تعالى : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ } (٦) أثبت في هذه الآية الكريمة الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذي لايطيقه البشر فعل الله عز وجل ، فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة وكأنها لم توجد من الرسول صلى الله عليه وسلم أصلاً] (٧).

---

(١) سورة الأعلى ، الآية " ١٣ " .
(٢) سورة التوبة ، الآية " ١٢ " .
(٣) الكشاف ٢ / ١٧٧ .
(٤)" الأساليب الإنشائية ص ٩٨ .
(٥) سورة البقرة "١٠٢" وراجع الآية في الكشاف ٣٠٢/١ ومفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور ص ١٧٢ والإيضاح ٩١/١ ومابعدها والاتقان ٢٣١/٣ ومعترك الأقران ٤٢٨/١ وبغية الإيضاح ٤٤/١ والأساليب الإنشائية ص ٩٩ .
(٦) سورة الأنفال ، الآية " ١٧ " .
(٧) الكشاف ٢ / ١٥٠ .

قضية النهي عن الكون على صفة في القرآن الكريم :

النهي في القرآن الكريم قسمان لا ثالث لهما ، إما أن يكون نهياً صريحاً مباشراً نحو قوله تعالى على لسان لقمان يعظ ابنه { ... يَا بُنَيَّ لَاتُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } (١) وإما أن يكون نهياً عن الكون على صفة من الصفات وهو أبلغ من النهي الصريح المباشر من ذلك قوله تعالى { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين } (٢)

والواقع أن النواهي الصريحة - القسم الأول - في القرآن الكريم جاءت في مقامات التشريع والآداب والأخلاق التى دعا القرآن المسلمين إلى اتباعها والتمسك والتحلى بها ، وهي أكثر النواهي في القرآن منها قوله تعالى :

{ وَلَاتَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلَاتَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً. إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرَاً بَصِيرَاً.وَلَاتَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً. وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً.وَلَاتَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهَ إِلَا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَايُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً.وَلَاتَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً } (٣)

أما النهي عن الكون على صفة فقد جاء في مقامات تحتاج قدراً من التأكيد والمبالغة ، وهذا ماصرح به الدكتور صباح دراز حيث يقول ((وهذا للقصد إلى التأكيد والمبالغة وإنما يكون هذا في مقامات يتطلب النهي عن الكون على صفة دون النهي عن نفس الصفة)) (٤)

---

(١) سورة لقمان ، الآية " ١٣ " .

(٢) سورة الروم ، الآية " ٣١ " .

(٣) الإسراء الآيات " ٣٩ - ٣٤ " .

(٤) الأساليب الإنشائية ص ٩٠ .

وقد كثر في القرآن النهي عن الكون على صفة من الصفات حيث جاء في اثنين وثلاثين موضعاً (١) . وهي كثيرة في ذاتها قليلة بالإضافة إلى النهي المباشر الصريح .

وقد أشار أبوحيان إلى أسرارها البلاغية عند تفسير قوله تعالى { الحق من ربك فلا تكونن من الممترين } (٢) حيث يقول ((نهي أن يكون منهم ، والنهي عن كونه منهم أبلغ من النهي عن نفس الفعل فقولك " لا تكن ظالماً " أبلغ من قولك "لاتظلم " لأن " لاتظلم " نهي عن الالتباس بالظلم ، وقولك " لاتكن ظالماً " نهي عن الكون بهذه الصفة ، والنهي عن الكون على صفة أبلغ من النهي عن تلك الصفة إذ النهي عن الكون على صفة يدل بالوضع على عموم الأكوان المستقبلة على تلك الصفة ويلزم من ذلك عموم تلك الصفة ، والنهي عن الصفة يدل بالوضع على عموم تلك الصفة ، وفرق بين مايدل على عموم ويستلزم عموماً وبين مايدل على عموم فقط ، فلذلك كان أبلغ ، ولذلك كثر النهي عن الكون ...

والكينونة في الحقيقة ليست متعلق النهي والمعنى لاتظلم في كل أكوانك أي في كل فرد فر د من أكوانك فلا يمر بك وقت يوجد فيه منك ظلم فتصير " كان " فيه نصاً على سائر الأكوان بخلاف " لاتظلم ")) (٣)

وحين ننعم النظر في أساليب النهي عن الكون في الذكر الحكيم نجدها تتفاوت من حيث المخاطب والمتكلم على نحو مايتضح في الصفحات التالية :

أ - الرسول صلى الله عليه وسلم :-

أكثر أساليب النهي عن الكون في القرآن جاءت خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم تسلية وتثبيتاً وربطاً على قلبه الشريف ، فقد بلغ عدد الأساليب التي

---

(١) راجع المعجم المفهرس ص ٦٣٨ - ٦٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ١٤٧ " .

(٣) البحر المحيط ٤٣٦/١ ومابعدها وراجع دراسات لأسلوب القرآن القسم الأول جـ٢ ص ٥٢٠ وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ص ٤٧٩ ومابعدها والأساليب الإنشائية ص ٩٠ .

خوطب بها تسعة عشر أسلوباً (١) ، وقد جاءت على ثلاث صور نبه إليها صاحب الأساليب الإنشائية وهي : -

١- جاء النهي عن الكون بحذف النون من الفعل " يكن " في ثلاثة مواضع (٢) ، قال تعالى { فَلَاتَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّكَ } (٣) وقوله تعالى { فَلَاتَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ } (٤) وقوله تعالى { وَلَاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَاتَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } (٥) ونلحظ أن النهي عن الكون في هذه الايات جاء بحذف النون وهذا ((للدلالة على القلة الضئيلة فهو نهي عن التعرض لأدنى ضيق من مكر المشركين وخداعهم أو أدنى شك في بطلان عبادتهم)) (٦) .

٢ - جاء النهي مع إثبات النون من الفعل " يكن " في سبعة مواضع (٧) ، منها قوله تعالى { الْحَقُّ مِنْ رَبِّك فَلَاتَكُنْ مِن الْمُمْتَرِينَ } (٨) وقوله تعالى { وَاذْكُرْ رَبَّك فِيَ نِفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ } (٩) فالتعبير بقوله { لاتكن من الممترين } و { لاتكن من الغافلين } أبلغ من قولك لاتكن ممترياً ولاتكن غافلاً ، وقد نبه الزمخشري إلى سر هذا التركيب حيث يقول عند تفسير قوله تعالى { إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ } (١٠) يقول " من القالين " أبلغ من أن يقول إني لعملكم قال كما تقول

---

(١) انظر المعجم المفهرس ص ٦٣٨ – ٦٤٠ .
(٢) انظر المعجم المفهرس ص ٦٣٨ .
(٣) سورة هود ، الآية " ١٧ " .
(٤) سورة هود ، الآية " ١٠٩ " .
(٥) سورة النحل ، الآية " ١٢٧ " .
(٦) الأساليب الإنشائية ص ٩١ .
(٧) انظر المعجم المفهرس ص ٦٣٨ – ٦٤٠ .
(٨) سورة آل عمران ، الآية " ٦٠ " .
(٩) سورة الأعراف ، الآية " ٢٠٥ " .
(١٠) سورة الشعراء ، الآية "١٦٨" .

فلان من العلماء فيكون أبلغ من قولك فلان عالم لأنك تشهد له بكونه معدوداً في زمرتهم ...(١)

ومنها أعني ومن أساليب النهي عن الكون التي خوطب بها النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى { وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ } (٢) وقوله تعالى { كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }. (٣)

في هذه الآية الأخيرة توجه النهي إلى الحرج مع أن المراد نهيه صلى الله عليه وسلم للمبالغة في تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن الشك فيما ذكر فإن النهي عن الشيء مما يوهم إمكان صدور المنهي عنه عن المنهي وإما للمبالغة في النهي فإن وقوع الشك في صدره عليه الصلاة والسلام سبب لاتصافه به ، والنهي عن السبب نهي عن المسبب بالطريق البرهاني ونفي له من أصله بالمرة كما قال أبو السعود . (٤)

وقد فسر الزمخشري الحرج بالشك حيث يقول : ((أي شك منه ... وسمى الشك حرجاً لأن الشاك ضيق الصدر حرجه كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه أي لاتشك في أنه منزل من الله ولاتحرج من تبليغه)) (٥) .

أما الرازي فقد ذكر في تفسير الحرج وجهين هما الضيق ، والشك (٦) ، وضعف أبوحيان هذه الآراء وقال ((وإن صح هذا عن ابن عباس فيكون مما توجه فيه الخطاب إليه لفظاً وهو لأمته معنى أي ولايشكوا بأنه من عندالله))(٧)

---

(١) انظر الكشاف ١٢٥/٣ وراجع حاشية الشهاب ٧١/٤ والأساليب الإنشائية ص٩٣

(٢) سورة القلم ، الآية "٤٨" .

(٣) سورة الأعراف ، الآية " ٢ " .

(٤) تفسير أبي السعود ٢ / ٢١٨ .

(٥) الكشاف ٦٥/٢ ومابعدها .

(٦) انظر التفسير الكبير ١٨/١٤ .

(٧) البحر المحيط ٤ / ٢٦٦ .

" وهو نظير قولهم لاأرينك ههنا ففي الظاهر للمتكلم وفي الواقع للمخاطب أي لاتكن ههنا بحيث أراك إذ الرؤية مترتبة على الوجود في المكان ففيه كناية ففي قوله { فلا تكن في صدرك حرج } كناية مترتبة على كناية والمعنى لو كان الحرج مما ينهى عنه لنهيناك عنه فلا تتعرض له ضيقاً أوشكاً أو غيرهما كالخوف (١) ، وفيه تنزيه للنبي صلى الله عليه وسلم عن النهي المباشر لأن ثم مايزيله ويكون سبباً لشرح الصدر وطمأنينة القلب وهو القرآن العظيم(٢) .

ومنه قوله تعالى تسلية للرسول الكريم وتسرية إعراض المشركين عن دعوته { وَلَاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَاتَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } (٣) ونظيرها قوله تعالى{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلَاتَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَاتَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ } (٤) فهذه الاية نزلت تصبر النبي والمؤمنين في شهداء أحد وفي مقدمتهم عمه حمزة بن عبدالمطلب وقد ملأ الحزن والأسى القلوب فنزلت تسلي النبي وأصحابه والمقام رفيف حزين وقد حذفت النون مبالغة في التسلية وبياناً لتركه أدنى ضيق مما يمكر به المشركون (٥) .

أما الآية الأولى ونظائرها فقد جاء الفعل فيها على الأصل " يكن " بثبوت النون تلاؤماً وتناسباً مع السياق الذي جاءت فيه .

٣ - جاء فعل الكون مؤكداً بالنون ملائمة لمقامه وخصوص سياقه حيث جاء في تسعة مواضع (٦) ، منها قوله تعالى بعد آيات تحويل القبلة { الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } (٧) ليس المراد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر البحر المحيط ٤ / ٢٦٦ .

(٢) الأساليب الإنشائية ص ٩١ ومابعدها .

(٣) سورة النمل ، الآية " ٧٠ " .

(٤) سورة النحل ، الآية " ١٢٧ " .

(٥) الأساليب الإنشائية ص٩٢ وراجع البرهان في توجيه متشابه القرآن ص ١١٥ .

(٦) راجع المعجم المفهرس ص ٦٣٩ .

(٧) سورة البقرة ، الآية " ١٤٧ " .

عن الشك لأنه غير متوقع منه ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يكون ممترياً وإنما هو من باب الإلهاب والتهييج ، فهو نهي عما يوقع في الريب والشك باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ . (١)

وتلحظ أن النهي في هذه الآية جاء مؤكداً بالنون لأنه صلى الله عليه وسلم ووجه بحملة تشكيك – على حد التعبير المعاصر كما يقول بعض الباحثين – من اليهود والمنافقين وهم مزدوج فكان الحسم وتأكيد النهي . (٢)

ومنه قوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَاتَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ}(٣) بعد أن ذكر أبو حيان الآراء العديدة التي تجعل الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ردها في حزم وجعل الخطاب للسامع على العموم ، وهذا كلامه بإيجاز والذي أختاره أن هذا الخطاب ليس للرسول وذلك أنه تعالى قال ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فهذا إخبار وعقد كلي أنه لايقطع في الوجود إلا ما شاء وقوعه ولا يختص هذا الإخبار بهذا الخطاب بالرسول لأنه عالم بمضمونه مأمور بتبليغه فالخطاب للسامع دون الرسول فكأنه قيل ولو شاء الله أيها السامع الذي لا يعلم أن ماوقع في الوجود بمشيئة الله جمعهم على الهدى لجمعهم عليه فلا تكونن أيها السامع من الجاهلين . (٤)

ومنه قوله تعالى : { وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)}.

يقول الزمخشري : ((أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله ، ويجوز أن يكون على طريق التهييج والإلهاب كقوله :

---

(١) راجع تفسير أبي السعود ٢٨٣/١ .
(٢) الأساليب الإنشائية ص٩٣ وراجع البرهان في توجيه متشابه القرآن ص ٤٧ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية " ٣٥ " .
(٤) انظر البحر المحيط ١١٦/٤ وراجع الأساليب الإنشائية ص ٩٣ .
(٥) سورة يونس ، الآية " ٩٥ " .

{ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ. وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ } .(١) ولزيادة التثبيت والعصمة)) (٢) .

ب - نوح عليه السلام وابنه :-

ورد النهي عن الكون في القرآن الكريم على لسان نبي الله نوح عليه السلام خطاباً لابنه قال تعالى : { وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَاتَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ } (٣) " فجملة " يابني اركب معنا " بيان لجملة " ونادي نوح " وهي إرشاد له ورفق به ، أما جملة " ولاتكن من الكافرين " فهي معطوفة على الجملة السابقة لإعلامه بأن إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكافرين ، إذ لايكون إعراضه عن الركوب إلا أثراً لتكذيبه بوقوع الطوفان " (٤) وقد عبر نوح عليه السلام بقوله { ولاتكن مع الكافرين } دون قولنا " ولاتكن من الكافرين " وذلك تصويراً وتجسيداً لخوفه وهلعه على ابنه وتنفيراً له من أن يكون في زمرة الكافرين ، واستمالة له في أن يكون معه لا مع الكافرين الذين حق عليهم العذاب .

جـ - الملائكة وإبراهيم الخليل عليه السلام :-

ورد النهي عن الكون في القرآن على ألسنة الملائكة خطاباً لإبراهيم عليه السلام في قوله تعالى { قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ } (٥)

لما كان ابراهيم عليه السلام منزهاً عن القنوط من رحمة الله جاء خطابهم غاية في الأدب تشريفاً له وإحتراماً لقدره ، حيث نهوه عن أن يكون من زمرة

---

(١) سورة القصص " ٨٦ - ٨٧ " .
(٢) الكشاف ٢ / ٢٥٣ .
(٣) سورة هود ، الآية " ٤٢ " .
(٤) التحرير والتنوير ٧٦/١٢ .
(٥) سورة الحجر ، الآية " ٥٥ " .

القانطين تحذيراً له مما يدخله في تلك الزمرة المتصفة بالقنوط من رحمة الله تعالى . (١)

د - شعيب عليه السلام وقومه :-

ورد النهي عن الكون في القرآن الكريم على لسان نبي الله شعيب عليه السلام خطاباً لقومه في قوله تعالى { أَوْفُواْ الْكَيْلَ وَلَاتَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ } (٢) .

قبل هذه الآية بدأ شعيب عليه السلام بما بدأ كل رسول قومه إلى عبادة الله وحده ، وفي هذه الآية أخذ يواجههم بما هو من خاصة أمورهم فأمرهم بإيفاء الكيل وأكده بقوله { ولاتكونوا من المخسرين } وهو أبلغ من قولنا " ولاتكونوا مخسرين " لأنه يدل على الأمر بالتبرؤ من أهل هذا الصنيع (٣) .

هـ - المؤمنـــون :-

جاء النهي عن الكون في القرآن خطاباً للمؤمنين في ثمانية مواضع (٤) ، تحذيراً لهم من التشبه بالضالين من الأمم السابقة ومن المشركين والمنافقين ، وتجريداً للإيمان الخالص وإقامة للخلق الإسلامي الرفيع وتربية للشخصية الإسلامية في إطار النظرة الإسلامية العامة للسلوك السوي (٥) ، وفي هذه الأساليب يظهر بوضوح - كما أشرنا من قبل - معنى الإلهاب والتهييج ، من ذلك قوله تعالى { وَلَاتَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (٦) وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) راجع التحرير والتنوير ٦٠/١٤ .
(٢) سورة الشعراء " ١٨١ - ١٨٢ " .
(٣) راجع التحرير والتنوير ١٨٤/١٩ وفي ظلال القرآن المجلد الخامس ص ٢٦١٥ .
(٤) انظر المعجم المفهرس ص ٦٣٩ .
(٥) انظر الأساليب الإنشائية ص ٩٤ .
(٦) سورة آل عمران ، الآية " ١٠٥ " .

لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا..} (١) وقوله تعالى : { ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون } (٢) وقوله تعالى : { ولاتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً } (٣) إلى آخر هذه الأساليب ، ولعلك تلحظ معي أن التشبيه في هذه الآيات منفي أو مسلوب والطرفان من ألوان الطباق المتقابل بين الشخصيات المتصفة بصفات متقابلة تصويراً وترغيباً وترهيباً كما صرح بذلك الدكتور صبّاح دراز . (٤)

كما جاء النهي عن الكون دون تشبيه في قوله تعالى { منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين. من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون } (٥) ، فالنهي في هذه الآية للإلهاب والتهييج جيء به توكيداً للأمر بالتقوى وإقامة الصلاة ، وفيه إيحاء وإيماء بأن في التقوى والصلاة لله وحده الوسيلة والغاية دون هذا التفرق الغريب بين المشركين الذين تفرقوا شيعاً وتباينت عقائدهم من شرك وكفر وإلحاد (٦) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ١٥٦ " .

(٢) سورة الأنفال ، الآية " ٢١ " .

(٣) سورة النحل ، الآية " ٩٢ " .

(٤) الأساليب الإنشائية ص ٩٤ .

(٥) سورة الروم " ٣١ - ٣٢ " .

(٦) أنظر الأساليب الإنشائية ص ٩٤ .

الباب الثالث

النسق في توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم

و

أسراره البلاغية

المدخل

جاءت أساليب الأمر والنهي في القرآن في تواليها على صور مختلفة ، فقد يتبع الأمر بأمر أو نهي ، وقد يأتي النهي قبل الأمر أو يتلوه نهي آخر ، ومن هنا تتنوع المعالجة حسب هذه الصور ، ولا شك أن المقام والغرض من وراء هذا التنوع مما نبه إليه الإمام عبد القاهر في أسرار النظم مما يدخل تحت التلائم والتناسب بين الكلم أو الجمل .

قال عبد القاهر : ((وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى : { وَقِيلَ يَآ أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِين } (١) ، فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ماوجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها ، وأن الفضل تناتج مابينها وحصل من مجموعها؟

إن شككت فتأمل : هل ترى لفظة منها بحيث لو أُخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية ؟)) (٢)

---

(١) سورة هود ، الآية (٤٤)

(٢) دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود محمد شاكر ص ٤٥

الفصل الأول

توالي أساليب الأمر في القرآن الكريم

و

بلاغة ذلك

إجتماع أساليب الأمر وتواليها وتقديم بعضها على بعض في القرآن الكريم يخضع لأسباب بلاغية راقية ، وقد نبه العلماء بوجه عام إلى أسرار التقديم ، وتقديم بعض الكلم على بعض بل والجمل كالسهيلي والزركشي والسيوطي وغيرهم .

وننبه هنا إلى أن ماذكروه من أسباب للتقديم ، كالتقديم بالطبع أو الفضل أوالسبق ليس ضربة لازب ، وليس منهجاً مُلْتَزَماً فقد يكون هناك سبب آخر للتقديم أقوى من التقدم بالطبع أو غيره ، ويدخل في المتشابه القرآني الذي احتفى به جمهرة من العلماء كالإسكافي والكرماني والفيروزأبادي والرازي .

وصفوة القول إننا نضع الأساليب نصب أعيننا ثم نلتمس لتقدم بعضها على بعض سبباً قريباً .

كما أن العلل لاتتزاحم كما يقولون ، فقد تجتمع أسباب عدة لهذا التقديم ، وقد آثرنا تنزيل الترتيب بين الأوامر حسب الدواعي والأسباب البلاغية المتعالمة عند العلماء على نحو ما يتبين لك في الصفحات القادمة ، ونرجو من الله التوفيق والعون.

١ - التقدم حسب ترتيب الأفعال في الصلاة والوضوء :

من ذلك قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (١)

في هذه الآية الكريمة أمر الله سبحانه أولا بالركوع ، ثم بالسجود والترتيب في هذين الأمرين واضح ومعلوم حيث جاء وفقا لترتيب الأفعال في الصلاة ، ثم انتقل من الخاص إلى العام وهو الأمر بالعبادة مطلقا ، ثم عم بالحث على فعل الخير .

---

(١) سورة الحج ، الآية (٧٧)

(٢) راجع بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٢٦ ومابعدها ؛ ومن بلاغة القرآن ص ١١٥ .

ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ } (١) .

فترتيب الأوامر في هذه الآية قد روعي فيه الزمن أو الفعل والعمل حيث جاء وفقا لترتيب الوضوء الذي فصلته السنة النبوية الشريفة .

٢ - التقدم بالزمن :

من ذلك قوله تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٢) .

الترتيب في هذه الآية الكريمة قد روعي فيه الزمن مع الأهمية أيضا ، فالصلاة كما نعلم فرضت على المسلمين أولاً ثم فرضت الزكاة ، ولهذا جاء الترتيب وفقا لهذا النظام الدقيق .

ومنه قوله تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... } (٣)

فكل آية في القرآن فيها أمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فالأمر بإقام الصلاة مقدم على الأمر بإيتاء الزكاة ، لهذا السبب ولأنها أهم و أخطر لأن الصلاة عماد الدين (٤).

أما قوله تعالى : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } (٥) .

فقد أمر أولا بالصلاة ثم أمر بإيتاء الزكاة ، وترتيبهما جاء حسب الترتيب الزمني لكنه عاد سبحانه مرة أخرى إلى الأمر بالصلاة بقوله : { واركعوامع الراكعين }

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٦) ، وراجع من بلاغة القرآن ص ١١٥

(٢) سورة البقرة ، الآية (١١٠)

(٣) سورة النور ، الآية (٥٦)

(٤) انظر البرهان : ٢٣٥/٣ ؛ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٢٨

(٥) سورة البقرة ، الآية (٤٣)

فما السر في ذلك ؟

السر في ذلك أن الخطاب في هذه الآية موجه لليهود ، فمعنى [اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة] أي صلاة المسلمين وزكاتهم ، [واركعوا مع الراكعين] أي : واركعوا مع الراكعين منهم ، لأن اليهود لاركوع في صلاتهم ، ويجوز أن يراد بالركوع الصلاة كما يعبر بالسجود ، وأن يكون أمرا بأن تصلى مع المصلين ، يعني في الجماعة ، كأنه قيل: وأقيموا الصلاة وصلوها مع المصلين لا منفردين (١) .

فحينئذ ولهذا السر لايكون في الآية تكرار لأن الأمر أولا بالصلاة وثانيا بالصلاة في الجماعة اهتماما بها وحضا عليها (٢) .

ونضيف : يجوز أن يراد بالركوع الطاعة والخضوع والانقياد لأن هيئة الركوع استسلام وانقياد وخضوع لله تعالى ، فالمراد بالركوع مطلق الطاعة وليس المراد به الصلاة ، وحينئذ لا تكرار في الآية والله أعلم .

٣ - التقديم لعلو شأن المقدم والاهتمام به :

كما في قوله تعالى : [وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] (٣) .

جاء النسق على هذا الترتيب بتقديم طاعة الله على طاعة الرسول لعلو شأن المقدم والاهتمام به وتعظيمه ، فطاعة الله مقدمة على طاعة الرسول ، لأن طاعة الرسول منبثقة من طاعة الله ، فلهذا جاء النسق على هذا الترتيب المحكم السديد .

ومنه قوله تعالى : [قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْكَافِرِينَ] (٤) .

---

(١) انظر الكشاف : ٢٧٧/١

(٢) راجع بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني : ص ٢٧

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٣٢)

(٤) سورة آل عمران ، الآية (٣٢)

وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ... } (١) .

فترتيب الأوامر في هاتين الآيتين وتقديم بعضها على بعض جاء اهتماما بالمقدم لعلو شأنه وتعظيمه (٢) .

وهكذا كل آية فيها أمر بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم (٣) .

لكن لم كرر فعل الأمر { أطيعوا } في الآية الأخيرة ؟

كرر للاهتمام بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والتأكيد على وجوب طاعته ، و في هذا يقول الطاهر بن عاشور ((أعيد فعل " أطيعوا الرسول " مع أن حرف العطف يغني عن إعادته إظهارا للاهتمام بتحصيل طاعة الرسول لتكون أعلى مرتبة من طاعة أولي الأمر ، ولينبه على وجوب طاعته فيما يأمر به ، ... ولذلك لانجد تكريرا لفعل الطاعة في نظائر هذه الآية التي لم يعطف فيها أولوا الأمر مثل قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } (٤) وقوله تعالى : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا } (٥) { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } (٦) إذ طاعة الرسول منبثقة عن طاعة الله لأن الرسول هو المبلغ عن الله فلا يتلقى أمر الله إلا منه ، وهو منفذ أمر الله بنفسه ، فطاعته طاعة تلق وطاعة

---

(١) سورة النساء ، الآية (٥٩)

(٢) راجع من بلاغة القرآن : ص ١١٦

(٣) راجع بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني : ص ٢٨

(٤) سورة الأنفال ، الآية (٢٠)

(٥) سورة الأنفال ، الآية (٤٦)

(٦) سورة النور ، الآية (٥٢)

امتثال لأنه مبلغ منفذ بخلاف أولي الأمر فإنهم منفذون لما بلغه الرسول فطاعتهم طاعة امتثال خاصة)) (١)

٤ - التقديم بالشرف والفضل :

كما في قوله تعالى خطابا لمريم عليها السلام : { ... وَا سْجُدِي لِرَبِّكِ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ } (٢) .

أشرت الى أن الأمر بالركوع مقدم على الأمر بالسجود في القرآن ، بيد أنه يتقدم الأمر بالسجود على الأمر بالركوع كما في الآية السابقة وهذا لايكون إلا لإسرار بلاغية ولطائف بيانية .

والتقديم هنا للشرف والفضل لأن السجود أفضل من الركوع ، قال عليه الصلاة والسلام : ((أقرب مايكون العبد إلى الله إذا كان ساجدا)) (٣) .

ويضيف السهيلي قائلاً ((فإن قيل : فالركوع قبل السجود بالزمان وبالطبع والعادة ، لأنه انتقال من علو إلى انخفاض ، وا لعلو بالطبع قبل الانخفاض ، فهلا قدم في الذكر على السجود لهاتين العلتين ؟

فالجواب أن يقال لهذا السائل : انتبه لمعنى هذه الآية من قوله : { واركعي مع الراكعين } ، ولم يقل : { اسجدي مع الساجدين } ، فإنما عبر بالسجود عن الصلاة كلها وأراد صلاتها في بيتها ، لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل لها من صلاتها مع قومها .

---

(١) التحرير والتنوير : ٩٧/٥

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٤٣)

(٣) ورد هذا الحديث في صحيح مسلم الصلاة بلفظ " أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد " ٣٥٠/١ .

ثم قال لها : {واركعي مع الراكعين }أي : صلي مع المصلين في بيت المقدس (١) .

ونضيف أن المراد بالمعية في قوله : { مع الراكعين } المشاركة في مطلق الطاعة على نحو يوافق آداب التشريع الإلهي .

ومما قدم للشرف والفضل قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ } (٢).

ومنه قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } (٣)

فإن الصلاة أفضل من السلام ، فلهذا السبب قدم الأمر بالصلاة على الأمر بالسلام (٤).

ومن ذلك قوله تعالى : { يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } (٥) .

في هذه الآية الكريمة أوا مر عديدة بني بعضها على بعض بناءً محكماً ، والترتيب راجع إلى الشرف والفضل ، فلهذا قدم الأمر بالصلاة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولأبي حيان حول أسرار ترتيب الأوا مر في هذه الآية كلام طيب ، يقول : ((لما نهاه عن الشرك وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات ، فبدأ بأشرفها وهو الصلاة حيث يتوجه إليه بها ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم بالصبر على مايصيبه من المحن جميعها أو على مايصيبه بسبب الأمر بالمعروف ممن يبعثه عليه والنهي عن المنكر ممن ينكره عليه ...))(٦).

---

(١) نتائج الفكر : ص ٢٧٢ ؛ وراجع البرهان : ٢٤٥/٣

(٢) سورة المائدة ، الآية (٦) وراجع نتائج الفكر ص ٢٦٩ والبرهان ٢٥٦/٣

(٣) سورة الأحزاب ، الآية (٥٦)

(٤) البرهان : ٢٥٦/٣

(٥) سورة لقمان ، الآية (١٧)

(٦) البحر المحيط : ١٨٨/٧ ؛ وراجع التفسير الكبير : ١٤٩/٢٥ ومابعدها.

٥ - **التقديم بالطبع والعادة :**

من ذلك قوله تعالى : { كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } (١).

الترتيب في هذه الآية روعي فيه الطبع والعادة ، فإن الأكل مقدم على الشرب ، ولهذا جاء النسق على هذا الترتيب الذي لايصلح غيره ولايتم الجمال بدونه .

ومن قوله تعالى : { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ .... } (٢)

وقد توالى الفعلان { كلوا واشربوا } في البيان القرآني بتقديم الأكل على الشرب ولم يخرج عن هذا الترتيب (٣) .

والسر في ذلك متعالم - وقد بيناه فيما مضى - لايخفى على كل ذي لب .

٦ - **التقديم بالداعية او الرتبة او السببية :**

قد تجتمع أكثر من علة للتقديم في السياق الواحد ، كما في قوله تعالى : { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } (٤).

فهذه الآية الكريمة تصلح شاهدا لهذه العلل الثلاث ، فتقديم فعل السير على النظر إما لأن السير داعية إلى النظر ، وإما لأن السير مقدم بالرتبة على النظر ، وإما لأن السير سبب في النظر والتأمل في عواقب المكذبين من الأمم السابقة .

ومنه قوله تعالى : { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ }(٥) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٦٠)

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٨٧)

(٣) راجع المعجم المفهرس : ص ٣٧٧

(٤) سورة الأنعام ، الآية (١١)

(٥) سورة النمل ، الآية (٦٩)

٧ - **التقديم بالترقي والتدرج :**

والترقي والتدرج في الحدث الى أعلى حسب المقامات ، وفي هذا التدرج تظهر قدرة المولى سبحانه وحكمته البليغة ، حتى فى اوامر التشريع وتكاليفه روعي فيها مبدأ الخفة والتدرج ، وهي بلا شك تدل على حكمة الباري سبحانه ورحمته بعباده ، ولعل خير دليل يؤكد ويدل على مبدأ الخفة والتدرج في الأحكام الشرعية تحريم شرب الخمر فقد التزم القرآن في تحريمها منهجا تربويا فريدا حيث تدرج في تحريمها وكان تحريمها على مراحل كما هو مفصل في كتاب الله العزيز -

ومما قدم على حسب الترقي والتدرج قوله تعالى في علاج الزوجات : { **وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً** } (١) .

تبرز هذه الآية الكريمة الخطأ الذي تستحق المرأة بسببه العقاب ، وهذا مايكشف عنه التعبير بقوله : { واللاتي تخافون نشوزهن } ، ثم بينت الآية العلاج التربوي الناجع لهذه المشكلة حيث يتركز على ثلاث وسائل تتخذ للاصلاح ، ويلاحظ تدرجها من الأخف الى الأقوى او الضعف الى القوة ، فقد أمر سبحانه أولاً بوعظهن ، والمراد بها النصيحة بالقول ، ثم هجرانهن ان لم تفد الوسيلة السابقة ، ثم بضربهن ضربا غير مبرح ان لم ينجح فيهن الوعظ والهجران ، وهي أقصى مايملكه الرجل في تأديب زوجته حتى لاتتفكك الأسرة ولا تنهار نتيجة لهذا النشوز.

وقد جاءت الآثار الكثيرة تبين الضرب المباح بأن يكون غير مبرح ، وأن يتقي الوجه ، وألا يوالي الضرب في محل وا حد الى غير ذلك مما يجعل هذه العقوبة وسيلة للاصلاح لا للانتقام والتعذيب . (٢)

---

(١) سورة النساء ، الآية (٣٤)

(٢) راجع الكشاف ٥٢٤/١ ؛ والبحر المحيط ٢٤٢/٣ ؛ وفي ظلال القرآن - المجلد الثاني ص ٦٥٣ ومابعدها؛ وأسلوب الدعوة القرآنية ص ٢٥٨ - ٢٦٠ ، وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٢٤ .

فالترتيب في هذه الآية مراعىً فيه مبدأ التدرج من الضعف إلى القوة بحيث لايمكننا أن نقدم بعضها على بعض لأن سنة التدرج في عقاب الزوجات لاتقتضي غير هذا الترتيب الدقيق ، فانظر إلى جمال القرآن في دقة نظمه وحسن رصفه والتئام كلمه.

ومنه قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (١) .

يقول أبو حيان : ((أمر أولا بمطلق الصبر ثم بخاص من الصبر وهو المصابرة على الجهاد في سبيل الله تعالى وقتال أعدائه ثم بالرباط وهو الإقامة في الثغور رابطين الخيل مستعدين للغزو)) (٢) .

وترتيب الأوامر في هذه الآية جاء على حسب التدرج حيث أمر سبحانه بالصبر على الدين وتكاليفه ، ثم بالمصابرة والمراد بها مغالبة أعداء الجهاد ، أي غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب لاتكونوا أقل صبرا منهم وثباتا ، والمصابرة باب من الصبر ذكر بعد الصبر على مايجب الصبر عليه تخصيصا لشدته وصعوبته ، ثم أمر بالمرابطة أي أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو (٣).

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٢٠٠)

(٢) النهر الماد من ا لبحر المحيط : ١٤٨/٣

(٣) انظر الكشاف : ٤٩١/١ ؛ وبلاغة الأمر وا لنهي في النسق القرآني ص ٢٥.

٨ - التقديم في القصص القرآني :

تخضع قصص القرآن الكريم في موضوعها وطريقة عرضها وتسلسل احداثها وبما لها من سمات فنية أخرى للأهداف والأغراض الدينية ، حيث جاءت في قالب فني وبتعبير دقيق محكم يأخذ بمجامع القلوب ويثير العواطف ويحرك النفوس البشرية إلى هذه الأهداف المبتغاة من وراء عرض القصة القرآنية .

وقد لاحظت أن اساليب الأمر الواردة في القصص القرآني جاءت مرتبة ترتيبا زمنيا وفقا لوقوع الأحداث وتواليها .

من ذلك مانراه في قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (١).

لاشك أن ترتيب الأوامر والأفعال في هذه الآية الكريمة جاء مرتبا على حسب وقوع الأحداث .

فقدبدأ إبراهيم عليه السلام بالدعاء والطلب ثم استجاب له ربه عزّ وجل فقال له على هذا النحو خذ أولا أربعةمن الطير ، ثم صرهن اليك اي اضممهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم بعد ذلك ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيزحكيم

وهذه الآية تبين عظيم قدرة الله تعالى وحكمته ونفاذ أمره في مخلوقاته سبحانه وتعالى علوا كبيرا .

ومنه قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام خطابا للهدهد : { اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ } (٢)

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٦٠)

(٢) سورة النمل ، الآية (٢٨)

جاءت الأوامر في هذه الآية الكريمة مرتبة ترتيبا زمنيا حسب وقوع الأحداث ، فقد أمر سليمان عليه السلام الهدهد بأمور جاءت متلاحقة متتالية زمنيا حيث أمره أولا بقوله : { إذهب بكتابي } وليس هذا فحسب بل أمره بإيصال الرسالة وإلقائها إليهم ، ((فألقه اليهم)) وتلى هذه المرحلة مرحلة التولي والتواري في مكان قريب يستطيع منه أن يسمع مايدور بينهم لينقله لسليمان عليه السلام (١) { ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون } .

وتأمل قوله تعالى في قصة أصحاب الكهف : { ... فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً } (٢).

لا شك أننا لا نستطيع تقديم أمر على آخر لأن في ذلك إخلالا لترتيب الأحداث وتسلسلها.

وقد جاءت الأوامر في هذه الآية مرتبة ترتيبا زمنيا وفقا لوقوع الأحداث على نحو ماينبىء عنه السياق حيث تشاوروا فيما بينهم فبعثوا أحدهم إلى المدينة ليجلب لهم الطعام ونصحوه بل ألحوا عليه أن يتوخى الحذر وا لحيطة خوفا من أن يفتضح أمرهم وينكشف سرهم .

فانظر إلى هذه الدقة التي لانجدها بهذه الدرجة في كلام آخر غير القرآن الكريم وهذا سر من أسرار إعجازه .

---

(١) راجع في الآية الكشاف : ٣/ ١٤٥ ومابعدها ؛ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٢٦ .

(٢) سورة الكهف ، الآية (١٩) .

الفصل الثاني

توالي أساليب النهي في القرآن الكريم

و

سره البلاغي

إجتماع أساليب النهي في القرآن الكريم وترتيبها على نسق خاص جاء في أساليب يسيره محدودة ، لأن النهي لايكاد ينفك عن الأمر أو يستقل بنفسه إلا قليلاً .

وأساليب النهي في القرآن الكريم على قلتها تكاد تكون محصورة فيمايلى :-

أولاً :- أن تأتي أساليب النهي على سبيل الاستقلال كل نهي يعبر عن معنى مستقل كما في قوله تعالى { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَتَقْتُلُوا أَوْلاَدكُم مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَتَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ وَلاَتَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلاَتَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ... } (١)

ترتيب النواهي في هذه الآيات الكريمات جاء على نسق وترتيب لاتبديل لكماته ، فكل نهي يعبر عن كبيرة من الكبائر التي حرم الله ارتكابها ، وقد نظمت هذه الكبائر على حسب خطورتها ، فبدأ الحق سبحانه أولاً بالنهي عن الشرك لأنه أخطرها وأكبر الكبائر ، ثم عطف عليه الأمر بالإحسان إلى الوالدين وذلك للإهتمام الشديد بهما ولتوفير الرعاية لهما على أكمل وجه ، وكما وصى الأبناء بالآباء وصى الآباء بالأبناء بقوله " ولاتقتلوا أولادكم من إملاق " ثم عطف عليه النهي عن عموم الفواحش بقولـــه { ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن } .

وتعليق النهي بقربانها إما للمبالغة في الزجر عنها لقوة الدواعي إليها ، وإما لأن قربانها داع إلى مباشرتها (٢) ، وقد أشرت في موضع سابق إلى أن النهي عن قربان الفعل أبلغ من النهي عن الفعل نفسه .

ثم عطف النهي عن قتل النفس على الرغم من أنه مندرج تحت عموم الفواحش لما فيه من وحشية وتعد على الكيان البشري الذي هو صنعه الخالق سبحانه .

---

(١) سورة الأنعام ، الآيتين " ١٥٠ - ١٥٢ " .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢/٢٠٣ .

والتعبير بقوله ((التي حرم)) حواله على سبق العهد في تحريمها فلذلك وصفت بالتي ، والنفس المحرمة هي المؤمنة والذمية والمعاهدة ، وبالحق أي بالسبب الموجب لقتلها كالقصاص والردة وغير ذلك . (١)

ثم عطف على النهي السابق عن قربان مال اليتيم بقوله { ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن } حيث خص اليتيم - على الرغم من أن أموال الناس ممنوع من قربانها لايجوز أخذها بالباطل - لأن الطمع فيه أكثر لضعفه وقلة مراعاته . (٢)

فتأمل هذا التركيب الدقيق حيث رتبت النواهي في هذا السياق القرآني حسب خطورتها وأهميتها .

ونظيره قوله تعالى { وَلَاتَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً وَلَاتَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً وَلَاتَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً وَلَاتَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً } (٣)

جاءت أساليب النهي في هذا النظم القرآني مرتبة حسب خطورتها لانستطيع تقديم بعضها على بعض .

ومنه قوله تعالى إرشاداً وتاديباً للمؤمنين { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَاتَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَاتَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .} (٤)

---

(١) انظر البحر المحيط ٤ / ٢٥٢ .

(٢) السابق الموضع نفسه .

(٣) سورة الإسراء ، الآيتين " ٣١ - ٣٤ " .

(٤) الحجرات " ١١ " والآية التي تليها .

ثانياً : أن يأتي النهي توكيداً لنهي سابق عليه :-

كما في قوله تعالى على لسان لقمان يعظ ابنه { وَلَاتُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَاتَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } (١)

في هذه الآية الكريمة في قوله { لاتمش في الأرض } توكيدٌ للنهي السابق : { لاتصعرخدك للناس } أي أقبل على الناس بوجهك تواضعاً لهم ولاتولهم صفحة وجهك كما هو ديدن المتكبرين . (٢)

كما أن التعبير بقوله (إن الله لايحب كل مختال فخور) تعليل للنهيين ، فتكرار النهي مع التعليل يبين شناعة هذا الكبر فلايليق بالانسان أن يتكبر ويتعالى على الناس .

ثالثاً : جاء النهي بعد النهي في صورة طريفة للتعبير معاً عن فكرة واحدة وهي الدعوة إلى الاعتدال والتوسط فإن خير الأمور أوساطها كما يقولون .

كما في قوله تعالى { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةًإِلَى عُنُقِكَ وَلَاتَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً } (٣)

تضمن النهيان في هذه الآية في قوله { لاتجعل يدك إلى عنقك } { ولاتبسطها كل البسط } دعوة إلى الاعتدال والتوسط في الانفاق الذي هو بين الإسراف والتقتير . (٤)

فتأمل هذا النظم الدقيق كيف تعانق فيه النهيان وكمل أحدهما الآخر لإبراز هذا المعنى الفريد .

ومنه قوله تعالى خطاباً لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم { وَلَاتَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ

---

(١) سورة لقمان ، الآية :" ١٨ " .

(٢) انظر الكشاف ٢٣٤/٣ وتفسير أبي السعود ٣٧٨/٤ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية " ٢٩ " .

(٤) راجع الكشاف ٤٤٧/٢ والتحرير والتنوير ٨٤/١٥ ومابعدها .

ولا تُخَافِت بِهَا وابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً } (١) .

فالأمر في قوله { وابتغ بين ذلك } يبين المقصود من النهيين وهو التوسط والاعتدال ، أي ابتغ بين الجهر والمخافتة في الصلاة " سبيلاً " أمراً وسطاً فإن خير الأمور أوسطها(٢)

فانظر إلى إحكام النظم القرآني ودقته كيف أفاد النهيان هذا المعنى في تعبير محكم دقيق يعد آية من إعجاز القرآن الكريم .

وقد اقتضت طبيعة المنهج أن يكون هذا الفصل على هذا النحو لقلة أساليب النهي في القرآن الكريم بالإضافة إلى الأمر .

ويبدو أن السر في كثرة الأوامر وقلة النواهي في القرآن الكريم هو حاجة النفس الإنسانية دائماً إلى قدر أكبر من التوجيهات الآلهية فلهذا السبب كثرت الأوامر وقلت النواهي في القرآن والله أعلم .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية " ١١٠ " .

(٢) راجع الكشاف ٢/٤٧٠ وتفسير أبي السعود ٣/٤٩٠ وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٢٥٤ .

الفصل الثالث

توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم

و

أسراره البلاغية

تجتمع أساليب الأمر والنهي وتتوالى في القرآن الكريم فتأتي في ترتيب عجيب ونسق محكم دقيق لاتبديل لكلماته .

فقد يتقدم الأمر ويتلوه نهي يؤكد مضمونه ، وتارة يتقدم النهي فيأتي الأمـر توكيـداً له .

وهذا لايكون إلا في المقامات الخطيرة التي تحتاج قدراً من التأكيد والعناية والاهتمام .

وقد نبه علماؤنا رحمهم الله وخاصة أبا حيان إلى أسرار ترتيب الأوامر والنواهي في النسق القرآني ، فكانت له لفتات بارعة لو تابعها العلماء بعده لأثرت البحث البلاغي القرآني ، منها قوله في تفسير قوله تعالى { وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَاتَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَاتَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ، وَلَاتَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ } (١) ((يقول (وفي هذه الجمل - وإن كانت الواو لاتقتضي في الوضع ترتيباً - ترتيب عجيب من حيث الفصاحة وبناء الكلام بعضه على بعض)) (٢) وقوله ((وقد تقدم لنا الكلام على أنه إذا كان أمر أو نهي بدىء بالأمر وذكرنا الحكمة في ذلك)) (٣)

ولعل إشارة أبي حيان كانت مفتاح خير ونقطة بدء إنطلق منها بعض المحدثين فادلوا بدلوهم فى هذه القضية ، وكان لهم جهد مبارك مشكور . (٤)

وتخضع أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم في ترتيبها وتواليها لدقة خارقة وترتيب محكم دقيق .

فالغالب أن يأتي النهي بعد الأمر وقد يحدث العكس فيتقدم النهي على الأمر

---

(١) سورة البقرة ، " ٤١ ، ٤٣ "

(٢) البحر المحيط ١٨١/١ .

(٣) المصدر السابق ٤٤٧/١

(٤) راجع الأساليب الإنشائية ص ٨١ - ٨٢ .

والحاكم في ذلك طبيعة الغرض والمقام (١) على مانوضحه في الصفحات التالية ونرجو من الله التوفيق والتيسير .

١ - بنو اسرائيل :-

قال تعالى خطاباً لبنى إسرائيل { يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ، وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلاتَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاتَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ، وَلاتَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } (٢) .

يقول أبو حيان ((وفي هذه الجمل وإن كانت معطوفات بالواو التي لاتقتضي في الوضع ترتيباً ترتيب عجيب من حيث الفصاحة وبناء الكلم بعضه على بعض ، وذلك أنه تعالى أمرهم أولاً بذكر النعمة التى أنعمها عليهم إذ في ذلك مايدعو إلى محبة المنعم ووجوب طاعته ثم أمرهم بإيفاء العهد الذي التزموه للمنعم ثم رغبتهم بترتيب إيفائه هو تعالى بعهدهم في الإيفاء بالعهد ثم أمرهم بالخوف من نقماته إن لم يوفوا فاكتنف الأمر بالايفاء أمر بذكر النعمة والاحسان وأمر بالخوف من العصيان ، ثم أعقب ذلك الأمر بإيمان خاص وهو ما أنزل من القرآن ورغب في ذلك بانه مصدق لما معهم فليس أمراً مخالفاً لما في أيديهم لأن الانتقال من الموافق أقرب من الانتقال إلى المخالف ، ثم نهاهم عن استبدال الخسيس بالنفيس ، ثم أمرهم تعالى باتقائه ، ثم أعقب ذلك بالنهي عن لبس الحق بالباطل وعن كتمان الحق فكان الأمر بالإيمان أمراً بترك الضلال والنهي عن لبس الحق بالباطل وكتمان الحق تركاً للضلال ، ولما كان الضلال ناشئاً عن أمرين إما تمويه الباطل حقاً إن كانت الدلائل قد بلغت المستتبع وإماعن كتمان الدلائل إن كانت

(١) راجع الأساليب الإنشائية ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآيتين " ٤٠ ، ٤٣ " .

لم تبلغه ، أشار إلى الأمرين بلاتلبسوا وتكتموا ثم قبح عليهم هذين الوضعين مع وجود العلم ثم أمرهم بعد تحصيل الإيمان وإظهار الحق بإقام وإيتاء الزكاة اذ الصلاة أكد العبادات البدنية والزكاة أكد العبادات المالية ، ثم ختم ذلك بالأمر بالانقياد والخضوع له تعالى مع جملة الخاضعين الطائعين ، فكان افتتاح هذه الآيات بذكر النعم واختتامها بالانقياد للمنعم وما بينها من تكاليف اعتقادية وأفعال بدنية ومالية ، وبنحو ماتضمنته هذه الآيات من الافتتاح والارداف والاختتام يظهر فضل كلام الله على سائر الكلام " (١)

٢ - المسلموع :-

أ - في العبادة :-

قال تعالى { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَاتُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } (٢)

فالنهي في قوله { ولاتشركوا } جاء توكيداً للأمر بعبادة الله .

ومنه قوله تعالى { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَاتَكْفُرُونِ } (٣) .

نلاحظ في هذه الاية أن ترتيب التوكيد جاء تصاعدياً ذلك أن الأمر في قوله : { اشكروا } بمنزلة التوكيد لقوله { اذكروني } وذلك لما بينهما من تلازم ، أما النهي في قوله {لاتكفرون } فهو توكيد للأمر بالشكر ، والكفر من كفر النعمة على تقدير حذف مضاف أي { ولا تكفروا بي } للإيذان بأن كفر النعمة كفر للمنعم من باب أولى ، وليس من الكفر ضد الإيمان كما قال أبو حيان لأنه لو كان منه لكان التعبير { ولاتكفروا }أو {ولا تكفروا بي } (٤) .

---

(١) البحر المحيط ١٨١/١ .

(٢) النساء " ٣٦ " وراجع في الآية البحر المحيط ٢٤٤/٣ وفي ظلال القرآن المجلد الثاني ص٦٥٨ ومابعدها .

(٣) انظر البحر المحيط ٤٤٧/١ والأساليب الإنشائية ص ٨٠ .

ويضيف قائلاً ((وهنا ثلاث جمل جملة الأمر بالذكر وجملة الأمر بالشكر وجملة النهي عن الكفران ، فبدىء أولاً بجملة الذكر لأنه أريد به الثناء والمدح العام والحمد له تعالى وذكر له جواب مترتب عليه ، وثنى بجملة الشكر لأنه ثناء على شيء خاص وقد اندرج تحت الأول فهو بمنزلة التوكيد فلم يحتج إلى جواب ، وختم بجملة النهي لأنه لما أمر بالشكر لم يكن اللفظ ليدل على عموم الأزمان ولايمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان فقد يذهل ا لانسان عن ذلك في كثير من الأوقات ، ونهي عن الكفران لأن النهي يقتضي الامتناع عن المنهي عنه في كل الأزمان وذلك ممكن لأنـــه مـــن باب الترك)) (١)

ولحظ الرازي مابين الأمم من تفاوت في الأقدار والأعمال حيث يقول { فالله تعالى ذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم يعنى قوله - اذكروا نعمتي عليكم - ولما آل الأمر إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ذكرهم بالمنعم { فاذكروني أذكركم } فدل ذلك على فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم } (٢)

ب - التشريـع :-

قال تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاتَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ...} (٣)

فالنهي في قوله { لاتقربوهن } جاء توكيداً للأمر { اعتزلوا } اهتماماً بخطورة هذا الشأن الخاص . (٤)

ومنه قوله تعالى في أحكام الطلاق { فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ

---

(١) البحر المحيط ٤٤٧/١ .

(٢) التفسير الكبير ٣٥/٣ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ٢٢٢ " .

(٤) انظر الأساليب الإنشائية ص ٨٢ وراجع الكشاف ٣٦١/١ والبحر المحيط ١٧٤/٢ وحاشية الشهاب ٣٠٩/٢ .

بِمَعْرُوفٍ ولاتمسِكوهنّ ضِراراً لِتَعْتدوا ... } (١)

النهي في قوله { لاتمسكوهن } توكيد لقوله { امسكوهن بمعروف } وفي هذا يقول أبو السعود { فراجعوهن بغير ضرار أو خلوهن حتى ينقضي أجلهن بإحسان من غير تطويل ، وهذا كما ترى إعادة للحكم في بعض صوره إعتناء بشأنه ومبالغة في إيجاب المحافظة عليه ، " ولاتمسكوهن ضراراً " تاكيد للأمر بالإمساك بمعروف وتوضيح لمعناه وزجر صريح عما كانوا يتعاطونه أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن ... (٢)

جـ - الإنفاق في سبيل الله :-

قال تعالى { وأنفقوا في سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين } (٣) .

فالنهي في قوله { لاتلقوا } جاء تاكيداً للأمر بالإنفاق في سبيل الله ، ثم أمروا بالاحسان في الإنفاق وغيره من شئون الدين والدنيا تذييلاً ملائماً مؤكداً لما سبقه .

د - في الاعتصام بحبل الله جميعاً :-

قال تعالى { واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ... } (٤)

النهي في هذه الآية جاء توكيداً للأمر بالاعتصام بحبل الله .

هـ - الأكل والشرب :-

قال تعالى { ... كلوا وأشربوا من رزق الله ولاتعثوا في الأرض مفسدين }(٥) .

النهي في قوله تعالى { ولاتعثوا في الأرض مفسدين } توكيد للأمر بالأكل

---

(١) سورة البقرة ، الآية " ٢٣١ " .

(٢) تفسير أبي السعود ١ / ٣٥٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ١٩٥ " .

(٤) آل عمران " ١٠٣ " وراجع في الآية التفسير الكبير ١٧٥/٨ ومابعدها والبحر المحيط ٣ / ١٧ ومابعدها .

(٥) سورة البقرة ، الآية " ٦٠ " .

والشرب من رزق الله ذلك أن الإسراف والتبذير مظهر من مظاهر الفساد ، أو لأن النعمة تنسي العبد حاجته إلى الخالق فيهجر الشريعة فيقع في الفساد . (١)

ومما جاء فيه النهي تأكيداً للأمر قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } (٢)

لاشك أن النهي في قوله { لاتتبعوا خطوات الشيطان } جاء تأكيداً للأمر بالأكل الحلال الطيب . (٣)

فتقديم الأمر على النهي هو الأصل وذلك لشرف المتعلق في الأمر ودونه في النهي ، لكن إن خولف وقدم النهي على الأمر فهذا لأن النهي يكون ألصق بسياق الكلام قبله ، وغالباً مايكون الفعل المحظور واقعاً ينهى عنه كما في قوله تعالى { فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ } (٤)

فقد تقدم النهي { لاتخشوهم } على الأمر لأن ذكر اليهود والأحبار موجود قبل النهي مباشرة ، وكان الظاهر في مثل هذه الآية أن يكتفي بالنهي { فلا تخشوهم } لكن جاء بعده الأمر { أخشون } تأكيداً للنهي ، " أي لاتخافوا مطاعنهم في قبلتكم فإنهم لايضروكم { واخشون } أي ولا تخافوا أمري وما رأيته مصلحة لكم . (٥)

ومثله قوله تعالى { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (٦) .

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ١٨١/١ والتحرير والتنوير ٥١٩/١ وأسرار التنزيل للشيخ محمد الخضر حسين ص ١٠١ ومابعدها .

(٢) سورة البقرة ، الآية " ١٦٨ " .

(٣) انظر بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٢٩ .

(٤) سورة البقرة ، الآية " ١٥٠ " .

(٥) انظر الكشاف ٣٢٣/١ وتفسير أبي السعود ٢٨٥/١ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٣١ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية " ١٧٥ " .

الأمر في قوله { خافون } جاء تاكيداً للنهي { ولا تخافوهم } .

ويبدو أن السر في تقديم النهي على الأمر في هذه الآية أيضاً لأن النهي له اتصال بسياق الكلام قبله . فالضمير في { لاتخافوهم } يعود على الناس المذكورين في قوله {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ... } (١)

{ أي لاتخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجبنوا " وخافون " أي فجاهدوا مع رسولي إلى ما يأمركم به { إن كنتم مؤمنين } يعني أن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله على خوف غيره ويستدعي الأمن من شر الشيطان وأوليائه " (٢)

ومنه قوله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا ... } (٣)

في هذه الاية تقدم النهي وجاء الأمر توكيداً له حثاً للمسلمين على احترام الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث " كان المسلمون يقولون لرسول الله عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم : راعنا يارسول الله أي راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهمه ونحفظه ، وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهي راعينا ، فلما سمعوا بقول المؤمنين { راعنا } افترضوه وخاطبوا به الرسول وهم يعنون به تلك المسبة ، فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها وهو { انظرنا } من نظره إذا انتظره . (٤)

إبليس واتباعه :

قال تعالى في سياق محاورة بين ابليس وأتباعه في الآخرة { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ } (٥)

---

(١) سورة آل عمران ، الآية " ١٧٣ " .

(٢) انظر الكشاف ٤٨١/١ وتفسير أبي السعود ٦٠٣/١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية " ١٠٤ " .

(٤) الكشاف ٣٠٢/١ وراجع بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص٣٠ ومابعدها

(٥) سورة إبراهيم ، الآية " ٢٢ " .

في هذه الاية نرى الشيطان يؤنب أتباعه ويدعوهم لتأنيب أنفسهم على اتباعهم وطاعتهم له ، ويهمه بالدرجة الأولى أن لايلوموه بل يلوموا أنفسهم حيث اتبعوه بلا حجة ولا برهان ...(١)

فالأمر في قوله { لوموا أنفسكم } جاء تأكيداً للنهي { لاتلوموني } .

يعقوب عليه السلام وأبناؤه :

قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام { وَقَالَ يَابَنِيَّ لاتَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ...} (٢)

فالأمر بالدخول جاء توكيداً للنهي { لاتدخلوا } .

وأخيراً تأمل قول الحق سبحانه { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاتَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } (٣)

تجد الأمر بالسجود في قوله " اسجدوا لله " جاء توكيداً للنهي السابق ، وبدأ بالنهي زجراً لمن يعبد هذه المخلوقات المسخرة بيد القدرة .

والواقع أن مجيء الأمر بعد النهي في عديد من الأساليب السابقة يوضح أن النهي وكذلك الأمر لايتناولان الفعل فحسب بل بإعتبار تعلقه بالمفعول ، وهذا المفعول له خطورته في العقيدة أو السلوك كما تبين من تحليل الآيات السابقة .

---

(١) انظر الكشاف ٢٧٤/٢ ومابعدها وفي ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٠٩٧ وبلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني ص ٣٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية " ٦٧ " .

(٣) سورة فصلت ، الآية " ٣٧ " .

الخاتمـــــة

بعد هذه الرحلة المباركة التي عشنا فيها مع القرآ ن دراسة وتحليلاً يمكننا أن نوجز أهم النتائج التى توصل إليها البحث وهي :-

١ - ظاهرة خروج الأمر - وكذلك النهي - إلى المعاني البلاغية ظاهرة أسلوبية عرفت منذ القدم مع بداية التأليف في فروع الثقافة الإسلامية .

٢ - يعد منهج البلاغيين في دراسة الأمر من أمثل المناهج في التراث الإسلامي لدقته وغوصه وراء استجلاء المعاني الثواني .

٣ - أن للأصوليين أثراً كبيراً وجهداً عظيماً في نمو المباحث البلاغية وخاصة فيما يتعلق بالمعاني .

أن المعاصرين ممن كانت لهم عناية بالتطور التاريخي لعلوم البلاغة لم يلتفتوا إلى جهود الأصوليين ومنهجهم في هذا المجال ، وهم بصنيعهم هذا يهملون حلقة من حلقات التطور التاريخي للبلاغة وعلومها .

٤ - أن المفسرين هم أكثر الباحثين استجلاء لمعاني القرآن الكريم جليلها ودقيقها لأن تجربتهم ألصق بالنص القرآني ودائرتهم أوسع فهم لايعتمدون على اختيار الشاهد والمثال وإنما يقفون أمام كل كلمة في كتاب الله فيدرسون النص في إطار من التوحد منظوراً فيه إلى ماقبله وإلى مابعده ، وقلَّ أن تتوفر هذه الميزة لغيرهم .

٥ - أن الأوامر والنواهي في القرآن الكريم نوعان :

(أ) أوامر ونواهٍ حقيقية تكليفية تشريعية والمطلوب بها تحقيق أو ترك مابعدها على الوجوب ، وتأتلف بها معان بلاغية تعين على تصوير المراد .

(ب) أوامر ونواهٍ ليس المقصود منها الأحكام الشرعية التكليفية بل المراد منها المعاني البلاغية التي تستفاد من السياق ، والمقام من ذلك النصح والإرشاد والرجاء والإباحة والتمني والالتماس والتخيير والتعجيز والتهديد والسخرية والإهانة والتكريم وغير ذلك .

(جـ) والغريب أن هذا المعنى البلاغي الذى خرج إليه الأمر أو النهي كان هو أظهر المعاني ذلك أن الأسلوب القرآني فيه من الخصوبة والثراء مايفيض بالمعاني البلاغية العالية .

٦ - قد يؤتى في القرآن بصيغة بدل أخرى مما نحن بصدده كإفادة الأمر معنى الخبر أو الخبر معنى الأمر ، أو الخبر بمعنى النهي ولا عكس لهذه الصورة في القرآن الكريم.

٧ - تبين من الدراسة أن النهي أو النفي في القرآن الكريم إذا كان مدخوله مقيداً فأحياناً يدخل على القيد والمقيد ، وأحياناً على القيد فقط ، وأحياناً على المقيد فقط

٨ - تبين من الدراسة أن الأوامر والنواهي في القرآن الكريم تخضع في ترتيبها إلى توال متجانس (أمر وأمر) ، (نهي ونهي) وتوال غير متجانس (أمر ونهي) وهو كثير ، (نهي وأمر) وهو قليل في القرآن .

وكل ذلك لدواع وأسرار بلاغية كشفت الدراسة عن بعض أسرارها في مظانها من هذا البحث .

٩ - وقد بذل البحث جهداً في محاولة التفريق بين المصطلحات البلاغية المتقاربة كالنصح والإرشاد ، والتكوين والتسخير ، والتهكم والاستهزاء والسخرية .

١٠- بين البحث مابين الأفعال المتقاربة من فروق دقيقة كالسير والسياحة والسعي والمشي ، واجتنب ، " دع " و " ذر " و " اترك " و أمسك وفارق إلى غير ذلك مما إحتفى به علماء الأمة وبخاصة علماء الإعجاز القرآني والمتشابه القرآني .

١١- تمت المعالجة من خلال الأغراض القرآنية ، يجمع فيها النظير إلى النظير لتكون المعالجة أمثل ، وليظهر الأثر البلاغي في اختلاف النظم والسياق .

١٢- عني البحث بالجانب التحليلي وطبَّقه على عديد من الآيات القرآنية لأن هذا الجانب أخطر الجوانب في المعالجات البلاغية .

١٣- توخينا الإيجاز قدر الطاقة إلتزاماً بالمنهج العلمي حتى لايتضخم البحث .

ونسأل الله الكريم أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه تعالى ، وأن يغفر لنا زلات الفكر والقلم ، وأن ينفع به وأن يزيدنا علماً . والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبالله التوفيق ...

ثبت المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

أولا: المصادر القديمة

٢ - الابهاج في شرح المنهاج:

علي بن عبد الكافي السبكي ت (٧٥٦ هـ) وولده تاج الدين عبد الوهاب علي السبكي ت (٧٧١ هـ) .

دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

٣ - الاتقان في علوم القرآن :

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : ت (٩١١ هـ)

تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .

مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م

٤ - الإحكام في أصول الأحكام :

سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن محمد الآمدي .

دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م .

٥ - أساس البلاغة :

جار الله محمود بن عمر الزمخشري .

تحقيق : عبد الرحيم محمود .

دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

٦ - أسباب النزول :

أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي .

عالم الكتب ، بيروت ، (بدون تاريخ)

٧ - الأطول على التلخيص :

عصام الدين ابراهيم بن محمد بن عرب شاه الإسفرائيني ت (٩٤٥ هـ) .

طبع بالمطبعة العامرة سنة ١٢٨٤ هـ .

٨ - الأمالي الشجرية :

أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي ت (٥٤٢ هـ) .

دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت (بدون تاريخ) .

٩ - الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الإعتزال :

ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري المالكي .

دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

١٠ - الإيضاح :

الخطيب القزويني .

شرح وتعليق وتنقيح : د. محمد عبد المنعم خفاجي .

منشورات دار الكتب اللبناني ، الطبعة الخامسة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

١١- بدائع الفوائد :

شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية ت(٧٥١ هـ).

دار الفكر ، بيروت (بدون تاريخ)

١٢ - بديع القرآن :

ابن أبي الأصبع المصري .

تحقيق : د. حفني محمد شرف .

طبع دار نهضة مصر ، الطبعة الثانية (بدون تاريخ) .

١٣ - البرهان في توجيه متشابه القرآن :

محمود بن حمزه بن نصر الكرماني ت (٥٠٥ هـ) .

تحقيق ودراسة وتعليق : عبد القادر أحمد عطا .

دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

١٤ - البرهان في علوم القرآن :

بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي .

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .

الناشر : دار المعرفة ، بيروت ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع بمكة

(بدون تاريخ)

١٥ - بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز :

مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي .

تحقيق : محمد علي النجار .

المكتبة العلمية ، بيروت .(بدون تاريخ)

١٦- البلاغة :

أبو العباس محمد بن يزيد المبرد .

تحقيق : د. رمضان عبد التواب .

مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

١٧ - تأويل مشكل القرآن :

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ) .

تحقيق : السيد أحمد صقر .

دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

١٨ - تجريد العلامة البناني على مختصر السعد :

طبع بمطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٤٧ هـ .

١٩ - تحرير التحبير :

ابن أبي الاصبع المصري .

تحقيق : د. حفني محمد شرف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة

١٣٨٣هـ

٢٠ - تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم :

أبو السعود بن محمد العماري الحنفي ت (٩٨٢ هـ) .

تحقيق : عبد القادر أحمد عطا .

مكتبة الرياض الحديثة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

٢١ - تفسير البحر المحيط :

محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ت (٧٥٤ هـ)

دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

٢٢ - تفسير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن :

أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبري ت (٣١٠ هـ) .

دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٢٣ - تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان :

نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري .

طبع بهامش تفسير الطبري ، دار الفكر - بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٢٤ - تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب :محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري ت (٦٠٤ هـ).

دار الفكر - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٢٥ - التفسير القيم :

شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية ت (٧٥١هـ) .

جمعه محمد أويس الندوي .

حققه : محمد حامد الفقي .

دار العلوم الحديثة ، بيروت ، ودار الفكر .

٢٦ - تفسير النهر الماد من البحر المحيط :

أبو حيان محمد بن يوسف .

نشر بهامش البحر المحيط .

٢٧ - تقرير الشمس الإنبابي على شرح سعد الدين التفتازاني :
طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٣٠ هـ .
٢٨ - التمهيد في أصول الفقه :
محفوظ بن أحمد بن الحسن أبو الخطاب الكلوذاني الحنبلي ت (٥١٠ هـ) .
حقق الجزءين الأول والثاني : د. مفيد محمد أبو عمشة ، والجزءين الثالث والرابع محمد بن علي بن إبراهيم .
منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى .
دار المدني للطباعة والنشر ، جدة ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م .
٢٩ - حاشية الدسوقي على مختصر السعد :
محمد بن محمد عرفة الدسوقي ت (١٢٣٠ هـ) .
طبع ضمن شروح التلخيص ، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر .
٣٠ - حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي:
شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي .
المكتبة الإسلامية ، تركيا ، دار صادر ، بيروت .
٣١ - حاشية عبد الحكيم السيالكوتي على المطول :
عبد الحكيم السيالكوتي الهندي ت (١٠٦٧ هـ) .
دار الطباعة العامرة ١٢٦٦ هـ .
٣٢ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب :
عبد القادر بن عمر البغدادي .
تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،
الناشر : مكتبة الخانجي .
٣٣ - الخصائص :
أبو الفتح عثمان بن جني .
حققه : محمد علي النجار .
عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

٣٤ -الدر اللقيط منالبحر المحيط :

تاج الدين الحنفي تلميذ أبي حيان .

طبع بهامش البحر المحيط .

٣٥ - درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز :

الخطيب الإسكافي .

منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .

٣٦ - دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيميه :

تحقيق : د.محمد السيد الجليند .

مؤسسة علوم القرآن ، دمشق وبيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

٣٧ - دلائل الإعجاز :

أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ت (٤٧١ أو ٤٧٤ هـ)

قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر .

مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٤ م .

٣٨ - ديوان إمرىء القيس :

تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،

دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .

٣٩ - ذم الهوى :

أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ت (٥٩٧ هـ) .

تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، مراجعة محمد الغزالي .

دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م .

٤٠ - الرسالة التدمرية ، مجمل اعتقاد السلف .

أحمد بن عبد الحليم بن تيميه .

تحقيق : زهير الشاويش .

المكتب الإسلامي - بيروت ، دمشق ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٤١ - روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني :

شهاب الدين محمود الألوسي .

إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث الإسلامي ، بيروت .

٤٢ - شرح الكافية في النحو :

رضي الدين محمد بن الحسن الإسترابادى .

دار الكتب العلمية ، بيروت (بدون تاريخ) .

٤٣ - شرح المفصل للزمخشري :

موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي .

عالم الكتب ، بيروت ، ومكتبة المثنى ، القاهرة (دون تاريخ) .

٤٤ - شروح التلخيص :

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

٤٥ - الصاحبي :

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ت(٣٩٥هـ)

تحقيق : السيد أحمد صقر .

مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهره ، الطبعه الأولى ١٩٧٧م .

٤٦ - الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية :

إسماعيل بن حماد الجوهري .

تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٤٧ - صحيح مسلم :

أبو الحسين مسلم بن الحجاج ت (٢٦١هـ) .

تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، الطبعه الأولى ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

٤٨ - طبقات الشافعية الكبرى :

تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ت(٧٧١هـ) .

تحقيق : د . عبد الفتاح محمد الحلو والدكتور محمود محمد الطناحي .

عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

٤٩ - طبقات اللغويين والنحويين :

أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي .

تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .

دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٨٤م

٥٠ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغه وعلوم حقائق الاعجاز :

يحيى بن حمزه العلوي اليمني .

دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م .

٥١ - عروس الأفراح :

بهاء الدين السبكي .

طبع ضمن شروح التلخيص ، طبع عيسى البابي الحلبي .

٥٢ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده :

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ت (٤٥٦هـ) .

تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد .

دار الجيل . بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م.

٥٣ - فتح الباري بشرح صحيح الأمام البخاري :

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت (٨٥٢هـ) .

نشر وتحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ومحب الدين الخطيب .

المكتبة السلفية .

٥٤ - الفتوحات الإلهية في توضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفيه :

سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل ت (١٢٠٤هـ) .

مطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه (بدون تاريخ) .

٥٥ - كتاب الإقناع في القراءات السبع :

أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الانصاري المعروف بابن الباذش ت (٥٤٠هـ) تحقيق : د . عبد المجيد قطامش .

منشورات مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى ، طبع دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

٥٦ - كتاب السبعة في القراءات. ابن مجاهد .

تحقيق :د. شوقي ضيف .

دار المعارف ، القاهره ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

٥٧ - كتاب الصناعتين :

أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ت (٣٩٥هـ) .

تحقيق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

دارالفكر العربي الطبعة الثانية .

٥٨ - الكتاب لسيبويه :

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر .

تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون .

مكتبة الخانجي بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

٥٩ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :

أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ت (٥٣٨هـ) .

دارالفكر ، بيروت - الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

٦٠ - الكليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغويه :

أبو البقاء الكفوي .

تحقيق : د . عدنان درويش ، ومحمد المصري .

مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٨١م .

٦١ - لباب النقول في أسباب النزول :

جلال الدين السيوطي .

دار إحياء العلوم ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٦٢ - لسان العرب ، ابن منظور

طبعة دار المعارف (بدون تاريخ).

٦٣ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . ضياء الدين بن الأثير:

قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي ، ود. بدوي طبانه .

دار نهضة مصر ، القاهره .

٦٤ - مجاز القرآن :

أبو عبيده معمر بن المثنى التميمي ت (٢١٠هـ) .

عارضه بأصوله وعلق عليه : محمد فؤاد سزكين

مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٦٥- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها :

أبو الفتح عثمان بن جني .

تحقيق : علي النجدي ناصف و د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي .

المجلس الأعلى للشئون الاسلاميه ، الجزء الأول ١٣٨٦هـ والجزء الثاني ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م

٦٦ - المحصول في علم أصول الفقه . فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي ت(٦٠٦هـ) .

دراسه وتحقيق د . طه جابر فياض العلواني . مطبوعات جامعةالأمام محمد بن سعود الأسلاميه . الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٦٧ - مختصر السعد على تلخيص المفتاح :

سعد الدين التفتازاني .

طبع ضمن شروح التلخيص .

٦٨ - المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل :
علاء الدين أبو الحسن المعروف بابن اللحام .
تحقيق : د . محمد مظهر بقا .
مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي بمكة ، فرع جامعه الملك عبد العزيز
طبع في دار الفكر بدمشق ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
٦٩ - المدخل إلى مذهب الأمام أحمد بن حنبل :
عبد القادر بن أحمد المعروف بابن بدران الدمشقي .
دار الفكر العربي (بدون تاريخ) .
٧٠ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان :
أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي ت (٧٦٨هـ) .
منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
٧١ - مسند الامام أحمد بن حنبل :
المكتب الاسلامي للطباعه والنشر - بيروت ، الطبعه الثانيه ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م
٧٢ - المطول على التلخيص :
مسعود بن عمر المعروف بسعد الدين التفتازاني.
٧٣ - معاني القرآن الكريم :
أبو جعفر النحاس ت (٣٣٨هـ) .تحقيق محمد على الصابوني .
مطبوعات معهد البحوث العلميه وإحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى ، شركة مكه للطباعه والنشر ، الطبعه الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٧٤ - معاني القرآن:

أبو زكريا يحي بن زياد الفراء ت(٢٠٧هـ) .

تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار .

عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

٧٥ - معترك الأقران في إعجاز القرآن :

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي .

تحقيق : علي محمد البجاوي .

دار الفكر العربي ، القاهره (بدون تاريخ)

٧٦ - المعتمد في أصول الفقه :

أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي ت (٤٣٦هـ)

تحقيق : محمد حميد الله

المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

٧٧ - معجم مقاييس اللغه :

أبو الحسين أحمد بن فارس .

تحقيق : عبد السلام محمد هارون .

دار الكتب العلمية . اسماعليا نجفي . ايران (دون تاريخ)

٧٨ - المغني في أصول الفقه :

جلال الدين بن محمد عمر بن محمد بن عمر الخبازي ت (٦٩١هـ)

تحقيق : د . محمد مظهر بقا .

مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي بجامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ .

٧٩ - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب:

جلال الدين بن هشام الانصاري ت (٧٦١هـ) .

حققه د . مازن المبارك و محمد علي حمد الله .

وراجعه سعيد الافغاني - دار الفكر ، بيروت الطبعة الخامسة ١٩٧٩م.

٨٠ - مفتاح العلوم :

أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي.

تحقيق : نعيم زرزور .

دار الكتب العلمية بيروت توزيع دار الباز بمكة ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ - ١٩٨٣م.

٨١ - المفردات في غريب القرآن :

أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت (٥٠٢هـ) .

تحقيق محمد سيد الكيلاني .

مطبعه مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الاخيرة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

٨٢ - المقتضب :

أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ت (٢٨٥هـ)

تحقيق : محمد عبد الخالق عضيمه .

عالم الكتب بيروت (بدون تاريخ)

٨٣ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم :

أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي ت (٥٩٧هـ)

مطبعة دار المعارف الاسلامية بحيدر آباد الدكن . الهند . الطبعة الأولى ١٣٥٧هـ- ١٣٥٩هـ .

٨٤ - المنصف .

أبو الفتح عثمان بن جني النحوي .

تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين .

شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ -١٩٥٤م.

٨٥ - الموافقات في أصول الاحكام :
أبو اسحاق ابراهيم بن موسي اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ت(٧٩٠هـ)
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت (دون تاريخ) .

٨٦ - مواهب الفتاح :
ابن يعقوب المغربي .
طبع ضمن شروح التلخيص .

٨٧ - نتائج الفكر في النحو :
أبو القاسم السهيلي ت (٥٨١هـ) .
تحقيق د. محمد إبراهيم البنا
دار الاعتصام - مصر - الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٨٨ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :
أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ت(٦٨١هـ)
تحقيق : د . إحسان عباس.
دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

ثانيا : الرسائل العلميه

٨٩ - البلاغة في تفسير أبي السعود :
الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت - رسالة دكتوراه - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر .

٩٠ - خصائص التعبير في القرآن الكريم وسماته البلاغية :
عبد العظيم محمد ابراهيم المطعني - رسالة دكتوراه . كلية اللغة العربية جامعة - الأزهر.

٩١ - وجوه الخطاب في القرآن الكريم ومواقعها البلاغية .
محمد علي أبو زيد عبد الصمد . رسالة دكتوراه . كليةاللغة العربية . جامعة -الأزهر

ثالثا : المطبوعات الحديثه :

٩٢ - أثر النحاه في البحث البلاغي :

د . عبد القادر حسين

دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهره ١٩٧٥م

٩٣ - أساليب الاستفهام في القرآن الكريم :

عبد الحليم السيد فوده .

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيه .

٩٤ - الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن :

د . صبّاح عبيد دراز .

مطبعة الأمانة بمصر الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م.

٩٥ - أساليب بلاغية :

د . أحمد مطلوب .

وكالة المطبوعات بالكويت . الطبعه الاولى ١٩٨٠م.

٩٦ - أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين :

د . قيس إسماعيل الأوسي .

جامعة بغداد - طبع بيت الحكمة للنشر والترجمة والتوزيع ١٩٨٨م.

٩٧ - أسرار التنزيل :

محمد الخضر حسين .

جمعه وحققه : علي الرضا التونسي .

المطبعة التعاونية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

٩٨ - أسلوب الدعوة القرآنيه بلاغة ومنهاجا :

د . عبد الغني محمد سعيد بركه .

مكتبة وهبه - القاهره ، الطبعه الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٩٩ - أسلوب السخريه في القرآن الكريم :

د . عبد الحليم حفني .الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

١٠٠ - أسلوب المحاورة في القرآن الكريم .

د . عبد الحليم حفني:

الهيئة المصرية العامه للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

١٠١ - الإعجاز البلاغي:

د. محمد أبو موسى .

مكتبة وهبه . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٠٢ - الأعلا م

خير الدين الزركلي

دار العلم للملايين . بيروت . الخامسة ١٩٨٠م.

١٠٣ - الأمر ودلالته على الأحكام الشرعية ،

د . محمود أحمد عبد الله .

دار المنار للنشر والتوزيع القاهره . الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٠٤ - الأمر والنهي وما يتوقف عليه المطلوب

د . علي مصطفى رمضان .دار الهدى للطباعة . القاهره ١٢٤٠١هـ- ١٩٨١م.

١٠٥ - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح

عبد المتعال الصعيدي

مكتبة الآداب ومطبعتها . القاهره (دون تاريخ)

١٠٦ - بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني .

السيد عبد الرحيم عطيه .

السلام العالمية للطبع والنشر والتوزيع . الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

١٠٧ - البلاغه : تطور وتاريخ .

د . شوقي ضيف . دار المعارف بمصر . الطبعة الثالثة ١٩٧٦م.

١٠٨ - بلاغه القرآن في آثار القاضي عبد الجبار

د . عبد الفتاح لاشين . دارالفكر العربي . القاهره . الطبعة الأولى

١٠٩ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغيه
د . محمد أبو موسى . دار الفكر العربي . (بدون تاريخ)
١١٠ - البيان العربي .
د. بدوي طبانة . مكتبة الانجلو المصرية . الطبعة السادسة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
١١١ - تاريخ الأدب العربي .
كارل بروكلمان . نقله إلى العربية د . عبد الحليم النجار . الجزء ١ ، ٢ ، د. السيد يعقوب بكر و د. رمضان عبدالتواب الجزء ٤ ، ٥ ، ٦ .
دار المعارف الطبعة الخامسة ١٩٨٣م.
١١٢ - تاريخ نشأة علوم البلاغة العربية وأطوارها .
د . عبد العزيز عبد المعطي عرفة
دار الطباعة المحمدية . القاهره . الطبعة الاولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
١١٣ - التصوير البياني .
د . محمد أبو موسى
مكتبة وهبه . الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
١١٤ - التصوير الفني في القرآن .
سيدقطب .
دارالشروق الطبعة الشرعية الثامنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١١٥ - التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، الهمزة المجردة مع الفعل الماضي
د . عبد العظيم المطعني . المكتبة التوفيقية . القاهره ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.
١١٦ - التفسير البياني للقرآن الكريم
د . عائشة عبر الرحمن (بنت الشاطىء)
دار المعارف بمصر الطبعة السادسة ١٩٨٢م.
١١٧ - تفسير التحرير والتنوير . محمد الطاهر بن عاشور .
الدار التونسية للنشر١٩٨٤م.

١١٨ - تفسير جزء عَم الشيخ محمد عبده .

دار ومكتبة الهلال . بيروت ١٩٨٥م.

١١٩ - خصائص التراكيب .

محمد أبو موسى . مكتبة وهبة . القاهره . الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

١٢٠ - خصائص التشبيه في سورة البقرة.

د . إبراهيم علي حسن داود .

مطبعة الأمانة القاهره - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

١٢١ - دراسات لأسلوب القرآن الكريم

محمد عبد الخالق عضيمه

مطبعة السعادة . القاهره - ١٤٠٨هـ - ١٩٧٢م.

١٢٢ - دلالات التراكيب

د. محمد أبو موسى

مكتبة وهبة - القاهره . الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

١٢٣ - دلالة الألفاظ عند الأصوليين

د. محمود توفيق محمد سعد

مطبعة الأمانة القاهره . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٢٤- الظاهرة القرآنية :

مالك بن نبي

ترجمة / د. عبد الصبور شاهين

دار الفكر (بدون تاريخ)

١٢٥ - علم المعاني

د. درويش الجندي

دار نهضة مصر . القاهره (دون تاريخ)

١٢٦- فكرة إعجاز القرآن :

نعيم الحمصي

مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م

١٢٧ - في البلاغة القرآنية

د. صبّاح عبيد دراز

١٢٨ - في ظلال القرآن

سيد قطب

دار العلم للطباعة والنشر جده .ودار الشروق للطباعة والنشر القاهره

الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٢٩ - المجاز في اللغه والقرآن الكريم بين الإجازه والمنع

د . عبد العظيم المطعني

مكتبة وهبة ، القاهره ، الطبعة الأولى(دون تاريخ)

١٣٠ - مشاهد القيامة في القرآن

سيد قطب

دار الشروق .

الطبعة السابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٣١ - المعاني الثانية في الأسلوب القرآني

د . فتحي أحمد عامر

منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٧م.

١٣٢ - معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم

د . إسماعيل أحمد عمايره و د. عبد الحميد مصطفى السيد

مؤسسة الرسالة بيروت .

الطبعه الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

١٣٣ - معجم ألفاظ القرآن الكريم . مجمع اللغة العربية

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

١٣٤ - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها

د . أحمد مطلوب .

الجزء الأول . مطبوعات المجمع العلمي العراقي . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٣٥ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

د . محمد فؤاد عبد الباقي

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية الاسلامية . استنابول

(دون تاريخ)

١٣٦ - معجم المؤلفين . تراجم مصنفي الكتب العربية .

عمر رضا كحالة . دار إحياء التراث العربي . بيروت (دون تاريخ)

١٣٧ - مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية

د . عبد السلام عبد الحفيظ

دار الفكر العربي . القاهره . الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

١٣٨ -مناهج بلاغية .

د . أحمد مطلوب .

الناشر وكالة المطبوعات بالكويت بمساعدة جامعة بغداد . الطبعة الأولى بيروت ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

١٣٩ - من أسرار التعبير القرآني

دراسة تحليلية لسورة الأحزاب .

د. محمد أبو موسى

دار الفكر العربي . القاهره (دون تاريخ)

١٤٠ - من أسرار التعبير القرآني دراسه تحليلية لسورة الأحزاب

د. محمد أبو موسى

دار الفكر العربي . القاهره (دون تاريخ)

١٤١ - من أسرار النظم في القرآن والحديث

د . عبد العظيم المطعني

طبع مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ

١٤٢ - من الإعجاز البلاغي للقرآن

د. صبّاح عبيد دراز

المكتبة التوفيقية . القاهره . الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

١٤٣ - من بدائع النظم القرآني

د . السيد عبد الفتاح حجاب .

دار الإعتصام ، الطبعة الأولى

١٤٤ - من بلاغة القرآن

أحمد أحمد بدوي

دار نهضة مصر . القاهره ١٩٧٧م.

١٤٥ - من بلاغة النظم العربي

د . عبد العزيز عبد المعطي عرفة

عالم الكتب بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤م.

١٤٦ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه

د. مصطفى الصاوي الجويني

دار المعارف بمصر . الطبعة الثالثة ١٩٨٤م.

١٤٧ - منهج الفن الاسلامي

محمد قطب .

دار الشروق. الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٤٨ - النبأ العظيم

د . محمد عبد الله دراز

دار القلم . الكويت . الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ . ١٩٧٧م.

١٤٩ - النحو القرآني ، قواعد وشواهد

د. جميل أحمد ظفر .

مطابع الصفا بمكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٥٠ - النظم القرآني في سورة الرعد

محمد بن سعد الدبل

عالم الكتب . دار النصر للطباعة الإسلامية القاهره ١٩٨١م.

١٥١ - اليو م الآخر في ظلال القرآن

أحمد فائز .

مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثامنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

فهـرس الموضوعـات

فهرس الموضوعــات

الموضـــوع	رقم الصفحة
المقدمــة	٣
الباب الأول :	
أساليب الأمر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية	٧ - ٢٧١
المدخــــل	٨
أسلوب الأمر	٩
الأمر بين الدلالة القرآنية واللغوية	٩
الأمر عند البلاغيين	١٠
صيغ الأمر	١١
المعاني البلاغية لصيغة الأمر	١٢
الفصل الأول :	
مناهج العلماء في معالجة أساليب الأمر	١٤ - ٧٨
المبحث الأول : منهج اللغويين	١٦
المبحث الثاني : منهج المفسرين	٣٦
المبحث الثالث : منهج الأصوليين	٥٤
المبحث الرابع : منهج علماء البلاغة والإعجاز ...	٦٩
الفصل الثاني :	
أساليب الأمر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية	٧٩ - ٢٧١
النصح والإرشاد	٨٠
دلالة النصح والإرشاد في اللغة والقرآن الكريم ...	٨٠
الدلالة الاصطلاحية	٨١
الرجـــاء	٨٨
دلالة الرجاء لغة واصطلاحاً	٨٨
التمنــي	٩٩
المشورة	١٠٥
تعريف المشورة	١٠٥

الموضـــــــوع	رقم الصفحـة
الالتماس	١٠٨
الالتماس لغة واصطلاحاً	١٠٨
الدعـاء	١١٢
دلالة الدعاء في اللغة والقرآن الكريم	١١٢
الدعاء عند البلاغيين	١١٢
الإلهاب والتهييج	١١٩
الإلهاب في اللغة	١١٩
في اصطلاح البلاغيين	١١٩
بلاغته	١١٩
بين الإلهاب و التهييج وا لدوام	١٢٠
أسلوب التأمل والاعتبار	١٢٨
التعجب	١٣٨
التعجب في اللغة	١٣٨
هل يقع التعجب من الله سبحانه وتعالى ؟	١٣٨
الإباحة والامتنان	١٤٥
دلالة الإباحة اللغوية والاصطلاحية	١٤٥
التخيير	١٦٥
بين الإباحة والتخيير	١٦٥
التسوية	١٧٠
دلالة التسوية لغة واصطلاحاً	١٧٠
التكوين والتسخير	١٧٥
الدلالة اللغوية	١٧٥
الدلالة الاصطلاحية	١٧٥
الفرق بين التكوين والتسخير	١٧٦
التسخير بمعنى الإلهام	١٨٤
التكريم	١٨٦
الإهانـة	١٩١
دلالة الإهانة في اللغة والاصطلاح	١٩١

الموضـــــوع	رقم الصفحـة
السخرية	٢٠٥
درجات السخرية	٢٠٦
أسباب السخرية ودواعيها	٢٠٦
أسباب السخرية القرآنية	٢٠٧
التعجيز والتحدي	٢٢٧
دلالة التعجيز اللغوية والاصطلاحية	٢٢٧
بين التحدي والتعجيز	٢٤٢
بين التعجيز والتكذيب	٢٤٤
التكذيب	٢٤٥
التهديد	٢٥١
الدلالة اللغوية	٢٥١
في اصطلاح البلاغيين	٢٥١
متفرقـات	٢٦٩
الباب الثاني :	
أساليب النهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية	٢٧٢ – ٤١٨
المدخـل	٢٧٣
الفصل الأول :	
مناهج العلماء في معالجة أساليب النهي	٢٧٥ – ٣٠٥
أولاً : منهج اللغويين والنحاة	٢٧٥
ثانياً : منهج المفسرين	٢٨٠
ثالثاً : منهج الأصوليين	٢٩٥
رابعاً : منهج علماء البلاغة والإعجاز	٣٠٠
الفصل الثاني :	
أساليب النهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية	٣٠٦ – ٣٨٥
النصح والإرشاد	٣٠٧
الرجـاء	٣١٤
التسويـة	٣١٨

الموضــوع رقم الصفحـة

الموضوع	رقم الصفحة
الدعـاء	٣٢١
الحث والرغبة في الاتصاف بصفة معينة	٣٢٦
الالتماس	٣٢٨
التسكين والطمأنة	٣٣٤
بيان العاقبة	٣٤١
الالهاب والتهييج	٣٤٦
التهديد والوعيد	٣٥٥
بين النهي عن القرب والاعتداء في القرآن الكريم	٣٥٩
التحـدي	٣٦٧
الإهانـة	٣٦٩
التيئيس	٣٧٢
التهويل والتفظيع	٣٧٨
متفرقـات	٣٨٠
تبادل الأساليب وأسرارها البلاغية	٣٨٦
١ - الأمر بمعنى الخبر	٣٨٦
سره البلاغي	٣٨٦
٢ - الخبر بمعنى الأمر	٣٨٧
سره البلاغي	٣٨٨
٣ - الإستفهام بمعنى الأمر	٣٩٢
سره البلاغي	٣٩٤
٤ - الخبر بمعنى النهي	٣٩٨
٥ - الإستفهام بمعنى النهي	٣٩٩
الفصل الثالث :	
بين النفي والنهي في القرآن الكريم	٤٠٠ - ٤١٧
انصباب النفي أو النهي على القيد	٤٠١
انصباب النفي او النهي على القيد والمقيد معاً	٤٠٢

الموضـــــوع	رقم الصفحة
الصفة للتأكيد لا للتقييد	٤٠٦
نفي الشيء لنفي ثمرته	٤٠٧
قضية النهي عن الكون على صفة في القرآن الكريم	٤٠٩
الباب الثالث :	
النسق في توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن	
الكريم وأسرارها البلاغية	٤١٨ – ٤٤٥
المدخـل	٤١٩
الفصل الأول :	
توالي أساليب الأمر في القرآن الكريم وبلاغة ذلك ..	٤٢٠ – ٤٣١
١ – التقدم حسب ترتيب الأفعال في الصلاة	٤٢١
٢ – التقدم بالزمن	٤٢٢
٣ – التقديم لعلو شأن المقدم والاهتمام به	٤٢٣
٤ – التقدم بالشرف والفضل	٤٢٥
٥ – التقديم بالطبع والعادة	٤٢٧
٦ – التقديم بالداعية أوالرتبة أو السببية	٤٢٧
٧ – التقديم بالترقي والتدرج	٤٢٨
٨ – التقديم في القصص القرآني	٤٣٠
الفصل الثاني :	
توالي أساليب النهي في القرآن وسرّه البلاغي ...	٤٣٢ – ٤٣٦
الفصل الثالث :	
توالي أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم	
وأسرارها البلاغية	٤٣٧ – ٤٤٥
الخاتمـة	٤٤٦
ثبت المصادر والمراجع	٤٤٩ – ٤٧٠
فهرس الموضوعات	٤٧١ – ٤٧٦